هو العزيز

معرفة الإمام (١٠)

بحوثٌ تفسيريّةٌ ، فلسفيّةٌ ، روآئيّةٌ ، تاريخيّةٌ ، اجتماعيّةٌ
حَوْلَ الإمامةِ و الولايَةِ عُمُوماً؛
و حَوْلَ إمامةِ و ولايةِ أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالبٍ و الأَئِمّةِ المعصومينَ سلامُ الله عليهم أجمعين خصوصاً
دُروسٌ إستِدلاليّةٌ و علميّةٌ مُتّخَذةٌ من القرءانِ الكريم و رواياتٌ مأْثورةٌ عن الخاصّةِ و العامّةِ ؛ و أَبحاثٌ حَلّيّةٌ و نَقدِيّةٌ حَوْلَ الولِايَةِ
لمؤلّفه الحقير:
السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ عُفِيَعنه

أَنتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي

القسم ١
قسمت ٢
القسم ٣
القسم ٤

المقامات والمواطن التي خاطب فيها النبيّ أميرَ المؤمنين بحديث المنزلة

القسم ١
القسم ٢
القسم٣
القسم ٤
القسم ٥
القسم ٦

سائر المقامات في حديث المنزلة ، واستضعاف أمير المؤمنين كهارون

القسم ١
القسم ٢

الدرس السادس والثلاثون بعد المائة إلى الحادي والأربعين بعد المائة: حديث المنزلة: أَنتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي

بِسْمِ اللَّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغَى قَالَ رَبِ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لّسانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لّي وَزِيرًا مِّن أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى . (١)

خاطب الله موسى قائلاً : اذهب إلى فرعون ! لأنّه طغى بكفره وعناده . فقال له موسى : ربّ ؛ (ها أنت بعثتني بهذه المهمّة) مُنّ عَلَيّ بشرح الصدر (لئلّا أسأم ، ولكي أصبر أمام جفاء الناس وإنكارهم) ويسّر لي عملي (وسهّل لي حزونة المشاكل التي تعترض هذه الرسالة) ! واحلل عقدة لساني ليفهموا كلامي ويعوه . وكذلك اجعل لي وزيراً من أهلي ؛ كي يعينني ! وهو أخي هارون ؛ أشدد به أزري ! وأشركه معي في أمر الرسالة والالتزام ! حتّى نسبحّك ونمجّدك ونقدّسك دائماً وباستمرار ، ونذكرك كثيراً ! إنّك كنت بنا وبأحوالنا حقّاً بصيراً ، فقال الله لموسى : قد أُوتيتَ كلّ ما طلبته يا موسى .

تدور هذه الآيات المباركة حول موسى وأخيه هارون على نبيّنا وآله وعليهما الصلاة والسلام . ولكي ينجح موسى في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة الإلهيّة في بعثه إلى قوم مشركين : فرعون المجرم المحترف ، ووزيره هامان ، وسائر العادين الذين كانوا معه ، وكافّة القوم الذين اتّبعوا شهواتهم وميولهم النفسانيّة ، كان طلبه من الله هو أن يُشرك معه أخاه هارون في أمر النبوّة والرسالة ، وينصبه في مقام النبوّة والرسالة ، لكي يسيرا معاً في هذا الطريق ، ويتلقّيا الوحي من الله ، ويتعاضدا في تبليغ الرسالة .

وكان لموسى مقام النبوّة والرئاسة العامّة على بني إسرائيل والأسباط ؛ وكلّف بإرشاد وهداية الفراعنة والأقباط ؛ وكان لهارون مقام النبوّة والوزارة ، وفوّض إليه إعانة أخيه على أُموره .

وبصورة عامّة ، ليتعاون ويتآزرا كلاهما كلمة كلمة ، وخطوة خطوة ، ويداً بيد ؛ ليتلقّيا معاً الوحي من الله ، أحدهما بوصفه أميراً ، والثاني وزيراً .

ولكي يسبّحا الله كثيراً وينزّهاه ويقدّساه ، ويطهّراه ، من شوائب الفقر والفاقة ، والحاجة إلى أُمور عالم الكثرة ، والاستمداد من الأشياء ، والمصالح الذاتيّة في الأُمور ، ويذكرا الله كثيراً ، لأنّه سبحانه بصير بأحوالهم ، مطّلع على نهجهم ومسلكهم ، خبير بنيّاتهم وسرائرهم .

وجاء الخطاب من الله لموسى عليه السلام : قد أُجيب دعاؤك ، ونُفّذ مرادك ، ولقد جعلنا أخاك هارون شريكاً لك فى أمر النبوّة ، وصيّرناه معينك وناصرك ووزيرك فى أمر الإمارة والولاية ! فاذهبا إلى فرعون الطاغي وادعواه إلى دين التوحيد والسير على صراط الاستقامة والعدالة ! وورد تعيين هارون في منصب الوزارة صريحاً في القرآن الكريم من خلال قوله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا . (٢)

ونفس هذا الأمر المتعلّق بموسى ، وإنابته الى الله ، ودعائه لاستخلاف هارون ، وقضاء حاجته بنصب هارون أخيه في مقام النبوّة والخلافة والوزارة ، نجده عند الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وإنابته إلى الله ، ودعائه لاستخلاف عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وقضاء حاجته بنصب عليّ في مقام الخلافة والوزارة والولاية والوصاية والأُخوّة . (٣)

وروى سُليم بن قَيْس عن المقداد بن الأسود ، في جواب سؤال سأله به سُلَيم عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : كنّا نسافر مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قبل أن يأمر نساءه بالحجاب ؛ وكان عليّ عليه السلام يخدم رسول الله ، ليس له خادم غيره ؛ إلى أن قال : كان رسول الله يقوم ويصلّي [في جوف الليل] .

فأخذت عليّاً عليه السلام الحمّى [الشديدة] ليلة فأسهرته ، فسهر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لسهره . فبات ليله مرّة يصلّي ، ومرّة يأتي عليّاً عليه السلام يسلّيه ، وينظر إليه.

حتّى أصبح ، فلّما صلّى بأصحابه الغداة ، قال : اللَهُمّ اشْفِ عَلِيّاً وَعَافِهِ فَإنّهُ قَدْ أَسْهَرَني مِمّا بِهِ مِنَ الوَجَعِ .

فعوفي [عليّ عليه السلام بعد دعاء رسول الله] ، فكأنّما نشط من عقال ما به من علّة . ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَبْشِرْ يَا أَخِي . قال ذلك وأصحابه حوله يسمعون .

فقال عليّ عليه السلام : بَشّرَكَ اللَهُ بِخَيْرٍ يَا رَسُولَ اللَهِ وَجَعَلْني فِداكَ .

قال : إنّي لَمْ أَسْأَلِ اللَهَ شَيئاً إلّا أَعْطَانِيهِ ! وَلَمْ أَسْأَلْ لِنَفْسي شَيْئاً إلّا سَأَلْتُ لَكَ مِثْلَهُ ! إنّي دَعَوْتُ اللهَ أنْ يُوَاخِيَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَفَعَلَ .

وَسَأَلْتُهُ إذا أَلْبَسَنِي ثَوْبَ النّبُوّةِ وَالرّسَالَةِ أن يُلْبِسَكَ ثَوْبَ الوَصيّةِ وَالشّجَاعَةِ ، فَفَعَلَ .

وَسَأَلْتُهُ أنْ يَجْعَلَكَ وَصيّي ، وَوَارِثِي ، وَخازِنَ عِلْمِي ، فَفَعَلَ .

وَسَأَلْتُهُ أن يَجْعَلَكَ مِنّي بِمَنْزِلةِ هَارُوْنَ مِنْ مُوسَى وَأَنْ يَشُدّ بِكَ أَزْرِي وَيُشْرِكَكَ فِي أَمْرِي فَفَعَلَ ؛ إلّا أَنّهُ لَا نبيّ بَعْدي ، فَرَضِيتُ ــ الحديث [٤] .

وروى الحاكم الحسكانيّ بسنده المتّصل عن أنس بن مالك [أنّ] النبيّ [الأكرم] صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث مصدّقاً إلى قوم ، فعدوا على المصدّق ، فقتلوه . فبلغ ذلك النبيّ ، فبعث عليّاً . فقتل المقاتلة وسبى الذرّيّة . فبلغ ذلك النبيّ فسرّه . فلمّا بلغ عليّ . أدنى المدينة ، تلقّاه رسول الله فاعتنقه ، وقبّل بين عينيه ، وقال : بِأَبي أنْتَ وَأُمّي مَنْ شَدّ اللَهُ عَضُدِي بِهِ كَمَا شَدّ عَضُدَ مُوسَى بِهَارُونَ [٥] . وهذا الكلام مأخوذ من القرآن إذ خاطب الله موسى : سَنَشُدّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ [٦] .

وأخرج العلّامة الأمينيّ عن «المناقب» لأحمد بن حنبل ، و«الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ١٦٣ ، عن أسماء بنت عميس قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يَقُولُ : اللَهُمّ إنّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى : اللَهُمّ اجْعَلْ لِي وَزِيرَاً مِنْ أَهْلِي : أَخِي عَلِيّاً أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ، كَيْ نُسَبّحَكَ كَثِيرَاً وَنَذْكُرَكَ كَثِيرَاً ، إنّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرَاً [٧] .

ونظير هذا المفاد الذي استثنى أمير المؤمنين عليه السلام من النبوّة وبيّن لنا أنّ أحداً من الناس لا يفوقه ، وأنه متّصف بجميع الصفات الكماليّة والمناصب الإلهيّة ، حديث رواه أبو نعيم الإصفهانيّ بسنده المتّصل عن مَعَاذ بن جَبَل ، قال :

قَالَ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : يَا عَلِيّ ! أَخْصِمُكَ بِالنّبُوّة وَلَا نُبُوّةَ بَعْدَي ! وَتَخْصِمُ النّاسَ بِسَبْعٍ ! وَلَا يُحَاجّكَ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ قُرَيشٍ !

أَنْتَ أَوّلُهُمْ إيمَانَاً بِاللَهِ ! وَأَوْفَاهُمْ بِعَهْدِ اللَهِ ! وَأَقْوَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَهِ ! وَأَقْسَمُهُمْ بِالسّوِيّةِ ! وَأَعْدَلُهُمْ فِي الرّعِيّةِ ! وَأَبْصَرُهُمْ بِالقَضِيّةِ ! وَأَ عْظَمُهُمْ عِنْدِ اللَهِ مَزِيّةً ! [٨] .

ونلاحظ هنا أن رسول الله قد استثنى بصراحة الإمام عليّ بن أبي طالب من النبوّة فقط ، ولكن اعتبره أعلى وأرفع من كلّ ما في الكون ، وخصّه بجميع الكمالات إلّا النبوّة . وعلى هذا فالإمام عليّ عليه السلام حائز جميع الصفات والمناصب ، لأنّ معنى كلامه صلّى الله عليه وآله : أوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله وأبصرهم بالقضيّة وأعدلهم في الرعيّة وأقسمهم بالسويّة وأعظمهم عند الله مَزِيّةً ، قائم على أساس كماله وسعة وجود نفسه وإحاطته النوريّة والإلهيّة التي منحها إيّاه ربّه سبحانه تعالى ، ورفعه إلى هذه الدرجة والمقام .

وكذلك روى أبو نعيم الإصفهانيّ بسنده المتّصل الآخر عن سعيد بن المُسَيّب ، عن أبى سعيد الخُدري ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم لِعَلِيّ ــ وَضَرَبَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ــ يَاعَلِيّ ! لَكَ سَبْعُ خِصَالٍ لَا يُحَاجّكَ فِيهِ أَحَدٌ يَوْمَ القِيَامَة ! أَنْتَ أَوّلُ المُؤْمِنِينَ بِاللَهِ

إيمَاناً ! وَأَوْفَاهُمْ بِعَهْدِ اللَهِ ! وَأَقْوَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَهِ ! وَأَرْأَفُهُمْ بِالرّعِيّةِ ! وَأَقْسَمُهُمْ بِالسّوِيّةِ ! وَأَعْلَمُهُمْ بِالقَضيّةِ ! وَأَعْظَمُهُمْ مَزِيّةً يَوْمَ القِيَامَةِ [٩] .

ونلاحظ في الحديث أيضاً أنّه لم يعتبر عليّاً أفضل من قريش فحسب ، بل أفضل من جميع الخلائق يوم القيامة أيضاً . ولذا قال في آخره : قيمتك ومزيّتك أعظم من الجميع يوم القيامة .

وقد قال رسول الله هذا الكلام ، وهو يضرب بيده على ظهر عليّ .

وعلى أساس وحدة النفس هذه ، واتّحاد روح رسول الله وروح أمير المؤمنين ، الذي كان قائماً منذ اليوم الأوّل الذي كُلِّف فيه رسول الله بدعوة عشيرته وقبيلته ، وذلك قبل أن يُكَلّف بالتبليغ العامّ ، والإعلان العامّ ، وقبل أن تنزل الآية : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ * إِنّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِءِينَ [١٠] .

وحين نزلت الآية الشريفة:

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبينَ [١١] ،

وأُمر النبيّ بدعوة كبار بني هاشم ورجالهم ، وقال لعليّ : اطبخ لنا رِجل شاةٍ ! وأحضر لنا قعباً من لبن ! وادع أربعين من بني عبد المطّلب ، وكان عددهم بهذا المقدار آنذاك !

ودعا عليّ عليه السلام بني عبد المطّلب كافّة ؛ وأكلوا كلّهم من ذلك الطعام ، وشبعوا ؛ وشربوا جميعهم من ذلك القعب ، وارتووا ؛ خاطبهم النبيّ الأكرم قائلاً : يا قوم ! بُعثت إليكم وإلى العرب والناس كافّة بالنبوّة ! وهذا حمل ثقيل ، وهذه مهمّة عظيمة . أيّكم يؤازرني في أمر الرسالة هذا ؟ ويعينني عليه ؟ وهو أخي ، ووصيّي ، وخليفتي في أُمّتي ، ووليّي كلّ مؤمن بعدي ؟ فلم يجبه أحد . فقام عليّ ، وقال : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ .

وأجلسه الرسول ، إذ كان طفلاً لم يبلغ الحلم ؛ ثمّ كرّر دعوته قائلاً:

أَيّكُمْ يُبَايعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي وَوَارِثِي وَوَلِيّكُمْ بَعْدِي ؟!

ولم يجبه أحد ، وقام عليّ وقال:

أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ !

فقال الرسول : اجلس . ثمّ كرّر دعوته ثالثاً قائلاً : أَيّكُمْ يَنْتَدِبُ أَنْ يَكُونَ أَخِي ، وَوَزِيرِي ، وَوَصِيّي ، وَخَلِيفَتِي فِي أُمّتِي ، وَوَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي ؟!

ولم يجبه أحد ، وقام عليّ ، وقال : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ !

فأخذ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رأس عليّ في حجره ، وألقى في فمه من بصاقه ، وقال : اللَهُمّ امْلَأْ جَوْفَهُ عِلْمَاً وَفَهْمَاً وَحُكْمَاً ! وقال : إنّ هَذَا أَخِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا ! [١٢] .

ثّم قال لعمّه أبي طالب : يَا أَبَا طَالِبٍ ! اسْمَعِ الآنَ لِابْنِكَ ! وَأَطِعْ ! فَقَدْ جَعَلَهُ اللَهُ مِنْ نَبِيّهِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى !

وخلاصة الأمر فإنّ الواضح من هذا الموضوع أنّ النبيّ هو الذي أعدّ ذلك المجلس ليعيّن له ناصراً ومعيناً ، ووزيراً ، وأخاً ، ومواسياً في المحن ، والبلايا والشدائد ، وثقل عبء النبوّة ، وتبليغ الرسالة في حياته ، وحراسة الوحي الإلهيّ ، وحفظ دين الله ، وإمامة الأُمّة الإسلاميّة بعد مماته .

وبعينه كما أنّ موسى رأى نفسه وحيداً على أثر الخطاب الإلهيّ ، وشعر أنّه محتاج إلى أخ مثل هارون ، ليكون له عضداً ومؤازراً ، وشريكاً في حمل أعباء النبوّة وأداء الرسالة إلى فرعون والفراعنة ، فكذلك رسول الله ، رأى نفسه وحيداً على أثر الوحي الإلهيّ في حمل الرسالة وإبلاغها إلى سكّان العالم والمشركين والكفّار ، وكذلك في الصراع العلميّ والعمليّ ضدّ المناوئين والمنافقين وطلّاب الدنيا الذين كانوا دائماً سدّاً محكماً وحصناً حصيناً للحؤول دون نيل الأنبياء أهدافهم . وأعلن أنّه يريد خليفةً ، ووزيراً ، ومعيناً ، وناصراً ، وأخاً يأخذ بيده في هذا الأمر ، ويشاركه في أداء الرسالة ، ويكون حاميه ووزيره وأخاه في شتّى المشاكل والبلايا والمصائب والمحن ، وعراقيل المتعدّين والمتجاوزين ، والصراع مع الجائرين والظالمين ، وقطع دابر الفاجرين والمجرمين ، وإيصال نداء التوحيد إلى آذان المستضعفين والمغلوبين على أمرهم ، وأسرى النفس الأمّارة ، وطواغيت الزمان . ويرافقه خطوة خطوة في السرّاء والضرّاء ، والليل والنهار ، والسلم والحرب . ويحمل عبء الخلافة والإمامة والوزارة كما حمل صلّى الله عليه وآله عبء الرسالة . ويكون معه في كافّة مراحل ومنازل السير المعنويّ والروحيّ .

وفي ذلك اليوم نُصب عليّ من قبل الله سبحانه تعالى في مقام الإمامة والولاية والخلافة والوراثة والأُخوّة . فنبوّة رسول الله غير منفصلة عن ولاية عليّ ؛ وأُقيم الإسلام منذ اليوم الأوّل على قاعدتي النبوّة والإمامة ؛ ورُفِعَ السقف على هاتين الدعامتين ؛ وأنّه لينهار إذا كان على قاعدة واحدة دون أُخرى ، ويتصدّع ويتشذّر ، ولا يبقى منه إلّا الاسم .

إنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يدع عشيرته وقومه إلى الإسلام فحسب ، وذلك أنّ قبول أصل الإسلام لم يكن مهمّاً لكثير منهم ؛ كما أنّ حمزة اعتنق الإسلام ، وأصبح من طلائع المسلمين السبّاقين في هذا الطريق . وكان إسلام أبي طالب خفية ، وكانت مساعدته للنبيّ إلى درجة أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم سمّى العام الذي توفّي فيه هو وخديجة : عام الحُزْن لشدّة الحزن الذي نزل به ؛ واعتنق العبّاس الإسلام أيضاً .

وإنّما كانت دعوة النبيّ في ذلك المجلس لطلب الوزير ، وقبول المعاون ، والخليفة ، والوصيّ في كافّة الشؤون المتعلّقة بالأُمّة الإسلاميّة . ولمّا كان قبول هذا الأمر عسيراً جدّاً ، و قاصماً للظهر ، فلهذا صمت الجميع ، وامتنعوا عن الإقرار به .

وقد تحدّثنا مفصّلاً عن آية الإنذار وحديث العشيرة في المجلس الخامس من الجزء الأوّل ، من هذا الكتاب ؛ وعرضنا مدارك متقنة وقويّة في دلالة هذا الحديث المبارك وسنده ، فلهذا أحجمنا هنا عن ذكر المدارك ، ودللنا على وجود لفظ : وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ في ذلك الحديث ، وهو ما يثّاقل منه العامّة .

ونذكر فيما يأتي أيضاً فقرات ممّا يستخلص من حديث العشيرة عن بعض المصادر الأُخرى :

تحدّث سُلَيْم بن قيس عن الحوار الذي جرى بين معاوية وقيس بن سعد بن عبادة ــ في سفر معاوية إلى الحجّ ودخوله المدينة بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام ، وبعد صلح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أو بعد استشهاده ــ وانتفض قيس بن سعد في ذلك الحوار ، واستدلّ لمعاوية على بطلانه ، وحقّانيّة عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وأدان معاوية . وذكر سُليم أنّ من جملة ما قاله قيس بن سعد لمعاوية :

إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم رحمة للعالمين . فبعثه إلى الناس كافّة ، وإلى الجنّ والإنس ، والأحمر ، والأسود ، والأبيض ، اختاره لنبوّته ؛ واختصّه برسالته .

وكان أوّل من صدّقه ، وآمن به ابن عمّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وأبو طالب عمّه يذبّ عنه ، ويمنعه ، ويبعد عنه الأخطار ، ويهتمّ في حفظه وحراسته ، ويحول بين كفّار قريش وبين أن يردعوه ، أو يؤذوه ، أو يحولوا دون دعوته ؛ فأمره أن يبلّغ رسالة ربّه .

ولم يزل النبيّ ممنوعاً من ضيم قريش وأذاهم ، حتىّ مات عمّه أبو طالب ؛ وأمر ابنه عليّاً . بمؤازرته ؛ فوازره ونصره ؛ وجعل نفسه دونه في كلّ شديدة وكلّ ضيق ، وكلّ خوف . واختصّ الله بذلك عليّاً عليه السلام من بين قريش ؛ وأكرمه من بين جميع العرب والعجم .

وجمع رسول الله جميع بني عبد المطّلب ؛ فيهم أبو طالب ، وأبو لهب . وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ؛ فجمعهم رسول الله ، وخادمه عليّ ؛ ورسول الله في حجر عمّه أبي طالب .

فَقَالَ : أَيّكُمْ يَنْتَدِبُ أَنْ يَكُونَ أَخِي ، وَوَزِيرِي ، وَوَصِيّي ، وَخَلِيفَتِي فِي أُمّتِي ، وَوَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي ؟! فَسَكَتَ القَوْمُ حَتّى أَعَادَهَا ثَلَاثاً .

فَقَالَ عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْكَ !

فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهِ وَتَفَلَ فِي فِيهِ ، وَقَالَ : اللَهُمّ امْلأْ جَوْفَهُ عِلْماً وَفَهْماً وَحُكْماً . ثُمّ قَالَ لِأَبِي طَالِبٍ : يَا أَبَا طَالِبٍ ! اسْمَعِ الآنَ لِابْنِكَ وَأَطِعْ فَقَدْ جَعَلَهُ اللَهُ مِنْ نَبِيّهِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ــ الحديث [١٣] .

وفي «غاية المرام» عن محمّد بن عبّاس بن ماهيار ، في «تفسير القرآن فيما نَزَلَ في أهلِ البيت» عليهم السلام ، بسنده المتّصل عن محمّد بن عبد الله بن أبي رافع [١٤] ، غلام رسول الله ، عن أبيه ، عن جدّه أبي رافع ، قال : جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جميع بني عبد المطّلب في الشّعْب ، وكان بنو عبد المطّلب (جدّ رسول الله) أربعين رجلاً ؛ وطبخ لهم رِجل شاةٍ ، وفتّ لهم الخبز ، وصبّ عليه المرق ؛ وقدّم لهم ذلك الثريد [١٥] واللحم . فأكلوا جميعهم وشبعوا .

ثمّ سقاهم عسّاً واحداً فشربوا كلّهم منه حتّى رووا . فقال أبو لهب : والله إنّ منّا لنفراً يأكل الرجل منهم الجفنة ، فما تكاد تشبعه ؛ ويشرب الفرق فما يرويه . وإنّ ابن أبي كبشة (لقب كان يذكره أبو لهب لرسول الله) دعانا فجمعنا على رِجل شاة ، وعسّ من لبن فشبعنا وروينا منهما . إنّ هذا لهو السحر المبين .

ثمّ دعاهم رسول الله ، فقال : إنّ الله تبارك وتعالى أمرني بقوله : وَأَنذِرْ عَشْيرَتَكَ الْأَقْرَبِيْنَ وَرَهْطَكَ الْمُخْلَصِيْنَ .

وأنتم رهطي المخلصين وعشيرتي الأقربين ! وإنّ الله لم يبعث رسولاً إلّا جعل من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصيّاً . فَأَيُّكُمْ يَقُومُ يُبايِعُني أنّهُ أخي وَوَزيري ، وَوارثي دُونَ أهْلي ، وَوَصيّي وَخَليفَتي في أهْلي ، وَيَكونُ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، غَيْرَ أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟!

فسكت القوم .

وقال النبيّ : والله ليقومنّ قائمكم ، أو يكون في غيركم ، ثمّ لتندمنّ .

قال أبو رافع : فقام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ، وهم ينظرون كلّهم إليه ، فبايعه ، وأجابه إلى ما دعاه .

فقال له النبيّ : ادن منيّ يا عليّ ! فدنا منه . فقال : افتح فاك ! ففتح فاه . فمجّ فيه من ريقه ؛ وتفل فيه بين كتفيه ، وبين ثدييه .

فقال أبو لهب للنبيّ : لبئس ما حبوتَ به ابن عمّك ! إذ جاءك فملأتَ فاه بزاقاً [١٦] !

فقال النبيّ : بَلَى ! مَلَأْتُهُ عِلْمَاً وَحُكْمَاً وَفِقْهَاً [١٧] .

وروي الحاكم الحسكانيّ ، عن أبي القاسم القرشيّ بسنده المتّصل عن عبد الله بن عبّاس ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام . قال : لمّا أُنزلت هذه الآية : وَأَنذِر عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِيْنَ على رسول الله ، دعاني رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا عليّ ! إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فضقت بذلك ذرعاً ، وعرفت أنّي مهما أمرتهم بهذا الأمر ، أرى منهم ما أكرهُ !

فصمتّ حتّى جاءني جبرئيل ، فقال : يَا مُحَمّدُ ! إنّك إن لم تفعل ما أُمرتَ به ، يعذّبك ربّك ، فاصنع ما بدا لك !

يا عليّ ! اصنع لنا صاعاً من طعام ! واجعل لي فيه رِجْلَ شاةٍ ؛ واملأ لنا عُسّاً من لبن ؛ ثمّ اجمع لي بني عبد المطّلب حتّى أكلّمهم ، وأُبلّغهم ما أُمرت به . ويستطرد في الحديث إلى أن يقول :

فَقَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبْ ! إنّي وَاللَهِ مَا أعْلَمُ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمّا جِئْتُكُمْ بِهِ ! إنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِأَمْرِ الدّنْيا وَالآخِرَةِ ؛ وَقَدْ أَمَرَنِيَ اللَهُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ .

فَأَيّكُمْ يُوَازِرُنِي عَلَى أَمْرِي هَذَا ، عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيّي وَوَلِيّي وَخَلِيفَتِي فِيْكُمْ ؟

فأحجم القوم عنها جميعاً .

فقلت ــ وإنّي لأحدثهم سنّاً ، وأرمضهم عيناً ، وأعظمهم بطناً ، وأحمشهم ساقاً [١٨] ــ : أَنَا يَا نَبِيّ اللَهِ ؛ أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيهِ !

فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبي طالب : قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ لِعَلِيّ ! [١٩]

وروى الحاكم الحسكانيّ أيضاً عن ابن فنجويه بسنده المتّصل عن البراء بن عازب قال : لمّا نزلت الآية : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِيْنَ ، جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بني عبد المطّلب ؛ وسرد القصّة ، إلى أن قال : فَقَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ ! إنّي أَنَا النّذِيرُ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَهِ عَزّ وَجَلّ وَالبَشِيرُ لِمَا يَجيءُ بِهِ أَحَدُكُمْ ، جِئْتُكُمْ بِالدّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَأَسْلِمُوا وَأَطِيعُونِي تَهْتَدُوا !

وَمَنْ يُوَاخِينِي [مِنْكُمْ] وَيُوَازِرُنِي ؛ وَيَكُونُ وَلِيّي وَوَصِيّي بَعْدِي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي وَيَقْضِي دَيْنِي ؟!

فسكت القوم [كلّهم] ؛ وأعاد ذلك ثلاثاً ؛ كلّ ذلك يسكت القوم ، ويقول عليّ : [قلتُ] : أنا ! فقال [النبيّ] : أنت ! فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أَمّرَهُ عليك [٢٠] .

ونقل الشيخ الطبرسيّ هذه الرواية نفسها بدون ذكر السند ، وذلك في تفسير الآية المباركة ؛ وقال أيضاً : أورده الثعلبيّ في تفسيره [٢١] .

ونقل ابن عساكر الدمشقيّ ثماني روايات حول آية الإنذار ، وجمع العشيرة ، وإقامة عليّ عليه السلام في الوزارة ، وذلك في الجزء الأوّل من كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، من رقم ١٣٥ إلى . ١٤٢

وذكر الرواية ١٣٥ بسنده المتّصل عن سالم ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ وبعد بيان القضيّة ، قال رسول الله في آخرها : مَنْ يُوَازِرُنِي عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَيُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَلَهُ الجَنّةُ ؟

قلتُ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ ! وَإِنّي لأَحْدَثُهُمْ سِنّاً وَأَحْمَشُهُمْ سَاقَاً . فسكت القوم ثمّ قالوا : يا أبا طالب ! ألا ترى ابنك ؟ قال أبو طالب : دعوه ، فلن يألو من ابن عمّه خيراً [٢٢] .

ونقل الرواية ١٣٦ بسنده المتّصل عن ربيعة بن ناجذ ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم دعا بني عبد المطّلب ، وذكر الرواية بالإعجاز الذي حصل في ذلك المجلس إذ شبع الجميع من رِجْل الشاةِ ، وارتووا من قعب اللبن دون أن ينقص منهما شيء ؛ ثمّ قال النبيّ :

يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ ! إنّي بُعِثْتُ إلَيكُمْ خَاصّةً وَإلَى النّاسِ عَامّةً وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ ! فَأَيّكُمْ يُتَابِعُنِي عَلَى أنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي ؟! يقول عليّ عليه السلام : لم يقم إليه أحد ؛ فقمت إليه ، وكنت أصغر القوم . قال : فقال [رسول الله] : اجلس ! وفعل [رسول الله] ثلاث مرّات كذلك ؛ وأنا في كلّ ذلك أقوم إليه ، فيقول لي : اجلس حتّى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي [للبيعة] (٢٣) .

وروى الرواية ١٣٧ بسنده المتّصل عن عبّاد بن عبد الله الأسديّ ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قريشاً ، ثمّ قال : لَا يُؤَدّي أَحَدٌ عَنّي دَيْنِي إلّا عَلِيّ (٢٤) .

ونقل الرواية ١٣٨ بسند متّصل آخر عن عبّاد بن عبد الله الأسديّ أيضاً ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : لمّا نزلت الآية : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِيْنَ ، دعا رسول الله رجالاً من أهل بيته ، وبعد بيان شبعهم من رِجل الشاة ، وارتوائهم من قعب اللبن ، قال لهم :

عَلِيّ يَقْضِي دَيْنِي (٢٥) ؛ وَيُنْجِزُ مَوْعِدِي (٢٦) .

وأخرج الرواية ١٣٩ بسند متّصل آخر عن عبّاد بن عبد الله ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : يا عليّ ! اجمع بني هاشم ؛ وطبخت صاعاً من الطعام وشاة ثلاث مرّات ، وأعددت قعباً من لبن . وكانوا يأكلون ويشبعون ؛ وقالوا مرّتين : ما رأينا كاليوم في السحر ! وفي الثالثة بَدَرَهُم رسول الله بالكلام ، فقال : أَيّكُمْ يَقْضِي دَيْنِي وَيَكُونُ خَلِيفَتِي وَوَصِيّي مِنْ بَعْدِي ؟!

قال : فسكت العبّاس مخافة أن يحيط ذلك أي [دَين رسول الله] بماله ؛ فأعاد رسول الله الكلام على القوم ؛ وسكت العبّاس [أيضاً] مخافة أن يحيط ذلك بماله . فأعاد رسول الله الكلام الثالثة . قال [أمير المؤمنين عليه السلام] : وإنّي يومئذٍ لأسوأهم هيئة ، إنّي يَوْمَئِذٍ أَحْمَشُ السّاقَيْنِ ؛ أَعْمَشُ العَيْنَيْنِ ، ضَخْمُ البَطْنِ ؛ فقلت : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ !

قال النبيّ : أَنْتَ يَا عَلِيّ ! أَنْتَ يَا عَلِيّ ! ! (٢٧)

ونقل الرواية ١٤٠ بسنده المتّصل ، عن عبد الله بن عبّاس ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام . وهذه الرواية بعباراتها نفسها هي الرواية التي ذكرناها عن الحاكم الحَسْكانيّ أولاً (٢٨) .

وأخرج الرواية ١٤١ بسنده المتّصل عن أبي رافع . وهذه الرواية عينها هي الرواية التي نقلناها سابقاً عن كتاب «غاية المرام» عن محمّد بن عبّاس بن ماهيار ، عن تفسير القرآن فيما نزل في أهل البيت عليهم السلام [٢٩] .

وذكر الرواية ١٤٢ بسنده المتّصل عن عمر بن عليّ بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ أبي طالب ، عن أبيه ، عن عليّ بن الحسين ، عن أبي رافع ، قال : كنت قاعداً بعدما بايع الناس أبا بكر فسمعت أبا بكر يقول للعبّاس :

أُنْشِدُكَ اللَهِ ! هَلْ تَعْلَمُ أَنّ رَسُولَ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسلّمَ جَمَعَ بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ وَأَوْلَادَهُمْ ، وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَجَمَعَكُمْ دُونَ قُرَيشٍ . فَقَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ ! إِنّهُ لَمْ يَبْعَثِ اللَهُ نَبِيّاً إِلّا جَعَلَ لَهُ مِنْ أَهْلِهِ أَخاً وَوَزِيراً وَوَصِيّاً وَخَلِيفَةً فِي أَهْلِهِ ! فَمَنْ مِنْكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي ، وَوَزِيرِي ، وَوَصِيّي ، وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟! فَلَمْ يَقُمْ مِنْكُمْ أَحَدٌ !

فَقَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ ! كُونُوا فِي الإِسْلَامِ رُؤُوساً وَلَا تَكُونُوا أَذْنَاباً . وَاللَهِ لَيَقُومَنّ قَائِمُكُمْ ، أَوْ لَتَكُونَنّ فِي غَيْرِكُمْ ثُمّ لَتَنْدَمُنّ !

فَقَامَ عَلِيّ مِنْ بَيْنِكُمْ فَبَايَعَهُ عَلَى مَا شَرَطَ لَهُ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ .

أَتَعْلَمُ هَذَا لَهُ مِنْ رَسُولِ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسلّمَ ؟ ! قَالَ : نَعَمْ [٣٠] .

وروى أحمد بن حنبل بسنده عن المنهال ، عن عبّاد بن عبد الله الأسديّ ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : لمّا نزلت الآية : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، جمع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أهل بيته ؛ فاجتمع ثلاثون شخصاً منهم ، فأكلوا ، وشربوا ، قال : فقال لهم :

مَنْ يَضْمَنُ عَنّي دَيْنِي ، وَمَوَاعِيدِي ؛ وَيَكُونُ مَعِي في الجَنّةِ ؛ وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟! فَقَالَ رَجُلٌ لَمْ يُسَمّهِ شَرِيكٌ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! أَنْتَ كُنْتَ بَحْراً مَنْ يَقُومُ بِهَذَا ؟! قَالَ : ثُمّ قَالَ الآخَرُ قَالَ : فَعَرَضَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ عَلِيّ رَضِيَ اللَهُ عَنْهُ : أَنَا [٣١] .

ذكر ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» في ذيل كلام الإمام في الخطبة القاصعة : أَنَا وَضَعْتُ فِي الصّغَرِ بِكَلَاكِلِ العَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ ، قال : روي عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال :

كَانَ عَلِيّ عَلَيهِالسّلَامُ يَرَى مَعَ رَسُولِ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسلّمَ قَبْلَ الرِسَالَةِ الضّوءَ وَيَسْمَعُ الصّوْتَ ؛ وَقَالَ لَهُ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : لَوْلَا أَنّي خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ لَكُنْتَ شَرِيكاً فِي النّبُوّةِ ! فَإِنْ لَا تَكُنْ نَبِيّاً فَإِنّكَ وَصِيّ نَبِيّ وَوَارِثُهُ ! بَلْ أَنْتَ سَيّدُ الأَوْصِيَاءِ وَإِمَامُ الأَتْقِيَاءِ !

ثمّ نقل ابن أبي الحديد قصّة آية الإنذار وحديث العشيرة عن الطبريّ في تأريخه بنحو مفصّل ، وهو ما أوردناه في الجزء الأوّل من كتابنا هذا : «معرفة الإمام» في المجلس الخامس ، عن الطبريّ . وكذلك أوردناه في هذا الجزء في أوّل رواية الحاكم الحسكانيّ . وفيه تصريح على أنّ النبيّ قال : هَذَا أَخي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا !

ثمّ قال : ويدلّ على أنّه وزير رسول الله من نصّ الكتاب والسنّة قول الله تعالى : وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَرُونَ أَخِي أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

وعلى هذا أثبت النبيّ لعليّ جميع مراتب ومقامات هارون من موسى . فإذَنْ هو وزير رسول الله ، وشادّ أزره ؛ ولولا أنّه خاتم النبيّين ، لكان شريكاً في أمره .

وروى أبو جعفر الطبريّ أيضاً في تاريخه أنّ رجلاً قال لعليّ عليه السلام :

يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! بِمَ وَرِثْتَ ابْنَ عَمّكَ دُونَ عَمّكَ ؟!

فقال عليّ عليه السلام : هاؤُم ! ثلاث مرّات حتّى اشرأبّ الناس ، ونشروا آذانهم ، ثمّ قال :

جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله بني عبد المطّلب بمكّة ، وهم رهطه ، كلّهم يأكل الجَذَعَة ، ويشرب الفِرْق [٣٢] ، فصنع مُدّاً من طعام ، حتّى أكلوا وشبعوا ، وبقي الطعام كما هو ، كأنّه لم يمسّ . ثمّ دعا بغُمَر [٣٣] ، فشربوا ورووا ، وبقي الشراب كأنّه لم يشرب ؛ ثمّ قال : يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ ! إنّي بُعِثْتُ إلَيكُمْ خَاصّةً ؛ وَإلَى النّاسِ عَامّةً ، فأَيّكُمْ يُبَايعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي وَوَارِثِي ؟! فلم يقم إليه أحد ، فقمت إليه ، وكنت من أصغر القوم . فقال النبيّ : اجلس . ثمّ قال ذلك ثلاث مرّات ؛ كلّ ذلك أقوم إليه ، فيقول : اجلس ، حتّى كان في الثالثة ، فضرب بيده على يدي فعند ذلك ورثت ابن عمّي دون عمّي [٣٤] .

وروى الملّا عليّ المتّقي عن ابن مَرْدَوَيْه قصّة دعوة بني عبد المطّلب في تفسير آية الإنذار ، إلى أن قال : ثُمّ قَالَ لَهُمْ ــ وَمَدّ يَدَهُ ــ مَنْ يُبَايعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي ، وَصَاحِبِي ، وَوَلِيّكُمْ مِنْ بَعْدِي ؟! ــ وأنا يومئذ أصغر القوم ، عظيم البطن ــ ومددت يدي وقلت : أَنَا أُبَايعُكَ ! فبايعني رسول الله على ذلك . قال : وذلك الطعام أنا صنعته [٣٥] .

ونلاحظ في هذا الحديث أنّه وإن لم يرد فيه لفظ : خَلِيفَتِي ، ولكن ورد لفظ : وَوَلِيّكُمْ مِنْ بَعْدِي . ولا شكّ أنّ المراد من الولاية هنا منصب الإمامة والخلافة لسببين : الأوّل : قرينة تشكيل ذلك المجلس ، وحضور الأعمام وبني عبد المطّلب ، ودعوة النبيّ تلك ، إذ لا مناسبة لأيّ معنى آخر هنا غير هذا المعنى . الثاني : قرينة : مِنْ بَعْدِي ، إذ إنّ إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته كانت بعد رسول الله . وأمّا سائر أقسام الولاية ومعانيها ــ منحصرة بما بعد وفاة الرسول الأعظم ــ فليست له بزعم الخصم .

ونقل ابن أبي الحديد عن شيخه أبي جعفر الإسكافيّ [٣٦] أنّه قال : وقد روي في الخبر الصحيح أنّ النبيّ كلّف عليّاً في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكّة أن يصنع له طعاماً ، وأن يدعو له بني عبد المطّلب . فصنع له الطعام ، ودعاهم له . فخرجوا ذلك اليوم ، ولم ينذرهم صلّى الله عليه وآله وسلّم لكلمة قالها عمّه أبو لهب ؛

فكلّفه في اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام ، وأن يدعوهم ثانية ، فصنعه ، ودعاهم فأكلوا .

ثمّ كلّمهم صلّى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدين ، ودعا عليّاً معهم لأنّه من بني عبد المطّلب ؛ ثمّ ضمن لمن يؤازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه في الدين ، ووصيّه بعد موته ، وخليفته من بعده . فأمسكوا كلّهم وأجابه عليّ وحده ، وقال : أَنَا أَنْصُرُكَ عَلَى مَا جِئْتَ بِهِ ؛ وَأُوازِرُكَ وَأُبَايِعُكَ .

فقال لهم [النبيّ] لمّا رأى منهم الخذلان ، ومنه النصر ؛ وشاهد منهم المعصية ، ومنه الطاعة ؛ وعاين منهم الإباء ، ومنه الإجابة :

هَذَا أَخِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي .

فقاموا يسخرون ، ويضحكون ، ويقولون لأبي طالب : أَطِعِ ابْنَكَ ! فَقَدْ أَمّرَهُ عَلَيْكَ [٣٧] .

وكم أرى من المناسب هنا أن أنقل حكايتين لطيفتين ومليحتين في هذا الموضوع . وهما في كتاب «المناقب» لابن شهرآشوب . قال : ذكر ذلك ابن عبد ربّه في «العقد الفريد» بل روته الأُمّة بأجمعها عن أبي رافع وغيره أنّ عليّاً نازع العبّاس إلى أبي بكر في بُرد النبيّ أو ردائه ، وسيفه ، وفرسه . فقال أبو بكر : أَيْنَ كُنْتَ يَا ابْنَ عَبّاسٍ حِيْنَ جَمَعَ رَسُولُ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ وَأَنْتَ أَحَدُهُمْ فَقَالَ : أَيّكُمْ يُوَازِرُنِي فَيَكُونَ وَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي وَيُنْجِزَ مَوْعِدِي وَيَقْضِي دَيْنِي ؟

فقال له العبّاس : فَمَا أَقْعَدَكَ مَجْلِسَكَ هَذَا ؟ تَقَدّمْتَهُ وَتَأَمّرْتَ عَلَيهِ ؟

فقال أبو بكر : أَغَدْرَاً يَا بَنِي عَبْدِ المُطّلِب ؟

أمّا الحكاية الثانية فقد قال متكلّم لهارون الرشيد : أُريد أن أُقرّر هشام بن الحكم بأنّ عليّاً كان ظالماً . فقال له هارون : إن فعلت فلك كذا وكذا ! وأمر به . فلمّا حضر ، قال المتكلّم لهشام : يا أبا محمّد ! روت الأُمّة بأجمعها أنّ عليّاً نازع العبّاس إلى أبي بكر في بُرد النبيّ أو ردائه وسيفه وفرسه . قال : نعم ! قال المتكلّم : فأيّهما الظالم لصاحبه ؟ فخاف هشام من الرشيد (لأنّ العبّاس جدّه) فقال : لم يكن فيهما ظالم . قال المتكلّم : فيختصم اثنان في أمر وهما محقّان ؟ قال : نعم . اختصم الملكان إلى داود في النعاج وليس فيهما ظالم ، وإنما أرادا أن ينبّهاه على الحكم ؛ كذلك عليّ والعبّاس تحاكما إلى أبي بكر في ميراث رسول الله ليعرّفاه ظلمه [٣٨] .

أجل إنّ العامّة ومتعصّبيهم جهدوا في إخفاء الحقائق ، وإظهار الأباطيل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وعَضوا هذا الحديث المبارك الذي يمثّل نصّاً صريحاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته بلا فصل ، إذ ذكروا بعض فقراته في كتبهم ، وأحجموا عن ذكر فقراته الأُخرى .

وذكرنا في الدرس الخامس من دروس الجزء الأوّل من كتابنا هذا «معرفة الإمام» أنّ الحلبيّ الذي روى هذا الحديث في سيرته ، قد بلغ به إلى قوله : قَالَ عَلِيّ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ ؛ وَأَنَا أَحْدَثُهُمْ سِنّاً ، وَسَكَتْ القَوْمُ .

ولم يقل شيئاً عن سؤال النبيّ ، وجوابه المتعلّق بمقامات أمير المؤمنين ، وحذف قوله صلّى الله عليه وآله : عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي وكذلك جوابه صلّى الله عليه وآله : فَأَنْتَ أَخِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي . وبلغ به الخزي أن قال : أضاف بعضهم كلمة أَخِي وَوَصِيّي وَوَارِثِي، وَوَزِيرِي ، وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي [٣٩] .

وعلى الرغم من أنّ الطبريّ ذكر في تاريخه جملة : وَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ [٤٠] بَيْدَ أنّه أورد هذا الحديث بحذافيره سنداً ومتناً في تفسيره ؛ ونقل جميع القصّة بنحو مفصّل ، إلّا أنّه وضع لفظ كذا وكذا مكان وَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيْكُمْ [٤١] ، فمسخ الحديث وشوّه صورته بهذا العمل .

وعبارته هي : قَالَ : فَأَيّكُمْ يُوَازِرُنِي عَلَىَ هَذا الأَمْرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَكَذَا وَكَذا . وقال أيضاً في كلام رسول الله الأخير : ثُمّ قَالَ : إِنّ هَذَا أَخِي وَكَذَا وَكَذَا .

وتبعاً لهذه الجناية والخيانة ، أورد ابن كثير الدمشقيّ أيضاً في «البداية والنهاية» [٤٢] وكذلك في تفسيره [٤٣] لفظ كَذَا وَكَذَا بدل لفظ وَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ .

لاحظوا هؤلاء الأعلام في التأريخ ، والحديث ، والتفسير كيف تجنّوا على الأجيال البشريّة وأعقابها وأخلافها عبر هذه السرقات المكشوفة ؟ وكيف حجبوا وجه الحقيقة ؟ إنّهم أرادوا وضع مذهب مزيّف في مقابل مذهب أهل البيت عبر الأساليب الملتوية المتمثّلة بالتزوير والخداع والحيلة .

ورأينا جنايات محمّد حسنين هيكل ، وزير المعارف السابق في مصر ورئيس تحرير صحيفة «الأهرام» في الطبعة الأُولى من كتابه : «حياة محمّد» وكذلك في الطبعة الثانية [٤٤] .

ونستخلص من هنا أنّ أهل السنّة يعتقدون بحكّام الجور . والتثريب على هؤلاء الرجال من حملة لواء العلم ، وهؤلاء الرؤساء الدينيّين والوطنيّين الذين قلّدوا أُولئك الجانين في أفكارهم وآرائهم وفقاً للقانون الطبيعيّ : النّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ [٤٥] .

وهنا تنطبق الآيات الواردة في ذمّ علماء اليهود والنصارى ــ الذين حرّفوا التوراة والإنجيل ، وسحقوا الحقّ والحقيقة من أجل الرئاسة والتحكّم في رقاب عوامّ الناس ــ على علماء العامّة تماماً .

ورد في القرآن الكريم عن اليهود قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَيَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَولًا غَيْرَ الَّذي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَموا رِجْزًا مّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٦) .

«واذكر عندما قلنا ادخلوا هذه القرية (بيت المقدس) ! وكلوا ما شئتم من نعمها الكثيرة الطيّبة ! وادخلوا الباب سجّداً ! وقولوا : اللهمّ اغفر ذنوبنا ، حتّى نغفر خطاياكم ونزيد المحسنين !

وبعد خطابنا هذا ، بدّل الظالمون كلام الله وحكمه غير ما قيل لهم ، فأنزلنا عليهم من السماء أشياء قد أزعجتهم وآذتهم بسبب ظلمهم وعصيانهم ومخالفتهم وانحرافهم وفسقهم ! »

وورد قريب من هذا المضمون أيضاً :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (٤٧) .

وورد أيضاً عن تغيير وتبديل الكلمات والعبارات التي تخلّ بالمعنى الأصليّ والمقصود الحقيقيّ قوله :

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرّفُونَ الْكَلِمَ عَن مّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (٤٨) .

وقال في بني إسرائيل الذين جعل لهم اثني عشر نقيباً ، وأمرهم بالصلاة والزكاة والإيمان بالأنبياء ، ثمّ وعدهم بالجنّة ، وعدّ كفران هذه النعم ضلالة عن الصراط المستقيم ، إذ نقضوا الميثاق :

فَبِمَا نَقْضِهِم مّيثَقَهُمْ لَعَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً يُحَرّفُونَ الْكَلِمَ عَن مّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّا مّمّا ذُكّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مّنْهُمْ إِلّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنّ اللَّهَ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ (٤٩) .

ولمّا نقض بنو إسرائيل ميثاقهم ، لعنّاهم وأبعدناهم من رحمتنا ، وجعلنا قلوبهم قاسية (بحيث إنّ المواعظ والوعد والوعيد لم تؤثّر فيهم) إنّهم يحرّفون كلام الله عن موضعه . ونسوا قسطاً مهمّاً من الحظّ الذي ذكّروا به على أثر كلمات التوراة وكلام الله ؛ ولا تزال تطّلع على الخونة منهم إلّا قليلاً منهم .

فاعف عنهم ! واصفح عن خطاياهم إنّ الله يحبّ المحسنين .

وقال في بني إسرائيل أيضاً :

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٥٠) .

هل تنتظرون معاشر المسلمين أن يعتنق اليهود دينكم ، ويؤمنوا بالله لمصلحتكم ، وقد كان فريق منهم قد سمعوا كلام الله ثمّ حرّفوه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون حقيقة معناه .

إنّ هذه الآيات وإن كانت نزلت في اليهود ، ولكنّ روحها تشمل جميع الذين يحرّفون آيات الله مهما كان دينهم وقوميّتهم . وتعمّ العلماء والرؤساء الذين يغيّرون في كلمات الله والقوانين والآداب والتقاليد الإلهيّة ؛ أو يحاولون إسقاط لفظ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي أو خَلِيفَتِي فِيكُمْ أو خَلِيفَتِي وأمثالها من أجل تغيير الإمارة والخلافة عن مقرّها المُستقرّ ومكانها المكين : قطب العالم وإمام زمانه : مولى الموالي أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين ، ثمّ تحويلها إلى أمثال أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ومعاوية ، وهلّم جرّاً إلى سلسلة ملوك بني أُميّة وبني العبّاس .

ما أعظمها من خيانة ! وما أشدّه من ذنب لا يغتفر ! أيّ استباق هذا في القرآن للقرآن نفسه ؟ وأيّ ضرب هذا من النفع للدين والشريعة ؟ وما هو هذا النمط من حماية البشر والبشريّة ؟

ينقل الشارح المعتزليّ ابن أبي الحديد كلاماً لأُستاذه وشيخه أبي جعفر الإسكافيّ في تفضيل مولى الموالي أمير المؤمنين عليه صلوات الله الملك القيّوم ردّاً على كتاب «العثمانيّة» للجاحظ . وهو جدير بالإمعان والتدقيق . وبعد أن أبطل ابن أبي الحديد ــ على لسان الإسكافيّ ــ أدلّة الجاحظ في أفضليّة أبي بكر وسبقه إلى الإسلام ، وأثبت أنّ الروايات الواردة في هذا المجال موضوعة ، نقل في ختام حديثه مطلباً هو كالآتي :

قال شيخنا أبو جَعْفَر الإسْكَافِيّ : لولا ما غلب على الناس من الجهل وحبّ التقليد ، لم نحتج إلى نقض ما احتجّت به العثمانيّة ، فقد علم الناس كافّة أنّ الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم ؛ وعرف كلّ أحد علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم ، وظهور كلمتهم ، وقهر سلطانهم وارتفاع التقيّة عنهم والكرامة ؛ والجائزة لمن روى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر .

وما كان من تأكيد بني أُميّة لذلك ؛ وما ولّده المحدّثون من الأحاديث طلباً لما في أيديهم ، فكانوا لا يألون جهداً في طول ما ملكوا أن يخملوا ذكر عليّ عليه السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ، ومناقبهم ، وسوابقهم ، ويحملوا على شتمهم وسبّهم ولعنهم على المنابر ، فلم يزل السيف يقطر من دمائهم ، مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم .

فكانوا بين قتيل ، وأسير ، وشريد ، وهارب ، ومتخفّ ذليل ، وخائف مترقّب ، حتّى أنّ الفقيه والمحدّث والقاضي والمتكلّم ليتقدّم ويتوعّد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة ، ألّا يذكروا شيئاً من فضائلهم .

ولا يرخّصوا لأحد أن يُطيف بهم ، وحتّى بلغ من تقيّة المحدّث أنّه إذا ذكر حديثاً عن عليّ عليه السلام ، كنّى عن ذكره ، فقال : قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر عليّاً عليه السلام ولا يتفوّه باسمه .

ثمّ رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله ، ووجّهوا الحيل والتأويلات نحوها ، من خارجيّ مارق ، وناصب حَنِق ، وثابت على مسبّتهم ، وناشئ معاند ، ومنافق مكذّب ، وعثمانيّ حسود ، يعترض فيها ويطعن ، ومعتزليّ قد نقض في الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ، وعرف الشبه ، ومواضع الطعن ، وضروب التأويل . قد التمس الحيل في إبطال مناقب عليّ ؛ وتأوّل مشهور فضائله .

فمرّة يتأوّل فضائل عليّ بما لا يحتمل ؛ ومرّة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقض .

ولا يزداد مع ذلك إلّا قوّة ورفعة ، ووضوحاً واستنارة . وقد علمت أنّ معاوية ويزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيّام ملكهم ــ وذلك نحو ثمانين سنة ــ لم يَدَعُوا جهداً في حمل الناس على شتمه ولعنه ، وإخفاء فضائله ، وستر مناقبه وسوابقه .

روى خالد بن عبد الله الواسطيّ ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن هلال بن يَسَاف ، عن عبد الله بن ظالم ، قال : لمّا بويع لمعاوية ، أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليّاً عليه السلام . فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل : ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنّة ؟!

روى سليمان بن داود ، عن شُعْبة ، عن الحُرّ بن الصبّاح ، قال : سمعت عبد الرحمن بن الأخنس يقول : شهدت المُغِيرة بن شعبة خطب فذكر عليّاً عليه السلام ، فنال منه .

روى أبو كُرَيب ، قال : حدّثنا أبو أُسامة ، قال : حدّثنا صدقة بن المثنّى النخعيّ ، عن رياح بن الحارث ، قال : بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر ، وعنده ناس إذ جاءه رجل يقال له : قَيْس بن عَلْقَمَة ، فاستقبل المغيرة ، فسبّ عليّاً عليه السلام .

روى محمّد بن سعيد الإصفهانيّ ، عن شريك ، عن محمّد بن إسحاق ، عن عمرو بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه عليّ بن الحسين عليه السلام ، قال : قال لي مروان بن الحكم :

مَا كَانَ فِي الْقَوْمِ أَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِنَا (عثمان) مِنْ صَاحِبِكُمْ ! (عليّ) قُلْتُ : فَمَا بَالُكُمْ تَسُبّونَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ ؟! قال إنّهُ لَا يَستَقِيمُ لَنَا الأَمْرُ إلّا بِذَلِكَ [٥١] .

روى مالك بن إسماعيل أبو غَسّان النَهْدِيّ ، عن ابن أبي سَيْف ، قال : خطب مروان ، والحسن عليه السلام جالس فنال من عليّ عليه السلام . فقال الحسن عليه السلام : وَيْلَكَ يَا مَرْوَانُ ! أَهَذَا الّذِي تَشْتُمُ ، شَرّ النّاسِ ؟! قَالَ : لَا ، وَلَكِنّهُ خَيْرُ النّاسِ .

وروى أبو غسّان أيضاً ، قال : قال عمر بن عبد العزيز : كَانَ أَبِي يَخْطُبُ فَلاَ يَزَالُ مُسْتَمِرّاً فِي خُطْبَتِهِ ؛ حَتّى إِذَا صَارَ إِلَى ذِكْرِ عَلِيّ وَسَبّهِ تَقَطّعَ لِسَانُهُ وَاصْفَرّ وَجْهُهُ وَتَغَيّرَتْ حَالُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ .

فَقَالَ : أَوَ قَدْ فَطَنْتَ لِذَلِكَ ! إِنّ هَؤُلَاءِ لَوْ يَعْلَمُونَ مِنْ عَلِيّ مَا يَعْلَمُهُ أَبُوكَ مَا تَبِعَنَا مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وروي أبو عثمان ، قال : حدّثنا أبو اليقظان ، قال : قام رجل من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عَرَفة ، فقال : إِنّ هَذَا يَوْمٌ كَانَتِ الخُلَفَاءُ تَسْتَحِبّ فِيهِ لَعْنَ أَبِي تُرَابٍ .

وروى عمرو بن القنّاد ، عن محمّد بن فُضَيل ،أنّ أشعث بن سَوّار ، قال : سبّ عديّ بن أرطاة عليّاً عليه السلام على المنبر ، فبكى الحسن البصريّ وقال : لَقَدْ سُبّ هَذَا اليَوْم رَجُلٌ إِنّهُ لَأَخُو رَسُولِ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فِي الدّنْيا وَالآخِرَةِ .

وروى عديّ بن ثابت ، عن إسماعيل بن إبراهيم ، قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة ممّا يلي أبواب كندة ، فخرج المغيرة فخطب ، فحمد الله ، ثمّ ذكر ما شاء أن يذكر ، ثمّ وقع في عَلِيّ عليه السلام ، فضرب إبراهيم على فخذي أو ركبتي ، ثمّ قال : أَقْبِلْ عَلَيّ ! فحدّثني ! فإنّا لسنا في جمعة ! ألا تسمع مايقول هذا ؟!

وروى عبد الله بن عثمان الثّقفيّ ، قال : حدّثنا ابن أبي سيف ، قال : قال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده : لَا تَذْكُرْ يَا بُنَيّ عَلِيّاً إِلّا بِخَيْرٍ فَإِنّ بَنِي أُمَيّةَ لَعَنُوهُ عَلَى مَنَابِرِهِمْ ثَمَانِيْنَ سَنَةً فَلَمْ يَزِدْهُ اللَهُ بِذَلِكَ إِلّا رِفْعَةً . إِنّ الدّنْيَا لَمْ تَبْنِ شَيْئَاً قَطّ إِلّا رَجَعَتْ عَلَى مَا بَنَتْ فَهَدَمَتْهُ . وَإِنّ الدّينَ لَمْ يَبْنِ شَيْئَاً قَطّ وَهَدَمَهُ (٥٢) .

وروى عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا مُطّلب بن زياد ، عن أبي بكر بن عبد الله الإصبهانيّ ، قال : كان دعيّ لبني أُميّة لا يزال يشتم عليّاً عليه السلام ، فلمّا كان يوم جمعة ، وهو يخطب الناس ، قال : وَاللَهِ إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَهِ لَيَسْتَعْمِلُهُ وَإِنّهُ لَيَعْلَمُ مَا هُوَ ؛ وَلَكِنّهُ كَانَ خَتَنَهُ .

وقد نعس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه ، ثمّ قال : ويحكم ! ما قال هذا الخبيث ! رأيت القبر انصدع ورسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : كَذِبْتَ يَا عَدُوّ اللَهِ .

وروى القَنّاد قال : حدّثنا أسباط بن نَصْر الهَمْدانيّ ، عن السّدّيّ ، قال : بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت ، إذ أقبل راكب على بعير ؛ فوقف ، فسبّ عليّاً عليه السلام ؛ فخفّ به الناس ينظرون إليه ، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقّاص ، فقال : اللهمّ إن كان سبّ عبداً لك صالحاً ، فَأَرِ المسلمين خزيه ، فما لبث أن نَفَرَ به بعيره فسقط ، فاندقّت عنقه .

وروى عثمان بن أبي شيبة ، عن عبد الله بن موسى ، عن فُطْر بن خليفة ، عن أبي عبد الله الجدليّ ، قال : دخلت على أُمّ سلمة رحمها الله فقالت لي : أيُسَبّ رسول الله فيكم وأنتم أحياء ؟!

قلت : وأنّى يكون هذا ؟!

قالت : أليس يسبّ عليّ عليه السلام ومن يحبّه ؟!

وروى العبّاس بن بكّار الضبّيّ ، قال : حدّثني أبو بكر الهُذَليّ ، عن الزّهريّ ، قال : قال ابن عبّاس لمعاوية : أَلَا تَكُفّ عَنْ شَتْمِ هَذَا الرّجُلِ ؟!

قال معاوية : مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتّى يَرْبُوَ عَلَيْهِ الصّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهِ الكَبِيرُ .

فلمّا وُلّيَ عُمَرُ بن عبد العزيز كفّ عن شتمه ؛ فقال الناس : تَرَكَ السّنّةَ .

وقد روى ابن مسعود (إمّا موقوفاً عليه أو مرفوعاً [٥٣]) قال : كَيْفَ أَنْتُمْ إذَا شَمَلَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو عَلَيْهَا الصّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ ، يَجْرِي عَلَيْهَا النّاسُ فَيَتّخِذُونَهَا سُنّةً ، فَإِذَا غُيّرَ مِنْهَا شَيءٌ ، قيلَ : غُيّرَتِ السّنّةُ !

بعد ذلك قال أبو جعفر الإسكافيّ : وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولاً ، أو ديناً لهوى فيحملون الناس على ذلك ؛ حتّى لا يعرفوا غيره ، كنحو ما أخذ الناس الحجّاج بن يوسف الثقفيّ بقراءة عثمان ، وترك قراءة عبد الله بن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وتوعّد على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بني أُميّة وطغاة مروان بِولْد عليّ عليه السلام وشيعته ، وإنّما كان سلطانه نحو عشرين سنة .

فما مات الحجّاج ، حتّى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها ، لإمساك الآباء عنها ؛ وكفّ المعلّمين عن تعليمها ؛ حتّى لو قرأت عليهم قراءة ابن مسعود ، وأُبيّ ما عرفوها ، ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول الجهالة ، لأنّه إذا استولت على الرعيّة غلبة الحكّام والرؤساء ، وطالت عليهم أيّام التسلّط ، وشاعت فيهم المخافة ، وشملتهم التقيّة ، اتّفقوا على التخاذل والتساكت . فلهذا لا تزال الأيّام تأخذ من بصائرهم وتنقص من ضمائرهم ، وتنقض من مرائرهم ، حتّى تصير البدعة التي أحدثوها غامرة للسنّة التي كانوا يعرفونها.

ولقد كان الحجّاج بن يوسف ، ومن ولّاه كعَبد الملك بن مَرْوان ، والوليد ، ومن كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أُميّة على إخفاء محاسن عليّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته ، وإسقاط أقدارهم ، أحرص منهم على إسقاط قراءة ابن مَسْعُود وابن كعب ، لأنّ تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم ، وفساد أمرهم ، وانكشاف حالهم ؛ وفي اشتهار فضل عليّ عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارُهم ، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ؛ فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله عليه السلام وحملوا الناس على كتمانها وسترها .

ومع ذلك أبى الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلّا استنارة وإشراقاً ، وحبّهم ، إلّا شغفاً وشدّة ، وذكرهم إلّا انتشاراً وكثرة ، وحجّتهم إلّا وضوحاً وقوّة ، وفضلهم إلّا ظهوراً ، وشأنهم إلّا علوّاً ، وأقدارهم إلّا إعظاماً ، حتّى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزّاء ؛ وبإماتتهم ذكرهم أحياء ، وما أرادوا به وبهم من الشرّ تحوّل خيراً .

(ومن هذا المنطلق) ، انتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه ما لم يتقدّمه السابقون ، ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون . ولولا أنّها كانت كالقبلة المنصوبة في الشّهرة ، وكالسّنن المحفوظة في الكثرة ، لم يصل إلينا منها في دهرنا حرف واحد ، إذا كان الأمر كما وصفناه [٥٤] .

لقد أسهبنا في الحديث نوعاً ما عن تجبّر حكّام الجور وتفرعنهم وسلطتهم القاهرة التي فُرضت على الناس من قبل العلماء والخطباء ، وجهد أصحابها في تحريف فضائل ومناقب أمير المؤمنين عليه وعلى آله أفضل صلوات المصلّين . وذلك كي يتّضح لقرّاء العلوم والمعارف الإسلاميّة ، والباحثين عن سبل السلام مدى المحاولات المحمومة التي بذلت في إخفاء اسم الإمام وأثره . حتّى أنّهم لم يكتفوا بمحو فضائل ومناقب أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام ، بل اختلقوا فضائل ونسبوها إلى أبي بكر ، وعُمَر ، وعثمان ، ومعاوية . وكان الخطباء يقرأون ذلك على المنابر في الجُمَع والأعياد ، ويغسلون أدمغة الناس كي لا تدرك الحقائق .

ولنتطرّق الآن إلى وزارة الإمام عليه السلام وولايته وخلافته المستفادة من الآية الشريفة .

نقل الحكام الحسكانيّ في كتابه المناقبيّ النفيس : «شواهد التنزيل» ثماني روايات تحت عنوان ما نزل في أمير المؤمنين عليه السلام في الآية : وَاجْعَل لّى وَزِيرًا مِنْ أَهْلِى هَرُونَ أَخِى أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى . وفيما يأتي بعضها :

روى بسنده المتّصل عن حُذَيفة بن أُسيد قال : أَخَذَ النّبِيّ بِيَدِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ فَقَالَ : أَبْشِرْ وَأَبْشِرْ ! إنّ مُوسَى دَعَا رَبّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ وَزِيراً مِنْ أَهْلِهِ هَارُونَ ؛ وَإِنّي أَدْعُو رَبّي أَنْ يَجْعَلَ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي عَلِيّ أَخِي ! أَشْدُدَ بِهِ ظَهْرِي وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ! [٥٥]

وروى بسنده المتّصل الآخر عن أسماء بنت عُمَيْس قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : اللَهُمّ إِنّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى : اللَهُمّ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي عَلِيّاً أَخِي أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَي نُسَبّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً !

ورواه أيضاً الصبّاح بن يحيى المزنيّ عن الحرث كما في كتاب العيّاشيّ ، وكتاب فرات . ورواه أيضاً حصين عن أسماء [٥٦] .

وروى بسنده المتّصل عن أنس بن مالك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إنّ أَخِي ، وَوَزِيرِي ، وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ، وَخَيْرَ مَنْ أَتْرُكُ بَعْدِي ، يَقْضِي دَيْنِي ، وَيُنْجِزُ مَوعُودِي عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (٥٧) .

وروى ابن المغازليّ بسنده المتّصل عن عِكْرَمَة ، عن ابن عبّاس قال : أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بيدي وأخذ بيد عليّ ، فصلّى أربع ركعات ، ورفع يده إلى السماء ، فقال : اللَهُمّ سَأَلَكَ مُوسَى بْنُ عِمْرانَ وَإنّ مُحَمّدَاً سَأَلَكَ أَنْ تَشْرَحَ لِي صَدْرِي وَتُيَسّرَ لِي أَمْرِي وَتَحَلّلَ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي عَلِيّاً أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي !

قال ابن عبّاس : سمعت منادياً ينادي : يا أحمد ! قد أُوتيت ما سألتَ (٥٨) !

فقال النبيّ : يا أبا الحسن ! ارفع يدك إلى السماء وادع ربّك وسله ، يعطيك !

فرفع عليّ يده إلى السماء وهو يقول : اللَهُمّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْدَاً وَاجْعَلْ لِي عِنْدَك وُدّاً .

فأنزل الله على نبيّه : إِنّ الّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّلِحَتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمنُ وُدّا (٥٩) .

فتلاها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على أصحابه فعجبوا من ذلك عجباً شديداً ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : مِمّ تعجبون ؟! إنّ القرآن أربعة أرباع : فربع فينا أهل البيت خاصّة [وربع في أعدائنا] ، وربع حلال وحرام ، وربع فضائل وأحكام وَاللَهُ أَنْزَلَ فِي عَلِيّ كَرَائِمَ القُرْآنِ (٦٠) .

وقال ديك الجنّ في «الكاملة» :

إنّ النّبِيّ لَمْ يَزَلْ يَقُولُ
وَالخَيْرُ مَا فَاهَ بِهِ الرّسُولُ
إنّكَ مِنّي يَا أَخِي وَيَا عَلي
بِحَيْثُ مِنْ مُوسَى وَهَارُونَ النّبِيّ
لَكِنّهُ لَيْسَ نَبِيّ بَعْدِي
فَأَنْتَ خَيْرُ العَالَمِينَ عِنْدِي (٦١)

وقال ابن مكّيّ :

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنّ النّبِيّ مُحَمّداً
بِحَيْدَرَةٍ أَوْصَى وَلَمْ يَسْكُنِ الرّمْسا
وَقَالَ لَهُمْ وَالقَوْمُ فِي خُمّ حُصّرَاً
وَيَتْلُوا الّذِي فِيهِ وَقَدْ هَمَسُوا هَمْسا
عَلِيّ كَزِرّي مِنْ قَمِيصِي وَإِنّهُ
نَصِيرِيوَمَنّيمِثْلُ هَارُونَ مِن مُوسَى (٦٢)

وقال العونيّ :

هَذَا أَخِي مَوْلاكُمُ وَإِمَامُكُمْ
وَهُوَ الخَلِيفَةُ إِنْ لَقِيْتُ حِمَامَا
مِنّي كَمَا هَارُونَ مِنْ مُوسَى
فَلَا تَأْلُوا لِحَقّ إِمَامِكُمْ إِعْظَامَا
إِنْ كَانَ هَارُونُ النّبِيّ لِقَوْمِهِ
مَا غَابَ مُوسَى سَيّداً وَإِمَامَا
فَهُوَ الخَلِيفَةُ وَالإِمَامُ وَخَيْرُ مَنْ
أَمْضَى القَضَاءَ وَخَفّفَ الأَقْلَامَا (٦٣)

وقال العونيّ أيضاً :

أَمَا رُوِيتَ يَا بَعِيدَ الذّهْنِ
مَا قَالَهُ أَحْمَدُ كَالمُهَنّي
أَنْتَ كَهَارُونَ لِمُوسَى مِنّي
إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ اخْلُفْنِي
فَاسْأَلْهُمُ لِمْ خَالَفُوا الوَصِيّا (٦٤)

وقال ابن الأطْيَس :

مَنْ قَالَ فِيهِ المُصْطَفَى مُعْلِنَا
أَنْتَ لَهُ الحَوْضُ لَدَى الحَشْرِ
أَنْتَ أَخِي أَنْتَ وَصِيّي كَمَا
هَارُونَ مِنْ مُوسَى فِي الأَمْرِ (٦٥)

وقال منصور النمريّ

رَضِيتُ حُكْمَكَ لَا أَبْغِي بِهِ بَدَلاً
لِأَنّ حُكْمَكَ بِالتّوْفِيقِ مَقْرُونُ
آلُ الرّسُولِ خِيَارُ النّاسِ كُلّهِم
وَخَيْرُ آلِ رَسُولِ اللّهِ هَارُونُ (٦٦)

وقال أبان اللاحقيّ :

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا
الخَالِقُ الرّازِقُ الكَبِيرُ
مُحَمّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُ
جَاءَ بِحَقّ عَلَيْهِ نُورُ
وَإِنّ هَارُونَ مُرْتَضَانَا

فِي العِلْمِ مَا إنّ لَهُ نَظِيرُ [٦٧]

ل وقال الصاحب بن عبّاد :

وَصَيّرَهُ هَارُونَهُ بَيْنَ قَوْمِهِ

كَهَارُونَ مُوسَى فَابْحَثُوا وَتَتَدَلّوا [٦٨]

وقال الصاحب أيضاً :

حَالُهُ حَالُهُ هَارُونَ

لِمُوسَى فَافْهَمَاها [٦٩]

وقال زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام :

وَمِنْ شَرَفِ الأَقْوَامِ يَوْماً بِرَايَةٍ

فَإنّ عَلِيّاً شَرّفَتْهُ المَنَاقِبُ

وَقَولُ رَسُولِ اللَهِ وَالحَقّ قَوْلُهُ

وَإنْ رَغِمَتْ مِنْهُ أُنُوفٌ كَوَاذِبُ

بِأَ نّكَ مِنّي يَا عَلِيّ! مَعَالُنا

كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى أَخٌ لِي وَصَاحِبُ [٧٠]

وقال الصنوبريّ :

أَلَيْسَ مَنْ حَلّ مِنْهُ في أُخُوّتِهِ

مَحَلّ هَارُونَمِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانِ [٧١]

وقال ابن شهر آشوب أيضاً : أورد أبو بكر الشيرازيّ في كتابه المسمّى «فيما نَزَلَ مِنَ القُرآنِ في أمير المؤمنين» عن مقاتل ، عن عطاء في تفسير الآية : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ ، قال :

كَانَ فِي التّورَاةِ : يَا مُوسَى إنّي اخْتَرْتُكَ ، وَوَزِيراً هُوَ أَخُوكَ يَعْنِي هَارُونَ لِأَبِيكَ وَأُمّكَ ! كَمَا اخْتَرْتُ لِمُحَمّدٍ إلْيَا هُوَ أَخُوهُ وَوَزِيرُهُ وَوَصِيّهُ والخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ . طُوبَى لَكُمَا مِنْ أَخَوَيْنِ ! وَطُوبَى لَهُمَا مِنْ أَخَوَيْنِ ؛ إلْيَا أَبُو السّبْطَينِ الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ وَمُحْسِنٍ الثّالِثِ مِنْ وُلْدِهِ كَمَا جَعَلْتُ لِأَخِيكَ هَارُونَ شُبّراً وَشُبّيْراً وَمُشَبّراً [٧٢] .

وورد في تفسير القطّان ، ووكيع بن الجَرّاح ، وعطاء الخراسانيّ ، وأحمد في «الفضائل» أنّ ابن عبّاس قال : سمعت أسماء بنت عُمَيْس تقول : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول :

اللَهُمّ إنّي أَقُولُ كَمَا قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ : اللَهُمّ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي يَكُونُ لِي صِهْراً وَخَتَناً .

وروى السّمعَانيّ في «فضائل الصحابة» بإسناده عن مَطَر ، عن أنَس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إنّ خَلِيلِي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي وَخَيْرَ مَنْ أَتْرُكَ بَعْدِي ، مَنْ يُنْجِزُ مَوْعِدِي ، وَيَقْضِي دَيْنِي عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (٧٣) .

وفي أمالي أبي الصّلْت الأهوازيّ بإسناده عن أنس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إنّ أَخِي ، وَوَزِيرِي ، وَوَصِيّي ، وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . وفي خبرٍ : أَنْتَ الإِمَامُ بَعْدِي ، وَالأَمِيرُ ، وَأَنْتَ الصّاحِبُ بَعْدِي ، وَالوَزِيرُ ، وَمَا لَكَ فِي أُمّتِي مِنْ نَظِيرٍ (٧٤) .

وَالوَزِيرُ مِنَ الوَزَرِ ، وَهُوَ المَلْجَأُ ، وَبِهِ سُمّيَ الجَبَلُ العَظِيمُ . وَمِنَ الأَوْزَارِ ، وَهِيَ الأَمْتِعَةُ وَالأَسْلِحَةُ ، لأَ نّهُ مُقَلّدُ خَزَائِنِ المَلِكِ . وَمِنَ الوِزْرِ الّذِي هُوَ الذّنْبُ ، لأَ نّهُ يَتَحَمّلُ أَثْقَالَ المَلِكِ . وَمِنَ الأَزْرِ ، وَهُوَ الظّهْرُ مَعْنَاهُ اشْدُدْ بِهِ ظَهْرِي (٧٥) .

وقال ابن الحجّاج :

أَنَا مَوْلَى مُحَمّدٍ وَعَلِيّ
والإِمَامَيْنِ شُبّرٍ وشُبَيْرِ
أَنَا مَوْلَى وَزِيرَ أَحْمَدَ يَا مَنْ
قَدْ حَبَا مُلْكَهُ بِخَيْرِ وَزِيرِ (٧٦)

وقال الحميريّ :

وَكَانَ لَهُ أَخاً وَأَمِينَ غَيْبٍ
عَلَى الوَحْيِ المُنَزّلِ حِينَ يُوحَى
وَكَانَ لِأَحْمَدَ الهَادِي وَزِيراً
كَمَا هَارُونَ كَانَ وَزِيرَ مُوسَى (٧٧)

وقال الأُستاذ أبو العبّاس الضبّيّ :

لِعَلِيّ الطّهْرِ الشّهِيرِ مَجْدٌ أَنَافَ عَلَى ثَبِيرِ
صِنْوُ النّبِيّ مُحَمّدٍ وَوَصِيّهُ يَوْمَ الغَدِيرِ (٧٨)

وقال شاعر آخر :

مَنْ كَانَ صَاهَرَهُ وَكَانَ وَزِيرَهُ
وَأَبَا بَنِيهِ مُحَمّدَاً مُخْتَارا (٧٩)

وقال علاء الدين أبو المكارم السّمنانيّ البياضيّ المكّيّ المتوفّى في سنة ٧٣٦ ه في كتاب «العروة الوثقى» : وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السلام وسلام الملائكة الكرام : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . وقال في غدير خمّ بعد حجّة الوداع على ملأ من المهاجرين والأنصار آخذاً بكتفه : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ . وهذا حديث متّفق على صحّته .

وعلى هذا صار سيّد الأولياء ، وكان قلبه على قلب محمّد عليه التحيّة والسلام .

وإلى هذا المعنى أشار ... أبو بكر صاحب غار النبيّ صلّى الله عليه وآله حين بعث أبا عبيدة بن الجرّاح إلى عليّ لاستحضاره للبيعة بقوله : يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ! أَنْتَ أَمِينُ هَذِهِ الأُمّةِ أَبْعَثُكَ إِلَى مَنْ هُوَ فِي مَرْتَبَةِ مَنْ فَقَدْنَاهُ بِالأَمْسِ ، يَنْبَغِي أَنْ تَتَكَلّمَ عِنْدَهُ بِحُسْنِ الأَدَبِ (٨٠) .

وقال أبو مشكور محمّد بن عبد السعيد بن محمّد الكشّيّ السالميّ الحنفيّ في «التّمهيد في بَيان التّوحيدِ» : قالت الروافض : الإمامة منصوصة من قبل النبيّ لعليّ بن أبي طالب بدليل أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم جعله وصيّاً لنفسه ، وجعله خليفة من بعده حيث قال : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي !

ثمّ هارون عليه السلام كان خليفة موسى عليه السلام ، فكذلك عليّ خليفة رسول الله .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى ، إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله جعله وليّاً للناس لمّا رجع من مكّة ونزل في غدير خمّ ؛ فأمر النبيّ أن يجمع رحال الإبل ، فجعلها كالمنبر وصعد عليها فقال : أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟! فَقَالُوا : نَعَمْ ! فَقَالَ عَلَيْهِ السّلَامُ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ ، فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ! اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . والله جلّ جلاله يقول :

إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . وهذه الآية نزلت في شأن عليّ ، وهي تدلّ على أنّه كان أولى الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وقال في الجواب عمّا ذكر بعد بيان أدلّة الشيعة : وأمّا قول الشيعة إنّ النبيّ جعله وليّاً ، قلنا : أراد به في وقته ، يعني بعد عثمان ، وفي زمن معاوية ، ونحن كذا نقول . وكذا الجواب عن قوله تعالى : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا ــ الآية .

فنقول : إنّ عليّاً رضيّ الله عنه كان وليّاً وأميراً بهذا الدليل في أيّامه ووقته ، وهو بعد عثمان . وأمّا قبل ذلك ، فلا (٨١) . تلاحظون أنّ هذا الرجل لم يستطع أن يشكّك في صحّة سند هذه الأدلّة أو في دلالتها على ولاية الإمام وإمامته قطّ ، فحملها على معنى لو قيل للناشئين ، لعرفوا بطلانه بوضوح .

وروى الشيخ سليمان القُنْدُوزيّ الحنفيّ عن كتاب «مودّة القربى» ، عن أنس بن مالك مرفوعاً أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إنّ اللّهَ اصْطَفَانِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ فاخْتَارَنِي وَاخْتَارَ لِي وَصِيّاً ، وَاخْتَرْتُ ابْنَ عَمّي وَصِيّي ، يُشَدّ عَضُدِي كَمَا يُشَدّ مُوسَى بِأَخِيهِ هَارُونَ ، وَهُوَ خَلِيفَتِي وَوَزِيرِي ، وَلُو كَانَ بَعْدِي نَبِيّ لَكَانَ عَلِيّ نَبِيّاً ، وَلَكِنْ لَا نُبُوّةَ بَعْدِي (٨٢) .

وكذلك نقل مير سيّد عليّ الهمدانيّ في كتاب «مَودّة القُرْبى» عن أبي موسى الحميديّ أنّه قال :

كنت مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأبو بكر ، [وعمر] ، وعثمان ، وعليّ . فالتفت (رسول الله) إلى أبي بكر ، فقال : يا أبا بكر ! (إنّ) هذا الذي تراه وزيري في السماء ؛ ووزيري في الأرض ؛ يعني : عليّ بن أبي طالب . (يا أبا بكر) ، إن أحببتَ أن تلقى الله وهو عنك راضٍ ، فأرضِ عليّاً ! فإنّ رضاه رضا الله وغضبه غضب الله [٨٣] .

وفي المودّة السابعة عن الإمام الصادق ، عن آبائه عليهم السلام : لَقَدْ قَالَ النَبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ لِعَلِيّ عَلَيْهِ السّلَامُ فِي عَشَرَةِ مَوَاضِعَ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى [٨٤] .

وكذا في «ينابيع المودّة» عن أحمد بن حَنْبَل في مسنده ، بسنده عن عَطِيّة العَوْفيّ ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعليّ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٨٥] .

وأخرج أحمد بن حَنْبَل أيضاً عن سعد بن أبي وقّاص ، وعن أسماء بنت عُمَيْس ، وعن سعيد بن زيد الترمذيّ ، عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبي وقّاص أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعليّ عليه السلام : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى . وقال أحمد بن حنبل : هذا حديث صحيح [٨٦] .

وأخرج عن موفّق بن أحمد الخوارزميّ بسنده ، عن مخدوج بن زيد الهاني ، وبسند آخر عن يحيى ، ومجاهد أنّهما رويا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال : هَذَا عَلِيّ لَحْمُهُ لَحْمِي وَدَمُهُ دَمِي وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٨٧] .

وروى عن أحمد بن حَنْبَل ، وموفّق بن أحمد بسنديهما عن زيد بن أبي أوفى أنّه قال : دخلتُ على رسول الله صلّى الله عليه وآله في مسجده ، وقد آخى بين أصحابه . فقال عليّ عليه السلام : يا رسول الله ! فعلتَ بأصحابك ! وما فعلتَ بي ! فقال [رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم] : وَالّذِي بَعَثَنِي بِالحَقّ نَبِيّاً أَخّرْتُكَ لِنَفْسِي فإنّكَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! فَأَنْتَ أَخِي وَوَارِثِي ! وَأَنْتَ مَعِي فِي قَصْرِي فِي الجَنّةِ مَعَ ابْنَتِي فَاطِمَةَ وَأَنْتَ رَفِيقِي ! ثُمّ قَرَأَ : «إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ» المُتَحَابّونَ فِي اللَهِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ [٨٨] .

وأخرجها ابن المغازليّ والحمّوئيّ عن زيد بن أرقم [٨٩] .

[٨٩] .

وروى أبو المؤيّد موفّق بن أحمد الخوارزميّ المكّيّ بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : يَا عَلِيّ ! إنّهُ يَحِلّ لَكَ فِي المَسْجِدِ مَا يَحِلّ لِي وَإنّكَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنّكَ تَذُودُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ القِيَامَةِ رِجَالاً ، كَمَا يُذادُ البَعِيرُ الأَجْرَبُ عَنْ المَاءِ بِعَصَاً لَكَ مِنْ عَوْسَجٍ [٩٠] ؛ كَأَ نّي أَنْظُرُ إلَى مَقَامِكَ مِنْ حَوْضِي [٩١] .

وفي «زوائد مسند عبد الله بن أحمد بن حَنْبَل» عن يحيى بن عيسى ، عن الأعْمَش ، عن عباية الأسديّ ، عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لأُمّ سَلَمَة رضي الله عنها : يَا أُمّ سَلَمَة ! عَلِيّ مِنّي وَأَنَا مَنْ عَلِيّ ! لَحْمُهُ مَنْ لَحْمِي ، وَدَمُهُ مِنْ دَمِي ؛ وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى ! يَا أُمّ سَلَمَة ! اسْمَعِي وَاشْهَدِي ! هَذَا عَلِيّ سَيّدُ المُسْلِمِينَ [٩٢] .

وذكر في «المناقب» عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول في عليّ خصالاً لو كانت واحدة منها في رجل اكتفى بها فضلاً وشرفاً .

قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : عَلِيّ مِنّي كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى .

وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : عَلِيّ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ .

وقوله : عَلِيّ مِنّي كَنَفْسِي ؛ طَاعَتُهُ طَاعَتِي ، وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَتِي .

وقوله : حَرْبُ عَلِيّ حَرْبُ اللَهِ ، وَسِلْمُ عَلِيّ سِلْمُ اللَهِ .

وقوله : وَلِيّ عَلِيّ وَلِيّ اللَهِ ، وَعَدُوّ عليّ عَدُوّ اللَهِ .

وقوله : عَلِيّ حُجّةُ اللَهِ عَلَى عِبَادِهِ .

وقوله : حُبّ عَلِيّ إيمَانٌ وَبُغْضُهُ كُفْرٌ .

وقوله : حِزْبُ عَلِيّ حِزْبُ اللَهِ ، وَحِزْبُ أَعْدَائِهِ حِزْبُ الشّيْطَانِ .

وقوله : عَلِيّ مَعَ الحَقّ وَالحَقّ مَعَهُ لَا يَفْتَرِقَانِ .

وقوله : عَلِيّ قَسِيمُ الجَنّةِ وَالنّارِ .

وقوله : مَنْ فَارِقَ عَلِيّاً فَقَدْ فَارَقَنِي ، وَمَنْ فَارَقَنِي فَقَدْ فَارَقَ اللَهِ .

وقوله : شِيعَةُ عَلِيّ هُمُ الفَائِزُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ [٩٣] .

وها نحن قد نقلنا هذا الحديث المبارك عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، كم نرى من المناسب أن نذكر كلمات نطق بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مصدّرة بلفظ : عليّ ، ورواها السيوطيّ في «الجامع الصغير» . فقد أخرج السيوطيّ عن الطبرانيّ ، عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال :

عَلِيّ أَخِي فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ .

وعن الطبرانيّ ، وضياء عن عبد الله بن جعفر ، عن رسول الله ، قال :

عَلِيّ أَصْلِي ، وَجَعْفَرٌ فَرْعِي .

وعن الحاكم في «المستدرك» ، عن جابر بن عبد الله :

عَلِيّ إمَامُ البَرَرَةِ وَقَاتِلُ الفَجَرَةِ ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ .

وعن الدارقُطْنيّ في «الأفراد» ، عن عبد الله بن عبّاس ، قال : قال رسول الله :

عَلِيّ بَابُ حِطّةٍ ، مَنْ دَخَلَ مِنْهُ كَانَ مُؤْمِناً ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْهُ كَانَ كَافِراً .

وعن ابن عَديّ في «الكامل» ، عن ابن عبّاس ، قال : قال رسول الله : عَلِيّ عَيْبَةُ عِلْمِي .

وعن الطبرانيّ في «الأوْسَط» ، وعن الحاكم في «المستدرك» ، عن أمّ سَلَمَة ، قالت : قال رسول الله :

عَلِيّ مَعَ القُرْآنِ والقُرْآنُ مَعَ عَلِيّ ، لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ .

وعن مسند أحمد بن حَنْبَل ، والترمذيّ ، والنسائيّ ، وابن ماجة ، عن حُبشي بن جُنَادة : عَلِيّ مِنّي وَأَنَا مِنْ عَلِيّ وَلاَ يُؤَدّي عَنّي إلّا أَنَا أَوْ عَلِيّ .

وعن الخطيب في «تاريخ بغداد» ، وعن الديلميّ في « مسند الفردوس» عن ابن عبّاس : عَلِيّ مِنّي بِمَنْزِلَةِ رَأْسِي مِنْ بَدَنِي .

وذكر أبو بكر المطيريّ في جزئه ، عن أبي سعيد الخدريّ : عَلِيّ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

ونقل عن البيهقيّ في «فضائل الصحابة» ، وعن الديلميّ في «مُسنَد الفردوس» عن أنس : عَلِيّ يَزْهَرُ فِي الجَنّةِ كَكَوْكَبِ الصّبْحِ لِأَهْلِ الدّنْيَا .

وروى عن المحامليّ في أماليه ، عن ابن عبّاس : عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَوْلَى مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ .

وعن ابن عديّ في «الكامل» عن عليّ بن أبي طالب : عَلِيّ يَعْسُوبُ المُؤْمِنِينَ ، وَالمَالُ يَعْسُوبُ المُنَافِقِينَ .

وعن البزّاز ، عن أنس : عَلِيّ يَقْضِي دَيْنِي [٩٤] .

وذكر الإمام عبدالرؤوف المناويّ ، عن عبد الرزّاق في «الجامع» أنّ رسول الله قال : أَبْشِرْ يَا عَلِيّ ! حَيَاتُكَ وَمَوْتُكَ مَعِي [٩٥] .

قال المجلسيّ : ويؤيّد هذه الأخبار التي جعلته بمنزلة هارون من موسى مارواه السيّد الرضيّ رضي الله عنه في «نهج البلاغة» في باب اختصاصه بالرسول صلّى الله عليه وآله أنّه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم له : إنّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ ، وَتَرَى مَا أَرَى ، إلّا أَنّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ ، وَلَكِنّكَ وَزِيرٌ ، وَإِنّكَ عَلَى خَيْرٍ [٩٦] .

وقال ابن أبي الحديد في شرحه بعد نقل الأخبار المؤيّدة لذلك : ويدلّ على أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وزير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من نصّ الكتاب والسنّة قول الله : وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَرُونَ أَخِي أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي .

وقول رسول الله في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام : أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي !

ذلك أنّه أثبت لعليّ جميع مراتب هارون ومنازله من موسى ؛ فإذَن هو وزير رسول الله ، وشادّ أزره . ولولا أنّه خاتم النبيّين ، لكان شريكاً في أمره [٩٧] . وقال ابن أبي الحديد في موضع آخر أيضاً : قال عليّ يوم الشورى : أَفِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي غَيْرِي ؟! قَالُوا : لَا [٩٨] !

وروى الكَراجكيّ في «كنز الفوائد» بسنده المتّصل عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال : لمّا فتح عليّ عليه السلام خيبراً ، وقدم عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال له النبيّ :

لَوْلَا أَنْ تَقُولَ فِيكَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي مَا قَالَتِ النّصَارَى فِي المَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ ، لَقُلْتُ فِيكَ اليَوْمَ مَقَالاً لَا تَمُرّ بِمَلأٍ إِلّا أَخَذُوا التّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ وَمِنْ فَضْلِ طَهُورِكَ فَاسْتَشْفَوا بِهِ ؛ وَلَكِنْ حَسْبُكَ أَنْ تَكُونَ مِنّي وَأَنَا مِنْكَ ! تَرِثُنِي وَأَرِثُكَ !

وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! وَإِنّكَ تُبْرِىءُ ذِمّتِي ، وَتُقَاتِلُ عَلَى سُنّتِي ! وَإِنّكَ غَداً فِي الآخِرَةِ أَقْرَبُ النّاسِ مِنّي ! وَإِنّكَ أَوّلُ مَنْ يَرِدُ عَلَيّ الحَوْضَ وَإِنّكَ عَلَى الحَوْضِ خَلِيفَتِي ! وَإِنّكَ أَوّلُ مَنْ يُكْسَى مَعِي ! وَإِنّكَ أَوّلُ دَاخِلِ الجَنّةِ مِنْ أُمّتِي ! وَإِنّ شِيعَتَكَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ مُبْيَضّةً وُجُوهُهُمْ حَوْلِي ؛ أَشْفَعُ لَهُمْ وَيَكُونُونَ غَداً فِي الجَنّةِ جِيرَانِي ! وَإِنّ حَرْبَكَ حَرْبِي ! وَإِنّ سِلْمَكَ سِلْمِي ! وَإِنّ سَرِيرَتَكَ سَرِيرَتِي ! وَعَلَانِيَتَكَ عَلَانِيَتِي ! وَإِنّ وُلْدَكَ وُلْدِي !

وَإِنّكَ مُنْجِزٌ عِدَاتِي ! وَإِنّكَ عَلِيّ ! وَلَيسَ أَحَدٌ مِنَ الأُمّةِ يَعْدِلُكَ عِنْدِي !

وَإِنّ الحَقّ عَلَى لِسَانِكَ ، وَفِي قَلْبِكَ ، وَبَيْنَ عَيْنَيْكَ ! وَإِنّ الإِيمَانَ خَالَطَ لَحْمَكَ وَدَمَكَ ، كَمَا خَالَطَ لَحْمِي وَدَمِي ! وَإِنّهُ لَا يَرِدُ الحَوْضَ مُبْغِضٌ لَكَ ! وَلَا يَغِيبُ مُحِبّ لَكَ غَداً عَنّي حَتّى يَرِدَ عَلَيّ الحَوْضَ مَعَكَ يَا عَلِيّ !

فَخَرّ عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ سَاجِداً ؛ ثُمّ قَالَ : الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي مَنّ عَلَيّ بِالإِسْلَامِ ؛ وَعَلّمَنِي القُرْآنَ ؛ وَحَبّبَنِي إِلَى خَيْرِ البَرِيّة : خَاتَمِ النّبِيّينَ ، وَسَيّدِ المُرْسَلِينَ ، إِحْسَاناً مِنْهُ إِلَيّ وَفَضْلاً مِنْهُ عَلَيّ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : يَا عَلِيّ ! لَوْلَا أَنْتَ لَمْ يُعْرَفِ المُؤْمِنُونَ بَعْدِي [٩٩] .

إنّ الحديث النبويّ الشريف : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي المشهور بين علماء الشيعة والعامّة بحديث المنزلة هو من الأحاديث المسلّم صدورها عن رسول الله ، وذهب الفريقان إلى تواتره . ويمكن أن نعتبره في مصافّ عدّة معدودة من الأحاديث المتواترة اللفظيّة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . ولا يلاحظ كتاب من الكتب ، سواء في حقل التفسير ، أو الحديث ، أو التأريخ ، أو السيرة ، أو السنن ، إلّا وقد روى صاحبه هذا الحديث عن رسول الله في مواطن عديدة من كتابه .

ونقل السيّد هاشم البَحْرانيّ في الباب الثالث والثمانين من كتاب «غاية المرام» أحد عشر حديثاً من طريق العامّة ، وفي الباب الرابع والثمانين واحداً وعشرين حديثاً من طريق الخاصّة إنّ عَلِيّاً عَلَيهِ السّلَامُ وَزِيرُ رَسُولِ اللَّهِ وَوَارِثُهُ . كما نقل في الباب العشرين مائة حديث من العامّة ، وفي الباب الحادي والعشرين سبعين حديثاً مع ذكر السند والمصدر واتّصال الرواة على أنّ رسول الله قال لعليّ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي !

ونكتفي فيما يأتي بذكر عدد من الأحاديث التي رواها العامّة ، وعدداً من الأحاديث التي نقلها الخاصّة .

روى عبد الله بن أحمد بن حنبل بسنده المتّصل عن موسى الجُهَنيّ قال : دخلت على فاطمة عليها السلام (بنت أمير المؤمنين عليه السلام) ، فقال رفيقي أبو مهدي : كم لك ؟! فقلت : ستّ وثمانون سنة ! قال موسى الجهنيّ : قال رفيقي : سمعتَ من أبيك شيئاً ؟! قلت : قال أبي : حدّثتني فاطمة أنّ أسماء بنت عُمَيْس حدّثتها أنّ رسول الله قال لعليّ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدي [١٠٠] .

وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل بسنده المتّصل عن سعيد بن المُسيّب ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه سعد بن أبي وَقّاص قال إنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعليّ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا لَا نَبِيّ بَعْدِي !؟

قال سَعيد بن المُسَيّب : لمّا سمعت هذا الحديث من ابن سَعْد ، أحببتُ أن أُشافه بذلك سعداً فلقيته ، فذكرت له ماذكره لي عامر . قلت : هل أنت سمعت من رسول الله ؟! فوضع سعد إصبعيه في أُذنيه وقال : استكّتا إن لم أكن سمعته من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم [١٠١] .

وروى البُخاريّ مضمون هذا الحديث في الربع الأخير من صحيحه ، بسنده المتّصل عن إبراهيم بن سعد ، عن أبيه سعد بن أبي وقّاص [١٠٢] .

وروى البخاريّ في صحيحه أيضاً ، في الكرّاس السادس منه ، وهو نصف الجزء ، في الخبر الخامس ، بسنده المتّصل عن مَصْعَب بن سَعْد ، عن أبيه سعد بن أبي وقّاص أنّ

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خرج إلى تبوك ، واستخلف عليّاً على المدينة . فقال عليّ : أتخلفني في الصبيان والنساء ؟!

فقال النبيّ : أَلَا تَرضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَيْسَ نَبِيّ بَعْدِي ! (١٠٣)

وفي «الجمع بين الصحاح الستّة» لمؤلّفه رزين ، في الجزء الثالث من الثلث الأخير منه ، في باب مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ، من «صحيح أبي داود» وهو كتاب «السّنَن» ؛ و «صحيح الترمذيّ» عن أبي سريحة ، وزيد بن أرقم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . وعن سعد بن أبي وقّاص أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعليّ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! قال ابن المسيّب : أخبرني بهذا الحديث عامر بن سعد عن أبيه ، فأحببتُ أن أُشافه به سعداً فلقيته ، فقلتُ : أنت سمعتَ هذا من رسول الله ؟!

فَوَضَعَ إِصْبَعَهُ فِي أُذُنَيْهِ فَقَالَ : نَعَمْ ! وَإِلّا فَاسْتَكّتَا (١٠٤) .

ونقل عن ابن المغازليّ الشافعيّ بسنده المتّصل عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله غزا غزاة وقال لعليّ : اخْلُفْنِي فِي أَهْلِي! فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَهِ! يَقُولُ النّاسُ : خَذَلَ ابْنَ عَمّهِ . فَرَدّدَهَا عَلَيهِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي (١٠٥) .

وروى عن ابن المغازليّ أيضاً بسنده المتّصل ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه ، قال : قال لي معاوية : أتحبّ عليّاً ؟!

قَالَ سَعْدٌ : قُلْتُ : وَكَيْفَ لَا أُحِبّهُ وَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَقُولُ لَهُ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدي ؛ وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَارِزَاً يَوْمَ بَدْرٍ وَجَعَلَ يُحَمْحِمُ الفَرَسُ وَيَقُولُ :

بَازِلُ عَامَيْنِ حَدِيثُ سِنّي
سَنَحْنَحُ اللّيْلِ كَأَنّي جِنّي
لِمِثْلِ هَذا وَلَدَتْنِي أُمّي

قَالَ : وَمَا رَجَعَ حَتّى خُضِبَ دَماً (١٠٦) .

وروى عليّ بن أحمد المالكيّ ــ وهو من أعيان علماء العامّة ــ في «الفصول المهمّة» عن كتاب «الخصائص» ، عن العبّاس بن عبد المطّلب أنّه قال : سمعت عمر بن الخطّاب يقول : كفّوا عن عليّ بن أبي طالب إلاّ بخير ! فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : في عليّ ثلاث خصال ؛ وددتُ أنّ لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس ؛ وذاك أنّي كنت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجرّاح ونفر من أصحاب رسول الله ، إذ ضرب النبيّ على كتف عليّ وقال :

يَا عَلِيّ ! أَنْتَ أَوّلُ المُسْلِمينَ إسْلَاماً وَأَنْتَ أَوّلُ المُؤْمِنِينَ إيمَاناً وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ! كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنّهُ يُحِبّنِي وَهُوَ مُبْغِضُكَ !

يَا عَلِيّ ! مَنْ أَحَبّكَ فَقَدْ أَحَبّنِي ! وَمَنْ أَحَبّنِي أَحَبّهُ اللَهُ تَعَالَى ؛ وَمَنْ أَحَبّهُ اللَهُ أَدْخَلَهُ الجَنّةَ ! وَمَنْ أَبْغَضَكَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي ! وَمَنْ أَبْغَضَنِي أَبْغَضَهُ اللَهُ تَعَالَى ، وَأَدخَلَهُ النّارَ (١٠٧) .

وروى ابن المغازليّ الشافعيّ بسنده عن خالد بن قيس قال : سأل رجل معاوية عن مسألة ، فقال معاوية : سل عنها عليّ بن أبي طالب ، فإنّه أعلم !

قال ذلك الرجل : يا أمير المؤمنين قولك فيها أحبّ إليّ من قول عليّ !

فقال معاوية : بئس ما قلت ؛ ولؤم ما جئت به ! لَقَدْ كَرِهْتَ رَجُلاً كَانَ رَسُولُ اللَهُ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَغُرّهُ العِلْمَ غَرّاً ! وَلَقَدْ قَالَ لَهُ رسُولُ اللَهِ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! وَلَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ يَسْأَلُهُ فَيَأْخُذُ عَنْهُ ؛ وَلَقَدْ شَهِدْتُ عُمَرَ إذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ شَيءٌ قَالَ : هَا هُنَا عَلِيّ .

قُمْ ! لَا أَقَامَ اللَهُ رِجْلَيْكَ ! وَمَحَى اسْمُهُ مِنَ الدّيوانِ .

وَمَنَاقِبٌ شَهِدَ العَدُوّ بِفَضْلِهَا
وَالفَضْلُ مِا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ (١٠٨)

ورواه الشيخ الطوسيّ في أماليه بسنده المتّصل عن محمّد بن عمّار بن ياسر ، عن أبي ذرّ الغفاريّ جُنْدب بن جُنَادة ، قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أخذ بيد عليّ وقال :

يَا عَلِيّ ! أَنْتَ أَخِي ، وَصَفِيّي ، وَوَصِيّي ، وَوَزِيرِي ، وَأَمِينِي ! مَكَانُكَ فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَوْتِي كَمَكَانِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ مَعِي ! مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُحِبّكَ خَتَمَ اللَهُ عَزّ وَجَلّ بِالأَمْنِ وَالإيمَانِ ! وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ يُبْغِضُكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الإسْلَامِ نَصِيبٌ (١٠٩) .

وذكر الشيخ الطبرسيّ في «الاحتجاج» أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا دخل البصرة ، وفرغ من معركة الجمل ، قال بعض أصحابه : إنّ عليّاً لا يقسّم الفيء فينا بالسويّة ، ولا يعدل في الرعيّة ، وغير ذلك من المسائل التي أجاب عنها أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة خطبها ؛ وهذه الخطبة مرويّة عن يَحْيى بن عبد الله بن الحسن ، عن أبيه : عبدالله بن الحسن قال : لمّا دخل أمير المؤمنين عليه السلام البصرة ، خطب هذه الخطبة بعد دخوله بأيّام . فقام إليه رجل وقال : يا أمير المؤمنين ! أخبرني مَنْ أهل الجماعة ؟! ومَنْ أهل الفرقة ؟ ومَنْ أهل البدعة ؟ ومَنْ أهل السنّة ؟

قال أمير المؤمنين عليه السلام في جوابه : ويْحَكَ ! أما إذا سألتني ، فافهم عنيّ ؛ ولا عليك أن تسال عنها أحداً بعدي !

أمّا أهل الجماعة ، فأنا ومن اتّبعني ، وإن قلّوا . وذلك الحقّ عن أمر الله تعالى ، وعن أمر رسوله ! وأمّا أهل الفرقة ، فهم المخالفون لي ولمن اتّبعني ، وإن كثروا . أمّا أهل

السنّة ، فهم المتمسّكون بما سنّه الله لهم ورسوله ، وإن قلّوا . وأمّا أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ولرسوله ، العاملون برأيهم وأهوائهم ، وإن كثروا . وقد مضى منهم الفوج الأوّل وبقيت أفواج ؛ وعلى الله قبضها ، واستيصالها عن جُدَدِ الأرض .

فقام إليه عمّار بن ياسر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ الناس يذكرون الفيء ، ويزعمون أنّ من قاتلنا (أصحاب الجمل) فهو وماله وولده فيء لنا .

فقام إليه رجل من بكر بن وائل ، ويدعى عبّاد بن قيس ، وكان ذا عارضة ولسان شديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ! والله ما قسمتَ بالسويّة ! ولا عدلتَ في الرعيّة !

قال أمير المؤمنين : لِمَ ؛ ويحك ؟!

قال الرجل : لأنّك قسمتَ ما في العسكر ! وتركت الأموال والنساء والذرّيّة !

قال أمير المؤمنين عليه السلام : أيّها الناس ! من كانت به جراحة فليداوها بالسمن !

فقال عبّاد بن قَيْس : جئنا نطلب غنائمنا ، فجاءنا بالتّرّهَات [١١٠] (الهراء الذي ليس له معنى) .

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : إن كنت كاذباً فلا أماتك الله حتّى يدركك غلام ثقيف [١١١] ! قيل : ومن غلام ثقيف ؟! قال : رجل لا يدع للّه حرمة إلّا انتهكها .

فقيل له : أفيموت أو يقتل ؟

فقال الإمام : يقصمه قَاصِمُ الجَبّارِينَ بموت فاحش يحترق منه دبره لكثرة ما يجري من بطنه .

ثمّ قال عليه السلام : يا أخا بكر ! أنت امرؤ ضعيف الرأي ! أَوَ ما علمتَ أنّا لا نأخذ الصغير بذنب الكبير ؟! وأنّ الأموال كانت لهم قبل الفرقة ؛ وتزوّجوا على رشدة ، وولدوا على فطرة ! وإنّما لكم ما حوى عسكركم ، وما كان في دورهم فهو ميراث . فإن عدا أحد منهم أخذناه بذنبه ؛ وإن كفّ عنّا لم نحمل عليه ذنب غيره .

يا أخا بكر ! لقد حكمت فيهم بحكم رسول الله صلّى الله عليه وآله في أهل مكّة ، فقسّم ما حوى العسكر ، ولم يتعرّض لما سوى ذلك . وإنّما اتّبعت أثره حَذْوَ النّعْلِ بِالنّعْلِ [١١٢] .

يا أخا بكر ! أما علمت أنّ دارَ الحَرْبِ يحلّ ما فيها ؟! وأنّ دَارَ الهِجْرَةِ يحرّم ما فيها إلّا بالحقّ !

فَمَهْلاً مَهْلاً رَحِمَكُمْ اللّهُ ! فإن لم تصدّقوني ، وأكثرتم عَلَيّ ــ وذلك أنّه تكلمّ في هذا غير واحد ــ فأيّكم يأخذ عائشة بسهمه ؟!

ولمّا بلغ كلامه هذه النقطة ، قالوا أجمعهم : يا أمير المؤمنين ! أصبتَ وأخطأنا ! وعلمتَ وجهلنا ! فنحن نستغفر الله تعالى ! ونادى الناس من كلّ جانب : أصبتَ يا أمير المؤمنين ! أصاب الله بك الرشاد والسداد !

فقام عبّاد ، فقال : أيّها النّاسُ ! إنّكم والله لو اتّبعتموه وأطعتموه لن يضلّ بكم عن منهل نبيّكم حتّى قيد شعرة ! وكيف لا يكون ذلك ، وقد استودعه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم علم المَنَايَا وَالقَضَايَا وَفَصْلَ الخِطَاب على منهاج هارون وقال له : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! فضلاً خصّه الله به ، وإكراماً منه لنبيّه حيث أعطاه ما لم يعط أحداً من خلقه .

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام : انظروا رحمكم الله ماتؤمرون ، فامضوا له !

فإنّ العالم أعلم بما يأتي به من الجاهل الخسيس الأخس . فإنّي حاملكم إنّ شاء الله إن أطعتموني على سبيل النجاة ، وإن كانت فيه مشقّة شديدة ، ومرارة عديدة . والدنيا حلوة الحلاوة لمن اغترّ بها من الشقاوة والندامة عمّا قليل !

ثمّ إنّي أخبركم أنّ جيلاً من بنى إسرائيل أمرهم نبيّهم أن لا يشربوا من النهر ، فلجّوا في ترك أمره فشربوا منه إلّا قليل منهم . فكونوا رحمكم الله ! من أُولئك الذين أطاعوا نبيّهم ، ولم يعصوا ربّهم . وَأَمّا عَائِشَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النّسَاءِ ؛ وَلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ حُرْمَتُهَا الأُولَى ؛ وَالحِسَابُ عَلَى اللّهِ ؛ يَعْفُو عَمّنْ يَشَاءُ وَيُعَذّبُ مَنْ يَشَاءُ [١١٣] .

ونقل الملا عليّ المتّقي هذه الخطبة كلّها في «كنز العمّال» ، لكنّه ذكر أنّ ذلك الرجل الذي قام وقال : أَيّهَا النّاسُ ! إنّكم والله لو اتّبعتموه وأطعتموه ، لن يضلّ بكم عن منهل نبيّكم حتّى قيد شعرة ! ذلك أنّه أُودع علم المَنَايَا وَالقَضَايَا وَفَصْلَ الخِطَابِ ، وأنّ النبيّ قال له : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي هو عمّار بن ياسر .

وقال : فَقَامَ عَمّارٌ فَقَالَ : أَيّهَا النّاسُ ! وأنا أرى أنّ هذا هو الصحيح لسببين : الأوّل : أنّ تعريف أمير المؤمنين عليه السلام بهذا النحو من قبل عمّار بن ياسر ذي السوابق الحسنة أقرب إلى الصواب من تعريف رجل مجهول من قبيلة بكر اسمه عبّاد ، بخاصّة أنّه قام في البداية واعترض على الإمام بلسان سليط ونبرة حادّة . الثاني : أنّ لفظ عمّار يشبه لفظ عبّاد في الكتابة كثيراً ، وأغلب الظنّ أنّ الناسخ قرأ (عبّاد) مكان (عمّار) في الكتابة . وكذا كتب في «الاحتجاج» ، و «غاية المرام» .

وورد في «كنز العمّال» حول عائشة قوله :

وَأَمّا عَائِشَةُ فَقَدْ أَدْرَكَهَا رَأْيُ النّسَاءِ ؛ وَشَيءٌ كَانَ فِي نَفْسِهَا عَلَيّ يَغْلِي فِي جَوْفِهَا كَالمِرْجَلِ ؛ وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ بِهِ إِلَيّ لَمْ تَفْعَلْ ؛ وَلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ حُرْمَتُهَا الأُولَى ؛ وَالحِسَابُ عَلَى اللّهِ ؛ يَعْفُو عَمّن يَشَاءُ ؛ وَيُعَذّبُ مَنْ يَشَاءُ [١١٤] .

وذكر الشريف الرضي رحمة الله عليه هذه الفقرة من الخطبة بالنحو الآتي : وَأَمّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النّسَاءِ ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ القَيْنِ ؛ وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيّ لَمْ تَفْعَلْ ؛ وَلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ حُرْمَتُهَا الأُولَى وَالحِسَابُ عَلَى اللّهِ تَعَالَى [١١٥] .

أي : أنّ الحقد والشنآن الذي وقر في صدرها عَلَيّ ، وكان دائم الغليان كالحديد المنصهر في أتّون الحِدادة هو الذي دفعها إلى ذلك العمل ، إذ ركبت جَمَلها وتحرّكت تلقاء البصرة على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألفاً ؛ ورفعت لواء المعارضة ، وتأمّرت على الجيش . ولولا ضغنها عَلَيّ خاصّة ، لما قامت بهذا العمل مع شخص آخر على وجه البسيطة .

ولمّا انتهت معركة الجمل ، نادى منادي أمير المؤمنين عليه السلام : أَلَا لَا يُجْهَزْ عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا يُتْبَعْ مُوَلّ ؛ وَلَا يُطْعَنْ فِي وَجْهِ مُدْبِرٍ ؛ وَمَنْ أَلْقَى السّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ ؛ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ . ثُمّ آمَنَ الأَسْوَدَ وَالأَحْمَرَ (١١٦) .

وجاء في «كنز العمّال» بعد هذه الفقرات : وَلَا يُسْتَحَلّنّ فَرْجٌ وَلَا مَالٌ . وَانْظُرُوا مَا حَضَرَ بِهِ الحَرْبُ مِنْ آنِيَةٍ فَاقْبِضُوهُ ! وَمَا كَانَ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ ؛ وَلَا تَطْلُبُنّ عَبْدَاً خَارِجَاً مِنَ العَسْكَرِ ! وَمَا كَانَ مِنْ دَابّةٍ أَوْ سِلَاحٍ فَهُوَ لَكُمْ ! وَلَيْسَ لَكُمْ أُمّ وَلَدٍ ؛ وَالمَوَارِيثُ عَلَى فَرِيضَةِ اللَهِ ؛ وَأَيّ امْرَأَةٍ قُتِلَ زَوْجُهَا فَلْتَعْتَدّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَاً .

قَالُوا : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! تُحِلّ لَنَا دِمَاءَهُم ؛ وَلَا تُحِلّ لَنَا نِسَاءَهُمْ ؟!

فَقَالَ : كَذَلِكَ السّيَرَةُ فِي أَهْلِ القِبْلَةِ ! فَخَاصَمُوهُ .

قَالَ : فَهَاتُوا سِهَامَكُمْ ؛ وَاقْرَعُوا عَلَى عَائِشَةَ ، فَهِيَ رَأْسُ الأَمْرِ وَقَائِدُهُمْ ! فَعَرَفُوا وَقَالُوا : نَسْتَغْفِرُ اللَهَ ؛ فَحَمَهُمْ عَلِيّ .

وَقَالَ عَلِيّ يَوْمَ الجَمَلِ : نَمُنّ عَلَيْهِمْ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ ؛ وَنُوَرّثُ الأَبْنَاءَ مِنَ الآبَاءِ (١١٧) .

أجل ، إنّ السبب الذي دعا أصحاب الإمام الذين كانوا معه في ساحة القتال إلى المطالبة بأسر نساء أصحاب الجمل جميعهنّ ، وأخذ أموالهم كلّها بوصفها غنائم حربيّة وذلك بعد انتهاء الحرب وإخماد الفتنة ، هو ما شاهدوه ــ خطأً ــ من سيرة أبي بكر الذي كان أوّل من جلس مجلس رسول الله كخليفة له . إذ كانت سيرته قتال كلّ من امتنع عن دفع الزكاة من المسلمين ، ولم يفرّق بين هؤلاء وبين المرتدّين في شبه الجزيرة العربيّة ، وكان يعاملهم وسائر المشركين بأُسلوب واحد بعد رسول الله .

وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّ له مقام النبوّة لو قدّرت نبوّة بعد رسول الله ، وقد طبّق حكم رسول الله عملاً بالحكم الإلهيّ وبمقتضى وزارته وولايته الإلهيّة . أي : أنّه تعامل مع الأشخاص الذين كانوا مسلمين وفقاً لحكم الإسلام ، وبوصفهم كانوا من أهل القبلة ، وإن بغوا على إمام زمانهم . وحكم في أموالهم ونسائهم وذراريهم بحكم الإسلام . فلم يؤسر نساءهم ، ولم ينظر إليهنّ كغنائم ، فيقسّمهنّ على المسلمين المقاتلين ، بل كان لسان حاله أن يُنْظَر إليهنّ كمسلمات مات عنهنّ أزواجهنّ ، فيلزمن العدّة ، ثمّ يتزوّجن ؛

ولم يؤسر أولادهنّ . وكان العبيد والإماء وسائر أموال المقتولين لورثتهم . وكانت الأشياء الموجودة في المعركة لا غير من الغنائم .

وأمّا قتال المشركين والمرتدّين ، فلمّا كان حكم دار الحرب سارياً عليهم ، فإنّ جميع أموالهم ونسائهم وذراريهم غنائم ينبغي تقسيمها بين المسلمين .

ولمّا كان عمل الإمام عليه السلام جديداً على الجند ، واعتُبِرَ بدعة بسبب سيرة الخليفة الأوّل ، لذلك بيّن لهم سلام الله عليه أنّ تلك السيرة كانت خاطئة . وأنّها كانت بدعة في دين الله . وأنّ رسول الله تعامل مع أهل مكّة الذين كانوا من أهل القبلة بمثل هذا التعامل . وهذه هي السنّة ؛ وهذا هو الحكم . وأنّ الصغار لا يزرون وزر الكبار ، كما لا يمكن تحميلهم ذنب الكبار . وأنّ ما كان في ساحة الحرب من سلاح وماشية وسائر الأشياء والآنية ، فإنّها من غنائم الحرب فحسب . وأمّا النساء فإنّهنّ حُرّات . والأموال مصونة ، والذراري محترمون . ولا يحقّ لأحد التعرّض لهم .

وأنّ اقتراح القرعة باسم عائشة ــ في مقابل لجّهم في مخالفة هذا الحكم ــ أثبت أنّ كلامهم كان خاطئاً ، وإلّا كيف يجوز لهم أخذ عائشة إلى بيوتهم بوصفها أسيرة حرب ؟ وكيف يجوز لهم مواقعتها ؟ وكيف يسوغ لهم عرضها في السوق للبيع ؟

من هنا ينبغي أن نعلم أنّ الأمويّين لمّا قتلوا سيّد الشهداء عليه السلام ، فإنّهم تعاملوا مع ذويه على أساس تلك السيرة الخاطئة والأحكام الجائرة الظالمة للخليفة الأوّل أبي‌بكر ، فسلبوا جميع أموالهم بما فيها الأموال التي كانت في الخيام ، وأخذوا ذراري أهل البيت ونساءهم بوصفها غنائم حربيّة ، وسبوا زينب ، وأُمّ كلثوم ، وسائر المخدّرات الطاهرات ، وأنزلوا بذلك البيت الكريم ما لا يخطر في مخيّلة أيّ شريف .

ومن هنا ، اعلم أنّه لو قيل : إنّ السهم الذي وقع في نحر عليّ الأصغر يوم عاشوراء قد خرج من سقيفة بني سَاعِدَة ، وأصاب نحره ، فقد صدق القائلون وأصابوا . ومن يرى نفسه خليفة في مقابل أمير المؤمنين ووزارته وولايته ، ويصدر مثل هذه الأحكام الجائرة ، فإنّه يحمل وزر جميع الانحرافات والجنايات الناتجة عن غصبه الخلافة .

خشت أوّل چون نهد معمار كج
تا ثريّا می رود ديوار كج [١١٨]

أَلَا لَعْنَةُ اللَهِ عَلَى القَوْمِ الظّالِمِينَ [١١٩] ،

وَسَيَعْلَمُ الّذِينَ ظَلَمُوا أَيّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ [١٢٠] .

ومن المواطن التي استُشهد فيها على حديث المنزلة استشهاد الإمام أبي الحسن عليّ بن محمّد العسكريّ [١٢١] المشهور بالإمام عليّ النقيّ عليه السلام في كتاب بعثه إلى أهل الأهواز جواباً عن كتاب لهم كانوا قد أرسلوه إلى الإمام ، وسألوه فيه عن الجبر والتفويض .

قال الإمام الهاديّ عليه السلام في هذا الكتاب : اجتمعت الأُمّة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك أنّ القرآن حقّ لا ريب فيه عند جميع فرقها . فهم في حالة الإجماع عليه مصيبون ؛ وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون .

ولقول النبيّ صلّى الله عليه وآله : لَا تَجْتَمِعُ أُمّتي عَلَى ضَلَالَةٍ .

فأخبر أنّ ما اجتمعت عليه الأُمّة ولم يخالف بعضها بعضاً هو الحقّ (ومعلوم أنّ هذا الأمر مرتكز على أصل الاستناد إلى القرآن) .

فهذا معنى الحديث ؛ لا ما تأوّله الجاهلون ؛ ولا ما قاله المعاندون .

ومن إبطال حكم الكتاب واتّباع حكم الأحاديث المزوّرة ، والروايات المزخرفة ، اتّباع الأهواء المرويّة المهلكة التي تخالف نصّ الكتاب ، وتحقيق الآيات الواضحات النيّرات .

ونحن نسأل الله أن يوفّقنا للصواب ، ويهدينا إلى الرشاد .

ثمّ قال عليه السلام : فإذا شهد الكتاب بتصديق خبر وتحقيقه ، فأنكرته طائفة من الأُمّة ، وعارضته بحديث من هذه الأحاديث المزوّرة ، صارت بإنكارها ودفعها الكتاب كفّاراً ضلّالاً .

وأصحّ خبر ما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال :

إنّي مُسْتَخْلِفٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَيْنِ : كِتَابَ اللَهِ وَعِتْرَتِي ! مَا إنْ تَمَسّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلّوا بَعْدِي ! وَإنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ .

وكذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم في عبارة أُخرى :

إنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثّقَلَيْنِ : كِتَابَ اللَهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ؛ وَإنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ ! مَا إنْ تَمَسّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلّوا !

وهذان الحديثان يترجمان لنا معنى واحداً ، ويشعران بموضوع واحد .

ولمّا وجدنا شواهد هذا الحديث نصّاً في كتاب الله مثل قوله :

إنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ (١٢٢) .

ثمّ اتّفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه تصدّق بخاتمه وهو راكع ، فشكر الله ذلك له ، وأنزل الآية فيه .

ثمّ وجدنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظة : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ! اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ !

وقوله : عَلِيّ يَقْضِي دَيْنِي وَيُنْجِزُ مَوْعِدِي وَهُوَ خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ بَعْدِي

وقوله حين استخلفه على المدينة فقال : يَا رَسُولَ اللَهِ أَتُخْلِفُنِي عَلَى النّساءِ وَالصّبْيَانِ ؟

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم في جوابه :

أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي !

فعلمنا أنّ الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار ، وتحقيق هذه الشواهد ؛ فلزم الأُمّة الإقرار بها إذا كانت هذه الإخبار وافقت القرآن ، ووافق القرآن هذه الأخبار .

فلمّا وجدنا هذه الأخبار موافقة لكتاب الله ، ووجدنا كتاب الله لهذه الأخبار موافقاً ، وعليها دليلاً ، كان الاقتداء بهذه الأخبار فرضاً لا يتعدّاه إلّا أهل العناد والفساد [١٢٣] .

ثمّ شرع الإمام عليه السلام في بيان الجبر والتفويض ، وقول الحقّ المتمثّل بالأَمْرِ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ .

ومن موارد الاستشهاد بحديث المنزلة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أبي بكر بعد بيعة الناس إيّاه . ونقل الطبرسيّ هذا الاحتجاج في كتاب «الاحتجاج» عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : لمّا كان من أمر أبي بكر وبيعة الناس له ، وفعلهم بعليّ ، لم يزل أبو بكر يظهر له الانبساط ويرى منه الانقباض . فكبر ذلك على أبي بكر ، وأحبّ لقاءه ، واستخراج ما عنده ، والمعذرة إليه ممّا اجتمع الناس عليه ، وتقليدهم إيّاه أمر الأُمّةَ ، وقلّة رغبته في ذلك ، وزهده فيه .

فلهذا أتاه في وقت غفلة ، وطلب منه الخلوة ، فقال :

يَا أَبَا الحَسَنِ ! والله ما كان هذا الأمر عن مواطاة منّي ، ولا رغبة فيما وقعت عليه ولا حرص عليه ، ولا ثقة بنفسي فيما تحتاج إليه الأُمّة ، ولا قوّة لي بمال ؛ ولا كثرة لعشيرة ، ولا استيثار به دون غيري ، فما لك تضمر عَلَيّ ما لم أستحقّه منك ، وتظهر لي الكراهة لما صرت فيه وتنظر إليّ بعين الشنآن ؟!

قال أمير المؤمنين عليه السلام : فما حملك عليه إذ لم ترغب فيه ، ولا حرصت عليه ، ولا وثقت بنفسك في القيام به ؟

قال أبو بكر : حديث سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ اللّهَ لَا يَجْمَعُ أُمّتِي عَلَى ضَلَالٍ . ولمّا رأيت إجماعهم ، اتّبعت حديث النبيّ (وفي نسخة : قول النبيّ) ، وأحلت أن يكون إجماعهم على خلاف الهدى من ضلال ، فأعطيتهم قود الإجابة ، ولو علمت أنّ أحداً يتخلّف ، لامتنعتُ .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : أما ما ذكرت من قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ الله لا يجمع أُمّتي على ضلال ؛ فكنت من الأُمّة ، أم لم أكن ؟!

قال أبو بكر : بلى ، أنت من الأُمّة . وكذلك العصابة الممتنعة عنك ، من سَلْمان ، وعَمّار ، والمقداد ، وأبي ذرّ ، وابن عُبَادَة ، ومَن معه من الأنصار ، كلّ من أُمّة رسول الله .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : فكيف تحتجّ بحديث النبيّ : إنّ الله لا يجمع أُمّتي على ضلال ، وأمثال هؤلاء قد تخلّفوا عنك ؟ وليس للأُمّة فيهم طعن ، ولا في صحبة الرسول لصحبته منهم تقصير ؟!

قال أبو بكر : ما علمت بتخلّفهم إلّا بعد إبرام الأمر ؛ وخفتُ إن قعدت عن الأمر أن يرجع الناس مرتدّين عن الدين ؛ وكان ممارستهم إن أجبتَهم أهون مؤنة على الدين وإبقاء له من ضرب الناس بعضهم ببعض ، فيرجعون كفّاراً ؛ وعلمت أنّك لست بدوني في الإبقاء عليهم ! وعلى أديانهم !

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أجل ! ولكن أخبرني عن الذي يستحقّ هذا الأمر بما يستحقّه ؟!

قال أبو بكر : بالنصيحة ، والوفاء ، ودفع المداهنة ، وحسن السيرة ، وإظهار العدل ، والعلم بالكتاب والسنّة ، وفصل الخطاب ، مع الزهد في الدنيا ، وقلّة الرغبة فيها ، وانتصاف المظلوم من الظالم للقريب والبعيد ! ثمّ سكت .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : والسابقة والقرابة ؟!

قال أبو بكر : والسابقة والقرابة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : أُنشدك بالله يا أبا بكر : أفي نفسك تجد هذه الخصال أو فِيّ ؟!

قال أبو بكر : بل فيك يا أبا الحسن !

وهنا يحاجّه الإمام ويناشده بكثير من السجايا والخصال التي يختصّ بها . منها قوله : أُنْشِدُكَ بِاللَهِ ! أَلِيَ الوَزَارَةُ مَعَ رَسُولِ اللَهِ ؛ وَالمِثْلُ مِنْ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؛ أَمْ لَكَ ؟! قَالَ : بَلْ لَكَ !

ويُدان أبو بكر في هذا المجلس ، ويفحَم ، فيقول : ابسط يدك يا أبا الحسن أُبايعك ، ولكن تقرّر أن تكون البيعة علناً في المسجد بعد تلك البيعة في المجلس المذكور . وتمّر ليلة على هذه الحالة ، ويطّلع عمر على الأمر ، فيصرف أبا بكر عن عزمه بأيّ نحو كان [١٢٤] .

ومن موارد الاستشهاد بحديث المنزلة ، احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام مع أصحاب الشورى في مجلسهم بعد موت عمر . وهذا الاحتجاج مفصّل ؛ وفيه مناقب الإمام وفضائله الخاصّة به دون غيره ، التي لا يشترك فيها أحد من المهاجرين والأنصار ؛ وهذا الاحتجاج من الاحتجاجات المعروفة والمشهورة . ونكتفي هنا بذكر مورد الحاجة إليه في الاستشهاد بحديث المنزلة ، ووزارة الإمام عليه السلام . قال لهم الإمام بعد بيان فضائله واعتراف المناوئين وإقرارهم بها :

نَشَدْتُكُمْ بِاللَهِ ! هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟! قَالُوا : لَا !

وقال : نَشَدْتُكُمْ بِاللَهِ ! هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَنْتَ أَخِي وَوَزِيرِي وَصَاحِبِي مِنْ أَهْلِي ! غَيْرِي ؟! قَالُوا : لَا !

وواصل الإمام هذه الاحتجاجات إلى أن قال : أما إذا أقررتم على أنفسكم ، واستبان لكم ذلك من قول نبيّكم ، فعليكم بتقوى الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ! وأنهاكم عن سخطه ! ولا تعصوا أمره ! وردّوا الحقّ إلى أهله ؛ واتّبعوا سنّة نبيّكم ؛ فإنّكم إن خالفتم ، خالفتم الله ! فادفعوها إلى من هو أهلها ! وهي له !

يقول راوي هذا الحديث وهو الإمام أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام : لمّا انتهى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، تغامز أصحاب الشورى فيما بينهم ، وتشاوروا ؛ وقالوا : قد عرفنا فضائل عليّ ، وعلمنا أنّه أحقّ الناس بها ؛ ولكنّه رجل لا يفضّل أحداً على أحد ؛ فإن ولّيتموها إيّاه ، جعلكم وجميع الناس فيها شرعاً سواء ، ولكن ولّوها عثمان فإنّه يهوى الذي تهوون ؛ فدفعوها إليه [١٢٥] .

ونقل ابن أبي الحديد احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام يوم الشورى في «شرح نهج البلاغة» ، وبلغ به إلى قوله : أَفِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! غَيْرِي ؟! قَالُوا : لا ! [١٢٦] .

وذكر ابن أبي الحديد أيضاً حديث المنزلة ، وآية التطهير كمثالين ، عند شرح كلام الإمام لمّا بلغه اتّهام بني أُميّة إيّاه بالمشاركة في دم عثمان .

وتوضيح ذلك أنّه ورد في «نهج البلاغة» أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا بلغه اتّهام بني أُميّة إيّاه بالمشاركة في دم عثمان ، قال :

أَوَ لَمْ يَنْهَ أُمَيّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي ؟ أَوَ مَا وَزَعَ الجُهّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهْمَتِي ؟ ولَمَا وَعَظَهُمُ اللَهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي ؛ أَنَا حَجِيجُ المَارِقِينَ ، وَخَصِيمُ المُرْتَابِينَ ، وَعَلَى كِتَابِ اللَهِ تُعْرَضُ الأَمْثَالُ ؛ وَبِمَا فِي الصّدُورِ تُجَازَى العِبَادُ [١٢٧] .

قال ابن أبي الحديد في شرح الفقرة الأُولى : أَوَ لَمْ يَنْهُ أُمَيّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : أما كان في علم بني أُميّة بحالي ما ينهاهم عن [قذفي و] قرفي بدم عثمان ؟ وحاله التي أشار إليها وذكر أنّ علمهم بها يقتضي أن لا يقرفوه بذلك ، هي منزلته في الدين التي لا منزلة أعلى منها ، وما نطق به الكتاب الصادق من طهارته ، وطهارة بنيه وزوجته في قوله تعالى : إِنّمَا يُرِيْدُ اللَهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيرًا [١٢٨] .

وقول البنيّ [الأكرم] صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى !

وهذه التعابير تقتضي عصمته عن الدم الحرام ، كما أنّ هارون معصوم عن مثل ذلك ؛ وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في أمره التي يضطرّ معها الحاضرون لها والمشاهدون إيّاها إلى أنّ مثله لا يجوز أن يسعى في إراقة دم أمير مسلم [١٢٩] .

ومن موارد الاستشهاد بحديث المنزلة كلام زياد بن سُميّة في خطبته التي ذكرها ابن أبي الحديد كالآتي : روى عليّ بن محمّد المدائنيّ ، قال : لمّا كان زمن [أمير المؤمنين] عليّ عليه السلام ولّى زياداً فارسَ أو بعض أعمال فارس . فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبى خراجَها وحَماها ؛ وعرف ذلك معاوية ، فكتب إليه : أَمّا بَعْدُ ! فإنّه غرّتك قِلاعٌ تأوي إليها ليلاً ، كما تأوى الطير إلى وكرها ! وأيم الله ، لولا انتظاري بك ما الله أعلم به ، لكان لك منيّ ما قاله العبد الصالح : فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ [١٣٠] .

وكتب في أسفل الكتاب شعراً ، من جملته :

تَنْسَى أَبَاكَ وَقَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ

إذْ يَخْطُبُ النّاسَ وَالوَالِي لَهُمْ عُمَرُ

فلمّا ورد الكتاب على زياد ، قام فخطب الناس ، وقال :

العَجَبُ مِن ابْنِ آكِلَةِ الأَكْبَادِ ؛ وَرَأْسِ النِّفَاقِ ! يُهَدّدُنِي وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ ابْنُ عَمّ رَسُولِ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ وَزَوْجُ سَيّدَةِ نِسَاءِ العَالَمِينَ ؛ وَأَبُو السّبْطَيْنِ ؛ وَصَاحِبُ الوَلَايَةِ ؛ وَالمَنْزِلَةِ ؛ وَالإِخَاءِ ؛ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ؛ وَالتّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ !

أما والله لو تخطّى هؤلاء أجمعون إليّ ، لوجدني أحمر مُخِشّاً [١٣١] ضرّاباً بالسيف .

ثمّ كتب [زياد بعد هذه الخطبة كتاباً] إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وبعث بكتاب معاوية في كتابه . فكتب إليه [أمير المؤمنين] عليّ عليه السلام ، وبعث بكتابه :

أَمّا بَعْدُ ؛ فَإِنّي قَدْ وَلّيْتُكَ مَا وَلّيْتُكَ ! وَأَنَا أَرَاكَ أَهْلاً ! وَإِنّهُ قَدْ كَانَتْ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فَلْتَةٌ فِي أَيّامِ عُمَرَ مِنْ أَمَانِيّ التّيْهِ وَكَذِبِ النّفْسِ ؛ لَمْ تَسْتَوْجِبْ بِهَا مِيرَاثاً ؛ وَلَمْ تَسْتَحِقّ بِهَا نَسَباً . وَإِنّ مُعَاوِيَةَ كَالشّيْطَانِ الرّجِيمِ يَأْتِي المَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ؛ فَاحْذَرْهُ ، ثُمّ احْذَرْهُ ، ثُمّ احْذَرْهُ ؛ وَالسّلَامُ [١٣٢] .

إنّ شرح وبيان جواب أمير المؤمنين عليه السلام لزياد بن سميّة يحتاج إلى سرد قصّة تأريخيّة . فنقول : زياد وكنيته أبو المغيرة ، أُمّه سميّة كانت أَمَة لأحد دهاقين الفرس [١٣٣] ، وكان يعيش في الطائف . فمرض الدهقان ، فدعا الحَرْثَ بْنَ كَلْدَة الثّقَفِيّ ــ وكان طبيباً ــ ليعالجه ، فعالجه ، فبرأ ، فوهبه سُميّة جزاءً له على علاجه ، فأولدها الحرث نَفِيعَاً ونَافِعَاً . ثمّ زوّجها غلامه الروميّ عُبَيْدَاً . وفي تلك الفترة سافر أبو سفيان إلى الطائف .

وطلب من الخمّار أَبِي مَرْيَمَ السّلُولِيّ بغياً . فأخذ إليه أبو مريم سميّة . وولدت سميّة زياداً في السنة الأُولى من الهجرة ، في وقت كانت زوجة لعُبيد .

ولمّا حاصر النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم الطائف ، جاء نفيع إلى النبيّ ، فأعتقه ، ولقّبه أبا بَكْرَة . وحينئذٍ خاف الحرث بن كلدة من ذهاب ابنه الآخر نافع إلى النبيّ ، فقال له : أَنْتَ وَلَدِي ! ولهذا قيل لنفيع الملقّب بأبي بكرة : مَوْلَى الرّسُول ، وقيل لنافع : ابن الحَرْث ، وقيل لزياد : ابن عُبَيْد . وكان هذا في وقت لم ينسب معاوية زياداً إلى أبي سفيان بعد . لكن لمّا اعتبره معاوية ابنَ أبى سفيان ، وأخاه ، لذا قيل له : زياد بن أبي سفيان ؛ ولمّا انقرضت الدولة الأمويّة ، قيل لزياد : زياد بن سميّة أو زياد بن أبيه [١٣٤] .

وروى ابن عبد البرّ عن هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ ، عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عبّاس ، أنّ عمر بعث [أيّام حكومته] زياداً ، [وهو غلام حَدَث] في إصلاح فساد واقع باليمن .

ولمّا رجع زياد من اليمن ، خطب عند عمر خطبة لم يُسْمَع مثلها ، وعليّ عليه السلام حاضر ، وأبو سفيان ، وعمرو بن العاص . فقال عمرو بن العاص : للّه أبو هذا الغلام ، لو كان قرشيّاً ، لساق العرب بعصاه . فقال أبو سفيان : إنّه لقرشيّ ؛ وإنّي لأعرف الذي وضعه في رَحِم أُمّه ! فقال عليّ عليه السلام : ومن هو ؟ قال أبو سفيان : أنا ! فقال عليّ : مَهْلَاً يَا أَبَا سُفْيَانَ !

فخاطب أبو سفيان أمير المؤمنين عليه السلام بثلاثة أبيات من الشعر مفادها أنّه لو لم يخف عمر ، لبيّن قصّة تولّد هذا الفتى [١٣٥] .

وروى أحمد بن يحيى البَلاذُريّ مثل هذا المضمون ، وقال في آخره : قال عمرو بن العاص لأبي سفيان : فَهَلّا تَسْتَلْحِقُهُ ؟! قَالَ : أَخَافُ هَذَا العَيْرَ الجَالِسَ أَنْ يَخْرِقَ عَلَيّ إهَابِي .

وروى محمّد بن الواقديّ مثله أيضاً ، وقال في آخر كلامه : قال عليّ عليه السلام : مَهْ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! فَإنّ عُمَرَ إلَى المَسَاءَةِ سَرِيعٌ .

عرف زياد ما دار بين عليّ عليه السلام ، وبين أبيسفيان فكانت في نفسه [١٣٦] .

يعود خوف أبي سفيان من عمر في عدم إفصاحه بأنّ زياداً منه ، وأنّ نطفته انعقدت بعد أن زنى بأُمّه ، إلى حكم رسول الله صلّى الله عليه وآله : الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ . أي : أنّ الولد المولود هو لمن كانت امرأته في فراشه بعقد صحيح ، أو مِلك صحيح ، أو تحليل جائز . وأمّا الزاني فلا حظّ له من الولد ، بل حظّه الحجر الذي يرجم به .

أي : عندما يولد طفل من امرأة ، ولا تقوم أمارة قطعيّة أو حجّة ظنّيّة على أنّه ابن زنا ، فينبغي أن نعتبره من صاحب الفراش ، لا من الزاني ، حتّى لو كان تولّده مشكوكاً فيه . أو يقوم ظنّ قويّ غير الحجّة على أنّ نطفة هذا الطفل من الزنا ، كالتشابه في الوجه ، أو

قول القافَة ، أو تحليل دم الطفل ، وأمثال ذلك . ويتّفق الشيعة والعامّة في هذا الحكم على أنّ الزاني لا يستطيع أن يستلحق الطفل المولود منه به . وصدر هذا الحكم عن رسول الله عندما تنازع سعد بن أبي وقّاص ، وعَبد بن زَمْعَة في ولد كان من زمعة .

لمّا ذهب سَعْد بن أبي وقّاص إلى مكّة في عام الفتح ، قال له أخوه عُتْبَة بن أبي وقّاص : إنّ ابن زمعة ولد من نطفتي ، وهو منّي ، فخذه وائت به ! فأخذه سعد في عام الفتح ، وقال : هذا ابن أخي ، وقد أُوصيتُ به . فقام عَبْد بن زَمْعَة ، وهو أخو ذلك الولد ، وقال : هذا أخي ، وقد ولد على فراش أبي .

فتخاصما عند رسول الله . قال سعد : يا رسول الله ! هذا الغلام ابن أخي عتبة وقد عهد إليّ أنّه ابنه ؛ انظر إلى شبهه . فقال عبد بن زمعة : يا رسول الله ! هذا أخي ، وقد ولد على فراش أبي ، فهو من أولاده . فنظر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الطفل ورأى شبهه البيّن بعتبة .

ثمّ التفت إلى عَبْد بْنِ زَمْعَة وقال : هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ ! الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ . وَاحْتَجِبِي مِنْهُ يَا سَوْدَةُ بِنْتَ زَمْعَةَ ! قَالتْ عَائِشَةُ : فَلَمْ يَرَ سَوْدَةَ قَطّ [١٣٧] .

وكتب أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً إلى معاوية جواباً على كتاب كان قد بعثه معاوية إليه وقال فيه : يا عليّ ! نفيتَ زياد عن أبي سفيان ! فقال الإمام : لم أنفه ، بل نفاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ قال : الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَر [١٣٨] .

وعندما كتب زياد كتاباً إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، وأساء فيه الأدب بقوله : من زياد بن أبيسفيان إلى الحسن ابن فاطمة ، فإنّ الإمام عليه السلام أجابه قائلاً : مِنَ الحَسَنِ ابْنِ فَاطِمَةَ إِلَى زِيَادِ ابْنِ سُمَيّةَ . أَمّا بَعْدُ ؛ فَإِنّ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَالَ : الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ . وَالسّلَامُ [١٣٩] .

أجل ، لا خلاف بين أهل الإسلام جميعهم أنّ الطفل المولود في الفراش الصحيح يعود إلى صاحب الفراش . أي : أنّ نسبه إلى ذلك الرجل الذي أولده بنكاح شرعيّ صحيح .

هذا الطفل ابنه ، وهو أبوه ، وإخوته من هذا النكاح هم إخوته ، وكذلك علاقته بسائر الأرحام من عمّ وعمّة ، وابن عمّ ، وابن عمّة ، وابن أخٍ ، وابن أُخت ، وغيرهم .

وعندمايحوم الشكّ من خلال عدم قيام أمارة قطعيّة أو حجّة عليه ، فلا رحم بين الزاني وبين هذا الطفل . فهو ليس ابنه ، وذاك ليس والده ، وأبناء الزاني ليسوا إخوةً لهذا الطفل ، وأخو الزاني ليس عمّه ، وهكذا [١٤٠] .

لقد خالف معاوية بن أبي سفيان حكم رسول الله جهراً ، وأعلن أنّ زياد بن عُبَيْد هو زياد بن أبى سفيان ، وهو أخوه ؛ وتصاعدت موجات الاعتراض من جميع أنحاء العالم الإسلاميّ ، ومن صحابة رسول الله كافّة . وعلى الرغم من هذا كلّه ، فإنّه لم يرتّب أيّ أثر عليه . وارتقى منبر الشام ، وأجلس زياداً على مرقاة أوطأ منه ، وأعلن أنّ هذا الرجل ولد

من زنا أبي ، أبي سفيان ، بسميّة في الطائف ، فهو ابن أبي سفيان ، وهو أخي . ولا يحقّ لأحد أن يسميّه زياد بن عبيد .

صدر هذا العمل من معاوية كخطّة سياسيّة أراد فيها عطف زياد إليه ، لأنّه كان أمير الشام والمسلمين في تلك الأرجاء ، وإذا كان زياد أخاه ، فهذا يعني أنّه أخو الأمير وابن أبي سفيان الشخصيّة العربيّة المهمّة ، على عكس عبيد الذي كان غلاماً روميّاً ، ولا شرف لزياد بالانتساب إليه .

بَيْدَ أنّ زياد المسكين التعس قد استساغ الانتساب إلى أبي سفيان ، واعتبر نفسه ابناً له بالزنا ، ونسب إلى أُمّه السّفاح ، ونفى انتسابه لأبيه عُبَيْد الذي أولده على فراشه بنكاح صحيح من سميّة .

وآثر زياد بنوّة الزنا على النسب الصحيح طلباً للرئاسة . وقدّم نطفة أبي سفيان ، ولو كانت نطفة سِفاح ، على نطفة عُبَيْد الروميّ ، وإن كانت نطفة نكاح صحيح ، واعتبر ذلك من دواعي شرفه . وكان زياد في أوّل أمره رجلاً عاقلاً لبيباً كيّساً ، ومن شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه . ونصب من قبله حاكماً على منطقة من مناطق فارس . وكما رأينا فإنّ معاوية عندما كتب إليه رسالة ، وهدّده فيها ، جاء بين الناس وخطب فيهم ، وأعلن عن استعداده التامّ لحرب معاوية ؛ واعتبر أمير المؤمنين عليه السلام صاحب الولاية المقصود في الحديث النبويّ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، وصاحب الوزارة والمنزلة : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، وصاحب الأُخوّة : أَنْتَ أَخِي ، وهو أبو السبطين : الحسن ، والحسين ، وبعل فاطمة سيّدة نساء العالمين ، وابن عمّ رسول الله . وظلّ زياد حاكماً على فارس ما دام أمير المؤمنين حيّاً ؛ ولم يستطع معاوية أن يخدعه أو يكسر شوكته بالتهديد .

ويستفاد من رسالة أمير المؤمنين عليه السلام التي كتبها في جواب رسالته ــ وجاء فيها أنّ ما صدر عن أبي سفيان في زمن عمر كان زلّة من الأماني الشيطانيّة المضلّة ، وتسويلات النفس ، ولا يثبت فيها نسب ، ولا يُسْتَحَقّ فيه إرث ــ أنّ معاوية قد وجّه نظر زياد إليه في رسالته من خلال استلحاقه بأبي سفيان وبنوّته إيّاه ، وأراد أن يخدعه عبر هذا الأُسلوب على أنّه أخوه ، وابتغى من ذلك تحريضه على أمير المؤمنين عليه السلام .

روى الشريف الرضيّ تلك الرسالة في «نهج البلاغة» بقوله : ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أنّ معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلّ لُبّكَ وَيَسْتَفِلّ غَرْبَكَ ! فَاحْذَرْهُ فَإِنّمَا هُوَ الشّيْطَانُ ، يَأْتِي المُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ؛ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ ؛ وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ؛ وَيَسْتَلِبَ غِرّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَنَزْعَةٌ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ ؛ لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ وَلَا يُسْتَحَقّ بِهَا إِرْثٌ ، وَالمُتَعَلّقُ بِهَا كَالوَاغِلِ المُدَفّعِ ، وَالنّوطِ المُذَبْذَبِ (١٤١) .

فَلَمّا قَرَأَ زِيَادٌ الكِتَابَ ؛ قَالَ : شَهِدَ بِهَا وَرَبّ الكَعْبَةِ وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتّى ادّعَاهُ مُعَاوِيَةُ (١٤٢) .

أي : أنّ معاوية يطلب زلل عقلك وخطأه . ويحاول أن يفلّ حدّك ، أي : عزمك .

وظهرت من أبي سفيان فلتة في كلامه أيّام عمر . وهذه الفلتة كانت من حديث النفس ، وكلمة فاسدة من كلمات الشيطان (إذ قال : إنّي أَعْلَمُ مَنْ وَضَعَهُ فِي رَحِمِ أُمّهِ ، يقصد نفسه) وحركاته القبيحة التي تفسد المكلّفين . ولا يثبت بواسطة تلك الفلتة وعثرة اللسان نسب ، ولا يستحقّ بها إرثٌ . ومن أراد أن يثبت له نسباً عن هذا الطريق فمثله مثل من يهجم على الشرب ليشرب وهو ليس منهم ، فلا يزالون يدفعونه ويحولون بينه وبين الشرب . وكذلك مثله مثل شيء شدّوه على سرج الحصان ، أو رحل البعير كالكأس أو القدح وأمثالهما ، فهو يتقلقل باستمرار بواسطة السرعة في السير والحركة . ولا يقرّ له قرار أبداً .

ولمّا قرأ زياد كتاب أمير المؤمنين عليه السلام قال : شهد عليّ بها وربّ الكعبة ، بقوله : إنّني وليد أبي سفيان وظلّت هذه الفكرة في نفسه حتّى قطع معاوية نسبه من عُبَيْد ، ونسبه إلى أبي سفيان .

وعندما استشهد أمير المؤمنين عليه السلام ، ظلّ زياد والياً على فارس . وقلق معاوية منه لأنّه كان يعرف ثباته ورسوخ مبدأه واستقامة منهجه . وخاف أن يقترب من الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أكثر ، وينهض لمساعدته ونصرته ، فلهذا كتب إليه رسالة بهذا المضمون :

من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عُبَيْد .

أَمّا بَعْدُ ؛ فإنّك عبد قد كفرتَ النعمة ، واستدعيتَ النقمة ! ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ! وإنّ الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرّع من أصلها . إنّك ــ لا أُمّ لك بل لا أب لك ــ قد هلكتَ وأهلكتَ ! وظننتَ أنّك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطانيّ ! هيهات ! ما كلّ ذي لُبّ يصيب رأيه ، ولا كلّ ذي رأي ينصح في مشورته .

أمسِ عبدٌ ، واليوم أمير ! خطّة ما ارتقاها مثلُكَ يا ابن سُميّة !

وإذا أتاك كتابي هذا ، فَخُذِ الناس بالطاعة والبيعة ! وأسرع الإجابة ! فإنّك إن تفعل ، فدمك حقنتَ ! ونفسك تداركتَ ! وإلّا اختطفتُكَ بأضعف ريش (بأضعف قوّة) ، ونلتك بأهون سعي .

وأُقسم قسماً مبروراً ، ألّا أُوتَى بك إلّا في زمّارة ، تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام حتّى أُقيمك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردّك إلى حيث كنتَ فيه وخرجتَ منه ! والسلام [١٤٣] .

فلمّا ورد الكتاب على زياد ، غضب غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر . فحمد الله . ثمّ قال : ابن آكلة الأكباد (هند) ، وقاتلة أسد الله (حمزة) . وابن أبي سفيان مظهر الخلاف ، ومُسِرّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ؛ ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله . كتب إليّ يُرعد ويبرق عن سحابةٍ جَفْل لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيّرها الرياح قزعاً . والذي يدلّني على ضعفه ، تهدّده قبل القدرة . يا معاوية ! أفمن إشفاق عَلَيّ تُنْذِر ؟ وتُعْذِر ؟ كلّا ! ولكن ذهب إلى غير مذهب ؛ وقعقع لمن رُبّيَ بين صواعق تِهامة .

كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وابن ابن عمّه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار ؟!

والله لو أذِنَ (الإمام الحسن عليه السلام) لي فيه ، أو ندبني إليه (معاوية) ، لأريته الكواكب نهاراً ، ولأسعطته ماء الخردل .

دونه (معاوية) الكلام اليوم ، والجمع غداً ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله . قال هذا ، ونزل من المنبر . وكتب إلى معاوية :

أَمّا بَعْدُ ! فقد وصل إليّ كتابك يا معاوية ، وفهمت ما فيه ؛ فوجدتك كالغريق يغطّيه الموج ، فيتشبّث بالطّحْلُب ، ويتعلّق بأرجل الضفادع ، طمعاً في الحياة .

إنّما يكفر النعم ، ويستدعي النقم من حادّ الله ورسوله ؛ وسعى في الإرض فساداً .

فأمّا سبّك لي ، فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوفي أن أُدعى سفيهاً ، لأثرت لك مخازي لا يغسلها الماء .

وأما تعييرك لي بسُمَيّة ، فإن كنتُ ابن سميّة ، فأنت ابن جماعة (أي : إذا كان قد زنى رجل واحد بأُمّي ، وأولدني منها ، فقد زنى بأُمّك جماعة ، وأنت ابنهم!) .

وأمّا زعمك أنّك تختطفني بأضعف ريش ، وتتناولني بأهون سعي ، فهل رأيتَ بازياً يُفزعه صغير القنابر ؟! أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟!

فامض الآن لطيّتك ! واجتهد جهدك ! فلست أنزل إلّا بحيث تكره ! ولا أجتهد إلّا فيما يسوءك ! وستعلم أيّنا الخاضع لصاحبه الطالع إليه ! والسلام [١٤٤] .

ولمّا ورد كتاب زياد على معاوية ، غمّه وأحزنه ، وبعث إلى المُغيرة بن شُعْبَة ، فخلا به ؛ وقال : يا مغيرة ! إنّي أُريد مشاورتك في أمر أهمّني ، فانصحني فيه ، وأشر عَلَيّ برأي المجتهد ؛ وكن لي ، أكن لك ! فقد خصصتُك بسرّي ، وآثرتك على ولدي !

قال المغيرة : فما ذاك ؟! والله لتجدني في طاعتك أمضى من الماء إلى الحدور ! ومن ذي الرونق في كفّ البطل الشجاع !

قال معاوية : إنّ زياداً قد أقام بفارس ؛ يكشّ لنا كشيش الأفاعي ؛ وهو رجل ثاقب الرأي ، ماضي العزيمة ، جوّال الفكر ، مصيب إذا رمى .

وقد خفت منه الآن ما كنتُ آمنه إذ كان صاحبه حيّاً ، وأخشى ممالأته حَسَناً . فكيف السبيل إليه ؟ وما الحيلة في إصلاح رأيه ؟!

قال المغيرة : أنا له إن لم أَمُت ! إنّ زياداً رجل يحبّ الشرف ، والذّكر ، وصعود المنابر . فلو لاطفته المسألة ، وألِنْتَ له الكتاب ، لكان لك أميل ! وبك أوثق ! فاكتب إليه وأنا الرسول .

فكتب معاوية إليه :

من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان :

أَمّا بَعْدُ ؛ فإنّ المرء ربمّا طرحه الهوى في مطارح العَطَب ؛ وإنّك للمرء المضروب به المثل ، قاطع الرحم ، وواصل العدوّ ! وحملك سوء ظنّك بي ، وبغضك لي على أن عققتَ قرابتي ، وقطعت رحمي ، وتبتّ نسبي وحرمتي ، حتّى كأنّك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي . وشتّان مابيني وبينك ، أطلب بدم ابن أبي العاص [١٤٥] وأنت تقاتلني ! ولكن أدركك عِرق الرخاوة من قبل النساء ، فكنتَ :

كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا بِالعَرَاءْ

وَمُلْحِفَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحَا

وقد رأيتُ أن أعطفَ عليك ، ولا أؤاخذك بسوء سعيك ، وأن أصل رحمك ، وأبتغي الثواب في أمرك !

فاعلم أبا المغيرة (زياد) أنّك لو خضتَ البحر في طاعة القوم فتضرب بالسيف حتّى انقطع متنه ، لما ازددت منهم إلّا بعداً ! فإنّ بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع ، وقد أُوثق للذبح . فارجع رحمك الله إلى أصلك ، واتّصل بقومك ! ولا تكن كالموصول بريش غيره !

فقد أصبحتَ ضالّ النسب ! ولعمري ما فعل بك ذلك إلّا اللجاج ! فدعه عنك ! فقد أصبحتَ على بيّنة من أمرك ، ووضوحٍ من حجّتك !

فإن أحببتَ جانبي ، ووثقت بي ، فإمرة بإمرة ! وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل لا عَلَيّ ولا لي ؛ والسلام [١٤٦] .

فرحل المغيرة بن شعبة بالكتاب حتّى قدم فارس ؛ فلّما رآه زياد ، قرّبه وأدناه ، ولطف به [١٤٧] ؛ فدفع إليه الكتاب . فجعل زياد يتأمّله ، ويضحك . فلمّا فرغ من قراءته ، وضعه تحت قدمه ؛ ثمّ قال : حسبك يا مغيرة ! فإنّي أطّلع على ما في ضميرك ؛ وقد قدمت من سفرة بعيدة ! فقم وأرح ركابك !

قال المغيرة : أجل ! فدع عنك اللجاج ! يرحمك الله ! وارجع إلى قومك ! وصل أخاك ! وانظر لنفسك ! ولا تقطع رحمك !

قال زياد : إنّي رجل صاحب أناة ! ولي في أمري رويّة ! فلا تعجل عَلَيّ ! ولا تبدأني بشيء حتّى أبدأك !

ثمّ جمع الناس بعد يومين أو ثلاثة ؛ فصعد المنبر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أيّهَا النّاسُ ! ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ! وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ! فقد نظرتُ في أُمور الناس منذ قُتِل عثمانُ ، وفكّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي ، في كلّ عيد يذبحون ؛ ولقد أفنى هذان اليومان ــ الجمل وصفّين ــ ما ينيف على مائة ألف ، كلّهم يزعم أنّه طالب حقّ ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره .

فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتل والمقتول في الجنّة . كلّا ! ليس كذلك ! ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ؛ وإنّي لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ ؛ فكيف لامرئ بسلامة دينه ؟ !

وقد نظرت في أمر الناس ، فوجدت إحدى العاقبتين العافية . وسأعمل في أُموركم ما تحمدون عاقبته ومغبّته ! فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله ! ثمّ نزل .

وكتب جواب الكتاب :

أَمّا بَعْدُ ! فقد وصل كتابك يا معاوية مع المغيرة بن شُعْبة ؛ وفهمتُ ما فيه . فالحمد للّه الذي عرّفك الحقّ ، وردّك إلى الصلة ؛ ولستَ ممّن يجهل معروفاً ! ولا يغفل حَسَباً !

ولو أردتُ أن أُجيبك بما أوجبته الحجّة ، واحتمله الجواب ؛ لطال الكتاب ، وكثر الخطاب !

ولكنّك إن كنتَ كتبتَ كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونيّة حسنة ؛ وأردتَ بذلك برّاً ، فستزرع في قلبي مودّة وقبولاً !

وإن كنتَ إنّما أردتَ مكيدةً ومكراً وفساد نيّة ، فإنّ النفس تأبى ما فيه العطب !

ولقد قمت يوم قرأت كتابك مقاماً يعبأ به الخطيب المِدْرَة [١٤٨] . فتركتُ من حضر ؛ لا أهل ورد ولا صدر ؛ كالمتحيّرين بمهمَهٍ ضلّ بهم الدليل ؛ وأنا على أمثال ذلك قدير .

وكتب في أسفل الكتاب :

إذَا مَعْشَرِي لَمْ يُنْصِفُونِي وَجَدْتَنِي
أُدَافِعُ عَنّي الضّيْمَ مَا دُمْتُ بَاقِيَا
وَكَمْ مَعْشَرٍ أعْيَتْ قَناتِي عَلَيْهِمُ
فَلاَمُوا وَأَلْفَوْنِي لَدَى العزْمِ مَاضِيَا
وَهَمّ بِهِ ضَاقَتْ صُدُورٌ فَرَحْبُهُ
وَكُنْتُ بِطِبّي لِلرّجَالِ مُداوِيَا
أُدَافِعُ بِالحِلْمِ الجَهُولَ مَكِيدَةً

وَأُخْفِي لَهُ تَحْتَ العِضَاةِ الدّوَاهيَا
فَإنْ تَدْنُ مِنّي أَدْنُ مِنْكَ وَإنْ تَبِنْ
تَجِدْنِي إذَا لَمْ تَدْنُ مِنّي نَائِيَا

فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخطّ يده ما وثق به . فدخل إليه الشام ؛ فقرّبه وأدناه ، وأقرّه على ولايته في فارس ؛ ثمّ استعمله على العراق [١٤٩] .

وروى ابن أبي الحديد عن عليّ بن محمّد المدائنيّ قال : لمّا أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس ، وصعد المنبر ، وأصعد زياداً معه فأجلسه بين يديه على المرقاة التي تحت مرقاته .

وحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أَيّهَا النّاسُ ! إنّي قد عرفتُ نسبنا أهل البيت في زياد ؛ فمن كان عنده شهادة ، فليقم بها !

فقام ناس ، فشهدوا أنّه ابن أبي سفيان ، وأنّهم سمعوا ما أقرّ به أبو سفيان قبل موته .

فقام أَبُو مَرْيَمَ السّلُولِيّ ــ وكان خمّاراً في الجاهليّة ــ فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أنّ أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأتاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً ، فلمّا أكل ، قال : يا أبا مريم ! أصب لي بغيّاً ! فخرجت فأتيت سُمَيّة ، فقلت لها : إنّ أبا سفيان ممّن قد عرفت شرفه وجوده ! وقد أمرني أن أُصيب له بغيّاً ! فهل لكِ ؟!

فقالت : نعم ! يجيء الآن عبيد بغنمه (وكان راعياً) ، فإذا تعشّى ، ووضع رأسه ، أتيته .

فرجعتُ إلى أبي سفيان ، فأعلمته . فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها ، فدخلتْ معه ؛ فلم تزل عنده حتّى أصبحت . فقلت له لمّا انصرفت : كيف رأيت صاحبتك ؟! قال : خير صاحبة ، لولا ذَفَرٌ في إبطيها . [الذَفَر : رائحة نتنة كريهة] .

فقال زياد من فوق المنبر : يا أبا مريم ! لا تشتم أُمهّات الرجال ، فتُشْتَم أُمّك !

فلمّا انقضى كلام معاوية ومناشدته ، قام زياد ، وأنصت الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ؛ ثمّ قال : أَيّهَا النّاسُ ! إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم ؛ ولست أدري حقّ هذا من باطله ؛ وهو والشهود أعلم بما قالوا ، وإنّما عُبَيْد أب مبرور ، ووال مشكور . ثمّ نزل [١٥٠] .

إنّنا بحمد الله ومنّته ذكرنا هنا قصّة معاوية وزياد بالنحو المتقدّم ليتبيّن أنّ معاوية كان رجلاً متجرّئاً متهوّراً لم يرْعَوِ عن كلّ جناية وخيانة لتحقيق مآربه السياسيّة المتمثّلة بالتحكّم في رقاب المسلمين وإلصاق نفسه بأهل البيت .

إنّه استطاع تذليل زياد الذي كان رجلاً جموحاً شموساً بأساليب ماكرة . وزياد هذا كان قد كتب في رسالة يخاطب بها معاوية قائلاً : «وستعلم أيّنا الخاضع لصاحبه ، الطالع إليه ! » وإذا هو يذهب إلى الشام بمكيدة معاوية ، وتزوير خدينه وشريك سرّه المغيرة بن شعبة .

وحضر مجلس معاوية راغباً ، ووضع في عنقه طوق العبوديّة والذلّ بمرأى الحاضرين ، وجعل بنوّة الزنا لقباً يفخر به . وظفر معاوية بأُمنيته عن هذا الطريق .

ومن هو معاوية ؟ إنّه الشخص الذي كان يقول : لا شغل لنا بكلام الناس ما لم يمسّ إمارتنا وحكومتنا .

وكان يقول : لَوْ أَنّ بَيْنِي وَبَيْنَ النّاسِ شَعْرَةً مَا انْقَطَعَتْ أَبَدَاً .

قِيلَ لَهُ : كَيْفَ ذَلِكَ ؟! قَالَ : إذَا مَدّوَهَا أَرْخَيْتُهَا ، وَإذَا أَرْخَوْهَا مَدَدْتُهَا [١٥١] .

وكان معاوية يرى أنّ زياداً سياسيّ محنّك ووالٍ قويّ . ولو ظلّ والياً على فارس من قبل أمير المؤمنين عليه السلام ، أو من قبل الإمام الحسن عليه السلام ، وهو من شيعة أهل البيت وأنصارهم ، لكان خطر الثورة على حكومته شديداً . ولمّا شعر بعقم تهديده زياداً ، انتهج سبيلاً آخر ، فناشده بصلة الرحم ، وسمّاه أخاه ، وابنَ أبيه ، إلى أن أوقعه في الفخّ آخر الأمر . ولم يبال بسحق الحكم الثابت لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الوَلَدُ لِلفِرَاشِ وَلِلعَاهِرِ الحَجَرُ ، بل نسخه وأبطله بكلّ قبح ووقاحة . وأعلن على رؤوس الأشهاد أنّ زياداً وليد من نطفة أبيه أبيسفيان ؛ فهو أخوه وابن أبي سفيان .

.

بينما يعلم المسلمون جميعهم أنّ الطفل المتولّد في الفراش من نكاح صحيح يعود إلى صاحب الفراش ، لا إلى الشخص الزاني .

نقول هنا : أوّلاً : إنّ زنا أبي سفيان بسميّة غير ثابت . وكان ذلك الكلام قد صدر من أبي سفيان ، واعتبره أمير المؤمنين من أَمَانِيّ التّيْهِ وَكَذِبِ النّفْسِ . وما يدرينا لعلّ قوله في مجلس عمر : أَنَا وَضَعْتُهُ فِي رَحِمِ أُمّهِ كان كذباً وبهتاناً . إذ عندما أثنى عمرو بن العاص على خطبة زياد ، وقال : لو كان هذا الغلام من قريش . فأراد أبو سفيان أن ينسب هذه الفضيلة إلى نفسه ، وهو من قريش ، وذلك من منطلق حبّ الشرف القبليّ .

والدليل على هذا الكلام رواية نقلها ابن أبي الحديد عن أبي عثمان . قال : كتب زياد إلى معاوية ليستأذنه في الحجّ . فكتب إليه معاوية : أنّي قد أذنتُ لك ، واستعملتك على الموسم ، وأجزتُك بألف ألف درهم !

فبينا هو يتجهّز ، إذ بلغ ذلك أبا بكرة أخاه ــ وكان مصارماً له منذ لجلج في الشهادة على المغيرة بن شعبة أيّام عمر لا يكلّمه ، قد لزمته أيمان عظيمة ألّا يكلّمه أبداً ــ فأقبل أبو بكرة يدخل القصر يريد زياداً . فبصر به الحاجب ، فأسرع إلى زياد قائلاً : أَيّهَا الأَمِيرُ ! أخوك أبو بكرة قد دخل القصر !

قال زياد : ويحك ! أنت رأيته ؟!

قال الحاجب : ها هو ذا قد طلع ؛ وفي حجر زياد بُنَيّ يلاعبه .

وجاء أبو بكرة حتّى وقف عليه ، فقال للغلام :

كيف أنت يا غلام ؟! أباك ركب في الإسلام عظيماً : زنّى أُمّهُ ، وانتفى من أبيه . ولا والله ما علمت سُميّة رأت أبا سفيان قطّ .

ثمّ أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك . يوافي الموسم غداً ، ويوافي أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان (زوجة رسول الله) [١٥٢] ، وهي من أُمهّات المؤمنين . فإن جاء يستأذن عليها ، فأذنت له ، فأعظم بها فِرْيَة على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ومصيبة ! وإن هي منعته ، فأعظم بها على أبيك فضيحة !

ثمّ انصرف أبو بكرة بعد أن تحدّث مع الغلام .

قال زياد : جزاك الله يا أخي عن النصيحة خيراً ! ساخطاً كنتَ أو راضياً ! ثمّ كتب إلى معاوية : إنّي قد اعتللت عن الموسم ، فليوجّه إليه أمير المؤمنين من أحبّ . فوجّه معاوية عتبة بن أبي سفيان [١٥٣] .

وذكر ابن عبد البرّ أيضاً أنّ معاوية لمّا ادّعى معاوية زياداً في سنة أربع وأربعين (من الهجرة) وألحقه به أخاً ، زوّج ابنته من ابنه محمّد بن زياد ليؤكّد بذلك صحّة الاستلحاق .

وكان أبو بكرة أخا زياد لأُمّه ، أُمّهما جميعاً سُمَيّة . فحلف (أبو بكرة) ألّا يكلّم زياداً أبداً وقال : هذا زَنّى أُمّهُ ، وانتفى من أبيه . ولا والله ما علمتُ سميّة رأت أبا سفيان قبل . ويلَهُ ! ما يصنع بأُمّ حبيبة ؟ أيريد أن يراها ؟ فإن حجبته ، فضحته . وإن يراها ، فيا لها من مصيبة يهتك من رسول الله صلّى الله عليه وآله حرمةً عظيمة .

وحجّ زياد مع معاوية ؛ ودخل المدينة ؛ فأراد الدخول على أُمّ حبيبة ، ثمّ ذكر قول أبي بكرة ، فانصرف عن ذلك . وقيل : إنّ أُمّ حبيبة حجبته ولم تأذن له في الدخول عليها . وقيل : إنّه حجّ ولم يرد المدينة من أجل قول أبي بكرة . وإنّه قال : جزى الله أبا بكرة خيراً فما يَدَع النصيحة في حال [١٥٤] .

إنّ الوثيقة التأريخيّة الوحيدة لزنا أبي سفيان بسميّة كلام أبي مريم السلوليّ . وهي شهادة رجل خمّار وفاسق . وما يدرينا لعلّه افترى ذلك في مجلس الشام إرضاءً لمعاوية ؟

وحينئذٍ تلد سميّة المسكينة طفلاً وهميّاً بعد سنين طويلة في التأريخ ؛ وتتّهم بمثل هذه التهمة . يقول ابن أبي الحديد : وممّن عيّر معاوية بهذا عبد الرحمن بن الحَكَم بن أبي العاص أخو مروان ، وهو من بني أُميّة . فقد دخل يوماً على معاوية مع جماعة من بني أُميّة ، وقال : يَا مُعَاوِيَةُ ! لَوْ لَمْ تَجِدْ إلّا الزّنْجَ لَاسْتَكْثَرْتَ بِهِمْ عَلَيْنَا قِلّةً وَذِلّةً ! فقال معاوية لمروان : أخرج عنّا هذا الخليع ــ المتهتّك الصلف ــ فأخرجه مروان . وشرح ذلك مفصّل .

وعبد الرحمن بن الحكم هو الذي أنشد الأبيات الآتية في هجاء معاوية وزياد :

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ
لَقَدْ ضَاقَتْ بِمَا يَأْتِي اليَدَانِ
أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالُ : أَبُوكَ عَفّ
وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ : أَبُوكَ زَانِ
فَأُشْهَدُ أَنّ رِحْمَكَ مِنْ زِيَادٍ
كَرِحْمِ الفِيلِ مِنْ وَلَدِ الأَتَانِ
وَأَشْهَدُ أَنّهَا حَمَلَتْ زِيَادَاً
وَصَخْرٌ مِنْ سُمَيّةَ غَيْرُ دَانِ [١٥٥]

يقول في البيت الثالث أن لا نسب ولا قرابة بين معاوية وزياد كما لا نسب بين الفيل وولد الأتان (انثى الحمار) . ويقول لمعاوية : أنت في الشرف كالفيل الضخم ، وزياد في الوضاعة كولد الأتان .

ثانياً : لو فرضنا أنّ أبا سفيان زنى بسميّة ، فمن أين نعلم أنّ زياداً قد صُوّر من نطفة أبي سفيان ؟ بل المورد هو المقصود من كلام رسول الله : الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ [١٥٦] . أي : عند عدم وجود دليل قطعيّ عقليّ ، كأن يكون الزوج قد سافر مثلاً قبل مدّة

الحمل ، أو كان في السجن ، وحملت المرأة . وعند عدم وجود دليل قطعيّ شرعيّ ، كأن تكون مدّة الحمل بين المواقعة وتولّد الطفل أقلّ من ستّة أشهر ، وبصورة عامّة ، عند عدم وجود حجّة عقليّة وشرعيّة ، ينبغي أن يُلْحَق الطفل بصاحب الفراش فيما لو ولد من الزنا ، واحتملنا ولادته بسبب الزنا . أي : يلحق بزوج تلك المرأة ، لا بالزاني . وللفراش الصحيح أمارة لصحّة النسب .

ثالثاً : لو تيقّنّا أنّ زياداً كان من نطفة أبي سفيان ، كأن يقوم دليل عقليّ أو حجّة شرعيّة على أنّ زياداً لا يمكن أن يكون ابن عُبَيْد ، كأن تكون مدّة الحمل منذ مواقعةِ عبيدٍ سُمَيّةَ أقلّ من ستّة أشهر ، أو أكثر من مدّة الحمل المعهودة (تسعة أشهر أو عشرة أو سنة على حسب اختلاف الأقوال) أو كان عُبَيْد غائباً ، وأمثال ذلك ، وبصورة عامّة ، لو ثبت عقلاً وشرعاً أنّ زياداً ولد بسبب زنا أبي سفيان بأُمّه ، فلا يمكن أن نعتبره ابناً لأبي سفيان .

ذلك أنّ النسب لا يتحقّق في الشرع الإسلاميّ بالزنا . ولا توجد علاقات بُنُوّة بين الطفل وبين الأب أو الأُمّ الزانية . ولابدّ من مواقعة شرعيّة لتحقّق البنوّة . وهذا الأمر من الأُمور المعلومة بل من ضروريّات الإسلام ، ولا شبهة ولا تردّد فيه أبداً .

قال صاحب كتاب «جواهر الكلام» : وكيف كان فلا يثبت النسب مع الزنا إجماعاً بقسميه ، بل يمكن دعوى ضروريّته فضلاً عن دعوى معلوميّته من النصوص أو تواترها فيه . فلو زنى [رجل] فانخلق من مائه ولد على الجزم ، لم ينسب إليه شرعاً على وجه يلحقه الأحكام ؛ وكذا بالنسبة إلى أُمّه [١٥٧] .

وعبّرت الروايات عن هذه النطفة المنعقدة من الزنا المسلّم باللّغْيَة أي : إنّ هذا الطفل المولود من الزنا ملغى وباطل . وقال في «مجمع البحرين» : لُغْيَة بضمّ اللام ، وسكون الغين المعجمة وفتح الياء التحتانيّة هو المُلْغى ، أي : الطفل المولود من الزنا [١٥٨] .

يقول محمّد بن الحسن القمّيّ : كتب بعض أصحابنا على يدي إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام يسأله عن هذه المسألة بقوله :

ما تقول في رجل فجر بامرأة ، فحبلت ؛ ثمّ إنّه تزوّجها بعد الحمل فجاءت بولد ، وهو أشبه خلق الله به ؟!

فكتب بخطّه وخاتمه : الوَلَدُ لُغْيَةٌ لا يُورَثُ [١٥٩] .

وفي ضوء ذلك ، لا يتحقّق النسب الشرعيّ للطفل المولود من الزنا سواءً كان من طرف الأب ، أم من طرف الأُمّ . كما لا يتحقّق عنوان النسبيّات السبع ، من الأُمّ ، والبنت ، والأُخت ، والعمّة ، والخالة ، وبنت الأخ ، وبنت الأُخت بينه وبين هؤلاء ، ولا توارث بينه وبينهم . وبصورة عامّة ، لا ينطبق أيّ حكم من الأحكام الواردة في النسب الصحيح على ولد الزنا إلّا في نكاح هذه العناوين السبعة الثابتة حرمتها ، وذلك لا من منطلق صدق

عنوان الأُبُوّة وَالبُنُوّة والأُخُوّة وأمثالها ، بل من منطلق الصدق اللّغوي للولد ، الذي يتبعه في النكاح ؛ فَالإنْسَانُ لَا يَنْكَحُ بَعْضُهُ بَعْضاً .

إذَنْ ، ينبغي أن نقول بصورة عامّة : لا يتحقّق أيّ حكم من أحكام النسب إلّا حرمة نكاح المحارم ؛ ولا يبعد جواز النظر إلى المحارم أيضاً ، لأنّ حرمة نكاح المحارم ، وجواز النظر إليها شيء واحد (١٦٠) .

ويمكن استفادة عدم تحقّق النسبة أيضاً من عنوان : وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ لأنّ قضيّة الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ وإن كانت تحوم حول تنازع وتخاصم صاحب الفراش والزاني ، بَيْدَ أنّ كلّ فقرة من هاتين الفقرتين مستقلّة ، وتفيد حكماً منفرداً وحدها ، ولها معنى يخصّها نفسها . وتشعر عبارة وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ أنّ الزاني لا حظّ له من النّسَب والولد ، وينبغي أن يرجم بالحجر في مقابل ادّعائه ، ولا جواب له إلاّ الحجر بديلاً عن الولد .

وخال البعض أنّ المراد من الحَجَر هو الرجم الذي يستحقّه الزاني الذي زنى محصناً . أي : أنّ جوابه وجزاءه الرجم ، والقتل والدفن تحت وابل الحجارة . إلّا أنّ هذا الظنّ ضعيف .

ذلك أنّ الزنا حينئذٍ يتخصّص بالزنا المحصن ، ويكون القصد من العاهر : العاهر المُحْصن ؛ وينبغي تخصيص الفراش بالفراش الذي تحقّق فيه نزاع الزنا المحصن ، بالاستفادة من قرينة المقابلة . وهذا التخصيص بلا وجه ولا مُخَصّص . فالفراش باقٍ على إطلاقه ، والعاهر يشمل كلّ عاهرٍ محصناً كان أو غير محصن .

واستبان من محصّل البحث في هذا القسم أيضاً عدم تحقّق أيّ رابطة من روابط النّسَب بين زياد وأبي سفيان حتّى لو فرضنا فقدان فراش عبيد ، وتيّقنا ولادة زياد من أبي سفيان . وحينئذٍ لا يكون معاوية أخاً لزياد .

وأنّ إعلان معاوية بنوّة زياد لأبيه أبي سفيان تمرّد مكشوف على حكم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بل تمرّد مكشوف على الإسلام ، وعلى شخص الرسول المبارك . ولهذا جُوبِهَ باحتجاج المسلمين كافّة .

ولم يعبأ معاوية الصفيق المتهتّك بهذا الاحتجاج . إذ ظلّ يدعو زياداً بابن أبي سفيان حتّى آخر عمره ، وطلب في الخطب أن يُدعى بابن أبي سفيان . وكان يكتب في رسائله : زياد بن أبي سفيان .

وأدّى إلحاق معاوية زياداً بأبي سفيان إلى شهرة الحديث القائل : الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ . وكان هذا الكلام كسائر كلام رسول الله قد صدر في قضيّة شخصيّة كانت بين سَعْد بن أبي وقّاص وابن زَمْعَة . وينبغي أن يكون في عداد أخبار الآحاد ككثير من كلامه ، لكنّه صار من الأحاديث المستفيضة والمشهورة بين المحدّثين والمؤرّخين . ذلك أنّ قضيّة الإلحاق ، وهي من الأعمال العجيبة لمعاوية ، قد وقعت في حياة كثير من الصحابة . وقد

طعنوا كلّهم عليه ، لأنّهم كانوا قد سمعوا هذا النصّ الصريح من رسول الله ، وهذا الطعن أحد الطعون الأربعة ، المعروفة بين جميع المسلمين ، على معاوية . وهي :

١ــ ظلمه وبغيه على أمير المؤمنين عليه االسلام .

٢ــ قتله حجرَ بن عَدِيّ وأصحابه في مرج عذراء بدمشق ، وكان حجر من صحابة النبيّ الأبرار .

٣ــ إلحاق زياد بأبي سفيان .

٤ــ نصب يزيد حاكماً على المسلمين .

قال ابن أبي الحديد : قال الحسن البصريّ : ثَلاَثٌ كُنّ في مُعَاوِيَةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ فيهِ إلّا واحِدَةٌ مِنْهُنّ لَكَانَتْ مُوبِقَةً : انْتِزاؤُهُ عَلى هَذِهِ الأُمّةِ بِالسّفَهاءِ حَتّى ابْتَزّها أَمْرَهَا ، وَاسْتِلْحَاقُهُ زِيَادَاً مُرَاغَمَةً لِقَوْلِ رَسُولِ اللّهِ : «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ ، وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ» ، وَقَتْلُهُ حُجْرَ بْنَ عَدِيّ ؛ فَيَا وَيْلَهُ مِنْ حُجْرٍ وَأَصْحابِ حُجْرٍ [١٦١] .

ومن هنا يتّضح أيّ أشخاص رَقوا منبر النبيّ . ذلك المنبر الذي ينبغي أن يرتقيه عليّ وأولاده ، وأن يكون مناراً لتعريف القرآن ، وأحكام الإسلام ، وترويج الحقّ ، والقضاء على الباطل . وإذا هو محلّ لإلحاق أولاد الزنا بحكّام الجور والظلم ، ويصعد عليه أمثال معاوية ليدعوا الناس إلى إضفاء الطابع الرسميّ على الزنا ؛ وتحقّقت رؤيا النبيّ الأكرم المتمثّلة بنزو القردة على منبره ، وهذه القردة هم بنو أُميّة . وهم الشجرة الملعونة الوارد ذكرها في القرآن الكريم :

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرّءْيَا الّتِى أَرَيْنَكَ إِلّا فِتْنَةً لّلنّاسِ وَالشّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ وَنُخَوّفُهُمْ فَمَا يَزِيْدُهُمْ إِلّا طُغْيَانًا كَبِيرًا [١٦٢] .

أجمعت الروايات في تفسير هذه الآية المباركة على أنّ المراد من الشجرة الملعونة ــ أي : المغضوب عليها ، البعيدة من رحمة الله ــ بنو أُميّة الذين صعدوا على منبر النبيّ ثمانين سنة ، ودعوا الناس إلى الضلالة .

وليعلم ثانياً أنّ زياد بن عُبَيد ــ مع ما كان يتمتّع به من الشجاعة والمتانة والرزانة والدراية ــ قد رضى أن يدعو نفسه ابن أبي سفيان من الزنا ، ويتباهى بذلك حبّاً للرئاسة ؛ ذلك أنّ العصر كان عصر الأمويّين . وكان معاوية بن أبي سفيان يُذكَر في الخطب والرسائل في أرجاء العالم الإسلاميّ على أنّه أمير المؤمنين . وكان لأبي سفيان ، والد مثل هذه الشخصيّة ، مقام سامق وكريم عند عامّة الناس . وكان الفخر ببنوّة مثل هذا الرجل أخ السلطان والحاكم يومئذٍ ــ وإن كان فيه وصمة عار الزنا ــ نقطة انعطاف في حياة زياد المتهافت على الدنيا ، الطالب إيّاها ، من أجل بروز وظهور ما يخفيه في ضميره ، وما تنطوي عليه نفسه .

وزياد هذا هو الذي قال لأبي مريم السّلوليّ من على المنبر : لا تشتم أُمّهات الرجال ! وقال في أبيه عُبَيْد : أبٌ مَبرُورٌ وَوَالٍ مَشْكُور . وهو الذي كان يكتب في رسائله : مِنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى فُلَانٍ ... وبلغ تعدّيه وانتهاكه المنطلِق من حبّ الحكومة والرئاسة أنّه سمّى أمير المؤمنين عليه السلام فاسقاً ، وخاطب الإمام الحسن بالحسن ابن فاطمة امتهاناً له . وأساء الأدب في رسالة بعثها إلى الإمام حتّى أنّ معاوية تعجّب وغضب لمّا أرسل إليه الإمام تلك الرسالة ، فأرسل إلى زياد رسالة نابية يعنّفه فيها على ما كتب به إلى الإمام الحسن عليه السلام [١٦٣] .

ويتحصّل ممّا ذكرنا أنّ الإنسان ينبغي أن يراقب أعماله دائماً ، ويواظب على محاسبة نفسه الأمّارة ، ذلك أنّ الاختبار يكشف الذهب الخالص من الزائف . وَعِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الرّجُلُ أَوْ يُهَانُ .

خوش بود گر محك تجربه آيد به ميان
تا سيه روى شود هر كه در او غشّ باشد [١٦٤]

إنّ قصّة طلحة والزبير مع سوابقهما ، وحربهما أمير المؤمنين عليه السلام كلّ أُولئك يدعو إلى التفكّر والتأمّل والتمعّن . ونقل المؤرّخون ما آل إليه عبد الله بن عبّاس الذي كان والياً على البصرة من قبل أمير المؤمنين سرق المجوهرات من بيت المال ، وفرّ إلى الحجاز ، واشترى ثلاث جوارٍ حِسان بثلاثة آلاف دينار . وذكر المؤرّخون تعنيف أمير المؤمنين عليه السلام إيّاه ومؤاخذته له ، وأجوبته التافهة بل المسيئة عن رسائل أمير المؤمنين عليه السلام . كلّ ذلك نقله المؤرّخون في كتبهم [١٦٥] .

ونفهم من هذا أنّ التشيّع ليس مجرّد كلام لفظيّ واعتراف لسانيّ . وإلّا فقد كان طلحة ، والزبير ، وزياد ، وابن عبّاس من شيعة الإمام وأنصاره ولكن عندما انهالت الصفراء ، وطرق الأسماع صهيل الخيول ، وهمهمة الغزاة ، وقعقعة رايات الرئاسة والحكومة ، فإنّهم تغيّروا ، وعند ذاك يُعْرَفُ من يثبت ممّن ينهار ، وتغور قدمه في حفرة الشهوات ، ويلقى في جهنّم . وأنّ حبّ الرئاسة ، وحسّ الاستعلاء ، والخيلاء ، والتعلّق بالمال والذهب الأحمر ، واجتماع الغواني ، وسماع الأغاني ، كلّ ذلك يُعمي ويُصمّ . حُبّ الشّيءِ يُعْمي وَيُصِمّ .

وكم هو لطيف وجميل تعبير القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بصورة عامّة .

لَعَمْرُكَ إِنّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [١٦٦] .

«وحياتك أيّها النبيّ ! إنّ قوم لوط وأهل الدنيا ضالّون في سكرة الحيرة والغفلة وأهوائهم النفسانيّة» .

يقول ابن عبد ربّه الأندلسيّ : لمّا بلغ معاوية موت (الإمام) الحسن (المجتبى) بن عليّ (بن أبي طالب) ، خرّ ساجداً للّه ؛ ثمّ أرسل إلى ابن عبّاس و (مَن) كان معه في الشام ، فعزّاه وهو مستبشر (بموت الإمام الحسن عليه السلام) .

وقال (معاوية لابن عبّاس) : ابن كم سنة مات أبو محمّد (الإمام الحسن) ؟

فقال (ابن عبّاس) له : سنّه كان يسمع في قريش ؛ فالعجب من أن يجهله مثلك .

قال (معاوية) : بلغني أنّه ترك أطفالاً صغاراً .

قال (ابن عبّاس) : كلّ ما كان صغيراً يكبر ؛ وإنّ طفلنا لكهل ؛ وإنّ صغيرنا لكبير . ثمّ قال : ما لي أراك يا معاوية مستبشراً بموت الحسن بن عليّ ؟ فو الله لا ينسأ في أجلك ! ولا يسدّ حفرتك ! وما أقلّ بقاءك وبقاءنا بعده ! ثمّ خرج ابن عبّاس ، فبعث إليه معاوية ابنه يزيد ، فقعد بين يديه ، فعزّاه واستعبر لموت الحسن ؛ فلمّا ذهب أتبعه ابن عبّاس ببصَره وقال : إذا ذهب آل حرب ، ذهب الحلُم من الناس [١٦٧] .

أجل ، إنّ حديث المنزلة الذي نقلنا بعض رواياته في هذا البحث يمنح مقام الوزارة والخلافة لأمير المؤمنين عليه السلام بالنصّ الصريح ، ويجعله كالنبيّ . ولو لم تُخْتَم النبوّة برسول الله ، لحاز أمير المؤمنين منصب النبوّة أيضاً بلا شكّ وشبهة . بَيدَ أنّ كافّة المناصب من خلافة وإمارة وإمامة ووصاية وأُخوّة ثابتة للإمام بمقتضى هذا الحديث .

ونقل المرحوم السيّد هاشم البَحْرانيّ في «غاية المرام» عن ابن أبيالحديد عين الاستدلال الذي أتى به الشيعة على ولاية الإمام مستنبَطاً من الآية القرآنيّة وحديث المنزلة ، وقد نقله بحذافيره قائلاً :

قال ابن أبي الحديد : «والذي يدلّ على أنّ عَلِيّاً عَلَيْهِ السّلَامُ وزير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من نصّ الكتاب والسنّة قول الله تعالى :

وَاجْعَل لّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَرُونَ أَخِى * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى [١٦٨] .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام :

أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

وعلى هذا ثبت لأمير المؤمنين عليه السلام جميع مراتب هارون ومنازله من موسى ، فإذَاً عَلِيّ وَزِيرُ رَسُولِ اللَهِ . ولولا أنّه خاتم النبيّين ، لكان شريكاً له في أمره ــ انتهى كلام ابن أبي الحديد .

ثمّ قال المحدّث البحرانيّ رحمة الله عليه : انظر إلى ما رواه المخالفون في النصّ من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام بعده بالنصّ المجمع على روايته بين فرق الإسلام كما ذكره ابن أبي الحديد ، وذكره غيره أيضاً . وهذا

صريح من المخالفين أنّ رسول الله ما مات حتّى نصّ على عليّ بأنّه الإمام والخليفة والوزير . وهذا عين ما تقوله الشيعة .

لذلك نجد أنّ إنكار النصّ من بعض المخالفين كابن أبي الحديد في بعض المواضع من شرحه على نهج البلاغة باطل ، لقيام البرهان على خلافه ، واعترافه بالنصّ كما ذكرناه نحن من كلامه هذا من أنّ جميع مراتب هارون ومنازله من موسى هي ثابتة لعليّ عليه السلام ، ماعدا النبوّة . لأنّ رسول الله خاتم الأنبياء ، وإلّا كان شريكاً له في النبوّة .

وهذا يقتضي بالصريح من النصّ على عليّ عليه السلام بالإمامة والخلافة والوزارة التي هي مراتب هارون من موسى . وهذا واضح بيّن لا خفاء فيه وَاللَهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَأَعُوذُ بِاللَهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىَ مِنَ الضَلَالَةِ بَعْدَ تَبَيّنِ الهُدَى وَالحَمْدُ لِلّهِ رَبّ العَالَمِينَ (١٦٩) .

وروى فى «غاية المرام» أيضاً عن السيّد الأجلّ أبي القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس في «الطرائف الثلاث والثلاثين» في النصّ على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالإمامة والخلافة والوصيّة . قال : الطرفة العاشرة في تصريح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عند الوفاة بخلافة عليّ عليه السلام على الصغار والكبار ، وجميع أهل الأمصار بمحضر الأنصار ، عن أبي الحسن موسى بن جعفر ، عن أبيه عليهما السلام ، قال : لمّا حضرت رسول الله الوفاة دعا الأنصار ، وقال :

يَا مَعَاشِرَ الأَنْصَارِ ! قد حان الفراق ؛ وقد دُعيت ، وأنا مجيب الداعي ! وقد جاورتم فأحسنتم الجوار ! ونصرتم فأحسنتم النصر ! وواسيتم في الأموال ، ووسعتم في المسكن ! وبذلتم للّه مهج النفوس ! والله مجزيكم بما فعلتم الجزاء الأوفى .

وبقيت واحدة ، وهي تمام الأمن ، وخاتمة العمل ، العمل معها مقرون جميعاً .

إنّي أرى أن لا أفرّق بينهما جميعاً . لو قيس بينهما بشعرة ما انقاست .

من أتى بواحدة ، وترك الأُخرى ، كان جاحداً للأُولى . ولا يقبل الله منه عملاً من الأعمال .

قال الأنصار : يا رسول الله ! أَبِنْ لنا نعرفها ؛ ولا نمسك عنها فنضلّ ، ونرتدّ عن الإسلام ، والنعمة من الله ورسوله علينا ؛ فقد أنقذناه الله بك من الهلكة ! يا رسول الله ! قد بلّغتَ ! ونصحتَ ! وأدّيتَ ! وكنتَ بنا رؤوفاً رحيماً شفيقاً مشفقاً ! فما هي يا رسول الله ؟!

قَالَ لَهُمْ : كِتَابُ اللَهِ وَأَهْلُ بَيْتِي ! فَإِنّ الكِتَابَ هُوَ القُرْآنُ ؛ فَفِيهِ الحُجّةُ وَالنّورُ وَالبُرْهَانُ ؛ كَلَامُ اللَهِ جَدِيدٌ غَضّ طَرِيّ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَادِلٌ قَائِدٌ بِحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَأَحْكامِهِ يَقُومُ بِهِ غَدَاً فَيُحَاجّ بِهِ أَقْوَاماً فَتَزِلّ أَقْدَامُهُمْ عَنِ الصّرَاطِ .

فَاحْفَظُوا مَعاشِرَ الأَنْصَارِ فِيّ أَهْلَ بَيْتِي فَإِنّ اللّطِيفَ الخَبِيرَ قَالَ : إِنّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْضَ . أَلَا وَإِنّ الإِسْلَامَ سَقْفٌ تَحْتَهُ دِعَامَةٌ ؛ وَلَا يَقُومُ المُسَقّفُ إِلّا بِهَا فَلَوْ أَنّ

أَحَدَكُمْ أَتَى بِذَلِكَ السّقْفِ مَمْدُوداً لَا دِعَامَةَ تَحْتَهُ ، لأَوْشَكَ أَنْ يَخِرّ عَلَيْهِ سَقْفُهُ لَهَوَى فِي النّارِ .

أَيّهَا النّاسُ ! الدّعَامَةُ دِعامَةُ الإِسْلَامِ ، وَذلكَ قَوْلُ اللَهِ تَعَالَى : «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطّيّبُ وَالعَمَلُ الصّلِحُ يَرْفَعُهُ» . فَالعَمَلُ الصّالِحُ طاعَةُ الإِمَامِ وَلِيّ الأَمْرِ وَالتّمَسّكُ بِحَبْلِ اللَهِ !

أَلَا فَهِمْتُمْ ؟! اللَهَ اللَهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ! مَصَابِيحُ الظّلَامِ ، وَمَعَادِنُ العِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ الحِكَمِ ، وَمُسْتَقَرّ المَلَائِكَةِ ؛ مِنْهُمْ وَصِيّي ، وَأَمِينِي ، وَوَارِثِي مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، أَلَا هَلْ بَلّغْتُ ؟!

وَاللَهِ يَا مَعَاشِرَ الأَنْصَارِ ! أَلَا اسْمَعُوا ! أَلَا إِنّ بَابَ فَاطِمَةَ بَابِي ؛ وَبَيْتُهَا بَيْتِي ! فَمَنْ هَتَكَهُ هَتَكَ حِجابَ اللَهِ !

يقول عيسى راوي هذا الحديث عن موسى بن جعفر عليهما السلام : فَبَكَى أَبُو الحَسَنِ صَلَوَاتُ اللَهِ عَلَيْهِ طَوِيلاً وَقُطِعَ عَنْهُ بَقِيّةُ الحَدِيثِ ؛ وَأَكْثَرَ البُكَاءَ ، وَقَالَ : هُتِكَ حِجَابُ اللَهِ ؛ هُتِكَ وَاللَهِ حِجَابُ اللَهِ ؛ هُتِكَ وَاللَهِ حِجَابُ اللَهِ ؛ يَا أُمّةَ مُحَمّدٍ صَلَوَاتُ اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ [١٧٠] .

بَيدَ أنّ الإمام الصادق عليه السلام بيّن كيفيّة هتك الحجاب ، ولم يُقْطَع الحديث .

روى الطبريّ في «دلائل الإمامة» عن محمّد بن هارون بن موسى التلعكبريّ ، عن أبيه ، عن محمّد بن همّام ، عن أحمد البرقيّ ، عن أحمد بن محمّد بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبي نجران ، عن ابن سنان ، عن ابن مُسكان ، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عليهما السلام ، قال :

قُبِضَتْ فَاطِمَةُ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ يَوْمَ الثّلَاثَاءِ لِثَلَاثٍ خَلَوْنَ مِنْهُ سَنَةَ إِحْدَى عَشَرَ مِنَ الهِجْرَةِ ؛ وَكَانَ سَبَبُ وَفَاتِهَا أَنّ قُنْفُذَ مَوْلَى عُمَرَ نَكَزَهَا [١٧١] بِنَعْلِ [١٧٢] السّيْفِ بِأَمْرِهِ ؛ فَأَسْقَطَتْ مُحْسِناً وَمَرِضَتْ مِنْ ذَلِكَ مَرَضاً شَدِيداً وَلَمَ يَدَعْ أَحَداً مَمّنْ آذَاهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا ــ الحديث [١٧٣] .

وذكر سليم بن قيس أنّ عمر عندما ضغط الباب على الجدار للمرّة الثانية نَادَتْ يَا أَبَتَاهْ ! هَكَذَا يَفْعَلُ بِحَبِيبَتِكَ ! وَاسْتَغَاثَتْ (بِفِضّةَ) جَارِيَتِها ، وَقَالَتْ : لَقَدْ قُتِلَ مَا فِي بَطْنِي مِنْ حَمْلٍ [١٧٤] .

وخرج أمير المؤمنين عليه السلام فألقى عليها مُلاءة [١٧٥] فأسقطت حملاً لستّة أشهر سمّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم محسناً ــ الحديث [١٧٦] .

ومن كان له اطّلاع على جوامع الحديث ، ومعرفة بكتب السير والتواريخ ، فإنّه لا يشكّ أنّ عمر قد حمل الحطب إلى باب فاطمها لإحراق بيتها ، وكان عمله هذا منطلقاً إمّا من الجدّ أو من التهديد [١٧٧] .

وخطب أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة المنوّرة بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما فعل غاصبو الخلافة ما فعلوا ، وأنزلوا بالإسلام وأهل بيت النبوّة ما

أنزلوا من المصائب . وتعرف تلك الخطبة ب خطبة الوسيلة . وهي خطبة مفصّلة وفّى الإمام فيها وأحسن وأجمل بذكر المواعظ والنصائح والحكم وبيان الحقيقة ، والدلالة على طريق السعادة ، والتمتّع بجميع المواهب الإلهيّة الدنيويّة والأُخرويّة ، الجسميّة والروحيّة ، الظاهريّة والباطنيّة ، وبيان منزلته ومرتبته وموقعه ودرجته التي لا يبلغها نبيّ مرسل وملك مقرّب . ولا يمكن أن يدور في مخيّلتهما الوصول إلى تلك الذروة العليا والسنام الأعلى .

ولو لم يكن للشيعة غير هذه الخطبة ، لكفى بها في تعريف مدرسته وبيان عظمتها . ولو عرف أهل المدينة يومذاك معناها ومغزاها وحقيقتها ، وتركوا شيطنة رؤسائهم ، وأنكروا ذواتهم بالتضحية والإيثار ، وأجابوا دعوة الإمام ، ووضعوا حكّام الجور والأُمراء والحكّام المنحرفين والمنتهكين في مواضعهم ، وولّوا الإمام عليهم ، لنزلت النعمة والبركة والرحمة والعافية والسعادة عليهم من السماء ، وتفجّرت من الأرض ، وغمرتهم من أربع جهات . ولاتّخذ التأريخ والإسلام والإمامة والقيادة طابعاً آخر . ولنظر الناس إلى أنفسهم في الجنّة . ولكن ياللأسف والخسارة والضياع فإنّ الطبيعة الشرّيرة للإنسان المتوحّش والظالم لا تدعه يخرج من جهنّم ، ويضع قدمه في مرحلة الحياة الخالدة . وقال أُولئك العرب الضيّقي الأُفق للصدّيقة الكبرى : إنّ ما تقولينه صحيح ، وهذه المقامات ثابتة لعليّ ، ولكن مضت بيعتنا لهذا الرجل (أبو بكر) ولا يمكننا أن نرجع عنها [١٧٨] .

وروى المرحوم محمّد بن يعقوب الكلينيّ هذه الخطبة كلّها في «روضة الكافي» عن محمّد بن عليّ بن معمر ، عن محمّد بن عليّ بن عكاية التميميّ ، عن الحسين بن نصر الفهريّ ، عن أبي عمرو الأوزاعيّ ، عن عمرو بن شمر ، عن جابر بن يزيد . قال : دخلت على الإمام الباقر عليه السلام وقلت : يا ابن رسول الله ! قد أوجعني وآلمني اختلاف الشيعة في آرائها ومذاهبها !

فقال الإمام : ألا تحبّ أفقك على معنى اختلافهم من أين اختلفوا ، ومن أيّ جهة تفرّقوا ؟! قلت : بلى يا ابن رسول الله ! قال : فلا تختلف إذا اختلفوا !

يَا جَابِرُ ! إنّ الجَاحِدَ لِصَاحِبِ الزّمَانِ كَالجَاحِدِ لِرَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فِي أَيّامِهِ .

ياجابر : اسمع وعِ ! قال جابر : إذا شئتَ [١٧٩] !

قال الإمام : اسمع وعِ وبلّغ حيث انتهت بك راحلتك !

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس بالمدينة بعد سبعة أيّام من وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وذلك حين فرغ من جمع القرآن وتأليفه ، فقال : الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي مَنَعَ الأَوْهَامَ أَنْ تَنَالَ إلّا وُجُودَهُ وَحَجَبَ العُقُولَ أَنْ تَتَخَيّلَ ذَاتَهُ . وبعد الحمد البليغ والثناء

الجميل ، والصلوات على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وبيان الآيات القرآنيّة الدالّة على إمامته . قال :

فَإنّ اللَهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ امْتَحَنَ بِي عِبَادَهُ ، وَقَتَلَ بِيَدِي أَضْدَادَهُ ، وَأَفْنَى بِسَيْفِي حُجّادَهُ ؛ وَجَعَلَنِي زُلْفَةً لِلْمُؤمِنِيْنَ ؛ وَحِيَاضَ مَوْتٍ عَلَى الجَبّارِينَ ، وَسَيْفَهُ عَلَى المُجْرِمِينَ ؛ وَشَدّ بِي أَزْرَ رَسُولِهِ ؛ وَأَكْرَمَنِي بِنَصْرِهِ وَشَرّفَنِي بِعِلْمِهِ ؛ وَحَبَانِي بِأَحْكَامِهِ ، وَاخْتَصّنِي بِوَصِيّتِهِ ؛ وَاصْطَفَانِي بِخَلَافَتِهِ فِي أُمّتِهِ ، فَقَالَ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ، وَقَدْ حَشَدَهُ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ وَانْغَصّتْ بِهِمُ المَحَافِلُ :

أَيّهَا النّاسُ ! إنّ عَلِيّاً مِنّي كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! فَعَقَلَ المُؤمِنُونَ عَنِ اللَهِ نُطْقَ الرّسُولِ ، إذْ عَرَفُونِي أَ نّي لَسْتُ بِأَخِيهِ لأَبِيهِ وَأُمّهِ ؛ كَمَا كَانَ هَارُونُ أَخَا مُوسَى لأَبِيهِ وَأُمّهِ ؛ وَلَا كُنْتُ نَبِيّاً فَاقْتَضَى نُبُوّةً وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِخْلَافاً لِي كَمَا اسْتَخْلَفَ مُوسَى هَارُونَ عَلَيْهِمَا السّلَامُ ، حَيْثُ يَقُولُ : «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتّبِعْ سَبِيْلَ الْمُفْسِدِينَ» (١٨٠) .

ثمّ سرد أمير المؤمنين قصّة حجّة الوداع وغدير خمّ وبيان حديث مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، ونزول آية إكمال الدين وإتمام النعمة . وقال بعد بيان تسلّط الشيطان وإغوائه مفصّلاً :

حَتّى إذَا دَعَا اللَهُ عَزّ وَجَلّ نَبِيّهُ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ وَرَفَعَهُ إلَيْهِ لَمْ يَكُ ذَلِكَ بَعْدَهُ ، إلّا كَلَمْحَةٍ مِنْ خَفْقَةٍ ، أَوْ وَمِيضٍ مِنْ بَرْقَةٍ إلَى أَنْ رَجَعُوا عَلَى الأَعْقَابِ ؛ وَانْتَكَصُوا عَلَى الأَدْبَارِ ؛ وَطَلَبُوا بِالأَوْتَارِ ؛ وَأَظْهَرُوا الكَتَائِبَ ، وَرَدَمُوا البَابَ ؛ وَفَلّوا الدّيَارَ ، وَغَيّرُوا آثَارَ رَسُولِ اللَهِ ؛ وَرَغِبُوا عَنْ أَحْكَامِهِ ؛ وَبَعُدُوا مِنْ أَنْوارِهِ ، وَاسْتَبْدَلُوا بِمُسْتَخْلَفِهِ بَدِيلَاً اتّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

وَزَعَمُوا أَنّ مَنِ اخْتَارُوا مِنْ آلِ أَبِي قُحَافَةَ أَوْلى بِمَقَامِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ مِمّنِ اخْتَارَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ لِمَقَامِهِ ؛ وَأَنّ مُهَاجِرَ آلِ أَبِي قُحَافَةَ خَيْرٌ مِنَ المُهَاجِرِيّ الأَنْصَارِيّ الرّبّانِيّ نامُوسِ هاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ .

أَلَا وَإنّ شَهَادَةِ زُورٍ وَقَعَتْ فِي الإسْلَامِ شَهَادَتُهُمْ أَنّ صَاحِبَهُمْ مُسْتَخْلَفُ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْه وَآلِهِ وَسَلّمَ .

وواصل الإمام خطبته حتّى بلغ قوله :

أَلَا وَإنّي فِيكُمْ أَيّهَا النّاسُ كَهَارُونَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ وَكَبَابِ حِطّةٍ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَسَفِينَةِ نُوحٍ فِي قَوْمِ نُوحٍ !

إنّي النّبَأُ العَظِيمُ ، وَالصّدّيقُ الأَكْبَرُ وَعَنْ قَلِيلٍ سَتَعْلَمُونَ مَا تُوعَدُونَ !

وَهَلْ هِيَ إلّا كَلُعْقَةِ الآكِلِ ، وَمَذْقَةِ الشّارِبِ ، وَخَفْقَةِ الوَسْنَانِ ؟! ثُمّ تَلْزَمُهُمُ المَعَرّاتُ خِزْيَاً فِي الدّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدّونَ إلَى أَشَدّ العَذَابِ ؛ وَمَا اللَهُ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ . فَمَا جَزَاءُ مَنْ

تَنَكّبَ مَحَجّتَهُ ؛ وَأَنْكَرَ حُجّتَهُ وَخَالَفَ هُدَاتَهُ ، وَحَادَ عَنْ نُورِهِ ، وَاقْتَحَمَ فِي ظُلَمِهِ ، وَاسْتَبْدَلَ بِالمَاءِ السّرَابَ ؛ وَبِالنّعِيمِ العَذَابَ ، وَبِالفَوزِ الشّقَاءَ ، وَبِالسّرّاءِ الضّرّاءِ ، وَبِالسّعَةَ الضّنْكَ ، إِلّا جَزَاءُ اقْتِرَافِهِ وَسُوْءِ خِلَافِهِ ؛ فَلْيُوقِنُوا بِالوَعْدِ عَلى حَقِيقَتِهِ ! وَلْيَسْتَيْقِنُوا بِمَا يُوعَدونَ !

يَوْمَ تَأْتِي الصّيْحَةُ بِالحَقّ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ ؛ «إِنّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ــ يَوْمَ تَشَقّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبّارٍ فَذَكّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» (١٨١) .

وخطب أمير المؤمنين عليه السلام خطبة أُخرى بالمدينة أيّام وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وتعرف بالخطبة الطالوتيّة لورود كلمة طالُوت فيها .

وروى الكليني هذه الخطبة أيضاً بسنده المتّصل الآخر عن أَبِي الهَيْثَمَ بْنِ التّيّهان ، قال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس ، فقال : الحَمْدُ للّهِ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ كَانَ حَيّاً بِلَا كَيْفٍ . وواصل خطبته في ذكر صفات الربّ ، وهي رائعة جدّاً . ويشهد الإمام فيها على وحدانيّة الله ، ورسالة نبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم . حتّى بلغ قوله :

أَيّتُهَا الأُمّةُ الّتِي خُدِعَتْ فَانْخَدَعَتْ ، وَعَرَفَتْ خَدِيْعَةَ مَنْ خَدَعَهَا ؛ فَأَصَرّتْ عَلَى مَا عَرَفَتْ ، وَاتّبَعَتْ أَهْوَاءَهَا ؛ وَضَرَبَتْ فِي عَشْوَاءِ غَوَائِهَا ، وَقَدِ اسْتَبَانَ لَهَا الحَقُ ، فَصَدّتْ عَنْهُ ، وَالطّرِيقُ الوَاضِحُ فَتَنَكّبَتْهُ .

أَمَا وَالّذِي فَلَقَ الحَبّةَ وَبَرَأَ النّسَمَةَ لَو اقْتَبَسْتُمُ العِلْمَ مِنْ مَعْدِنِهِ ؛ وَشَرِبْتُمُ المَاءَ بِعُذُوبَتِهِ ؛ وَادّخَرْتُمُ الخَيْرَ مِنْ مَوْضِعِهِ وَأَخَذْتُمُ الطّرِيقَ مِنْ واضِحِهِ وَسَلَكْتُمْ مِنَ الحَقّ نَهجَهُ ، لَنَهَجَتْ بِكُمُ السّبُلُ ، وَبَدَتْ لَكُمُ الأَعْلامُ ؛ وَأَضَاءَ لَكُمُ الإِسْلَامُ ؛ فَأَكَلْتُمْ رَغَداً ، وَمَا عَالَ فِيكُمْ عَائِلٌ ؛ وَلَا ظُلِمَ مِنْكُمْ مُسْلِمٌ وَلَا مُعَاهِدٌ ؛ وَلَكِنْ سَلَكْتُمْ سَبِيلَ الظّلَامِ ؛ فَأَظْلَمَتْ عَلَيْكُمْ دُنْيَاكُمْ بِرَحْبِهَا وَسُدّتْ عَلَيْكُم أَبْوابُ العِلْمِ ، فَقُلْتُمْ بِأَهْوائِكُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِي دِينِكُمْ ، فَأَفْتَيْتُمْ فِي دِينِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَاتّبَعْتُمُ الغُوَاةَ فَأَغْوَتْكُمْ وَتَرَكْتُمُ الأَئِمّةَ فَتَرَكُوكُمْ .

فَأَصْبَحْتُمْ تَحْكُمُونَ بِأَهْوَائِكُمْ ، إِذَا ذُكِرَ الأَمْرُ سَأَلْتُمْ أَهْلَ الذّكْرِ ، فَإِذَا أَفْتَوْكُمْ قُلْتُمْ هُوَ العِلْمُ بِعَيْنِهِ ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَرَكْتُمُوهُ ، وَنَبَذْتُمُوهُ ، وَخَالَفْتُمُوهُ !

رُوَيْدَاً عَمّا قَلِيلٍ تَحْصُدُونَ جَمِيعَ مَا زَرَعْتُمْ ! وَتَجِدُونَ وَخِيمَ مَا اجْتَرَمْتُمْ ! وَمَا اجْتَلَبْتُمْ ! وَالّذِي فَلَقَ الحَبّةَ وَبَرَأَ النّسَمَةَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَ نّي صَاحِبُكُمْ وَالّذِي بِهِ أُمِرْتُمْ ، وَأَ نّي عَالِمُكُمْ ، وَالّذِي بِعِلْمِهِ نَجَاتُكُمْ ؛ وَوَصِيّ نَبِيّكُمْ ، وَخِيَرَةُ رَبّكُمْ ، وَلِسَانُ نُورِكُمْ وَالعالِمُ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ؛ فَعَنْ قَلِيلٍ رُوَيْدَاً يَنْزِلُ بِكُمْ مَا وُعِدْتُمْ وَمَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ وَسَيَسْأَلُكُمُ اللّهُ عَزّ وَجَلّ عَنْ أَئِمّتِكُمْ ؛ مَعَهُم تُحْشَرُونَ وَإِلَى اللّهِ عَزّ وَجَلّ غَداً تَصِيرُونَ .

أَمَا وَاللّهِ لَوْ كَانَ لِي عِدّةُ أَصْحَابِ طَالُوتَ ؛ أَوْ عِدّةِ أَهْلِ بَدْرٍ ، وَهُمْ أَعْدَادُكُمْ لَضَرَبْتُكُمْ بِالسّيْفِ حَتّى تَؤُولُوا إِلَى الحَقّ وَتُنِيبُوا لِلصّدْقِ ؛ فَكَانَ أَرْتَقَ لِلْفَتْقِ ، وَآخَذَ بِالرّفْقِ . اللّهُمّ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالحَقّ وَأَنْتَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ .

وأتمّ الإمام خطبته حتّى هذا الموضع ، ثمّ خرج من المسجد ، فمرّ بصِيرَة [١٨٢] فيها نحو من ثلاثين شاة ، فقال : لو أنّ لي رجالاً ينصحون للّه عزّ وجلّ ولرسوله بعدد هذه الشياه ، لأزلت ابن آكلة الذّبّان عن مُلكه [١٨٣] .

قال أبو هيثم بن التيهان راوي هذه الرواية : فلمّا أمسى ، بايعه ثلاثمائة وستّون رجلاً على الموت ، لا يتركون نصرته . فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام : اغدوا بنا إلى أحجار الزّيت [١٨٤] دارعين أو محلّقين رؤوسكم [١٨٥] .

ولبس الإمام حَلْقته أو حلق رأسه . ولم يواف من القوم محلّقاً إلّا أبو ذرّ ، والمقداد ، وحذيفة بن اليمان ، وعمّار بن ياسر ، وجاء سلمان في آخر القوم .

فقال الإمام : اللهمّ اشهد أنّ هؤلاء القوم استضعفوني كما استضعف بنو إسرائيل هارون .

اللَهُمّ فَإنّكّ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السّماءِ [١٨٦] تَوَفّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصّلِحِينَ [١٨٧] .

أما وربّ البيت الحرام ، وربّ المفضي إلى البيت ــ المفضي إلى البيت يعني ماسّه بيده وهو النبيّ الأكرم ــ والخفاف والأقدام إلى التجمير بمنى ، لولا عهد عهده إليّ النبيّ الأُمّيّ ، لأوردتُ المخالفين خِلج المنيّة ، ولأرسلت عليهم شآبيب صواعق الموت . وعن قليل سيعلمون [١٨٨] .

ومن هنا يستبين جيّداً أنّ سبب عدم قيام أمير المؤمنين عليه السلام لأخذ الولاية بعد وفاة رسول الله يتمثّل في وصيّة رسول الله الأكيدة له إذ أوصاه أن لا يشهر سيفه عند عدم وجود الناصر والمعين ، وعند غلبة العدوّ ، ذلك أنّ المعارضين مصرّون على استلاب حقوقه ، وعزله عن الإمامة والولاية . وإذا ما نشبت الحرب بين الطرفين ، فسيقتل عدد كبير منهما . وحينئذٍ ينتكس الإسلام لا محالة . فلهذا ما عليه إلّا الصبر والتحمّل عند فقدان الناصر والمعين .

روى الشيخ الصدوق في كتاب « كمال الدين وتمام النعمة » عن ابن الوليد ، عن ابن الحسن الصفّار ، عن يعقوب بن يزيد ، عن حمّاد بن عيسى ، عن عمر بن أُذَيْنَة ، عن أبان بن أبي عيّاش ، عن إبراهيم بن عمر اليمانيّ ، عن سُلَيم بن قَيْس الهِلالِيّ ، قال : سمعت سلمان الفارسيّ يقول : كنت جالساً بين يدي رسول الله في مرضه الذي قبض فيه ، فدخلت فاطمة عليها السلام ، فلمّا رأت ما بأبيها من الضعف ، بكت حتّى جرت دموعها على خدّيها .

فقال لها رسول الله : ما يبكيكِ ؟ قالت : يا رسول الله أخشى على نفسي وولدي الضيعة بعدك ! فاغرورقت عينا رسول الله بالبكاء ، ثمّ قال : يا فاطمة ! أما علمتِ أنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ؟ وأنّه حتم الفناء علب جميع خلقه .

ثمّ فصّل الكلام حول خلق أهل البيت ، ومقاماتهم ودرجاتهم . ومقامات فاطمة ودرجاتها وميزاتها التي خصّها الله بها ، ومنها وجود الأئمّة الأحد عشر من نسلها ، وآخرهم مهديّ هذه الأُمّة .

ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ فَقَالَ : يَا أَخِي ! إِنّكَ سَتَبْقَى بَعْدِي وَسَتَلْقَى مِنْ قُرَيْشٍ شِدّةً مِنْ تَظَاهُرِهِمْ عَلَيْكَ وَظُلْمِهِمْ لَكَ ! فَإِنْ وَجَدْتَ أَعْوَاناً فَجَاهِدْهُمْ وَقَاتِلْ مَنْ خَالَفَكَ بِمَنْ وَافَقَكَ ! وَإِنْ لَمْ تَجِدْ أَعْوَاناً فَاصْبِرْ وَكُفّ يَدَكَ وَلَا تُلْقِ بِهَا إِلَى التّهْلُكَةِ !

فَإِنّكَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، وَلَكَ بِهَارُونَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ إِذِ اسْتَضْعَفَهُ قَوْمُهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ ؛ فَاصْبِرْ لِظُلْمِ قُرَيْشٍ إِيّاكَ وَتَظَاهُرِهِمْ عَلَيْكَ فَإِنّكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ وَمَنْ تَبِعَهُ ؛ وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ العِجْلِ وَمَنْ تَبِعَهُ . إلى آخر الحديث [١٨٩] .

يتحصّل من هذه القرائن القطعيّة أنّ مناوئي عليّ والمبادرين إلى سقيفة بني ساعدة ، الذين نسوا النبيّ ووفاته ، وتجهيزه وتكفينه ، وسارعوا إلى السقيفة طلباً للرئاسة ، لم يتورّعوا عن ارتكاب أيّ جناية وخيانة من أجل تحقيق مآربهم ، ولو أدّى ذلك إلى قتل عدد كبير من المسلمين وإراقة دمائهم ؛ وضياع الإسلام والقرآن ، ومحو اسم الله ورسوله .

فلهذا نرى أنّ القوم زحفوا على بيت النبوّة لأخذ البيعة من عليّ بن أبي طالب ومرافقيه الذين اعتصموا في بيت فاطمة الزهراء . وانتهك المهاجمون حرمة الزهراء ، فصفعوا وجهها ، وضربوا متنها بالسوط ، وضغطوها بين الباب والجدار ، حتّى انكسر ضلعها ، وسقط جنينها ، ووقعت على الأرض ، ثمّ فارقت الحياة بعد مدّة . وفعلوا ما فعلوه لأنّ السيّدة الصدّيقة حالت بينهم وبين أخذ عليّ إلى المسجد للبيعة .

وما أروع ما أنشده فخر الفلاسفة والحكماء المتأ لّهين وشيخ الفقهاء والعلماء المعاصرين ، المرحوم الشيخ محمّد حسين الإصفهانيّ المعروف بالكمبانيّ طاب ثراه ، في هذا المجال ، فقال :

وَلِلسّيَاطِ رَنّةٌ صَدَاهَا
فِي مَسْمَعِ الدّهْرِ فَما أَشْجاهَا
وَالأَثَرُ البَاقِي كَمِثْلِ الدّمْلِجِ
فِي عَضُدِ الزّهْرَاءِ أَقْوَى الحُجَجِ
وَمِنْ سَوادِ مَتْنِهَا اسْوَدّ الفَضَا
يَا سَاعَدَ اللّهُ الإِمامَ المُرْتَضَى
وَلَسْتُ أَدْرِي خَبَرَ المِسْمَارِ
سَلْ صَدْرَهَا خَزَانَةَ الأَسْرَارِ
وَفِي جَنِينِ المَجْدِ مَا يُدْمِي الحَشَا
وَهَلْ لَهُمْ إِخْفَاءُ أَمْرٍ قَدْ فَشَا

وَالبَابُ وَالجِدَارُ وَالدّمَاءُ
شُهُودُ صِدْقٍ مَا بِهِ خَفَاءُ
لَقَدْ جَنَى الجَانِي عَلَى جَنِيْنِهَا
فَانْدَكّتِ الجِبَالُ مِنْ حَنِينِهَا
وَرَضّ تِلْكَ الأَضْلُعِ الزّكِيّهْ
رَزِيّةٌ مَا مِثْلُهَا رَزِيّهْ
وَمِنْ نُبُوعِ الدّمْعِ مِنْ ثَدْيَيْهَا
يُعْرَفُ عَظْمُ مَا جَرَى عَلَيْهَا
وَجَاوَزَ الحَدّ بِلَطْمِ الخَدّ
شَلّتْ يَدُ الطّغْيَانِ والتّعَدّي
فَاحْمَرّتِ العَيْنُ وَعَيْنُ المَعْرِفَهْ
تَذْرِفُ بِالدّمْعِ عَلَى تِلْكَ الصّفَهْ
وَلَا يُزِيلُ حُمْرَةَ العَيْنِ سِوَى
بِيضِ السّيُوفِ يَوْمَ يُنْشَرُ اللّوَا
فَإِنّ كَسْرَ الضّلْعِ لَيْسَ يَنْجَبِرْ
إِلّا بِصَمْصَامٍ عَزِيزٍ مُقْتَدِرْ
أَهَكَذَا يُصْنَعُ بِابْنَةِ النّبِي
حِرْصاً عَلَى المُلْكِ فَيَا لِلْعَجَبِ (١٩٠)

وكذلك نظم آية الله الإصفهانيّ الكمبانيّ قصيدة رائعة في رثاء السيّدة الصدّيقة سلام الله عليها . وهي قصيدة رائعة جدّاً وتحتوي على حقائق مختلفة . وهذه القصيدة مذكورة في ديوان شعره الفارسيّ . ونكتفي هنا بذكر البندين الأوّلين منها :

تا درِ بيت الحرام از آتش بيگانه سوخت
كعبه ويران شد ، حريم از سوز صاحبخانه سوخت
شمع بزم آفرينش با هزاران اشك وآه
شد چنان ، كز دودِ آهش سينه كاشانه سوخت
آتشى در بيتِ معمورِ ولايت شعله زد
تا أبد زان شعله ، هر معمور وهر ويرانه سوخت (١٩١)
آه از آن پيمان شكن كز كينه خمّ غدير
آتشى افروخت تا هم خمّ وهم پيمانه (١٩٢) سوخت
ليلى حسن قِدَم ، چون سوخت از سر تا قدم
همچو مجنون ، عقلِ رهبر را دل ديوانه سوخت

گلشن فرّخ فر توحید ، آن دم شد تباه
کز سُمُومِ شرك ، آن شاخ گل فرزانه سوخت
گنج علم ومعرفت شد طعمه أفعی صفت
تا که از بیداد دونان گوهر یکدانه سوخت
حاصل باغ نبوّت ، رفت بر باد فنا
خرمنی در آرزوی خامِ آب ودانه سوخت
کَرْکَسِ دون ، پنجه زد بر روي طاوس أزل
عالمی از حسرت آن جلوه مستانه سوخت (۱۹۳)
آتشی آتش پرستی در جهان أفروخته
خرمن إسلام ودین را تا قیامت سوخته
سینه ای کز معرفت گنجینه أسرار بود
کی سزاوار فشارِ آن در ودیوار بود ؟
طور سینای تجلیّ ، مشعلی از نور شد
سینه سینای وحدت ، مشتعل از نار بود
ناله بانو زد أندر خرمن هستی شَرَرْ
گوئی اندر طور غم ، چون نخل آتشبار بود
آنکه کردی ماهِ تابان پیش او پهلو تهی
از کجا پهلوی او را تاب آن آزار بود
گردش گردون دون بین ، کز جفای سامری
نقطه پرگار وحدت ، مرکز مسمار بود (۱۹٤)
صورتش نیلی شد از سیلی ، که چون سیل سیاه
روی گیتی (۱۹۵) زین مصیبت ، تا قیامت تار بود
شهریاری شد به بند بنده ای از بندگان
آنکه جبریل أمینش بنده دربار بود
از قفای شاه ، بانو بانوای جانگداز
تا توانائی به تن تا قوّت رفتار بود
گر چه بازو خسته شد ، وز کار دستش بسته شد
لیك پای همّتش بر گنبد دوّار بود
دست بانو گرچه از دامان شه کوتاه شد
لیك برگردون بلند از دست آن گمراه شد (۱۹٦)

جاء في «مروج الذهب» مانصّه : ولَمّا قُبِضَتْ فَاطِمَةُ ، جَزَعَ عَلَيْهَا بَعْلُهَا عَلِيّ جَزَعَاً شَدِيداً وَاشْتَدّ بُكَاؤهُ ، وَظَهَرَ أَنِينُهُ وَحَنِينُهُ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ :

لِكُلّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَينِ فُرْقَةٌ
وَكُلّ الّذي دُونَ المَمَاتِ قَلِيلُ
وَإِنّ افْتِقَادِي فَاطِمَاً بَعْدَ أَحْمَدٍ
دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومَ خَلِيلُ (١٩٧)

(١٩٧)

تعليقات:

١) الآيات ٢٤ إلى ٣٦ من السورة ٢٠ : طه .

٢) الآية ٣٥ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٣) روى السيّد ابن طاووس دعاء رسول الله لاستخلاف أمير المؤمنين وإعطاء جميع مقامات موسى لهارون ، وذلك عند نزول الآية : إِنّما وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ بعدّة طرق عن الثعلبيّ ، منها رواية أخرجها الثعلبيّ مرفوعة عن عباية بن الربعيّ قال : بينا عبد الله بن عبّاس جالس على شفير زمزم يقول : قال رسول الله ، ويبيّن للناس الأحاديث الواردة عن رسول الله إذ أقبل رجل معتمّ بعمامة ، فجعل ابن عبّاس لا يقول : قال رسول الله إلّا وقال الرجل : قال رسول الله ، فقال ابن عبّاس : سألتك بالله من أنت ! فكشف العمامة عن وجهه وقال : أيّها الناس ! من عرفني ، فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا جُنْدُب بن جُنادة البدريّ أبو ذرّ الغفاريّ . سمعت رسول الله بأُذُنَيّ هاتين وإلّا فصمّتا ؛ ورأيته بعينَيّ هاتين ، وإلّا فعميتا ، وهو يقول : عليّ قائد البررة وقاتل الكفرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله .

أيّها الناس ! أما إنّي صلّيت مع رسول الله صلّى الله عليه وآله يوماً من الأيّام صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم يعطه أحد شيئاً ؛ فرفع السائل يده إلى السماء وقال : اللهمّ اشهد أنّي سألت في مسجد رسول الله فلم يعطيني أحد شيئاً . وكان عليّ عليه السلام راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان يتختّم فيها . فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره ؛ وذلك بعين رسول الله صلّى الله عليه وآله . فلّما فرغ رسول الله من صلاته ، رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهمّ إنّ موسى سألك فقال : «ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري» فأنزلتَ عليه قرآناً ناطقاً «سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بَايتنا أنتما وَمَن اتّبعكما الغالبون» . اللهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك اللهمّ فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أشدد به ظهري .

قال أبو ذر : فما استتمّ رسول الله الكلمة حتّى نزل جبرئيل عليه السلام من عند الله تعالى فقال : يا محمّد ! اقرأ . قال : وما أقرأ ؟ قال : اقرأ : إنّما وليّكم الله ورسوله والذين ءَامنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون . («الطرائف» لأبن طاووس ، ج ١ ، ص ٤٧ و ٤٨ ، الحديث ٤٠ طبعة قم سنة ١٤٠٠ ه)

٤) كتاب سُلَيم بن قَيْس» الهلاليّ الكوفيّ ؛ ص ٢٢١ و ٢٢٢ ؛ وذكر صاحب «كنز العمّال» مختصر مضمون هذه الرواية في كتابه ، ج ١٥ ، ص ١٥٠ في الرقم ٤٢٨ عن أمير المؤمنين عليه السلام .

٥) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ٤٣٥ ، الحديث . ٥٩٨

٦) الآية ٣٥ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٧) الغدير» ج ٣ ، ص . ١١٦

٨) حلية الأولياء» ص ٦٥ و ٦٦ ؛ وجاء في «غاية المرام» القسم الأول ، ص ١٢٥ ، حديث رقم ٩٧ أنّ ابن أبي الحديد روى هذا الحديث ، وكذلك حديث : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي ، ثمّ نقل عن ابن أبي الحديد أنّه قال : وأبان نفسه عنه بالنبوّة ؛ وأثبت له ماعداها ، ومن جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما .

٩) حلية الأولياء» ص . ٦٦

١٠) الآيتان ٩٤ و ٩٥ ، منالسورة ١٥ : الحجر .

١١) الآية ٢١٤ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

١٢) وردت هذه الفقرة من الرواية فى «دلائل الصدق» ج ٢ ، ص . ٢٣٣

١٣) كتاب سُلَيم بن قَيْس» ص ١٩٩ و . ٢٠٠ وقال قيس بن سعد في سياق هذا الاحتجاج على معاوية كما ورد في صفحة ٢٠١ : وقال رسول الله لعليّ في غزوة تبوك : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي .

١٤) جاء في كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» : كان أبو رافع القبطيّ مولى لرسول الله ، له أسماء مختلفة . وقال ابن عبد البرّ : أشهر ما قيل في اسمه : أسلم . وكان مولى العبّاس بن عبد المطّلب ، فوهبه للنبيّ ، فأعتقه لمّا بشّره بإسلام العبّاس . وكان إسلام أبي رافع قبل بدر ، ولم يشهدها . وشهد أُحُدَاً وما بعدها . وروى عن النبيّ ، وعن عبد الله بن مسعود . (ج ٤ ، ص ٦٨) .

١٥) الثريد مرق يفتّون فيه الخبز ويأكلونه . يقال له بالفارسيّة : (تِرِيد) . والصحيح هو ثريد .

١٦) وردت الرواية المذكورة إلى هذا الموضع في «تاريخ دمشق» الجزء الخاصّ بأمير المؤمنين عليه السلام ، ج ١ ، ص ٨٩ ، الرقم . ١٤١

١٧) غاية المرام» القسم الأوّل ص ١٣٥ و ١٣٦ ، الحديث الثامن والثلاثون . ووردت في «مجمع البيان» ج ٤ ، ص ٢٠٦ ، طبعة صيدا .

ورواها المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤١ ، طبعة الكمبانيّ ، عن كتاب «كنز الفوائد» للكراجكيّ ، عن أبي رافع . وأضاف في تتمّتها هذه الجملة : فقال لأبي طالب : ليهنكَ أن تَدْخُلَ اليومَ في دينِ ابن أخيكَ وَقَدْ جَعَلَ ابْنَكَ مُقَدّماً عَلَيكَ .

١٨) هذه المعاني كناية عن الفقر والمسكنة ، وعدم وجود المال والاعتبار والرخاء . وجاء في بعض النسخ : أرمصهم عيناً بالصاد المهملة .

١٩) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ٣٧١ و ٣٧٢ ، حديث ٥١٤ ضمن روايات وردت في شأن نزول الآية : واجعل لى وزيراً من أهلي هرون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى .

وذكر ابن عساكر هذه الرواية في «تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين عليه السلام في الجزء الأوّل ، ص ٨٨ في رقم . ١٤٠ وذكرها أيضاً صاحب «كنز العمّال» في كتابه ، باب فضائل عليّ عليه السلام ، من الطبعة الثانية حيدر آباد ، ج ١٥ ، ص ١١٥ إلى ١١٧ في الرقم . ٣٣٤ وقال في آخرها : رواها ابن جرير الطبريّ ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقيّ كلاهما في كتاب «دلائل النبوّة» . و «دلائل الصدق» للمظفّر ج ٢ ، ص ٢٣٣ ، و «تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٦٢ و٦٣ ، طبعة الاستقامة . و «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، طبعة أُوفسيت بيروت ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥ ، وفي ج ١٣ ، ص ٢١٠ و ٢١١ من طبعة دار إحياء الكتب العربيّة . وذكر صاحب «كنز العمّال» أيضاً مختصر هذا الحديث في كتابه المذكور ، ج ١٥ ، ص ١٠٠ ، رقم . ٢٨٦

٢٠) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ٤٢٠ و ٤٢١ ، حديث رقم ٥٨٠ ضمن الروايات الواردة في شأن نزول آية الإنذار : وأَنذر عشيرتك الأقربين .

٢١) مجمع البيان» ج ٤ ، ص ٢٠٦ ، طبعة صيدا . ووردت هذه الرواية في «غاية المرام» القسم الأوّل ص ٣٢٠ ، الحديث الثالث عن الثعالبيّ في تفسيره ، في ذيل تفسير الآية الشريفة بسند متّصل . ولكنّنا لم نعثر على هذه الرواية في «تفسير الثعالبيّ» ، ولعلّ صاحب «غاية المرام» نقلها عن «تفسير الثعلبيّ» وحدث سهو في الكتابة أو في الاستنساخ . وارتكب المعلّق على «شواهد التنزيل» هذا السهو نفسه . وذكر في ج ١ ، ص ٤٢٠ ما ذكره البحرانيّ في «غاية المرام» عن الثعالبيّ . ونقل المجلسيّ هذه الرواية أيضاً في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٩٤ ، طبعة الكمبانيّ ، عن كتاب «العمدة» ، عن «تفسير الثعلبيّ» .

٢٢) تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين ، ج ١ ، ص ٨٣ و . ٨٤

٢٣ــ٢٤) «تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين ، ج ١ ، ص ٨٤ و . ٨٥

٢٥) قال المجلسيّ رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٩٣ في ذيل الرواية الواردة عن «بشارة المصطفى» التي جاءت فيها عبارة : قاضي دَيني : قرأ المحقّق الطوسيّ نصير الملّة والدين ، والعلّامة الحلّيّ ، وجماعة من علمائنا رضي الله عنهم : قاضي دِيني بكسر الدال . وأنكره السيّد المرتضى رحمة الله عليه ، ثمّ قال المجلسيّ : ولا حاجة في تكلّف ذلك لتواتر العبارات والنصوص الصريحة من الجانبين .

٢٦) تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين ، ج ١ ، ص ٨٥ و ٨٦ ، ونقل المجلسيّ هذا الحديث بلفظ : ويُنْجز مواعيدي ، وذلك في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٩٥ ، طبعة الكمبانيّ ، عن كتاب «العمدة» ، و «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص ١٣١ ، الطبعة الثانية .

٢٧) تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين ، ج ١ ، ص ٨٦ و . ٨٧ ومعلوم في هذه الرواية أنّ ذيلها الذي يذكر سكوت العبّاس موضوع ، ولا يناسب دعوة رسول الله في أوّل البعثة . وأراد الواضع أن يخلط الالتزام بدَين الرسالة بالدَين الشخصيّ .

٢٨) تاريخ دمشق» ج ١ ، ص ٨٧ و . ٨٨

٢٩) تاريخ دمشق» ج ١ ، ص ٨٨ و . ٨٩

٣٠) تاريخ دمشق» ج ١ ، ص ٨٩ و . ٩٠

٣١) مسند أحمد بن حنبل» ج ١ ، ص . ١١١ وورد هذا الحديث في «كنز العمّال» باب فضائل عليّ عليه السلام ، ج ١٥ ، ص ١١٣ ، رقم ٣٢٣ ، الطبعة الثانية ، حيدرآباد . ونقله المجلسيّ في «بحار الانوار» ج ٩ ، ص ٢٩٥ عن كتاب «العمدة» ؛ وذكره المظفّر في «دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٣٣ ؛ والعلّامة الحلّيّ في «منهاج الكرامة» . وينبغي أن نعلم أنّ صاحب «كنز العمّال» الذي روى هذا الحديث عن «مسند أحمد بن حنبل» وعن ابن جرير قال : نقله ابن جرير عن الطحاويّ ، وعن ضياء في «المختارة» وصحّحه . وذكر الملّا عليّ المتّقي في أوّل «كنز العمّال» عن السيوطيّ في ديباجة «جمع الجوامع» أنّ جميع روايات ضياء في «المختارة» صحيحة . (طبعة حيدر آباد ، ج ١٥ ، ص ١١٣ ، رقم ٣٢٣ ، ط ٢) .

٣٢) الجَذَعَة : الحَمَل الذي مضى عليه ستّة أشهر . والفِرق بكسر الفاء : مكيال كبير يكيل به أهل المدينة ألبانهم .

٣٣) غُمَر على وزن عُمَر : القدح الصغير . والمد عبارة عن ربع الصاع . والصاع قريب من مَنّ .

٣٤) شرح نهج البلاغة» من طبعة أُوفسيت بيروت ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ و ٢٥٥ ؛ ومن طبعة دار إحياء الكتب العربيّة بمصر : ج ١٣ ، ص ٢١٠ إلى . ٢١٢ و «تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٦٣ و ٦٤ ، مطبعة الاستقامة . وورد في «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص ١٥٤ و ١٥٥ ، رقم ٤٣٥ ، وقال : ذكره أحمد بن حنبل ، والطبريّ والضياء في«المختارة» .

٣٥) كنز العمّال» ، ج ١٥ ، ص ١٣٠ ، الحديث رقم ٣٨٠ ، الطبعة الثانية ؛ ونقله صاحب «دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٣٤ عن «كنز العمّال» لابن مردويه .

٣٦) أبو جعفر الإسكافيّ ، محمّد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافيّ . ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» ج ٥ص ٤١٦ وقال : أحد المتكلّمين من معتزلة البغداديّين ؛

وله تصانيف معروفة ؛ بلغني أنّه مات في سنة ٢٤٠ ه ــ انتهى . ألّف الإسكافيّ كتابه المعروف باسم «نقض العثمانيّة» ردّاً على كتاب «العثمانيّة» للجاحظ . وأغلب المطالب التي ينقلها عنه ابن أبي الحديد في كتابه «شرح نهج البلاغة» ، إنّما ينقلها من هذا الكتاب .

٣٧) شرح نهج البلاغة» من الطبعة ذات أربعة أجزاء ، أُوفسيت بيروت ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ؛ ومن طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، مصر : ج ١٤ ، ص ٢٤٤ و . ٢٤٥ وأورد الشيخ محمّد حسن المظفّر في «دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٣٣ مختصر ذلك وهو الشامل كلام رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام لا غير .

٣٨) المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٤٤ ، الطبعة الحجريّة .

٣٩) السيرة الحلبيّة» ج ١ ، ص . ٣١٢

٤٠) تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٦٢ و ٦٣ ، طبعة مطبعة الاستقامة .

٤١) تفسير الطبريّ» ج ١٩ ، ص . ٧٤

٤٢) البداية والنهاية» ج ٣ ، ص . ٤٠

٤٣) تفيسر ابن كثير الدمشقيّ» ج ٣ ، ص . ٣٥١

٤٤) حياة محمّد» ص . ١٠٤ أورد في الطبعة الأُولى جملة : فأيّكم يوازرني هذا الأمر وأن يكون أخي ووصيّي وخَليفَتي فيكُم ، بَيْدَ أنّه حذف كلام النبيّ : فَأَنْتَ أَخِي وَوَصِيّي وَوَارِثِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ في جواب أمير المؤمنين . أمّا في الطبعة الثانية فقد أسقط كلّ ما يتعلّق بأمير المؤمنين بصورة عامّة . وهو كما في المأثور : لَكِنّ عَلِيّاً نَهَضَ وَمَا يَزَالُ صَبِيّاً دُونَ الحُلُمِ ، وَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَهِ عَونُكَ ؛ أَنَا حَرْبٌ عَلَى مَنْ حَارَبْتَ ، فَابْتَسَمَ بَنُو هَاشِم وَقَهْقَهَ بَعْضهُمْ وَجَعَلَ نَظَرَهَمْ يَنْتَقِلُ مِنْ أَبِي طَالِبٍ إِلَى ابْنِهِ .

٤٥) إنّ الناس يجعلون دينهم تبعاً لدين حكّامهم وملوكهم حسب السنّة الطبيعيّة ، واتّباعاً للأهواء لا لمنطق التفكير السليم .

٤٦) الآيتان ٥٨ و ٥٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

٤٧) الآيتان ١٦١ و ١٦٢ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٤٨) الآية ٤٦ ، من السورة ٤ : النساء .

٤٩) الآية ١٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

٥٠) الآية ٧٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٥١) رواه ابن عساكر بهذا السند في «تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ج ٣ ، ص ٩٨ و ٩٩ ، رقم ١١٣٩ عن محمّد بن سعيد الإصفهانيّ . ورواه أحمد بن يحيى البلاذريّ في ترجمة «أمير المؤمنين وغرر مناقبه عليه السلام» ص ١٨٤ ، الحديث رقم ٢٢٠ ، طبعة الأعلميّ بيروت في ، عن المدائنيّ ، عن شريك ، بهذا السند نفسه .

٥٢) روى ابن عبد البّر هذا الحديث في «الاستيعاب» ج ٣ ، ص ١١١٨ ، عن ابن وهب ، عن حفص بن مَيْسرة ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنّه لمّا سمع ابنه يذكر عليّ بن أبي طالب بسوء ، قال : إيّاكَ والعَوْدَة إلَى ذَلِكَ .

٥٣) اصطلاح خاصّ لأرباب الدراية والرجال ، إذ يطلقون على بعض الروايات : موقوفاً عليه ، وعلى البعض الآخر : مرفوعاً .

٥٤) شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، الطبعة ذات الأجزاء الأربعة ، أُوفسيت بيروت ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ إلى ٢٦٠ ؛ ومن طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، مصر ، ج ١٣ ، ص ٢١٩ إلى . ٢٢٤

٥٥) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ٣٦٨ ، حديث رقم . ٥١٠

٥٦) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ٣٦٩ و ٣٧٠ ، الحديث رقم . ٥١١ وفي «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٩٥ ، طبعة الكمبانيّ ، عن كتاب «العمدة» لابن بطريق ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عامر ، عن عبادة بن يعقوب ، عن عليّ بن عابس ، عن الحرث بن حصيرة ، عن القاسم قال : سمعت رجلاً من خثعم يقول : سمعت أسماء بنت عميس .

وقال في «دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٢٣ : قال السيوطيّ في تفسير «الدرّ المنثور» : أخرج ابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ بِإِزَاءِ ثَبِيرٍ وَهُوَ يَقُولُ : أَشْرَقَ ثَبِير ، أَشْرَقَ ثَبِير ؛ اللَهُمّ إنّي أَسْأَلُكَ بِمَا سَأَلَكَ أَخِي مُوسَى أَنْ تَشْرَحَ لِي صَدْرِي ، وَأَنْ تُيَسّرَ لِي أَمْرِي ، وَأَنْ تَحِلّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي عَلِيّاً أَخِي ، أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأُشْرِكَهُ فِي أَمْرِي كَي نُسَبّحُكَ كَثِيراً وَنَذْكُرُكَ كَثِيراً إنّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً .

وقال السيوطيّ أيضاً : وأخرج السّلَفيّ في «الطيورات» بسند رواه عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال : لمّا نزلت : وَاجْعَل لّى وَزِيرًا مّنْ أَهْلِى هَرُونَ أَخِى أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِى ، كان رسول الله على جبل ثمّ دعا به وقال : اللَهُمّ اشْدُدْ أَزْرِي بِأَخِي عَلِيّ ، (فاستجاب الله دعاءه) . ونقل العلّامة نحوه في كتاب «منهاج الكرامة» عن مسند أحمد بن حنبل ، ونقل أيضاً نحوه صاحب «ينابيع المودّة» في الباب السابع عشر ، عن أحمد في مسنده . وفي الباب السادس والخمسين عن «ذخائر العقبى» للطبريّ ، عن أحمد في «الفضائل» . وكذا نقله سبط بن الجوزيّ في «تذكرة الخواصّ» عن أحمد في «الفضائل» .

٥٧) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ٣٧٣ ، الحديث رقم . ٥١٥

٥٨) الحديث إلى هذه الجملة ورد في «المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٤٩ ، الطبعة الحجريّة ، عن كتاب «منقبة المطَهّرين» وكتاب «فيما نزل من القرآن في أمير المؤمنين» ، وكلاهما لأبي نعيم الإصفهانيّ . ونقله النطنزيفي كتاب «خصائص العلويّة»

عن شعبة بن الحكم . ورواه أيضاً في «دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٢٣ ، عن «منهاج الكرامة» للعلّامة الحلّيّ ، عن أبي نعيم الإصفهانيّ ، عن ابن عبّاس .

٥٩) الآية ٩٦ ، من السورة ١٩ : مريم .

٦٠) المناقب» لابن المغازليّ ، ص ٣٢٨ و . ٣٢٩ وكذا أورده البحرانيّ في «غاية المرام» ، القسم الثاني ، ص ٣٧٣ ، الحديث ١٣ عن ابن المغازليّ مرفوعاً . ورواه أيضاً فرات بن إبراهيم الكوفيّ في تفسيره ص ٨٩ بنفس السند والعبارة .

٦١) المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٣ و ٥٢٤ الطبعة الحجريّة . ووردت أبيات ابن مكّيّ في «الغدير» ج ٤ ، ص . ٣٩٢ وذكر العلّامة الأمينيّ ترجمة له . وجاء البيت الثاني في «الغدير» : والقوم حُضّراً بدلاً من : والقوم حصّراً .

٦٢) المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، الطبعة الحجريّة .

٦٣) المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، الطبعة الحجريّة .

٦٤) المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٤ و . ٥٢٥ وذكر العلّامة الأمينيّ ترجمة العونيّ مفصّلاً في كتاب «الغدير» ج ٤ ، ص ١٢٧ و. ١٣١ كان العونيّ من الشعراء الكبار ومن أئمّة القريض في مدائح أهل البيت عليهم السلام . وكان يعيش في القرن السادس . وهو أحد المتفانين في محبّة أهل البيت . وله قصيدة ذات واحد وخمسين فصلاً (كلّ فصل خماسيّ الأشطر) في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ومثالب أعدائه . وهي رفيعة جدّاً بحيث لا نكاد أن نجد مثيلاً لها في سلاستها وملاحتها . وتقع القصيدة في واحد وخمسين فصلاً (خماسيّ الأشطر) . وذكرنا منها هنا خمسة مصاريع فحسب بمناسبة الحديث عن وزارة أمير المؤمنين عليه السلام ، وذلك نقلاً عن «المناقب» لابن شهرآشوب . ولمّا كان اسم الشاعر : طلحة بن عبيد الله بن أبي عون الغسّانيّ ، لذلك ختم أبياته الأخيرة بتوجيه الخطاب إلى (طلح) وهو منادي مرخّم :

يا ربّ ما لي عملٌ سِوَى الولا
لأحمدَ وآلهِ أهلُ العُلا
صنو الرسول والوصيّ المبتلى
وفاطم والحسنين في الملا
غرّاً تزين العرش والكرسيّا
ثمّ عليّ وابنهِ محمّدٍ
وجعفر الصدق وموسى المهتدي
ثمّ عليّ والجواد الأجودِ
محمّدٍ ثمّ عليّ الأمجدِ
والحسن الذي جلا المهديّا

فأعطني بهم جمال الدنيا
وراحة القبر زمان البقيا
والأمن والستر بحشر المَحْيا
والريّ من كوثر أهل السقيا
والحشر معهم في العلى سويّا
يا طلحُ إن تختم بهذا في العمل
لم يدن منك فزع ولا وجل
وأنت طَلْحُ الخير إنْ جاء الأجل
بالأجر من ربّ الورى عَزّ وجل
كفى بربّي راحماً كفيّا

٦٥ــ٦٦ــ٦٧) «المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٥ ، الطبعة الحجريّة .

٦٨ــ٦٩ــ٧٠ــ٧١) «المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٥ ، الطبعة الحجريّة .

٧٢) المناقب» لابن شهرآشوب ج ١ ، ص . ٥٢٥ ووردت هاتان الروايتان في «بحار الأنوار» ج ٣٨ ، ص ١٤٥ و ١٤٦ ، الطبعة الحديثة ؛ وفي طبعة الكمبانيّ ، ج ٩ ، ص ٢٩٤ نقلاً عن «المناقب» .

قال في «القاموس» ج٢ ، ص ٥٥ : شُبّر كبُقّم ، وشُبّيْر كقُمّيْر ، ومُشَبّر كمحدّث أبناء هارون عليه السلام ، قيل : وبأسمائهم سمّى النبيّ صلّى الله عليه وآله الحسن والحسين والمحسن .

٧٣) المناقب» لابن شهرآشوب ج ١ ، ص ٥٤٩ و . ٥٥٠

٧٤) وردت رواية أبي الصلت الأهوازيّ إلى هنا في «بحار الأنوار» ج ٣٨ ، ص ١٣٦ ، الطبعة الحديثة ، وفي ج ٩ ، ص ٢٩٤ و ٢٩٥ ، طبعة الكمبانيّ .

٧٥) المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٤٩ و . ٥٥٠

٧٦ــ٧٧ــ٧٨ــ٧٩) «المناقب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص . ٥٥٠

٨٠) الغدير» ج ١ ، ص . ٣٩٦

٨١) الغدير» ج ١ ، ص ٣٩٧ و . ٣٩٨

٨٢) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٢٥١ ، باب ٥٦ ، طبعة إسلامبول ، الطبعة الأُولى ، في المودّة السادسة من كتاب «مودّة القربى» للسيّد عليّ الهمدانيّ .

٨٣) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٢٥١ ، باب ٥٦ ، في المودّة السادسة .

٨٤) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٢٥١ ، باب ٥٦ ، في المودّة السابعة .

٨٥) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥٠ ، باب ٦ ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٠٩ ، الحديث الأوّل .

٨٦) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥٠ ، باب ٦ ؛ و «غاية المرام» ص ١٠٩ ، الحديث الثالث ، وص ١١٠ ، الحديث الحادي عشر ؛ وفي مناقب ابن المغازليّ أحاديث عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبي وقّاص ، ص ٢٩ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ، وأرقامها هي : ٤٢ ، ٥١ ، ٥٣ ، . ٥٤

٨٧) ينابيع المودّة» الباب ٦ ، ص . ٥٠

٨٨) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥٠ ، باب ٦ ، طبعة إسلامبول .

٨٩) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥١ ، باب ٦ ، طبعة إسلامبول .

٩٠) العَوسَج خشب من شجر شائك .

٩١) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥١ ، باب ٦ ؛ ورواه في «بحار الأنوار» ، ج ٩ ، ص ٢٣٨ عن «كشف الغمّة» عن «المناقب» للخوارزميّ ، عن جابر بن عبد الله .

٩٢) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥٥ ، باب . ٧

٩٣) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥٥ و ٥٦ ، باب ٧ ، طبعة إسلامبول ؛ وذكر ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» ج ٣ ، ص ١١٠٩ و ١١١٠ عن معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن مطّلب بن عبد الله بن حنطب قال : لمّا جاء وفد ثقيف عند رسول الله ، قال لهم رسول الله : لَتَسْلَمُنّ أَوْ لَأَبْعَثَنّ رَجُلاً مِنّي ــ أَو قَالَ : مِثْلُ نَفْسِي ــ فليضربنّ أعناقكم ولَيسبَينّ ذراريكم وليأخُذَنّ أموالكم . قال عمر : فو الله ما تمنّيتُ الإمارة إلّايومئذٍ وجعلت أنصب صدري له رجاءَ أن يقول : هو هذا . قال : فالتفت إلى عليّ رضي الله عنه فأخذ بيده ثمّ قال : هو هذا .

٩٤) الجامع الصغير» ص ٦٦ ، الطبعة الرابعة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده ، باب عين .

٩٥) كنوز الحقايق في حديث خير الخلايق» المطبوع في هامش «الجامع الصغير» للسيوطيّ ، ص . ٦

٩٦) الخطبة القاصعة : ١٩٠ ، في القسم الخامس منه ، من طبعة عبده بمصر ، ص . ٣٩٣ وقبله قوله : وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنّةَ الشّيْطانِ حينَ نَزَلَ الوَحْيُ عَلَيهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَهِ ! مَا هَذِهِ الرّنّة ؟ فَقَالَ : هَذَا الشّيْطَانُ أَيسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إنّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ ــ إلى آخره .

٩٧) شرح نهج البلاغة» لابن أبيالحديد ،ج ١٣ ، ص ٢١١ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

٩٨) بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤١ ، طبعة الكمبانيّ .

٩٩) بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤١ و ٢٤٢ ، طبعة الكمبانيّ ؛ وروى البحرانيّ نصّ هذا الحديث المبارك في «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١١٥ و ١١٦ ، تحت الرقم ٦٠ عن الخوارزميّ في «الفضائل» بسنده المتّصل عن إبراهيم بن عبد الله بن العلا ، عن أبيه ، عن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عليّ عليه السلام . وعباراته هي هذه العبارات نفسها . وفيها إضافة أيضاً : وَإنّ أَعْدَاءَكَ غَدَاً ظَمأ مُظْمَئين مُسْوَدّة وُجُوهُهُمْ يَتَقَحّمُونَ مُقْمَحُونَ ! يُضْرَبُونَ بِالمَقَامِعِ وَهِيَ سِيَاطٌ مِن نَارٍ مُقْتَحَمِينَ ! وَأَنْتَ بَابُ عِلْمِي !

وكذلك روى البحرانيّ مختصر هذا الحديث في «غاية المرام» عن الخوارزميّ في مناقبه ، عن ناصر الحقّ ضمن حديث طويل ؛ ورواه أيضاً بطوله عن كتاب «المناقب الفاخرة» بسنده المتّصل عن جابر بن عبد الله ، وأضاف الجمل الآتية في نهاية الحديث : يَا عَلِيّ ! لَقَدْ جَعَلَ اللَهُ نَسْلَ كُلّ نَبِيّ مِنْ صُلْبِهِ ، وَنَسْلِي مِنْ صُلْبِكَ ! فَأَنْتَ أَعَزّ الخَلْقِ لَدَيّ ، وَأَكْرَمُهُمْ لَدَيّ ! وَمُحِبّوكَ أَكْرَمُ عَلَيّ مِنْ أُمّتِي . ونقله في «غاية المرام» أيضاً بهذه العبارات المذكورة عن طريق الخاصّة ، عن الشيخ الصدوق بأسناده المتّصلة عن جابر بن عبد الله ، وذلك في القسم الأوّل ، ص ١٢٧ ، الحديث رقم . ٤

١٠٠) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١١٠ ، الحديث ٧ ، و ص ١٢٢ ، الحديث . ٨٣ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٣٩ ، طبعة الكمبانيّ . وهذا الحديث بالعبارة التي أوردناها مذكور في «غاية المرام» ، و «بحار الأنوار» عن «مسند أحمد بن حنبل» ، ولكن يبدو أنّ سؤال رفيقه : سمعتَ من أبيك شيئاً ؟ أُضيف سهواً ، وهو متعلّق بحديث إبراهيم أو عامر أو مصعب أو عائشة أولاد سعد بن أبي وقّاص . والراوي في هذا الحديث هوموسى الجهنيّ نفسه مباشرة عن فاطمة بنت عليّ عليه السلام . وشاهد كلامنا رواية رواها المجلسيّ في «البحار» ج ٩ ، ص ٢٣٩ عن كتاب «العمدة» لابن بطريق ، عن ابن المغازليّ ، وفيها روى موسى الجهنيّ عن فاطمة بنت عليّ بلا واسطة ؛ و «الاستيعاب» ج ٣ ، ص ١٠٩٧ و ١٠٩٨ ؛ و «فرائد السمطين» ج ١ ، ص ١٢٢ ، حديث ٨٥ ؛ ورُوي هذا الحديث بطرق كثيرة عن مصادر مختلفة ذكر ابن عساكر أكثرها في «تاريخ دمشق» كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ج ١ ، ص ٣٥٤ ، وما بعدها تحت رقم ٤٤٠ ومابعده ؛ وورد أيضاً في «إحقاق الحقّ» ج ٥ ، ص ١٨٠ فما بعدها .

١٠١) غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث التاسع . ونقله المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٣٩ ، عن كتاب «العمدة» ، وكتاب «العمدة» و «المستدرك» و «المناقب» كلّها في الأحاديث التي روتها العامّة في باب الإمامة ، كما ذكر المجلسيّ ذلك في مقدّمة «البحار» . ومؤلّفها هو الشيخ أبو الحسين يحيى بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن محمّد

بن بِطْريق الأسديّ . وذكره البحرانيّ في «غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث ١٥ و ١٨ عن «صحيح مسلم» . و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ٧

١٠٢) غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث ١٤ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٣٩ عن ابن بطريق في كتاب «العمدة» ؛ وكذا في «غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث ١٧ عن «صحيح مسلم» ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ٧

١٠٣) غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث ١٢ و ١٣ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٣٩ ؛ وكذا في «غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث ١٦ عن «صحيح مسلم» ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٧ ؛ وفي «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٠ و٢٤١ ، طبعة الكمبانيّ بعد روايات كثيرة وبيان حديث من «كامل التواريخ» ، و «الطرائف» ؛ و «المصنّف» ؛ للقاضي التنوخيّ ، قال : روى التنوخيّ حديث المنزلة عن عمر بن الخطّاب ، وأمير المؤمنين صلوات الله عليه عليّ بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عبّاس ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد الخدريّ ، وجابر بن سمرة ، ومالك بن الحويرث ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، وأبي رافعمولى رسول الله ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وأخيه زيد ، وأبي سريحة ، وحذيفة بن أُسيد ، وأنس بن مالك ، وأبي بريدة الأسلميّ ، وأبي أيّوب الأنصاريّ ، وعقيل بن أبي طالب ، وحُبَيْش بن جنادة السلوليّ ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأُمّ سلمة زوجة النبيّ ، وأسماء بنت عميس ، وسعيد بن المسيّب ، ومحمّد بن عليّ بن الحسين ، وحبيب بن أبي ثابت ، وفاطمة بنت عليّ ، وشرحبيل بن سعد . كلّهم رووه عن النبيّ ، ثمّ شرح التنوخيّ الروايات بأسانيدها وطرقها .

١٠٤) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١١١ ، الحديث . ٢٢ وروى مضمونه أيضاً في «غاية المرام» ص ١٣٠ ، الحديث ١٥ ، عن «أمالي الطوسيّ» بسلسلة سنده المتّصل عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبي وقّاص . واستكّتا بتشديد الكاف استَكّ يَستَكّ استكاكاً ، أي : صُمّ صَمَماً ، وثلاثيه : سكّ يسكّ سكّاً ؛ و «المناقب» لابن المغازليّ ص ٢٧ و ٢٨ ، الحديث ٤٠ ، و ص ٣٣ ، الحديث ٥٠ ؛ و «المناقب» للخوارزميّ ، الطبعة الحجريّة ، ص ٩٥وفي طبعة النجف ص ٩٥ و ٩٦ ؛ و «أُسد الغابة» ج ٤ ، ص ٢٦ و . ٢٧

١٠٥) غاية المرام» ص ١١١ ، الحديث ٢٦ ؛ ورواه في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٠ عن كتاب «العمدة» لابن بطريق ؛ و «المناقب» لابن المغازليّ ص ٢٩ ، الحديث . ٤٣

١٠٦ غاية المرام» ص ١١١ ، الحديث ٣١ ؛ وأورده المجلسيّ في « بحار الأنوار » ، ج ٩ ، ص ٢٤٠ ، عن «العمدة» لابن بطريق ؛ وجاء في « المناقب » لابن المغازليّ ، ص ٣١ و٣٢ ؛ وورد ذيل هذا الحديث في « ينابيع المودّة» ج ١ ، باب ٦ ، ص . ٥٠

١٠٧) الفصول المهمّة» ص ١٢٥ ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٢٤ ، الحديث ٩٢ عن «الفصول المهمّة» عن كتاب «الخصائص» ؛ وروي هذا الحديث أيضاً في «غاية المرام» ص ١١٤ ، الحديث ٥٥ عن موفّق بن أحمد الخوارزميّ في كتاب «فضائل أمير المؤمنين عليه السلام» بسنده المتّصل عن العلّامة فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشريّ ، عن أبي الحسن عليّ بن الحسين بن مدرك الرازيّ ، عن إسماعيل بن الحسن السمّان ، عن محمّد بن عبد الواحد الخزاعيّ الغطّاء ، عن عبد الله بن سعيد الأنصاريّ ، عن عبد الله بن أردان الخيّاط الشيرازيّ ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهريّ وصيّ المأمون ، عن هارون الرشيد ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عبد الله بن عبّاس قال : سمعتُ عمر بن الخطّاب وعنده جماعة فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر ــ إلى آخر الحديث ؛ ورواه المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٠ ، طبعة الكمبانيّ ، عن كتاب «الفردوس» .

١٠٨) غايةالمرام » ص ١١٢ ، الحديث . ٣٥ وجاء مضمون هذا الحديث أيضاً في «غاية المرام » ص ١٢٣ ، الحديث ٨٩ ، عن إبراهيم بن محمّد الحمّوئيّ بسنده المتّصل عن قيس بن أبي حازم ؛ و «المناقب» لابن المغازليّ ، ص ٣٤ و ٣٥ ، الحديث ٥٢ ؛ ورواه في «الطرائف » عن ابن المغازليّ الشافعيّ ، وعن أحمد بن حنبل بعبارة واحدة مرفوعاً عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس ، عن معاوية بن أبي سفيان ؛ ورواه في « بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٠ عن كتاب « العمدة » لابن بطريق ؛ ورواه في « كنز العمّال » ج ١٥ ، ص ١٣١عن إبراهيم بن سعيد الجوهريّ قال : حدّثني المأمون ، عن أبيه هارون الرشيد ، عن المهدي العبّاسيّ قال : دخل عَلَيّ سفيان الثوريّ ، فقلت [له] : حدّثني بأحسن فضيلة عندك لأمير المؤمنين عليّ [بن أبي طالب !] فقال [سفيان] : حدّثني سَلَمَةَ بن كهيل ، عن حجية ، عن عليّ بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى . (ابن النجّار) .

١٠٩) غاية المرام» ص ١٣١ ، الحديث ٢٥ ؛ وروى المجلسيّ في «بحارالأنوار» ج ٩ ، ص ٢٣٧ في باب أخبار المنزلة والاستدلال بها على إمامته صلوات الله عليه ثماني روايات في هذا الموضوع عن «الأمالي» للشيخ الطوسيّ ؛ عن المفيد بإسناده عن عبد الله بن عبّاس ، عن رسول الله ، وعن أبي عمرو ، عن ابن عقدة بإسناده عن حبشي بن جنادة السلوليّ ، عن رسول الله ، وبهذا السند عن جابر بن سمرة ، عن رسول الله ، وعن أبي عمرو ، عن ابن عقدة بسنده عن أبي سعيد الخدريّ ، عن رسول الله ، وعن محمّد بن أحمد بن أبي الفوارس بسنده عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، عن رسول الله . وعن ابن الصّلْت ، عن ابن عقدة بسنده عن الإمام الرضا ، عن آبائه ، عنرسول الله ؛ وعن المفيد بسنده عن سعيد بن المسيّب عن سعد بن أبي وقّاص ، عن رسول الله ، وعن المجاشعيّ ؛

عن الإمام الصادق ، عن أبيه ، عن جدّه عليّ بن الحسين عليهم السلام ، عن عُمَر ؛ وسلَمَة ابني أبي سلَمة ، ربيبَي رسول الله ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

١١٠) التّرّهَات جمع تُرّهَة من مادّة تَرِهَ : الأباطيل والدواهي .

١١١) ــ المراد من غلام ثقيف شابّ من قبيلة ثقيف يقال له : الحجّاج بن يوسف الثقفيّ . قال المامقانيّ في «تنقيح المقال» ج ١ ، ص ٢٥٥ : الحجّاج وهو الظالم السفّاك الشقيّ العنيد أعدى عدوّ لأهل بيت الطهارة . وكانت مدّة حكومته في العراق عشرين سنةً . وكان عدد من قتله بالظلم والعدوان مائة وعشرين ألفاً . وكان في حبسه يوم موته خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة . و كان عمره ثلاثاً وخمسين سنةً . مات في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٩٥ ه .

وذكر ابن خلّكان ترجمة مفصّلة للحجّاج في «وفيّات الأعيان» . وهي مثبّتة في الجزء الثاني من الكتاب المذكور ، من ص ٢٩ إلى ٥٤ ، في الرقم ١٤٩ من طبعة دار الثقافة ببيروت . وقال في ص ٥٣ عن سبب موت الحجّاج : مات بمرض الآكلة (والآكلة داء في العضو يأتكل منه اللحم وأجزاء الجسم) وقال : وقعت في بطنه ودعا بالطبيب لينظر إليها ، فأخذ لحماً وعلّقه في خيط وسرّحه في حلقه وتركه ساعة ثمّ أخرجه ، وقد لصق به دودكثير . وسلّط الله عليه الزمهرير ، فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة ناراً وتدنى منه حتّى تحرق جلده وهو لا يحسّ بها ــ انتهى .

أقول : هذا الداء هو الذي أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام من قبل إذ ذكر أنّه يموت بمرض قبيح وأنّ كثيراً ممّا يخرج من بطنه يحرق دبره . قال ابن خلّكان : رحمه الله تعالى وسامَحَه ، ولكن أقول : لعنه الله وأخزاه ، وحشره مع مواليه : عبد الملك بن مروان ، ومن يحذو حذوه ؛ وأرانا الله تعالى محلّه في الجحيم وشفى الله قلوبنا برؤية عذابه ونكاله . وأقام الحجّاج على هذه الحالة خمسة عشر يوماً فشكى ما يجده إلى الحسن البصريّ ؛ فقال له : قد كنت نهيتك ألّا تتعرّض للصالحين ! فقال الحجّاج : لا أسألك أن تسأل الله أن يفرّج عنّي ! ولكنّي أسألك أن تسأله أن يعجّل قبض روحي ، ولا يطيل عذابي ! ولمّا جاء موت الحجّاج إلى الحسن البصريّ سجد للّه تعالى شكراً وقال : اللهمّ إنّك قد أمَتّهُ فأمِتْ عنّا سنّته ! («وفيّات الأعيان») .

١١٢) أي بلا فرق يذكر . ويقال أيضاً : طابق النعل بالنعل ، لأنّ فردة الحذاء أشبه بالفردة الأُخرى من غيرها . وأراد الإمام بهذا التشبيه أن يبيّن أنّ عمله أشبه بعمل رسول الله ، بل هو كعمل رسول الله تماماً .

١١٣) الاحتجاج» لأبي منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ إلى ٢٤٨ ، طبعة النجف ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٥٠ و ١٥١ ، الحديث ٦٤ عن «الاحتجاج» .

١١٤) كنز العمّال» ج ٨ ، ص ٢١٥ إلى ٢١٧ ، الطبعة الأُولى ؛ و «منتخب كنز العمّال» ج ٦ ، ص ٣١٥ إلى . ٣٣١

١١٥) نهج البلاغة» الخطبة . ١٥٤

١١٦) تاريخ اليعقوبيّ» ج ٢ ، ص ١٨٣ ، طبعة بيروت سنة ١٣٧٩ ه .

١١٧) كنز العمّال» ج ٦ ، ص ٨٣ ، الطبعة الأُولى .

١١٨) يقول : «إذا وضع الباني اللبنة معوجّة فإنّ الجدار يظلّ معوجّاً ما دامت الثريّا تسير» .

١١٩) في الآية ١٨ ، من السورة ١١ : هود : أَلَا لَعْنَةُ اللَهِ عَلَى الظّلِمِينَ .

١٢٠) الآية ٢٢٧ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

١٢١) لم يلقّب الإمام الحسن العسكريّ بلقب العسكريّ فحسب ، بل لقّب غيره ممّن أُبعد إلى سامراء أيضاً ، وهو والده الإمام عليّ بن محمّد الهاديّ الذي نلحظه قد لقّب بهذا اللقب في الحديث المذكور . كما أنّ الإمام محمّد الجواد لم يعرف وحده بابن الرضا ، بل شاركه في ذلك الإمام عليّ النقيّ الهاديوالإمام الحسن العسكريّ .

١٢٢) الآية ٥٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

١٢٣) الاحتجاج» للشيخ الطبرسيّ ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ إلى ٢٥٣ ، طبعة النجف ؛ و «غاية المرام» القسم الإوّل ، ص ١٥٢ ، الحديث ٧٠ ، نقلاً عن «الاحتجاج» .

١٢٤) الاحتجاج» للطبرسيّ ، ج ١ ، ص ١٥٧ إلى ١٨٥ طبعة النجف ؛ وكذا في «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٤٦ إلى ١٤٨ ، الحديث . ٦٢ وقال المرحوم البحرانيّ في آخره : وهذا الحديث أخرجته مسنداً من رواية ابن بابويه في كتاب «البرهان» في تفسير قوله تعالى : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرّسُولَ فَقَدّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ــ الآية .

١٢٥) الاحتجاج» للطبرسيّ ، ج ١ ، ص ١٨٨ إلى ٢١٠ ؛ و «غاية المرام» ص ١٤٨ إلى ١٥٠ ، الحديث ٦٣ ، عن «الاحتجاج» .

١٢٦) غاية المرام» ص ١٢٥ ، الحديث . ٩٨

١٢٧) نهج البلاغة» الخطبة . ٧٣

١٢٨) الآية ٣٣ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

١٢٩) شرح نهج البلاغة» ج ٦ ، ص ١٦٩ و ١٧٠ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ؛ و «غاية المرام» ص ١٢٥ ، الحديث . ٩٨

١٣٠) الآية ٣٧ ، من السورة ٢٧ : النمل . وهذا الكلام رسالة النبيّ سليمان إلى بلقيس وأعوانها ، إنّنا في غنى عن هديّتكم ! وعليكم أن تسلموا ، أو أُشخص إليكم جنوداً كثيرين يخرجونكم من تلك الديار بالذلّ والصغار !

١٣١) جاء في نسخة ابن أبي الحديد : أحمر مُخِشّاً . والمُخِشّ بضمّ الميم وكسر الخاء وتشديد الشين هو الماضي الجريء . ولكن ورد في نسخة «غاية المرام» جَمْراً مُحْتاً بمعنى الجامع ، والمجتمع ، وألف فارس .

١٣٢) شرح نهج البلاغة» ج ١٦ ، ص ١٨١ و ١٨٢ ، طبعة دار الكتب العربيّة ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٢٥ و ١٢٦ ، الحديث ١٠٠ ؛ و «الاستيعاب» ج ٢ ، ص ٥٢٥ و . ٥٢٦

١٣٣) قال في «العقد الفريد» ج ٣ ، ص ٢٢٨ : كانت سُمَيّة أُمّ زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكنديّ للحارث بن كلدة ، وكان طبيباً يعالجه ، فولدت له على فراشه نافعاً ، ثمّ ولدت أبا بكرة . [ولمّا كان لون أبي بكرة لا يشبهه] أنكره . وقيل له [أيضاً] : إنّ جاريتك بغيّ [فلهذا] انتفى الحرث بن كلدة من أبي بكرة ، ونافع ، وزوّجها عُبيداً [وكان] عبداً لابنته ، فولدت على فراشه زياداً . فلمّا كان يوم الطائف ، نادى منادي رسول الله : أيّما عبد نزل فهو حرّ ، وولاؤه للّه ورسوله . فنزل أبو بكرة وأسلم ، ولحق بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . [ولمّا انتفى الحرث بن كلدة من أبي بكرة ، واعتبره ابن غلامه ، ممّا سببّ في إسلامه وعتقه] ، قال لنافع [أخي أبي بكرة] : أنت ابني ، فلا تفعل كما فعل أبو بكرة . فلهذا لحق نافع بالحرث بن كلدةــ انتهى . إذن كان كلّ واحد من أبناء سميّة الثلاثة من أبٍ . فزياد من أبي سفيان ، ونافع من الحرث بن كَلْدَة ، ونُفَيْع أخيه ، وهو أبو بكرة ، من عُبَيْد . ولُقّب نُفَيْع بأبيبكرة لأنّه نزل من القلعة بواسطة بكرة معلّقة بحبل .

١٣٤) الكامل» لابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ في ذكر حوادث سنة ٤٤ ه ؛ و «الاستيعاب» ج ٢ ، ص ٥٢٣ إلى ٥٣٠ ؛ و «الإصابة» ج ١ ، ص ٥٦٣ ؛ و «فوات وفيّات الأعيان» ج ٢ ، ص ٣١ إلى . ٣٣

١٣٥) الاستيعاب» ج ٢ ، ص . ٥٢٥

١٣٦) شرح نهج البلاغة» لابن أبيالحديد ، ج ١٦ ، ص ١٨١ ، طبعة دار المعارف العربيّة .

١٣٧) صحيح مسلم» ج ٢ ، ص ١٠٨٠ مفهرس ، طبعة بيروت ، دار إحياء الكتب العربيّة ، باب الولد للفراش وتوقّي الشبهات ، ونقل هنا أيضاً رواية أُخرى عن عائشة ، وروايتين عن أبي هريرة أنّ رسول الله قال : الولد للفراش وللعاهر الحجر .

إنّ أمر رسول الله سودة أُخت عبد بن زمعة بالاحتجاب كان من باب الاحتياط ، لا من باب الحكم الشرعيّ المسلّم . إذ إنّ عبداً كان يشبه عتبة بن أبي وقّاص كثيراً كما جاء في الرواية . والمقرّر في علم الأُصول أنّ الاحتياط حسن عقلاً وشرعاً حتّى مع وجود الحجّة المعتبرة على أحد الاحتمالين .

١٣٨) بحارالأنوار» ج ١٠ ، ص ١٢٧ ، وكتاب «القواعد الفقهيّة» ج ٤ ، ص . ٢١ وروى مشايخنا الثلاثة في الكتب الأربعة عن الحسن بن صيقل ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال الحسن : سمعته ويُسأل عن رجل اشترى جارية ثمّ وقع عليها قبل أن يستبرء رحمها ، قال عليه السلام : بئس ما صنع يستغفر الله ولا يعد ؛ قلتُ : فإن باعها من آخر ولم يستبرئ رحمها ، ثمّ باعها الثاني من رجل آخر فوقع عليها ولم يستبرئ رحمها فاستبان حملها عند الثالث ؛ فقال أبو عبد الله عليه السلام : الولد للفراش وللعاهر الحجر .

١٣٩) شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١٦ ، ص . ١٩٤

١٤٠) قال في «جواهر الكلام» ج ٢٩ ، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ ، الطبعة الحديثة : وكيف كان فلا يثبت النسب مع الزنا إجماعاً بقسميه ؛ بل يمكن دعوى ضروريّته فضلاً عن دعوى معلوميّته من النصوص أو تواترها فيه . فلو زنى فانخلق من مائه ولد على الجزم لم ينسب إليه شرعاً على وجه يلحقه الأحكام وكذا بالنسبة إلى أُمّه .

١٤١) قال الشريف الرضيّ في تفسير هذين التشبهين : الوَاغِلُ هُوَ الّذِي يَهْجُمُ عَلَى الشّرْبِ لِيَشْرَب مَعَهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ ، فَلَا يَزَالُ مُدَفّعَاً مُحَاجَزَاً . وَالنّوطُ المُذَبْذَبُ هُوَ مَا يُنَاطُ بِرَحْلِ الرّاكِبِ مِنْ قَعْبٍ أَوْ قَدَحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَهُوَ أَبَدَاً يَتَقَلْقَلُ إِذَا حَثّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرَهُ .

١٤٢) نهج البلاغة» باب الرسائل ، رسالة . ٤٤

١٤٣) جمهرة رسائل العرب» لأحمد زكي صفوت ، ج ٢ ، ص ٢٩ و ٣٠ ، عن ابن أبي الحديد .

١٤٤) جهرة رسائل العرب» ج ٢ ، ص ٣٠ و ٣١ ، عن ابن أبي الحديد .

١٤٥) أي : عثمان . لأنّ عثمان هو ابن عفّان بن أبي العاص بن أُميّة .

١٤٦) جمهرة رسائل العرب» ج ٢ ، ص ٣٢ و ٣٣ ، عن «شرح ابن أبي الحديد» .

١٤٧) جاء في «العقد الفريد» ج ٣ ، ص ٢٣٠ ، طبعة سنة ١٣٣١ ه : كان زياد من أصدقاء المغيرة . وذلك أنّ زياداً كان أحد الشهود الأربعة الذين قدموا المدينة للشهادة على المغيرة بالزنا أيّام عمر . وفيهم أيضاً أبو بكرة أخو زياد . وشهد الثلاثة الآخرون أمّا زياد فقد تلجلج في شهادته ولم يشهد مع أنّه كان من المقرّر أن يشهد . فلهذا نجا المغيرة من إقامة الحدّ عليه . وحبس عمر الثلاثة الآخرين ثمّ أقام عليهم حدّ القذف . ولذلك تدهورت العلاقات بين أبي بكرة وزياد . أمّا المغيرة فقد كان صديقاً لزياد . ولمّا قدم المغيرة فارس مبعوثاً من قبل معاوية ، قال له زياد : أَشِرْ عَلَيّ وَارْمِ الغَرَضَ الأَقْصَى ! فَإِنّ المُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ . قَالَ : أَرَى أَنْ تَصِلَ حَبْلَكَ بِحَبْلِهِ وَتَسِيرَ إِلَيْهِ وَتَعِيرَ النّاسَ أُذُنَاً صَمّاءَ وَعَيْنَاً عَمْيَاء . وقد عمل زياد بمشورة المغيرة وسار إلى معاوية . («جمهرة رسائل العرب» ج ٢ ، تعليقة ص ٣٢) .

١٤٨) جاء في النسخة المطبوعة من شرح ابن أبي الحديد : ولقد قمتُ يوم قرأت كتابك مقاماً يعبأ به الخطيب المِدْرَة . ولكن ورد في نسخة «جمهرة رسائل العرب» : يعيا به . أي : يعجز .

١٤٩) إنّ جميع المطالب التي ذكرناها هنا حول معاوية وزياد بعد ذكر رسالة أمير المؤمنين عليه السلام من «نهج البلاغة» مثبّتة في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، طبعة دار الكتب العربيّة ، ج ١٦ ، ص ١٨٢ إلى . ١٨٦ ورواها ابن أبي الحديد عن أبي جعفر محمّد بن حبيب . وهذه الرسالة الأخيرة في «جمهرة رسائل العرب» ج ٢ ، ص ٣٣ إلى . ٣٥

١٥٠) شرح نهج البلاغة» ج ١٦ ، ص . ١٨٧

١٥١) العقد الفريد» ج ٣ ، ص ١٢٦ ، الطبعة الأُولى سنة ١٣٣١ ه .

١٥٢) ذلك أنّها عرضت نفسها لرجل أجنبيّ ، وهي ناموس النبيّ وعرضه ، فتكون قد هتكت ناموسه وعرضه بذلك . وقد نزلت آية الحجاب : وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ . والآية : وَقرْنَ فِى بِيُوتِكُنّ فيها وفي أمثالها من نساء النبيّ صلّى الله عليه وآله .

١٥٣) شرح نهج البلاغة» ج ١٦ ، ص ١٨٨ و ١٨٩ ، طبعة دار الكتب العربيّة .

١٥٤) شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١٦ ، ص ١٨٩ ؛ و «الاستيعاب» ج ٢ ، ص . ٥٢٦

١٥٥) شرح نهج البلاغة» ج ١٦ ، ص ١٨٩ و ١٩٠ ؛ و «الاستيعاب» ج ٢ ، ص . ٥٢٧

١٥٦) تحدّث المرحوم آية الله الميرزا حسن البجنورديّ رضوان الله عليه حديثاً وافياً حول القاعدة العامّة : الولد للفراش وللعاهر الحجر في كتابه المفيد : «القواعد الفقهيّة» ج ٤ ، ص ٢١ إلى . ٤٤

١٥٧) جواهر الكلام» للشيخ محمّد حسن النجفيّ . وهو من أفضل الكتب الفقهيّة الشيعيّة ؛ كتاب النكاح ، باب عدم إثبات النّسَب بالزنا ، ج ٢٩ ، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ ، الطبعة الحديثة .

١٥٨) مجمع البحرين» للطُرَيحيّ ، مادّة لَغَا .

١٥٩) وسائل الشيعة» كتاب النكاح ، باب ١٠١ ، من أبواب أحكام الأولاد ، الحديث الأوّل .

١٦٠) قال في «جواهر الكلام» بعد بحث كافٍ حول عدم تحقّق النسب بالزنا : وعلى كلّ حال فلا ينبغي التأمّل في أنّ مدار تحريم النسبيّات السبع على اللغة . ولا يلزم منه إثبات أحكام النسب في غير المقام الذي ينساق من دليله إرادة الشرعيّ لانتفاء ماعداه فيه .

وهو قاض بعدم ترتّب الأحكام عليه ، لأنّ المنفيّ شرعاً كالمنفيّ عقلاً كما أومأ إليه النفي باللعان . وعلى هذا فما في «القواعد» من الإشكال في العتق أن ملك الفرع ، والأصل ، والشهادة على الأب ، والقود به ، وتحريم الحليلة ، وغيرها من توابع النسب ، في غير محلّه . وفي «كشف اللثام» : كالإرث ، وتحريم زوج البنت على أُمّها ، والجمع بين الأُختين من الزنا ، أو إحداهما منه ، وحبس الأب في دين ابنه إن منع منه ... إلى أن قال : والأولى الاحتياط فيما يتعلّق بالدماء أو النكاح . وأمّا العتق فالأصل العدم مع الشكّ في السبب ، بل ظهور خلافه ، وأصل الشهادة القبول .

ثمّ قال صاحب «جواهر الكلام» : قلت : لا ينبغي التأمّل في أنّ المتّجه عدم لحوق حكم النسب في غير النكاح ، بل ستعرف قوّة عدم جريان حكمه فيه أيضاً في المصاهرات فضلاً عن غير النكاح . بل قد يتوقّف في جواز النظر بالنسبة إلى من حرم نكاحه ممّا عرفت .

لكنّ الإنصاف عدم خلوّ الحِلّ من قوّة بدعوى ظهور التلازم بين الحكمين هنا ، خصوصاً بعد ظهور اتّحادهما في المناط . ومن ذلك كلّه يظهر لك أنّه لا وجه لما في «المسالك» من التردّد في أمثال هذه المسائل ، كما هو واضح . («جواهر الكلام» ج ٢٩ ، ص ٢٥٨ و ٢٥٩) .

١٦١) شرح نهج البلاغة» ج ١٦ ، ص . ١٩٣

١٦٢) الآية ٦٠ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

١٦٣) ذكر ابن أبي الحديد رسالة زياد المسيئة إلى الإمام الحسن ، وجواب الإمام عنها . وكذلك نقل رسالة معاوية إلى زياد . وذلك في «شرح النهج البلاغة» ج ١٦ ، ص ١٩٤ و . ١٩٥

١٦٤) وتعريبه «ما أحسن المِحَكّ في الحياة إذ يفضح من كان سيّيء السريرة» .

١٦٥) ذكر ابن عبد ربّه الأندُلسيّ في «العقد الفريد» ج ٣ ، ص ١٢٠ إلى ١٢٣ ، من الطبعة الأُولى سنة ١٣٣١ه ، قصّة خروج عبد الله بن عبّاس على أمير المؤمنين عليه السلام والرسائل التي تبودلت بينهما ، وأخيراً فراره من البصرة إلى الحجاز .

١٦٦) الآية ٧٢ ، من السورة ١٥ : الحجر .

١٦٧) العقد الفريد» ج ٣ ، ص ١٢٤ و ١٢٥ ، الطبعة الأُولى ، سنة ١٣٣١ ه .

١٦٨) الآيات ٢٩ إلى ٣٢ ، من السورة ٢٠ : طه .

١٦٩) غاية المرام» ص ١٢٦ ، الحديث المائة عن العامّة .

١٧٠) غاية المرام» ص ١٤٤ و١٤٥ ، الحديث ٥٨ عن الخاصّة .

١٧١) نكزها ، أي ضَرَبَها ودَفَعَها ونَكّصَها .

١٧٢) نَعْل السّيف ما يكون في أسفل غِمْده من حَديد أو فضّةٍ .

١٧٣) دلائل الإمامة» لأبي جعفر محمّد بن جرير بن رستم الطبريّ ، أحد أعاظم علماء الإماميّة في القرن الرابع ، ص ٤٥ ، الطبعة الثانية ، النجف الأشرف ؛ ورواه المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ١٠ ، ص ٤٩ ، طبعة الكمبانيّ ، عن «دلائل الإمامة» .

١٧٤) بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٢٣١ ؛ وروى المجلسيّ هذا المطلب عن بعض الأفاضل في مكّة ، عن الجزء الثاني من كتاب «دلائل الإمامة» ضمن رواية مفصّلة .

١٧٥) بحار الأنوار» ج ١٣ ، ص . ٢٠٥ وخروج أمير المؤمنين من داخل الدار محمرّ العين حاسراً حتّى ألقى ملاءته عليها وضمّها إلى صدره . والملاءة لباس يغطّي الفخذين . كما يطلق على قماش ذي شقّين متضامّين كالمعطف والملحفة .

١٧٦) جاء في «بحار الأنوار» ج ١٣ ، ص ٢٠٥ ، طبعة الكمبانيّ ، ما نصّه : ضرب عمر لها بالسوط على عضدها حتّى صار كالدملج الأسود ، ورَكل الباب برجله حتّى أصاب بطنها وهي حاملة بالمحسن لستّة أشهر وأسقطها إيّاه . ورواه في باب ما يقع عند ظهور إمام الزمان برواية المفضّل بن عمر ، عن بعض مؤلّفات أصحابنا ، عن الحسين بن حمدان ، عن محمّد بن إسماعيل ، وعليبن عبد الله حسينين ، عن أبي شعيب محمّد بن نصر ، عن عمر بن فرات ، عن محمّد بن مفضّل ، عن المفضّل بن عمر ، عن الإمام الصادق عليه السلام . و «تلخيص الشافي» ص ٤١٥ ، وعن طبعة النجف : ج ١٣ ، ص . ١٥٦

١٧٧) ورد في «العقد الفريد» ج ٢ ، ص ١٩٧ ، طبعة سنة ١٣٢١ ه : أنّ عمر جاء بقبس . والمراد من القبس كما جاء في «القاموس» شعلة نار مضرمة . ولم يشكّ الشريف المرتضى علم الهدى في قضيّة جلب عمر النار إلى باب بيت فاطمة سلام الله عليه كما ذكر ذلك في كتاب «الشافي» ص ٢٤٠ وقال : رواها من علماء العامّة من هو غير متّهم عند أهل السنّة . كما ذكرها الشيخ الطوسيّ في «تلخيص الشافي» ج ٣ ، ص . ١٥٦ ونقلها السيّد ابن طاووس في «الطرائف» ص ٦٤ ، وروى تلك القصّة عن جماعة . وذكر ابن طاووس في كتاب «الطرف» أحاديث يوصي رسول الله صلّى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام فيها بالصبر .

١٧٨) الإمامة والسياسة» ص ١٣ ، طبعة مطبعة الأُمّة ــ مصر ، سنة ١٣٢٨ ه .

١٧٩) أي إذا شئتَ يا ابن رسول الله سمعت ووعيت ، وما أخبرت أحداً من الناس . ولمّا ظنّ جابر أنّ مراد الإمام بقوله : وعِ ، يعني لا تخبر أحداً من الناس ، أجابه الإمام بأن قال : اسمع وعِ إلى أن تبلغ بلادك . فإذا انتهت بك راحلتك إلى بلادك فبلّغ شيعتنا ! وأظهر هذه الحقائق !

١٨٠) الآية ١٤٢ ، من السورة ٧ : الأعراف .

١٨١) روضة الكافي» ص ١٨ إلى . ٣٠ وهذه الآيات في آخر الخطبة وهي الآيات الأخيرة من السورة ٥٠ : ق . ولكن جاء في سورة ق قوله : يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصّيْحَةَ بِالْحَقّ ، بدلاً من يوم تأتي الصيحة بالحقّ . وكذلك الآية التي استشهد بها قبل ذلك : الآية ٨٥ ، من السورة ٢ : البقرة . وما الله بغفل عمّا يعملون . ولكن لمّا طبع في نسخة «روضة الكافي» عمّا يعلمون ، وأ نه لم يرد في القرآن : وما الله بغافل عمّا يعملون ، وأنّ عبارة : عمّا يعلمون ليس لها معنى صحيح ، فلهذا صحّحناها في المتن كما هي في الآية : عمّا يعملون .

١٨٢) صِيرَة بكسر الصاد : حظيرة تتّخذ من الحجارة وأغصان الشجر للغنم والبقر .

١٨٣) عبّر الإمام عن أبي بكر بابن آكلةِ الذّبّانِ تحقيراً له ، لأنّهم كانوا في الجاهليّة يأكلون من كلّ خبيث .

١٨٤) أحجار الزيت موضع داخل المدينة .

١٨٥) عبارة الإمام : اغدوا بنا إلى أحْجَار الزّيت مُحَلّقين . وقال الملاّ صالح المازندرانيّ في «شرح أُصول وروضة الكافي» ج ١١ ، ص ٢٨١ : مُحَلّقِين ، أي : لابسين الحَلْقة . والحلقة بسكون اللام مطلق السلاح أو الدرع خاصّة . ويحتمل أنّ المراد : محلّقين رؤوسكم . ولعلّ الإمام أمرهم بذلك ليصير شعاراً لهم ، وليخبر مدى طاعتهم وأمتثالهم .

١٨٦) اقتباس من الآية ٣٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم : رَبّنَآ إِنّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَهِ مِن شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَافِى السّمَآءِ . وهذا هو دعاء إبراهيم في ساحة القدس الإلهيّ .

١٨٧) الآية ١٠١ ، من السورة ١٢ : يوسف . وهذا هو دعاء يوسف في ساحة القدس الإلهيّ .

١٨٨) روضة الكافي» ص ٣١ إلى . ٣٣

١٨٩) كمال الدين» للصدوق ، ج ١ ، ص ٢٦٢ إلى ٢٦٤ ، في فصل نصّ النبيّ على القائم عليه السلام ، طبعة مؤسّسة النشر الإسلاميّ ؛ وكتاب «سليم بن قيس» ص ٦٩ إلى ٧٩ مع اختلاف يسير في اللفظ .

١٩٠) كتاب «وفاة الصدّيقة الزهراء عليها السلام» للسيّد عبد الرزّاق الموسويّ المقرّم ، ص ٣٦ و . ٣٧ واخترت هذه الأبيات في هذا الموضع لمناسبة ذكرى وفاة الصدّيقة عليها السلام . ولكنّ السيّد المقرّم ذكر القصيدة كلّها ، وهي مائة وتسعة أبيات في كتابه المشار إليه من ص ١٢٦ إلى ١٣١ ، ومطلعها :

جوهرة القدس من الكنز الخفيّ
بَدَت فأبدت عاليات الأحرفِ

١٩١) يقول : «احترق باب بيت الله الحرام (بيت فاطمة) بنار الأجنبيّ ، ودمّرت الكعبة واحترق الحريم بحرقة صاحب الدار (عليّ وفاطمة) .

إنّ شمع مجلس الخلق (فاطمة) قد ذاب من غزارة الدموع والآهات وبلغ مبلغاً بحيث احترق صدر البيت بفعل دخان آهاته .

تصاعدت ألسنة النار في بيت الولاية المعمور ، فاحترق بها كلّ بيت عامر ومخروب إلى الأبد» .

١٩٢) جاء في نسخة البدل : خمخانه .

١٩٣) يقول : «وا لوعتاه من ناكث العهد الذي أو قد ناره حقداً على غدير خمّ فأحرق الدّنّ والصواع .

عندما احترقت ليلى ذات الجمال الأزليّ من رأسها إلى قدمها (بسبب نكث العهد) فإنّها أصبحت كالمجنون (عاشقها) الذي أذهب عقله الموجّه الهادي .

إنّ روضة التوحيد الميمونة قد دُمّرت ، واحترق غصنها اليانع (الزهراء) بفعل ريح سموم الشرك .

وأصبح كنز العلم والمعرفة فريسة للأفاعي ، واحترقت الجوهرة الفريدة بنارظلم الطّغام .

وضاعت ثمرة حديقة النبوّة ، واحترق البيدر الذي لم تتحقّق أُمنيته في الماء والحبّ .

وأنشب النسر الوضيع مخالبه في رأس طاووس الأزل (الزهراء) واحترق العالم من حسرة ذلك المشهد المدهش» .

١٩٤) يقول : «لقد أوقد مجوسيّ النار في العالم فأحرق بيدر الإسلام والدين إلى يوم القيامة .

كيف يُضغط الصدر الذي كان كنزاً لأسرار المعرفة بين الباب والجدار ؟

لقد أصبح طور سينا التجلّي قنديلاً من نور ، أمّا صدر سينا الوحدة (الزهراء) فقد اشتعل بالنار .

إنّ حسرة السيّدة وحرقتها قدحت الشرر في بيدر الوجود ، حتّى كأنّها النخل المشتعل في طور الغمّ .

إنّ من كان يخجل القمر المنير منه ويستصغر نفسه عنده ، كيف يطيق ضلعه ذلك الأذي ؟

انظر إلى دوران العالم الدنيء ، وكيف أصبح مدار الوحدة مغرزاً للمسمار بفعل جفاء السامريّ» .

١٩٥) ورد في النسخة البدل : گردون .

١٩٦) ديوان كمپانى» ص ٤٢ و ٤٣ ــ بالفارسيّة .

يقول : «ازرقّ وجهها من تلك اللطمة ، وأظلمّ وجه العالم إلى يوم القيامة من هذه المصيبة فأصبح كالسيل الأسود .

لقد أصبح الأمير أسيراً في قبضة عبد من العباد ، وهو الذي كان جبريل الأمين عبداً في بلاطه .

وكانت السيّدة خلف الملك بحسرتها الحزينة ، وظلّت معه ما امتلكت قدرة على ذلك .

وعلى الرغم من أنّ عضدها كان جريحاً ، ويدها كانت مغلولة لكن همّتها كانت عالية .

وإن كانت يد السيّدة قد قصرت من المَلِك (الإمام أمير المؤمنين) لكنّها كانت مرفوعة إلى السماء تدعو على ذلك الضالّ الذي آذاها» .

١٩٧) مروج الذهب» ج ٢ ، ص ٢٩٧ و ٢٩٨ ، طبعة مطبعة السعادة ــ مصر ، ١٣٦٧ ه .

١٩٧) مروج الذهب» ج ٢ ، ص ٢٩٧ و ٢٩٨ ، طبعة مطبعة السعادة ــ مصر ، ١٣٦٧ ه .

الدرس الثاني والأربعون بعد المائة إلى الثامن والأربعين بعد المائة: المقامات والمواطن التي خاطب فيها النبيّ أميرَ المؤمنين بحديث المنزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَ وَ عَدْنَا مُوسَى ثَلَثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَهَا بِعَشْرٍ فَتَمّ مِيقَتُ رَبّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَرُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ [1] .

جاء في تفسير «مجمع البيان» : المراد من عدم اتّباع سبيل المفسدين هو أن لا تسلك طريقة العاصين ! ولا تكن عوناً للظالمين ! وإنّما أراد بذلك إصلاح قومه ؛ وإن كان المخاطب به أخاه [2] .

ولكن قال العلّامة الطباطبائيّ في تفسير «الميزان» : وهارون نبيّ مرسل معصوم لا تصدر عنه المعصية ، ولا يتأتّى منه اتّباع أهل الفساد في دينهم ، وموسى أعلم بحال أخيه ؛ فليس مراده نهيه عن الكفر والمعصية ؛ بل أن لا يتّبع في إدارة أُمور قومه ما يشير إليه ويستصوبه المفسدون من القوم أيّام خلافته مادام موسى غائباً .

والدليل على هذا المعنى قوله : وَأَصْلِحْ فإنّه يدلّ على أنّ المراد بقوله : وَلَا تَتّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ أن يصلح أمرهم ولا يسير فيهم سيرة هي سبيل المفسدين التي يستحسنونها ويشيرون إليه بذلك .

ومن هنا يتأيّد أنّه كان في قوم موسى يومئذٍ جمع من المفسدين يفسدون ويقلبون عليه الأُمور ويتربّصون به الدوائر ؛ فنهى موسى أخاه أن يتّبع سبيلهم فيشوّشوا عليه الأمر ويكيدوا ويمكروا به ، فيتفرّق جمع بني إسرائيل ويتشتّت شملهم بعد تلك المحن والمشاكل التي كابدها في إحياء كلمة الاتّحاد بينهم [3] .

ثمّ قال صاحب «مجمع البيان» فيه : وإنّما أمر موسى عليه السلام أخاه هارون بأن يخلفه وينوب عنه في قومه مع أنّ هارون كان نبيّاً مرسلاً ، لأنّ الرئاسة كانت لموسى عليه وعلى أُمّته . ولم يكن يجوز أن يقول هارون لموسى مثل ذلك . وفي هذا دلالة على أنّ منزلة الإمامة منفصلة عن النبوّة وغير داخلة فيها .

وإنّما اجتمع الأمران لأنبياء مخصوصين ، لأنّ هارون لو كان له القيام بأمر الأُمّة من حيث كان نبيّاً ، لما احتاج فيه إلى استخلاف موسى إيّاه وإقامته مقامه .

ونحن نجد عين هذا الاستخلاف وتنصيب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام خليفة من قبل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديث المنزلة ، لأنّ قول النبيّ الأعظم : أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي الذي قاله في مقامات ومواطن عديدة يدلّ على أنّ مرتبة أمير المؤمنين ومقامه ومنزلته من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هي نفس ما كان لهارون من موسى . وتدلّ هذه المنزلة بنحو مطلق وعامّ على أنّ جميع المناصب والمقامات التي كانت لهارون هي لأمير المؤمنين أيضاً ، كالوصاية ، والوزارة ، والخلافة ، والمشاركة في أمر التبليغ ، والاضطلاع بحمل المهمّة الخطيرة ، ومسؤوليّة حفظ الدين والأُمّة وحراستهما .

إنّ المنصب الوحيد الذي استثني من مناصب هارون هو منصب النبوّة إذ ليس لأمير المؤمنين عليه السلام هذا المنصب ، ولو لم تختم النبوّة بمحمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لاستحقّها أمير المؤمنين بعده . ولكن لمّا كان صلّى الله عليه وآله خاتم النبيّين ، فلهذا لم يكن لعليّ بن أبي طالب منصب النبوّة .

لقد استقصيت حديث المنزلة : أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي فوجدت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قاله في أربعة عشر موطناً لم يرتبط أحدهما بالآخر على ما يبدو . وأراد النبيّ في هذه المواطن العديدة أن يبيّن لجميع الأُمّة ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام الكلّيّة ومنصبه في الخلافة والإمامة بعده ، كما أراد أن يبيّن مقامه الوزاريّ في جميع الأُمور ، وهو لا يزال على قيد الحياة .

أمّا المقام والموطن الأوّل [٤] الذي قال فيه النبيّ هذا الحديث ، فقد كان عندما عزم صلّى الله عليه وآله وسلّم على التحرّك إلى غزوة تبوك ، واستخلف أمير المؤمنين على المدينة ليقوم بشؤون أهلها طول غيبته .

وروى هذا الحديث مختلف الأشخاص من صحابة رسول الله ، منهم سعد بن أبي وَقّاص الذي قال له معاوية : لم لا تسبّ عليّ بن أبي طالب ؟ فأجاب قائلاً: سمعت من رسول الله أشياء في عليّ بن أبي طالب ، فلن أسبّه.

وروى علماء الشيعة والعامّة في كتب التواريخ والسير هذا الحديث عن سعد بأسناد مختلفة ومضامين متنوّعة ؛ ولا نجد كتاباً في أحوال عليّ بن أبي طالب أو في ترجمة سعد إلّا وتحدّث فيه صاحبه عن لقاء معاوية سعداً ، وروى فيه حديث المنزلة بشأن أمير المؤمنين .

وروى المؤرّخ الشهير والمحدّث الأمين المسعوديّ عن أبي جعفر محمّد بن جرير الطبريّ ، عن محمّد بن حميد الرازيّ ، عن أبي مجاهد ، عن محمّد بن إسحاق ، عن أبي نجيح ، قال : لمّا حجّ معاوية ، طاف بالبيت ومعه سعد (بن أبي وقّاص) ؛ فلمّا فرغ ،

انصرف معاوية إلى دَارِ النّدْوَةِ [٥] ، فأجلسه معه على سريره ؛ ووقع معاوية في عليّ ، وشرع في سبّه .

فزحف سعد ثمّ قال : أجلستني معك على سريرك ، ثمّ شرعتَ في سبّ علي ! والله لأن يكون فيّ خصلة واحدة من خصال كانت لعليّ أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

والله لأن أكون صهراً لرسول الله ، وأنّ لي من الولد ما لعليّ أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول الله قال لي ما قاله يوم خيبر : لَأُعْطِيَنّ الرّايَةَ غَدَاً رَجُلَاً يُحِبّهُ اللَهُ وَرَسُولُهُ ، وَيُحِبّ اللَهَ وَرَسُولَهُ ، لَيْسَ بِفَرّارٍ يفَتْحُ اللَهُ عَلَى يَدَيْهِ . أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول الله قال لي ما قاله في غزوة تبوك : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي أحبّ إليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

(قال سعد هذه الكلمات ، ونهض ، وقال لمعاوية) : وأيم الله لا دخلتُ لك داراً ما بقيت !

وقال المسعوديّ بعد هذه الرواية : ووجدت في وجه آخر من الروايات ــ وذلك في كتاب عليّ بن محمّد بن سليمان النوفليّ في الأخبار ــ عن ابن عائشة وغيره ، أنّ سعداً لمّا قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ، ضَرَطَ له معاوية ، وقال له : اقعد حتّى تسمع جواب ما قلت !

ما كنتَ عندي قطّ ألأم منك الآن ،فهلّا نصرتَه ؟ ولِمَ قعدتَ عن بيعته ؟! فإنّي لو سمعتُ من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مثل الذي سمعتَ فيه ، لكنتُ خادماً لعليّ ما عشت !

فقال سعد : والله إنّي لأحقّ بموضعك منك !

فقال معاوية : يأبى عليك ذلك بنو عُذْرَة ! وكان سعد فيما يقال رجلاً من بني عذرة .

قال النوفليّ : وفي ذلك يقول السيّد ابن محمّد الحِمْيَريّ :

سَائِلْ قُرَيْشاً بِهَا إنْ كُنْتَ ذَا عَمَةٍ
مَنْ كَانَ أَثْبَتَهَا فِي الدّينِ أَوْتَادَا
مَنْ كَانَ أَقْدَمَهَا سِلْمَاً وَأَكْثَرَهَا
عِلْمَاً وَأَطْهَرَهَا أَهْلاً وَأَوْلَادَا
مَنْ وَحّدَ اللَهَ إذْ كَانَتْ مُكَذّبَةً
تَدْعُو مَعَ اللَهِ أَوْثَانَاً وَأَنْدَادَا

مَنْ كَانَ يُقْدِمُ فِي الهَيْجَاءِ إنْ نَكَلُوا
عَنْهَا وَإنْ بَخِلُوا فِي أَزْمَةٍ جَادَا
مَنْ كَانَ أَعْدَلَهَا حُكْمَاً وَأَقْسَطَهَا
حِلْمَاً وَأَصْدَقَهَا وَعْدَاً وَإيعَادَا
إنْ يَصْدُقُوكَ فَلَمْ يَعْدُو أَبَا حَسَنٍ
إنْ أَنْتَ لَمْ تَلْقَ لِلْأَبْرَارِ حُسّادَا
إنْ أَنْتَ لَمْ تَلْقَ مِنْ تَيْمٍ أَخَا صَلَفٍ
وَمِنْ عَدِيّ لِحَقّ اللَهِ جُحّادَا
أَوْ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَوْ مِنْ بَني أَسَدٍ
رَهْطِ العَبِيدِ ذَوِي جَهْلٍ وَأَوْغَادَا
أَوْ رَهْطِ سَعْدٍ وَسَعْدٌ كَانَ قَدْ عَلِمُوا
عَنْ مُسْتَقِيمِ صِرَاطِ اللَهِ صَدّادَا
قَوْمٌ تَدَاعَوا زَنِيمَاً ثُمّ سَادَهُمُ
لَوْلَا خُمُولُ بَنِي زُهْرٍ لَمَا سَادَا [٦]

يمدح السيّد الحِمْيَريّ أمير المؤمنين عليه السلام في هذه القصيدة ، ويعرّض ويذمّ الذين توقّفوا عن بيعته ، وقعدوا عن نصرته [٧] .

ومن الذين لم يبايعوا الإمام عليه السلام في خلافته الظاهريّة بعد مقتل عثمان : سَعْد بن أبى وقّاص . وأجمعت كتب التأريخ والسّيَر على أنّ سعداً لم يبايع الأمام .

وورد في «سفينة البحار» في مادّة رَبَعَ عند ترجمة رَبيع بن خُثَيْم ، نقلاً عن تلميذ المجلسيّ رضوان الله عليه : وهو الفاضل الخبير الميرزا عبد الله الإصفهانيّ الأفنديّ في كتاب «رياض العلماء» أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الذين تخلّفوا عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام كانوا سبعة ، وهم : عَبْدُ اللَهِ بْنُ عُمَر ، صُهَيْبُ الرّومِيّ غُلَامُ عُمَر ، مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَة ، سَعْدُ بنُ أَبِي وَقّاص ، سَعِيدُ بْنُ مَالِك ، أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وسَلَمَةُ بْنُ سَلَامَة . ومن التابعين ثلاثة هم : رَبِيعُ بْنُ خُثَيم ، مَسْرُوقُ بْنُ أَجْدَع ، وَأَسْوَدُ بْنُ زَيْدٍ [٨] .

وقال المسعوديّ في «مروج الذهب» : وقعد عن بيعته جماعة عثمانيّة لم يروا إلّا الخروج عن الأمر . منهم سعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله بن عُمَر ، وبايع يزيد [بن معاوية] بعد ذلك ، (ثمّ بايع) عبد الملك بن مروان ؛ ومنهم : قدامة بن مظعون ، وأَهْبَان بن صَيْفِي ، وعبد الله بن سَلَام ، والمُغِيرَة بن شُعْبَة الثّقَفيّ . وممّن اعتزل من الأنصار : كَعْب بن مَالِك ، وَحَسّان بن ثَابِت ، وكانا شاعرين ، وأبو سَعِيد الخُدْرِيّ ، ومحمّد بن مُسْلَمَة حليف بني عبد الأشهل ، [ويزيد بن ثابت ، ورافع بن خُدَيْج ، والنّعْمان بن بشير [٩]

] وفَضَالَة بن عُبَيْد ، وكَعْب بن عُجْرَة ، ومَسْلَمَة بن خَالِد في آخرين لم نذكرهم من العثمانيّة من الأنصار وغيرهم من بني أُميّة وسواهم [١٠] .

وأشار ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» طبعة بيروت ١٣٨٥ ، ج ٣ ، ص ١٩١ إلى أنّه لمّا قتل عثمان ، بايع جميع المهاجرين والأنصار أمير المؤمنين عليه السلام . وتخلّف عن البيعة من المهاجرين سعد بن أبي وقّاص ، وابن عمر ، ومن الأنصار ، حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومَسلَمَة بن مخلّد . وأبو سعيد الخُدريّ ، ومحمّد بن مَسْلَمَة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عُبَيْد ، وكعب بن عُجْرَة ، وتخلّف عن بيعته أيضاً عبد الله بن سلام ، وصُهَيب بن سنان ، وسَلَمة بن سلامة بن وَقْش ، وأُسامة بن زيد ، وقدامة بن مظعون ، والمغيرة بن شعبة .

ولكن قال ابن سعد في طبقاته ج ٣ ، ص ٣١ : لمّا قتل عثمان وبويع لعليّ بن أبي طالب بالمدينة الغد من يوم قتل عثمان ، بايعه جميع من كان في المدينة ، ومنهم طلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقّاص ، وسعيد بن زيد بن عَمْرو بن نُفَيْل ، وعمّار بن ياسر ، وأُسامة بن زيد ، وسهل بن حُنَيف ، وأبو أيّوب الأنصاريّ ، ومحمّد بن مَسلَمة ، وزيد بن ثابت ، وخزيمة بن ثابت ، وجميع أهل المدينة . ثمّ ذكر طلحة والزبير أنّهما بايعا كارهين غير طائعين . وخرجا إلى مكّة وبها عائشة . ثمّ خرجا من مكّة ومعهما عائشة إلى البصرة يطلبون بدم عثمان .

وكان سعد بن أبي وقّاص أحد السابقين إلى الإسلام ، وهو سابع من أسلم [١١] . وشهد بدراً ، وأُحداً ، والخندق ، والمشاهد كلّها مع رسول الله . وأبلى يوم أُحد بلاءً عظيماً ؛ وأنّه أوّل من أراق دماً في سبيل الله ؛ وأوّل من رمي بسهم في سبيل الله . وقال العامّة : هو من سادات الصحابة ، ومن العشرة المبشّرة ، وأحد الذين شهد لهم النبيّ بالجنّة ؛ وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين أخبر عمر بن الخطّاب أنّ رسول الله توفّي ، وهم عنهم راضٍ [١٢] .

ولكنّه مع ذلك كانت له رغبة في الخلافة يوم الشورى . ثمّ انحاز إلى قومه عثمان على الرغم من احتجاجات مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام واستشهاده بالنصوص الكثيرة الواضحة المأثورة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حقّانيّته وتعيّن ولايته وإمامته وخلافته . وصوّت لمصلحة عثمان ؛ ولم يبايع أمير المؤمنين عليه السلام بعد عثمان ، واعتزل ولم ينصره في الجمل وصفيّن ، والنهروان .

يقول المسعوديّ : وكان سعد ، وأُسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، ومحمّد بن مسلمة ممّن قعد عن عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] ، وأَبَوا أن يبايعوه هم وغيرهم ممّن ذكرنا من القعّاد عن بيعته ، وذلك أنّهم قالوا : إنّها فتنة .

ومنهم من قال لعليّ : أَعْطِنَا سُيُوفاً نُقَاتِلُ بِهَا مَعَكَ ! فَإِذَا ضَرَبْنَا بِهَا المُؤْمِنِينَ لَمْ تَعْمَلْ فِيهِمْ ، وَبَنَتْ عَنْ أَجْسَادِهِمْ ؛ وَإِذَا ضَرَبْنَا بِهَا الكَافِرِينَ سَرَتْ فِي أَبْدَانِهِمْ ! فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ عَلِيّ وَقَالَ : «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلّوا وّهُمْ مّعْرِضُونَ» (١٣) .

إنّ قائل هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام هو سعد بن أبي وقّاص ، ويريد منه أنّ المسلمين والمؤمنين قد اختلطوا ، وأنّ جنود الإمام ، وجنود الجبهة المقابلة كلّهم مسلمون . وأنّه لا يستطيع أن يقاتل إلى جانب الإمام مؤازراً له ، فيقتل أعداءه ! وزعم أنّه يقاتل الكافرين لا المسلمين من أمثال طلحة ، والزبير ، وعائشة ، وأصحاب معاوية بن أبي سفيان ، فهؤلاء جميعاً مسلمون ، ولا يصحّ قتل المسلم !

وذكر كبار المؤرّخين أنّ سعد بن أبي وقّاص هو الذي تفوّه بذلك الكلام . ومن هؤلاء المؤرّخين ابن سعد في طبقاته ، فقد روى بسنده عن أيّوب بن محمّد أنّه قال : نُبِّئتُ أنّ سعداً كان يقول : ما أزعم أنّي بقميصي هذا أحقّ منّي بالخلافة قد جاهدت إذ أنا أعرف الجهاد . وَلَا أَبْخَعُ نَفْسِي إنْ كَانَ رَجُلٌ خَيْرَاً مِنّي ؛ لَا أُقَاتِلُ حَتّى تَأْتُونِي بِسَيْفٍ لَهُ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ وَشَفَتَانِ فَيَقُولُ : هَذَا مُؤْمِنٌ وَهَذَا كَافِرٌ (١٤) .

وروى ابن سعد أيضاً بسنده عن يحيى بن الحُصين [أنّه] قال : سمعت الحيّ [كانوا] يتحدّثون أنّ أبي قال لسعد : ما يَمْنَعُك من القتال ؟!

قال (سعد) : حتّى تجيئوني بسيف يَعْرِفُ المؤمنَ من الكافر (١٥) .

وقال ابن عبد البرّ : ورامه ابنه عمر بن سعد أن يدعو لنفسه بعد قتل عثمان ، فأبى . وكذلك رامَه أيضاً ابن أخيه هاشم بن عتبة ، فلمّا أبى عليه ، صار هاشم إلى عليّ [بن أبي طالب] .

وكان سعد ممّن قعد ولزم بيته في الفتنة [في ثورة المصريّين وقتل عثمان] . وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشيء ، حتّى تجتمع الأمّة على إمام .

فطمع معاوية فيه ، وفي عبد الله بن عمر ، ومحمّد بن مسلمة . فكتب إليهم يدعوهم إلى عونه على الطلب بدم عثمان . ويقول لهم : إنّ قاتله وخاذله سواء . (وإنّهم لمّا لم ينصروا عثمان ، فهم بحكم قاتليه . وكفّارة جرمهم ــ بزعمه ــ أن ينهضوا لنصرته (معاوية) على عليّ بن أبي طالب) .

وفي نثر ونظم كتب [معاوية] به اليهم ، و [قد] تركتُ ذكره . فأجابه كلّ واحد منهم بردّ عليه ما جاء به من ذلك وينكر مقالته ، ويعرّفه بأنّه ليس بأهل لما يطلبه ؛ وأنّ في جواب سعد بن أبي وقّاص قال :

مُعَاوِيَ دَاؤُكَ الدّاءُ العَيَاءُ
وَلَيْسَ لِمَا تَجيءُ بِهِ دَوَاءُ
أَيَدْعُونِي أَبُو حَسَنٍ عَلِيّ

فَلَمْ أَرْدُدْ عَلَيْهِ مَا يَشَاءُ
وَقُلْتُ لَهُ أَعْطِنِي سَيْفَاً بَصِيراً
تَمِيزُ بِهِ العَدَاوَةُ وَالوَلَاءُ
فَإِنّ الشَرّ أَصْغَرَهُ كَبِيرٌ
وَإِنّ الظّهْرَ تُثْقِلُهُ الدّمَاءُ
أَتَطْمَعُ فِي الّذي أَعْيَا عَلِيّاً
عَلَى مَا قَدْ طَمِعْتَ بِهِ العَفَاءُ
لَيَوْمٌ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْكَ حَيّاً
وَمَيْتَاً أَنْتَ لِلْمَرْءِ الفِدَاءُ
فَأَمّا أَمْرُ عُثْمَانٍ فَدَعْهُ
فَإِنّ الرّأْيَ أَذْهَبَهُ البَلَاءُ (١٦)

وقال ابن عبد البرّ أيضاً : قال أبو عمر : سُئِلَ عَلِيّ رَضِيَ اللَهُ عَنْهُ عَنِ الّذِينَ قَعَدُوا عَنْ بَيْعَتِهِ وَنُصْرَتِهِ وَالقِيَامِ مَعَهُ . فَقَالَ : أُولَئِكَ قَوْمٌ خَذَلُوا الحَقّ وَلَمْ يَنْصُرُوا البَاطِلَ (١٧) .

وقال أيضاً : بويع لعليّ عليه السلام بالخلافة يوم قتل عثمان ؛ واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار ؛ وتخلّف عن بيعته منهم نفر .

فلم يَهجْهُم ، ولم يكرههم ، وسئل عنهم ، فقال :

أُولَئِكَ قَوْمٌ قَعَدُوا عَنِ الحَقّ ؛ وَلَمْ يَقُومُوا مَعَ البَاطِلِ (١٨) .

وقال المامقانيّ : قال الكَشّيّ : وجدت في كتاب أبي عبد الله الشاذانيّ أنّه كان يقول : حدّثني جعفر بن محمّد المدائنيّ ، عن موسى بن قاسم العِجليّ ، عن صفوان ، عن عبد الرحمن بن الحجّاج ، عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام ، عن آبائه ، قال :

كَتَبَ عَلِيّ عَلَيْهِ السّلَامُ إِلَى وَالِي المَدِينَةِ : لَا تُعْطِيَنّ سَعْداً وَلَا ابْنَ عُمَرَ مِنَ الفَيْءِ شَيْئَاً ! فَأَمّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَإِنّي قَدْ عَذَرْتُهُ فِي اليَمِينِ الّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ (١٩) .

أجل ، هذا موقف سعد بن أبي وقّاص ، إذ أدّى به إلى الانعزال وسوء الفهم مع سوابقه المشرقة في الإسلام . ومُنيَ بالعجب والغرور نتيجة للمكانة التي جعلها له عامّة الناس على أساس كلام رسول الله : اللَهُمّ سَدّدْ رَمْيَتَهُ ، وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ (٢٠) ! ووجد نفسه في مقام تعذّر معه التنازل لأمير المؤمنين ، والانضواء تحت رايته . وتحوّل من التهوّر والشجاعة النفسانيّة إلى الجبن والوضاعة ، وأسكن نفسه وأخلى وِفاضه بشبهة واهية تتمثّل في أنّ المؤمنين لا يقتتلون وأنّه ليس عنده سيف يميّز المؤمن عن الكافر .

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام خليفة واجب الإطاعة وفقاً لبيعة المسلمين إيّاه ، مضافاً إلى النصوص النبويّة المأثورة الدالّة على خلافته الحقّة وولايته وإمارته الإلهيّة ، والجاعلة أوامره كأوامر الله ورسوله ، والقاضية بوجوب طاعة أوامره وأحكامه في

الحرب والسلم ، في ضوء قوله تعالى : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ [٢١] . وكان على الإمام بحكم القرآن الكريم أن يعاقب كلّ مسلم معتد باغ لا يبايع ولا يقرّ بالولاية ، وينوي إراقة الدماء والفساد في الأرض ، وإن كان مسلماً ، أو كان عدد البغاة بالآلاف .

ألم يقرأ سعد بن أبي وقّاص هذه الآية في القرآن الكريم ، ليعلم أنّ سيف عليّ هو سيف الحقّ ، وهو الفارق بين الحقّ والباطل والمؤمن والكافر ؟

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَ هُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَتِلُوا الّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَهِ فَإِنْ فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنّ اللَهَ يُحِبّ الْمُقْسِطِينَ [٢٢] .

في ضوء هذه الآية ، يحقّ لأمير المؤمنين أن يقاتل البغاة المتمرّدين الذين لا يستسلمون للحقّ ولا يتّبعونه كمعاوية ، وأصحاب الجمل ، والنهروان ، بعد الخطب والرسائل وإتمام الحجج . ويقف بوجه الفساد ، وينقذ الحكومة المركزيّة من التفرقة ، ويقمع المعتدين وأتباعهم ، ويقرّ حكومة واحدة للأُمّة الإسلاميّة في أرجاء الوطن الإسلاميّ ، كما كان ذلك في عهد النبيّ .

إنّ سعد بن أبي وقّاص مدان في احتجاجه بحكم هذه الآية . وليس من حقّه أن ينسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام القتال خبط عشواء بلا مراعاة للإيمان والكفر . وفي ضوء هذه الآية القرآنيّة ، يجب قتل المسلم المعتدي الذي لا يستسلم للحقّ . وأنّ قيمة الإنسان بشرف تسليمه واتّباعه الحقّ ، لا بإسلامه الظاهريّ . وللكافر المستعدّ لاتّباع الحقّ ميزة على المسلم الذي ليس كذلك . ويسمّى الإسلام إسلاماً بسبب التسليم للحقّ والابتعاد عن الباطل .

إنّ سعداً الذي كان أحد السابقين إلى الإسلام ، وأحد المهاجرين ، وكاتب النبيّ الذي كتب كتابه إلى يهود خيبر [٢٣] ، والذي كان أكبر من عليّ بن أبي طالب عليه السلام سنّاً [٢٤] ، وأحد أعضاء الشورى ، لا ينبغي له أن يغترّ ويقول : أنا كذا وكذا ، ولا يحضر في جيش عليّ . وهذا ليس احتياطاً ، بل هو خدعة نفسانيّة تظهر على شكل انعزال ؛ وهو مكيدة شيطانيّة تظهر بطابع التنسّك ، والتظاهر بالصلاح ، والمبيت في مسجد .

وذلك سعد الذي كان يعرف عليّاً جيّداً ، وكان مطّلعاً على سوابقه . وروى بعض الأحاديث في مدحه وفضله . فلا يحقّ له أن يقف بوجهه . أنّه على خطأ .

روى المجلسيّ رضوان الله عليه عن «الأمالي» للصدوق بسنده عن الأصبغ بن نباته ، قال :

بَيْنَا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السّلَامُ يَخْطُبُ النّاسَ وَهُوَ يَقُولُ : سَلُونِي قَبْلَ أَن تَفْقِدُونِي ! فَوَ اللَهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيءٍ مَضَى وَلَا عَنْ شَيءٍ يَكُونُ إِلّا نَبّأْتُكُمْ بِهِ .

فَقَامَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! أَخْبِرْنِي كَمْ فِي رَأْسِي وَلِحْيَتِي مِنْ شَعْرَةٍ ؟!

فَقَالَ لَهُ : أَمَا وَاللَهِ لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ حَدّثَنِي خَلِيلِي رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَ نَكَ سَتَسْأَلُنِي عَنْهَا ! وَمَا فِي رَأْسِكَ وَلِحْيَتِكَ مِنْ شَعْرَةٍ إِلّا وَفِي أَصْلِهَا شَيْطَانٌ جَالِسٌ ! فَإِنّ فِي بَيْتِكَ لَسَخْلاً [٢٥] يَقْتُلُ الحُسَيْنَ ابْنِي ! وَعُمَرُ بْنُ سَعْدٍ يَوْمَئِذٍ يَدْرُجُ بَيْنَ يَدَيْهِ [٢٦] .

أجل ، أعرض سعد عن بيعة الإمام ونصرته والانضواء تحت رايته ، ومُني بطمع معاوية . وامتنع عبد الله بن عمر المتنسّك المتعنّت ذو الأُفق الضيّق من بيعة الإمام . وبايع يزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان .

هر كه گريزد ز خراجات شاه

باركش غول بيابان شود [٢٧]

وكان معاوية بن أبي سفيان يتوقّعه أن يسبّ عليّاً ، فيؤاخذ على ذلك .

وكيف يسبّ سعد عليّاً مع سوابقه ومعرفته بسوابق رفيقه صاحب الولاية ، والحائز على العلم والفقه والقرآن والقضاء : أمير المؤمنين عليه السلام ذي السوابق عديمة المثيل . ومع معرفته بسوابق معاوية المشرك وأبيه أبي سفيان ــ رأس الفساد ومجيّش الجيوش على الإسلام ، ومنبع الخيانة والجناية ، وعفريت النفاق والازدواجيّة ــ إذ أسلما في فتح مكّة في السنة الثامنة من الهجرة مكرهين مضطرّين ؟!

فلهذا كان سعد يعيش في قصره بالعقيق على بعد عشرة أميال عن المدينة مستعلياً يرقب الأوضاع مع ما واجه به معاوية من موقف حادّ ، ومع سكوته عن جواب معاوية المكّار الغدّار ، ومشاهدة الثورة وتشويش الأوضاع بعد استشهاد الإمام المظلوم أمير المؤمنين عليه السلام الذي لم يترك شيئاً بعد استشهاده [٢٨] ، ومع استبانة مظلوميّته وصيحاته وخطبه التي ظلّت بلا جواب .

ولمّا رأى معاوية أنّه لا يستطيع أخذ البيعة لابنه يزيد مع وجود سعد بن أبي وقّاص ، ومكانته عند الناس ، لهذا قتله بالسم مع سبط رسول الله الحسن المجتبى عليه السلام .

ذكر أبو الفرج الإصفهانيّ بسنده المتّصل أنّ معاوية لمّا أراد البيعة لابنه يزيد ، وضع سمّاً في طعام خفية ، وأطعمه الإمام الحسن عليه السلام وسعداً ، فماتا منه وبين موتهما أيّام [٢٩] .

وروى بسنده الآخر أيضاً أنّه لمّا فرغ الإمام الحسن عليه السلام من خطبته ، انصرف إلى المدينة فأقام بها وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقّاص ، فدسّ إليهما سمّاً ، فماتا منه [٣٠] .

وكان سعد في الأيّام الأخيرة من حياته ينقل فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ويحدّث بميزاته التي اختصّ بها ، وكان قد سمعها من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . ولكن ما جدوى ذلك وقد سبق السيف العَذَل إذ فُلقت هامة عليّ عليه السلام في محراب العبادة ، وأنشب معاوية مخالبه الدمويّة في أقصى أرجاء البلاد ، وأُبيحت مكّة قتلاً وسلباً إذ أغار عليها بُسْر بن أرْطَاة ، وذبح هذا المتوحّش ولَدَي عبيد الله بن العبّاس . وعُدّ سبّ عليّ ولعنه وشتمه على المنابر من الواجبات في خطبة الجمعة والعيدين في أنحاء العالم الإسلاميّ . وما هو تأثير عدّ ابن أبي وقّاص مناقب عليّ لأبنائه وبنته [٣١] ، أو لرجلين عراقيّين [٣٢] ؟

لقد تركتَ عليّاً وحده عندما كانت السلطة ليست بيد معاوية ! وخذلته ولم تنصره ! وجعلته يواجه جمّاً غفيراً من المناوئين والأعداء وطلّاب الدنيا ! والآن إذ بلغ السيل الزّبى وتفرّق عنه جيشه ، وخذله أصحابه ، وأرغموا وصيّه الحسن المجتبى على بيعة طاغي زمانه بعدما تركوه وحده بلا ناصر ولا معين ، أنت جالس في قصرك بالعقيق تحدّث بمناقب عليّ ! ما جدوى ذلك ؟ حدّث وتكلّم بها ، لكن ما نفعها وفائدتها ؟ واجلس في بيتك واعبد ، لكن أيّ عبادة هي ؟!

ورحم الله آية الله السيّد محمود الشاهروديّ وتغمّده برضوانه ، كان أحد أساتذتيّ في الفقه بالنجف الأشرف ، وسمعته يقول أثناء الدرس على المنبر : ثلاثة يصيرون من أهل التنسّك الجافّ والعبادات الشكليّة الفاقدة لمعناها ، وهم : ١ ــ طالب العلوم الدينيّة الكسول . ٢ ــ التاجر المفلس . ٣ ــ الحاكم المعزول .

وكان عبد الله بن عمر أيضاً يتحسّر ويتأوّه في آخر عمره على عدم نصرته أمير المؤمنين عليه السلام في قتاله الفِئَة البَاغِيَة (معاوية ومن كان معه) .

قال ابن عبد البرّ : روي بطرق مختلفة عن حبيب بن أبي ثابت ، عن ابن عمر أَنّهُ قَالَ : مَا آسَى عَلَى شَيءٍ إلّا أَ نّي لَمْ أُقَاتِلْ مَعَ عَلِيّ الفِئَةَ البَاغِيَةَ [٣٣] .

وروى الدارقطنيّ أيضاً في «المؤتَلَف والمختَلَف» بسنده عن ابن عمر قال :

مَا آسَى عَلَى شَيءٍ إلّا عَلَى أَلّا أَكُونَ قَاتَلْتَ الفِئَةَ البَاغِيَةَ عَلَى صَوْمِ الهَوَاجِرِ [٣٤] .

وروى بسند آخر عنه أيضاً ، قال : مَا أَجِدُنِي آسَى عَلَى شَيءٍ فَاتَنِي مِنَ الدّنْيَا إلّا أَ نّي لَمْ أُقَاتِلِ الفِئَةَ البَاغِيَةَ مَعَ عَلِيّ [٣٥] .

وروى بسند آخر عنه عند موته أنّه قال : مَا أَجِدُ في نَفْسِي مِنْ أَمْرِ الدّنْيَا شَيْئَاً ، إلّا أَ نّي لَمْ أُقَاتِلِ الفِئَةَ البَاغِيَةَ مَعَ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِب [٣٦] .

ونقل بسند آخر أيضاً قوله : مَا آسَى عَلَى شَيءٍ إلّا تَرْكِي قِتَالَ الفِئَةِ البَاغِيَةِ مَعَ عَلِيّ [٣٧] .

ومضمون هذه الروايات ومفادها أنّه لم يأسف ويأسَ على شيء فاته من الدنيا إلّا قتال الفئة الباغية مع عليّ بن أبي طالب . بَيْدَ أنّ هذا الرجل يجلس تحت منبر الحجّاج بن يوسف الثقفيّ ليسمع خطبته ويبايع عبد الملك بن مروان . ثمّ يقتل على يد الحجّاج [٣٨] .

ونقل الشيخ الطوسيّ لقاء معاوية سعداً بالمدينة . فقد روى في أماليه بسنده عن عِكْرَمَة صاحب ابن عبّاس قال : لمّا حجّ معاوية ، نزل المدينة فاستؤذن لسعد بن أبي وقّاص عليه . فقال لجلسائه : إذا أذنت لسعد وجلس ، فخذوا من عليّ بن أبي طالب .

فأذن له [ودخل سعد] وجلس مع معاوية على السرير . وشتم القوم أمير المؤمنين عليه السلام . فانسكبت عينا سعدٍ بالبكاء .

فقال له معاوية : ما يبكيك يا سعد ؟! أتبكي إن شتم قاتل أخيك عثمان بن عفّان ؟!

قال [سعد] : والله ما أملك البكاء ؛ خرجنا من مكّة مهاجرين حتّى نزلنا هذا المسجد يعني مسجد رسول الله ؛ فكان فيه مبيتنا ومقيلنا إذا خرجنا منه وترك عليّ بن أبي طالب فيه فاشتدّ ذلك علينا وهُبنا نبيّ الله أن نذكر ذلك . [فلهذا] أتينا عائشة فقلنا : يَا أُمّ المُؤْمِنِينَ ! إنّ لنا صحبة مثل عليّ ، وهجرة مثل هجرة عليّ ! وإنّا قد أُخرجنا من المسجد وترك فيه فلا يُدرى من سخط من الله أو من غضب من رسوله ؟! فاذكري ذلك لرسول الله !

[قالت عائشة] : فذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقال لها : يَا عائِشَةُ ! لَا وَاللَهِ مَا أَنَا أَخْرَجْتُهُمْ وَلَا أَنَا أَسْكَنْتُهُ ، بَلِ اللَهُ أَخْرَجَهُمْ وَأَسْكَنَهُ [٣٩] !

وغزونا خيبر فانهزم عنها ما انهزم ؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لَأُعطِيّنَ الرّايَةَ اليَوْمَ رَجُلاً يُحِبّ اللَهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبّهُ اللَهُ وَرَسُولُهُ .

فدعاه [رسول الله] وهو أرمد فتفل في عينه وأعطاه الراية ففتح الله له .

وغزونا تبوك مع رسول الله فودّع عليّ النبيّ في ثَنِيّةِ الوَدَاعِ وبكى . فقال له النبيّ : ما يبكيك ؟!

فقال : كيف لا أبكى ولم أتخلّف عنك في غزاة منذ بعثك الله ! فما بالك تخلفني في هذه الغزاة ؟!

فقال له الرسول : أَمَا تَرْضَى يَا عَلِيّ أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟! قَالَ عَلِيّ : بَلَى رَضيتُ [٤٠] !

وقال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» : ذكر أبو أحمد العسكريّ في كتاب «الأمالي» أنّ سعد بن أبي وقّاص دخل على معاوية عام الجماعة فلم يسلّم عليه بأمرة المؤمنين .

فقال له معاوية : لو شئت أن تقول في سلامك غير هذا لقلت !

فقال سعد : نحن المؤمنون ولم نؤمّرك كأنّك بهجتها إنّك فيه يا معاوية ! والله ما يسرّني ما أنت فيه وإنّي هرقت محجمة دم !

قال [معاوية] : لكنّي وابن عمّك عليّاً يا أبا إسحاق قد هرقنا أكثر من محجمة ومحجمتين ! هلمّ واجلس معي على السرير !

فجلس سعد معه ، فذكر له معاوية اعتزاله الحرب يعاتبه !

فقال سعد : إنّما كان مثلي ومثل الناس كيوم أصابتهم ظلمة ، فقال واحد منهم لبعيره : إخْ . فأناخ حتّى أضاء له الطريق !

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ! ما في كتاب الله إخ . وإنّما فيه :

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَٰتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ [٤١] .

فو الله ما قاتلت [الفئة] الباغية ولا المبغي عليها ؛ فأفحمه .

وزاد ابن ديزيل في [كتاب] « الحنّ » زيادة ذكرها في «كتاب صفّين » قال : فقال سعد بن أبي وقّاص : أتأمرني أن أُقاتل رجلاً قال له رسول الله : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٤٢] ؟!

فقال معاوية : من سمع هذا معك ؟! قال سعد : فلان وفلان وأُمّ سلمة ! قال معاوية : لو كنت سمعت هذا لما قاتلته [٤٣] .

وقال ابن ديزيل : حدّثني جَعْفر بن مَكّي ، قال : سألت محمّد بن سليمان بن سلمس صاحب الحجاب ، وقد رأيت أنا محمّداً هذا وكانت لي به معرفة غير مستحكمة وكان ظريفاً أديباً ، وقد اشتمل في الرياضيّات والفلسفة ، ولم يكن يتعصّب لمذهب بعينه . قال جعفر : سألته عمّا عنده في أمر عليّ وعثمان . فقال : هذه عدواة قديمة النسب بين بني شمس وبين بني هاشم . وقد كان حَرْبُ بْنُ أُمَيّة نافر عَبْدَ المُطّلِبِ بْنَ هَاشِمْ . وكان أَبُو سُفْيَانُ يحسد مُحَمّدَاً وحاربه . ولم يزل البيتان متباغضين . ثمّ ساق حديثاً طويلاً إلى أن قال ما قاله رسول الله في عليّ مثل حديث خَاصِفِ النّعْلِ [٤٤] ، وحديث مَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، وحديث مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ وحديث هَذَا يَعْسُوبُ الدّينِ وحديث لَا فَتَى إلّا عَلِيّ ، وحديث أَحَبّ خَلْقِكَ إلَيْكَ . وما جرى هذا المجرى في الدلالة على أفضليّة عليّ ومقامه [٤٥] .

ونقل السيّد هاشم البحرانيّ في «غاية المرام» أحد عشر حديثاً عن «مسند أحمد بن حنبل» [٤٦] ، وثلاثة أحاديث عن «صحيح البخاريّ» [٤٧] ، وسبعة أحاديث عن «صحيح مسلم» [٤٨] حول حديث سعد بن أبي وقّاص وغيره ، وحول حديث المنزلة عند تحرّك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى غزوة تبوك ، أو بنحو مطلق .

وكذلك روى عن كتاب «الجمع بين الصحاح الستّة» لرزين ، في الثلث الأخير من الجزء الثالث في باب مناقب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، عن «صحيح أبي داود» و «صحيح الترمذيّ» ، عن أبي سريحة ، وزيد بن أرقم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . وروى عن سعد بن أبي وقّاص أنّه قال : قال رسول الله : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدَي . وقال سعيد بن المسيّب : أخبرني بهذا عامر بن سعد ، عن أبيه ، فأحببت أن أشافه به سعداً ، فلقيته ، فقلت : أنت سمعت هذا من رسول الله ؟! فوضع سعد إصبعه في أُذُنيه ، فقال : نعم وإلّا فاستكّتا [٤٩] .

وروى في «غاية المرام» أيضاً عن ابن المغازليّ في مناقبه ثلاثة وعشرين حديثاً عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص ، وعن إبراهيم بن سعد ، وعن عائشة بنت سعد ، وعن سعيد بن المُسَيّب ، عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ ، وعن أنس بن مالك ، وعن ابن عبّاس ، وعن سعيد بن المسيّب ، عن سعد ، وعن عبد الله بن مسعود ، وعن معاوية ، وعن عمر بن الخطّاب . كلّها في حديث المنزلة عند الخروج إلى غزوة تبوك ، وبنحو مطلق [٥٠] . منها ما رواه عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبي وقّاص قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ : أَقِمْ بِالمَدِينَةِ ! قَالَ : فَقَالَ لَهُ عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! إنّكَ مَا خَرَجْتَ فِي غَزَاةٍ فَخَلَفْتَنِي ! فَقَالَ النَبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ لِعَلِيّ : إنّ المَدِينَةَ لَا تَصْلَحُ إلّا بِي أَوْ بِكَ ! وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي !

قال سعيد : فقلت لسعد بن أبي وقّاص : أنت سمعتَ هذا من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟! قال : نعم ! لا مرّة ولا مرّتين يقول ذلك لعليّ عليه السلام [٥١] .

وذكر صاحب «الأربعين عن الأربعين» في حديثه الثاني بسنده المتّصل عن إبراهيم بن سعيد الجوهريّ وصيّ المأمون ، عن المأمون بن الرشيد ، عن المهدي ، عن المنصور ، عن أبيه ، عن ابن عبّاس ، قال :

سمعت عمر بن الخطّاب ؛ وعنده جماعة ، فتذاكروا المنافقين في الإسلام يقول : أَمّا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فسمعت رسول الله يقول فيه ثلاث خصال لوددتُ أنّ لي واحدة منهنّ ، وكان أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها . كنت أنا ، وأبو بكر ، وأبو عبيدة وجماعة من الصحابة إذ ضرب النبيّ بيده على منكب عليّ ، فقال : يَا عَلِيّ ! أَنْتَ أَوّلُ المُؤْمِنِينَ إيمَانَاً ؛ وَأَوّلُ المُسْلِمِينَ إسْلَامَاً ؛ وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى [٥٢] .

وروى عبد الله بن أحمد بن حَنْبَل عن مسند أبيه أحمد بن حَنْبَل بسنده ، قال : ذُكر عليّ عند رجل وعنده سعد بن أبي وقّاص . فقال سعد : أتذكر عليّاً ؟!

إنّ لَهُ مَنَاقِبَ أَرْبَعَ لَأَنْ تَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ أَحَبّ إِلَيّ مِنْ كَذَا وَكَذَا ، وَذَكَرَ حُمْرَ النّعَمَ : قَوْلُهُ : لَأُعْطِيَنّ الرّايَةَ ؛ وَقَوْلُهُ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؛ وَقَوْلُهُ ؛ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . وَنَسِيَ سُفْيَانُ وَاحِدَةٌ [٥٣] .

وروى أحمد بن حنبل بسنده في مسنده عن ابن عبّاس ، قال : خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وخرج الناس في غزاة تبوك ؛ فقال عليّ عليه السلام : أخرج معك يارسول الله ؟!

فقال له النبيّ صلوات الله عليه : لا ! فبكى عليّ .

فَقَالَ لَهُ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ ، إِنّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي [٥٤] !

وروى ابن المغازليّ بإسناده ، قال : لمّا خرج رسول اللّه إلى غزاة تبوك ، خلف عليّ بن أبي طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم .

فأرجف المنافقون ، وقالوا : ما أخلفه إلّا استثقالاً ، أو تخفيفاً منه . فلمّا قال ذلك المنافقون ، أخذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام سلاحه ، ثمّ خرج إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو نازل بالجُرف [٥٥] ، فقال : يا رسول الله ! زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني ، تستثقلني ؛ أو تخفّف منيّ !

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : كذبوا ! ولكنّي خلفتك لما تركتُ ورائي ! فارجع ، فاخلفني في أهلي وأهلك ! ألا ترضي يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي . فرجع عليّ عليه السلام إلى المدينة . ومضى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بسفره [٥٦] .

أجل ، علينا أن نعرف السبب الكامن وراء استخلاف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أميرَ المؤمنين عليه السلام على المدينة في هذه الغزوة . وهو الذي شهد المشاهد كلّها مع رسول الله في بدر ، وأُحد ، والأحزاب ، وحُنَيْن ، وغيرها بلا استثناء . ولم يشترك فيها فحسب ، بل كان الفاتح الوحيد في بَدْر ، والأحزاب ، وحُنَيْن ، وخَيْبر ، وكان الحامي الفريد لرسول الله في الأخطار والخطوب العظيمة كأُحُد .

ومبدئيّاً ، ماذا كان معنى الاستخلاف ؟ وما هو دوره الخطير في تلك المهمّة ؟ وكيف كان الوضع في المدينة آنذاك ، إذ قال رسول الله : يا عليّ ! المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك ؟! ولماذا نطق بتلك الجملة التأريخيّة في حديث المنزلة ؟

لابدّ لنا في البداية أن نلقي نظرة مجملة ، ثمّ نظرة مفصّلة على أوضاع المدينة يومئذٍ ، ونتحدّث في مجال المتطلّبات ، والكيفيّات ، والعلاقات العامّة للناس وقتذاك وذلك من أجل أن تستبين هذه الحقيقة .

أمّا النظرة المجملة فنقول : كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ووقعت بين رجب ورمضان . ولم يكن الوقت بينها وبين وفاة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أكثر من سنة ونصف . وكانت الأوضاع في المدينة تتأزّم يوماً بعد آخر بسبب وجود المنافقين ومؤامراتهم على رسول الله والمسلمين . وازداد تصلّبهم وعنفهم على مرّ الأيّام .

وبلغ إيذاؤهم المسلمينَ ورسولَ الله درجة أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال فيه : مَا أُوذِيَ نَبِيّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ قَطّ .

وتعود هذه الكلمة إلى إيذاء المنافقين كما ذهب إلى ذلك والدنا المعنويّ ، ومربّينا الروحيّ ، وأُستاذنا المعظّم : سماحة العلّامة الفقيد آية الله العظمى السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ أعلى الله مقامه الشريف .

ذلك أنّ بعض الأنبياء قد أُوذوا أضعاف ما أُوذي نبيّنا . فمنهم من نشر بالمنشار من وسط الشجرة . ومنهم من أُلقي في الماء المغليّ والزيت الحارّ ؛ ومن الطبيعيّ أنّ نبيّنا الكريم لم يتعرّض لهذه الضروب من الأذى . بَيدَ أنّه تجرّع الغصص وعانى من المنافقين ما لم يكن مثله عند أنبياء الأُمم السالفة .

وعندما نشط الإسلام ، وزادت شوكة المسلمين وقدرتهم ، أخذت حروب النبيّ وغزواته بالتناقص . ولم يذق تلك المرارات ، وتضاءل حجم القتال مع العدوّ . ولمّا فتحت مكّة والطائف ، وهما خندقان مهمّان للمشركين وقد دمّرا ، ولم يجد المشركون ملجأً آخر لهم ، آمن كثير منهم بالإسلام إيماناً ظاهريّاً ، بَيْدَ أنّهم كانوا مشركين باطنيّاً . وكذلك آمن كثير من أهل الكتاب بخاصّة اليهود إيماناً شكليّاً ، لكنّهم ظلّوا على عقيدتهم الأُولى في الباطن .

وكان هؤلاء يعيشون بين المسلمين ، وقد عاشروهم ، وشاركوهم في مراسمهم الدينيّة والعباديّة ، وحتّى السياسيّة . بيد أنّهم كانوا في الحقيقة يضعون العقبات والعراقيل في طريقهم . وما برحوا يثيرون الفتن والقلاقل والاضطرابات .

واتّسع هذا المعنى على كرور الأيّام ؛ وازدادت تنظيمات المنافقين وتكتّلاتهم وتوطّدت علاقاتهم مع المشركين والكافرين ومن كان خارج المدينة ؛ وإذا أعداء الإسلام في موقعة أُحُد ، وبَدْر ، والأحزاب قد تقمّصوا الإسلام وتغلغلوا في صفوف المسلمين متردّدين بينهم . وحضروا في مساجدهم ومحافلهم . ومارسوا أعمالهم كسائر المسلمين في الظاهر ، لكنّهم كانوا في الباطن ينهجون غير سبيل رسول الله تماماً . وكان النبيّ ــ من جهة ــ مكلّفاً أن يقبل إسلام من يشهد الشهادتين ويعتقد بالصلاة والزكاة ظاهريّاً ، ويعدّه مسلماً ، ويعامله معاملة المسلمين . ومن جهة أُخرى لم تكن له قدرة على مواجهة المنافقين واستئصال شوكتهم ما لم تقم حجّة شرعيّة في الظاهر ، وما لم يرتكبوا جريمة في محكمة

الإسلام . فلهذا كان أمر المنافقين عويصاً ، وأصبحت قضيّتهم معضلة من المعضلات التي واجهها الإسلام .

وكان أبو عامر الراهب الذي لقّبه النبيّ الأكرم بالفاسق من رؤسائهم . فهو من قساوسة النصاري بالمدينة سابقاً ، وأسلم ، ثمّ فرّ إلى مكّة خائفاً بسبب مؤامراته على رسول الله ، وبعد فتح مكّة ، هرب إلى الطائف . وبعد فتح الطائف لاذ بالفرار نحو الشام . وكان في صراع دائم مع المسلمين هناك . وتواطأ مع منافقي المدينة ومكّة ؛ وكان يدعمهم ويعزّز موقفهم باستمرار ، ويعدهم أنّه سيذهب إلى الروم ، ويأتي إلى المدينة بجيش غفير من إمبراطور الروم ، ويقضي على النبيّ والمسلمين بزعمه .

وكان منافقو المدينة وعلى رأسهم عبدُ اللَهِ بْنُ أُبَيّ وَجَدّ بْنُ قَيس يمهّدان الأجواء لعودة أبي عامر إلى المدينة من خلال بثّ الأراجيف بين المسلمين ، وتخويفهم بجيش الروم الجرّار ، وإرعابهم بعسكر الأُكَيْدِر الذي كان يحكم دُومَة الجَنْدَل [٥٧] التي تبعد عن المدينة كثيراً . وشاع في المدينة أيضاً أنّ هرقل سلطان الروم جاء إلى تبوك على رأس أربعين ألف مقاتل ؛ وتحالف مع أربع طوائف مهمّة . وهو عازم على التوجّه إلى المدينة بأموال وأثقال ومواشي كثيرة لقتل المسلمين ، ونهب أموالهم ، وسبي نسائهم وأطفالهم . وكانوا يبثّون هذا الخبر في كلّ يوم بنحو يجعل المسلمين في خوف وقلق دائماً . ويرون أنفسهم بانتظار هجوم يقوم به الجيش المذكور . وكانت هذه الأُمور قد غيّرت وضع المسلمين في المدينة .

وفي الوقت نفسه كانت الآيات القرآنيّة تنزل بلهجة حادّة تماماً وهي تأمر المسلمين بالتعبئة العامّة ، وترغّبهم في التضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . وكان النبيّ يتحدّث إلى المسلمين علناً حول حرب الروم ليتجهّزوا ويتهيّأوا في العدّة والعدد . وتأهّب المسلمون كافّة للجهاد ، وتحرّكوا مع رسول الله بجيش عظيم .

ولمّا كان الجهاد يشمل المنافقين أيضاً ، فكلّ واحد منهم كان يعتذر بعذر معيّن وينعزل عن القتال ، لأنّهم كانوا يدركون مشقّة الجهاد والسفر إلى الشام . وتحرّك بعضهم من المدينة كعبد الله بن أُبيّ الذي كان يتمتّع بشخصيّة ومكانة عظيمة . فسار مع أعوانه وأنصاره حتّى بلغ الجُرْف [٥٨] حيث مقرّ الجيش الإسلاميّ في أوّل خروجه . ونزل إلى جانب الجيش المذكور في مكان أخفض من المكان الذي يستقرّ فيه المسلمون ، ورفع علماً . وقيل : إنّ عسكره ليس أقلّ من عسكر رسول الله [٥٩] .

ولمّا تجهّز رسول الله وسار بالناس ، تخلّف عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه ورجعوا إلى المدينة ؛ وكانوا يقولون : يحسب محمّد أنّ قتال الروم كقتال العرب ؛ والله سيهلكون في الطريق ، ويموتون من الحرّ وانعدام الماء والطعام ؛ ووالله كأنّي أنظر إلى محمّد وأصحابه مقرّنين في الحبال [٦٠] .

وجاء المنافقون إلى رسول الله عند خروجه وقالوا : قد بنينا في حيّنا مسجداً قريباً من مسجد قبا لضعفائنا وشيوخنا . ولا نستطيع الذهاب إلى مسجد قبا في ليالي الشتاء المطيرة ، ولا نريد أن نصلّي في غير جماعة . فنصلّي فيه . وإن رأيتَ أن تقصده وتفتتحه بالصلاة فيه !

كان المنافقون يكذبون . وأرادوا أن يكون مسجدهم خندقاً في مقابل المسلمين للتآمر عليهم وتفريق كلمتهم . كما أرادوه أن يكون مقرّاً مركزيّاً لاجتماعهم . وتعاقدوا مع أبي عامر الراهب على أن يعود إلى المدينة في غيبة رسول الله ، ويصير إماماً للجماعة ورئيساً . وكانوا يزعمون أيضاً أنّ رسول الله يموت في سفرته هذه . وإذا ما بقي حيّاً فسيخطّطون لقتله في العقبة بواسطة اثني عشر أو أربعة عشر شخصاً منهم ، وينتهي كلّ شيء . وخطّطوا أيضاً للهجوم على نساء وذراري النبيّ والمسلمين وقتلهم ، وأسرهم ، وإخراجهم من المدينة ، وذلك عند غياب النبيّ . وعلى هذا ينتهي عمل رسول الله في داخل المدينة وخارجها ، وينعى الإسلام ناعوه .

وكان رسول الله يعرف حالاتهم ونيّاتهم جيّداً ، فرأى أنّه لابدّ من استخلاف أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في المدينة مكانه ليحول دون فسادهم . ولا أحد يقدر على مواجهة المنافقين وإحباط مؤامراتهم إلّا عليّ بن أبي طالب ؛ وبالمآل فإنّه لمّا كان يعلم أنّ قتلاً لا يحدث في هذه التعبئة وأنّ الحاجة إلى قوّته البدنيّة والقلبيّة قائمة إذ هو كالأسد الغضوب يشقّ الصفوف ، ويقمع العدوّ ، لهذا نصبه في المدينة خليفة له .

فَأَوْحَى اللَهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : يَا مُحَمّدُ ! إِنّ العَلِيّ الأَعْلَى يَقْرَأُ عَلَيْكَ السّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ : إِمّا أَنْ تَخْرُجَ أَنْتَ وَيُقِيمَ عَلِيّ ؛ وَإِمّا أَنْ يَخْرُجَ عَلِيّ وَتُقِيمَ أَنْتَ !

فقال رسول الله ذاك لعليّ . فقال عليّ : سمعاً وطاعة لأمر الله و أمر رسوله ؛ وإن كنت أُحِبّ أن لا أتخلّف عن رسول الله في حال من الأحوال .

فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُون مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟ فقال عليّ : رضيت يا رسول الله .

فقال رسول الله : يَا أَبَا الحَسَنِ ! إِنّ لَكَ أَجْرَ خُرُوجِكَ مَعِي فِي مَقَامِكَ بِالمَدِينَةِ وَإِنّ اللَهَ قَدْ جَعَلَكَ أُمّةً وَحْدَكَ كَمَا جَعَلَ إِبْرَاهِيمَ أُمّةً ، تَمْنَعُ جَمَاعَةَ المُنَافِقِينَ وَالكُفّارِ هَيْبَتُكَ عَنِ الحَرَكَةِ عَلَى المُسْلِمِينَ !

ولمّا خرج رسول الله من المدينة إلى معسكره وشيّعه عليّ بن أبي طالب ، خاض المنافقون وقالوا : إنّما خلفه محمّد بالمدينة لبغضه له وملالته منه . وما أراد بذلك إلّا أن يبيّته المنافقون فيقتلوه ويحاربوه ، فيهلكوه .

فوصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى رسول الله وقال : تسمع ما يقولون يا رسول الله ؟ !

فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَمَا يَكْفِيكَ أَنّكَ جَلْدَة مَا بَيْنَ عَيْنَيّ وَنُورُ بَصَرِي وَكَالرّوحِ فِي بَدَنِي ؟! [٦١]

وقفل أمير المؤمنين عليه السلام إلى المدينة راجعاً ، وانبرى إلى صيانة المدينة وحفظها من كيد المنافقين ، واضطلع بمهمّة الحفاظ على عيال رسول الله وأهله ، إلى أن عاد النبيّ والمسلمون بعد سفرهم الذي دام شهرين تقريباً .

أَمّا النظرة المفصّلة ، فنقول : إنّ الأنباط وهم جمع النّبَط كانوا من العجم القاطنين بين العراق والشام . وكانوا يسافرون إلى المدينة في الجاهليّة والإسلام لشراء أمتعتهم وبيعها كالدّرْمَك [٦٢] والزّيْت (دقيق القمح الأبيض وزيت الزيتون) ــ وكانوا مصدر الأخبار التي تصل من الشام إلى المسلمين لكثرة تردّدهم عليها ــ فأخبروا المسلمين أنّ هِرْقِل إمبراطور الروم [٦٣] يمتار لجيشه سنة كاملة ، وقد اتّحد مع لَخْم وجُذَام وغَسّان وعامِلَة وهم من نصارى العرب . وهو متأهّب للتحرّك نحو المدينة . ووصلت مقدّمة ذلك الجيش إلى البَلْقَاء [٦٤] وعسكروا بها . وتخلّف هرقل نفسه في حِمْص [٦٥] .

من الطبيعيّ أنّ الأُمور لم تكن كذلك ، وإنّما كانت إشاعة فحسبُ بثّت بين المسلمين [٦٦] .

ولمّا لم يكن للمسلمين آنذاك عدوّ أخطر وأشدّ من الروم ــ لأنّ المسلمين كانوا يرون التجّار الذين يأتون إلى المدينة للتجارة كيف كانوا ذوي إمكانيّات وأموال ومواشي وتجهيزات كثيرة وعدد كبير ــ فلهذا كان رسول الله يورّي في جميع غزواته ويخفي مكان الحرب ابتداءً ؛ بَيدَ أنّه أعلن في هذه الغزوة أنّه عازم لحرب الروم ، وذلك من أجل أن يتهيّأ الناس ويعدّوا أسباب السفر والخيول والإبل والمؤن وسائر التجهيزات بنحو كافٍ ووافٍ ، ويتأهّبوا لرحلة طويلة .

وكانت تلك الرحلة في حمّارة القيظ ؛ ولذلك بيّن للناس أنّ عليهم أن يتحرّكوا بجيش جرّار وأموال طائلة . وأوفد مبعوثين عنه إلى مكّة والقبائل ليتأهبّوا للجهاد .

وكان يحثّ الناس ويرغّبهم في جهاد الكفّار ، ويأمر بجمع الصدقات والتبرّعات . حتّى جلب الناس أموالهم ، وتهيّأ جيش مجهّز ، حتّى أُعدّت الخيوط أو السيور التي تشدّ بها فم القربة ، أو التي تعلّق بها القِرَب . وأتت النساء بحليّها وجواهرها .

تقول أُمّ سِنَانٍ الأَسْلَمِيّة : لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله فيه أسورة ، ومعاضد ، وخلاخل ، وخواتيم ، وأقرطة ممّا يبعث به النساء إليه لتجهيز المسلمين .

وكان ذلك في زمان طابت فيه الثمار ، وأُحبّت الظلال ، والناس حينئذٍ يحبّون المقام في المدينة ويكرهون الشخوص عنها .

وأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يحثّ الناس على الإسراع . وضرب عسكره بِثَنِيّةِ الوَدَاع [٦٧] . والناس كثير لا يجمعهم كتاب ولا يأتي عليهم إحصاء [٦٨] .

وفي هذه الحال تباطأ بعض الناس في التحرّك ، وأصابهم فتور ، وفتنهم مناخ المدينة ، والجلوس تحت الظلل ، والفواكه التي كانت على وشك النضوج . فنزلت هذه الآية :

يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوةِ الدّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَعُ الْحَيَوةِ الدّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ * إِلّا تَنفِرُوا يُعَذّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرّوهُ شَيْئًا وَاللَهُ عَلَى كُلِ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦٩) .

«أيّها المؤمنون ما لكم إذا قيل لكم اذهبوا في سبيل الله (لجهاد الروم) تثاقلتم . فهل رضيتم بهذه الحياة التافهة بدلاً من الحياة الآخرة ؟ وليس الاستمتاع في هذه الحياة إلّا ضئيل في مقابل الحياة الآخرة (وهي الحياة العالية الخالدة الثمينة) . وإن لم تتحرّكوا ، يعذّبكم الله عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم (لنصرة دينه وإجابة دعوة نبيّه) . ولا قِبَل لكم فتضرّوا الله أبسط الضرر . وهو على كلّ شيء قدير» .

أيّها المسلمون لا تنصتوا لكلام المنافقين ! ولا تقبلوا قولهم المثبّط عن القتال ! ولا تنخدعوا بألسنتهم الحداد ومنطقهم الماكر ! ولا تسمعوا هذيانهم وأراجيفهم إذ يقولون : ها هي الفواكه قد نضجت وستتلف ؛ والجوّ حارّ ؛ وليس من الصحيح التحرّك نحو الروم لطول المسافة ؛ ولا علم لمحمّد بأهميّة القتال ، كما أنّه لا يدري أنّ قتال الروم ليس كقتال القبائل العربيّة . لا تسمعوا هذه الأباطيل واعلموا : إِلّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنّ اللَهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيّدَهُ بِجُنُودٍ لّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الّذِينَ كَفَرُوا السّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧٠) .

«إن لم تنصروه ، فقد نصره الله حقّاً عندما أخرجه الكافرون (من مكّة) وهو أحد اثنين إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إنّ الله معنا ! فأنزل الله سكينته على نبيّه ، وأيّده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الكافرين السفلى (إذ لم يقدروا أن يقبضوا عليه ويقتلوه) . وكلمة الله هي العليا فحسب (إذ حفظ الله نبيّه وأوصله إلى المدينة بسلام) ولله العزّة والتفرّد في الأُمور ، وله مقام الإحكام (لا يغلبه شيء ولا يعتري إحكامه الفتور) .

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَهِدُوا بِأَمْوَ لِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَهِ ذ لِكُمْ خَيْرٌ لّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) .

قال الشيخ الطبرسيّ : قال الحسن ، ومجاهد ، وعِكْرِمَة ، والضحّاك وغيرهم : المراد من خفافاً وثقالاً شبّاناً وشيوخاً . وقال ابن عبّاس ، وقتادة : نشّاطاً وغير نشّاط . وقال الحكم : مشاغيل وغير مشاغيل . وقال أبو صالح : أغنياء وفقراء . وقال الفرّاء : أراد بالخفاف أهل العسرة من المال وقلّة العيال . وبالثقال : أهل الميسرة في المال وكثرة العيال . وقال أبو عمرو ، وعطيّة العوفيّ : ركباناً ومشاة . وقال ابن زيد : ذا صنعة وغير ذي صنعة . وقال يمان : عزّاباً ومتأهّلين .

ثمّ قال : والوجه أن يحمل على الجميع فيقال : معناه : اخرجواإلى الجهاد خفّ عليكم أو شقّ ! على أيّة حالة كنتم لأنّ أحوال الإنسان لا تخلو من أحد هذه الأشياء [٧٢] .

وقال العلّامة الطباطبائيّ : الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل . والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثرة المشاغل الماليّة وحبّ الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الذي يوجب كراهة مفارقتهم ، وفقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك ؛ والخفّة كناية عن خلاف ذلك .

فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أيّ حال ، وعدم اتّخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج ؛ كما أنّ الجمع بين الأموال والأنفس في معنى الأمر بالجهاد بأيّ وسيلة أمكنت .

وقد ظهر بذلك أنّ الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التي يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض ، والعمى ، والعرج ، ونحو ذلك . فإنّ المراد بالخفّة والثقل أمر وراء ذلك [٧٣] .

وقال الواقديّ : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لِجَدّ بن قيس (الذي كان أحد رؤوس النفاق) : أبا وهب ! هل لك العامَ تخرج معنا لعلّك تحتقب من بنات الأصفر [٧٤] .

فقال الجَدّ بْنُ قَيْس : أو تأذن لي ولا تفتنّي ! فو الله ، لقد عرف قومي ما أحد أشدّ عجباً بالنساء منّي ؛ وإنّي لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهنّ ! فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال : قد أذنت لك .

فجاءه ابنه عبد الله بن الجدّ ، وكان بدريّاً ، وهو أخو مُعَاذ بن جَبَل لأُمّه ، فقال لأبيه : لِمَ تردّ على رسول الله مقالته ؟! فو الله ما في بَنِي سَلِمَة أكثر مالاً منك ! ولا تخرج (مع رسول الله) ؛ ولا تحمل أحداً (أي ولا تدفع حصانك وبعيرك إلى آخر فيخرج مع رسول الله) ؟!

قال (الجدّ) : يا بُنيّ ! ما لي وللخروج في الريح ، والحرّ ، والعسرة إلى بني الأصفر ؟ والله ! ما آمن خوفاً من بني الأصفر ؛ وإنّي في منزلي بخُرْبَى ! فأذهب إليهم فأغزوهم ! إنّي والله يا بنيّ عالم بالدوائر !

فأغلظ له ابنه ، فقال : لا والله ، ولكنّه النفاق ! والله لينزلنّ على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيك قرآن يقرأونه [٧٥] . قال : فرفع نعله فضرب بها وجهه .

فانصرف ابنه ولم يكلّمه . وجعل الخبيث يثبّط قومه ، وقال لجَبّارِ بْنِ صَخْرٍ ونفر معه من بَنِي سَلِمَة : يا بني سلمة ! لا تنفروا في الحرّ ! يقول : لا تخرجوا في الحرّ زهادة في الجهاد ، وشكّاً في الحقّ ، وإرجافاً برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَهِدُوا بِأَمْوَ لِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى الْحَرّ قُلْ نَارُ جَهَنّمَ أَشَدّ حَرّا لّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٧٦) .

وفي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية أيضاً :

وَمِنْهُم مّن يَقُولُ ائْذَن لّى وَلَا تَفْتِنّى أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنّ جَهَنّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَفِرِينَ (٧٧) .

ذلك أنّ الكذب أوّلاً ، والشكّ في الإيمان ثانياً ، وقبول دعوة النبيّ للجهاد القريب واليسير الذي فيه غنيمة ، وردّ الجهاد البعيد والعسير ، كلّ أُولئك أكبر فتنة سقط فيها .

وكان هذا الرجل يزعم أنّ نساء الروم تفتنه بجمالها ، وتسقطه . إنّه كان يكذب ، وكان يتظاهر أنّه يتخلّص من الحرب ، ويحفظ نفسه التي كان يحبّها أكثر من نفس رسول الله . وهذا اللون من التفكير أكبر فتنة ارتكس فيها .

ولمّا نزلت هذه الآية ، جاء عبد الله إلى أبيه ، فقال : ألم أقل لك إنّه سوف ينزل فيك قرآن يقرأه المسلمون ؟! فقال الجدّ لابنه : اسْكُت عَنّي يَا لُكَعُ وَاللَهِ لَا أَنْفَعُكَ بِنَافِعَةٍ أَبَدَاً ، وَاللَهِ لَأَنْتَ أَشَدّ عَلَيّ مِنْ مُحَمّدٍ (٧٨) .

روى ابن هشام بسنده عن عبد الله بن حارثة ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال :

بلغ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهوديّ ــ وكان بيته عند جاسومَ ــ يُثَبّطون الناس في غزوة تبوك . فبعث إليهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم طلحة بن عُبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يخرّق عليهم بيت سُويلم .

ففعل طلحة فاقتَحم الضحّاك بنُ خليفة من ظهر البيت (وهو أحد المنافقين) ، فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا (٧٩) .

قال علي بن إبراهيم القمّيّ : وأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعسكره وضرب في ثَنِيّة الوَدَاع . وأمر أهل الجدِة (الأغنياء) أن يعينوا من لا قوة به . ومن كان عنده شيء أخرجه وحملوا وقووا وحثّوا على ذلك . وخطب رسول الله فقال : أَيّهَا النّاسُ ! إنّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَهِ ؛ وَأَوْلَى القَوْلِ كَلِمَةُ التّقْوَى ؛ وَخَيْرُ المِلَلِ مِلّةُ إِبْرَاهِيمَ ؛ وَخَيْرُ السّنَنِ سُنّةُ مُحَمّدٍ ؛ وَأَشْرَفُ الحَدِيثِ ذِكْرُ اللَهِ ، وَأَحْسَنُ القَصَصِ هَذا القُرْآنُ ؛ وَخَيْرُ الأُمُورِ عَزَائِمُهَا ؛ وَشرّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ؛ وَأَحْسَنُ الهَدْيِ هَدْيُ الأَنْبِياءِ ؛ وَأَشرَفُ القَتْلِ قَتْلُ الشّهَدَاءِ ؛ وَأَعْمَى العَمَى الضّلَالَةُ بَعْدَ الهُدَى ؛ وَخَيْرُ الأَعْمَالِ مَا نَفَعَ ؛ وَخَيْرُ الهَدْيِ مَا اتّبِعَ ، وَشَرّ العَمَى عَمَى القَلْبِ ؛ وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السّفْلَى ؛ وَمَا قَلّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمّا كَثُرَ وَأَلْهَى ؛ وَشَرّ المَعْذِرَةِ حِينَ يَحْضُرُ المَوْتُ ؛ وَشَرّ النّدَامَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ .

وَمِنَ النّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الجُمُعَةَ إلّا نَزْرَاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْكُرُ اللَهَ إلّا هَجْراً ؛ وَمِنْ أَعْظَمِ الخَطَايَا اللّسَانُ الكَذُوبُ ؛ وَخَيْرُ الغِنَى غِنَى النّفْسِ ؛ وَخَيْرُ الزّادِ التّقْوَى ؛ وَرَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَهِ ؛ وَخَيْرُ مَا أُلْقِيَ فِيالقَلْبِ اليَقِينُ ؛ وَالارْتِيابُ مِنَ الكُفْرِ ؛ وَالنّيَاحَةُ مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيّةِ ؛ وَالغُلُول مِنْ جَمْرِ جَهَنّمَ ؛ وَالسّكَرُ جَمْرُ النّارِ ؛ وَالشّعْرُ مِنْ إبْلِيسَ ؛ وَالخَمْرُ جِمَاعُ الإثْمِ ؛ وَالنّسَاءُ حَبَايِلُ إبْلِيسَ ؛ وَالشّبَابُ [٨٠] شُعْبَةٌ مِنَ الجُنُونِ ؛ وَشَرّ المَكَاسِبِ كَسْبُ الرّبَا ؛ وَشَرّ المَأْكَلِ أَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ؛ وَالسّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ؛ وَالشّقِيّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمّهِ ؛ وَإنّمَا يَصِيرُ أَحَدُكُمْ إلَى مَوْضِعِ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ [٨١] ؛ وَالأَمْرُ إلَى آخِرِهِ ؛ وَمَلَاكُ العَمَلِ خَوَاتِيمُهُ ؛ وَأَرْبَى الرّبَا الكَذِبُ ؛ وَكُلّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ؛ وَسِبَابُ المُؤْمِنِ فِسْقٌ ؛ وَقِتَالُ المُؤْمِنِ كُفْرٌ ؛ وَأَكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَهِ ؛ وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ ؛ وَمَنْ تَوَكّلَ عَلَى اللَهِ كَفَاهُ ؛ وَمَنْ صَبَرَ ظَفَرَ ؛ وَمَنْ يَعْفُ عَنِ النّاسِ يَعْفُ اللَهُ عَنْهُ ؛ وَمَنْ كَظَمَ الغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللَهُ ؛ وَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى الرّزِيّةِ يُعَوّضْهُ اللَهُ ؛ وَمَنْ يَتْبَعِ السّمْعَةَ يُسَمّعِ اللَهُ بِهِ ؛ وَمَنْ يَصُمْ يُضَاعِفِ اللَهُ لَهُ ؛ وَمَنْ يَعْصِ اللَهُ يُعَذّبْهُ ؛ اللهُمّ اغْفِرْ لِي وَلِأُمّتِي ؛ اللَهُمّ اغْفِرْ لِي وَلِأُمّتِي ؛ أَسْتَغْفِرُ اللَهَ لِي وَلَكُمْ [٨٢] .

أجل ، هذه الخطبة القصيرة للرسول الأعظم كسائر خطبه القصار ، ومنها خطبته حين التحرّك إلى غزوة أُحد [٨٣] ، تحتوي على مضامين عالية ومهمّة ومترعة بالحكم والأخلاق والمعارف والآداب . ومن المناسب حقّاً أن تُشْرَحَ شرحاً وافياً .

ونزلت هذه الآية في المنافقين الذين استأذنوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في عدم الخروج : عَفَا اللَهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتّى يَتَبَيّنَ لَكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ .

نرى هنا أنّ الله يؤاخذ نبيّه الأكرم . وعلينا أن نفهم معنى المؤاخذة هنا . هل كانت على سبيل الجدّ والحقيقة أو على سبيل مخاطبة الآخرين . وقد ورد نظيره في كثير من الأشباه والأمثال .

جاء في تفسير «نور الثّقَلين» عن «عيون أخبار الرضا عليه السلام» أنّ الشيخ الصدوق روى بإسناده عن عليّ بن محمّد بن الجَهم ، قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليّ بن موسى عليه السلام . فقال له المأمون : يا ابن رسول الله ! أليس من قولك : إنّ الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى .

فقال له المأمون ــ فيما سأله ــ فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : عَفَا اللَهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . ل

قال الرضا عليه السلام : هذا ممّا نزل (على سبيل) : إيّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَه [٨٤] . خاطب الله تعالى بذلك نبيّه ، وأراد به أُمّته . وكذلك قوله عزّ وجلّ : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الْخَسِرِينَ [٨٥] ؛ وقوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن ثَبّتْنَكَ كِدتّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا [٨٦] .

قال المأمون : صَدَقْتَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَهِ [٨٧] .

ونحن لا نرى شرحاً وتوضيحاً لجواب الإمام الرضا عليه السلام أفضل ممّا قاله أُستاذنا العلّامة الفقيد في تفسير «الميزان» . قال : الجملة الأُولى (عَفَا اللَهُ عَنكَ) دعاء للنبيّ بالعفو نظير الدعاء على الإنسان بالقتل في قوله : قُتِلَ الإِنسَنُ مَآ أَكْفَرَهُ [٨٨] . وقوله : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ [٨٩] (المقصود الوليد بن المغيرة) . وقوله : قَتَلَهُمُ اللَهُ أَنّى يُوْفَكُونَ [٩٠] . (قاتل الله اليهود الذين قالوا : عزير بن الله . وقاتل النصارى الذين قالوا : المسيح بن الله) .

وجملة العفو متعلّقة بقوله : لِمَ أَذِنتَ ، أي : في التخلّف والقعود ؟! ولمّا كان الاستفهام للإنكار أو التوبيخ ، كان معناه :

كان ينبغي أن لا تأذن لهم في التخلّف والقعود . ويستقيم به تعلّق الغاية التي يشتمل عليها قوله : حَتّى يَتَبَيّنَ لَكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ بقوله : لِمَ أَذِنتَ ، فالتعلّق إنّما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام . والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم . وأنّ أدنى الامتحان كالكفّ عن إذنهم في القعود يكشف عن فضاحتهم .

ومعنى الآية : عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلّف والقعود ؟! ولو شئت لم تأذن لهم ــ وكانوا أحقّ به ــ حتّى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ! فيتميّز عندك كذبهم ونفاقهم .

وعلى هذا فالآية في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم ، وأنّهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به . ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلى المخاطب ، وتوبيخه ، والإنكار عليه . كأنّه هو الذي ستر عليهم فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم .

وهو نوع من العناية الكلاميّة يتبيّن به ظهور الأمر ووضوحه لإيراد أزيد من ذلك . فهو من أقسام البيان على طريق : إيّاكِ أَعْني وَاسْمَعِي يَا جَارَه ، فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى : وهي وضوح قبح عملهم وسريرتهم ، لا الكشف عن تقصير الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وسوء تدبيره في إحياء أمر الله ، وارتكابه بذلك ذنباً ــ حاشاه ــ وأولويّة عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن أنسب لظهور فضيحتهم وأنّهم أحقّ بذلك لما بهم من سوء السريرة ، وفساد النيّة ؛ لا لا نّه كان أولى وأحرى في نفسه وأقرب وأمسّ بمصلحة الدين .

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات :

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مّا زَادُوكُمْ إِلّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّعُونَ لَهُمْ وَاللَهُ عَلِيمٌ بِالظّلِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتّى جَآءَ الْحَقّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَهِ وَهُمْ كَرِهُونَ [٩١] .

«لو خرج المنافقون معكم أيّها المؤمنون إلى غزوة تبوك ، فلا يزيدونكم إلّا خيانة وفساداً واضطراباً ، ويخلّون في عملكم بسرعة ، ويخطّطون للفتنة وإثارة الاضطرابات . وفيكم سمّاعون لهم أو بين جنودكم جواسيس منهم والله عليم بالظالمين . وكان هؤلاء يدبّرون من قبل لإشاعة الفتن والقضاء على الإسلام (في غزوتي أُحد والخندق) . (ويا رسولنا) إنّهم كانوا يقلّبون لك الأُمور حتّى انتصر الحقّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون » (٩٢) .

ولمّا لم يصدر من المنافقين على فرض خروجهم إلّا الضرر ، فقد كان الأصلح أن يؤذن لهم في التخلّف ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرّق الكلمة ؛ والمتعيّن أن يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم والتفتين فيهم . وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب وهم سمّاعون لهم يسرعون إلى المطاوعة لهم . ولو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف ، كانت الفتنة أشدّ والتفرّق في كلمة الجماعة أوضح وأبين .

ويؤيّد ذلك قوله تعالى بعد آيتين :

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدّوا لَهُ عُدّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَعِدِينَ (٩٣) .

ولذلك كان تخلّفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدّة ؛ يتوسّمه في وجوههم كلّ ذي لبّ ؛ فكيف يخفى مثل ذلك على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؟ وقد نبّأه الله بأخبارهم قَبل نزول هذه السورة (سورة براءة) كراراً . فكيف يصحّ أن يعاتب ها هنا عتاباً جدّيّاً بأنّه لِمَ لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم حتّى يتبيّن له نفاقهم ويميّز المنافقين من المؤمنين ؟! فليس المراد بالعتاب إلّا ما ذكرناه .

وممّا تقدّم يظهر فساد قول من قال : إنّ الآية تدلّ على صدور الذنب عنه ، لأنّ العفو لا يتحقّق من غير ذنب ، وأنّ الإذن كان قبيحاً منه ، ومن صغائر الذنوب ؛ لأنّه لا يقال في المباح : لم فعلتَه ؟ لأنّا قد بيّنا مفصّلاً أنّ الآية مسوقة لغرض غير غرض الجدّ في عتاب رسول الله .

وقال العلّامة بعد شرح وجيز : ذكر هذا المتكلّم في كلام له طويل فقال : إنّ ذلك كان اجتهاداً من رسول الله فيما لا وحي فيه من الله وهو جائز وواقع من الأنبياء عليهم السلام . وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ؛ وإنّما العصمة المتّفق عليها خاصّة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به ؛ فيستحيل على رسول الله أن يكذب أو يُخطِئ فيما يبلّغه عن ربّه أو يخالفه بالعمل .

بالعمل .

ومن هذا الخطأ في الاجتهاد ما جاء في سورة الأنفال ، إذ عاتب الله رسوله في أخذ الفدية من أُسارى بدر حيث قال :

مَا كَانَ لِنَبِيٍ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدّنْيَا وَاللَهُ يُرِيدُ الْأَخِرَةَ وَاللَهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لّوْلَا كِتَبٌ مّنَ اللَهِ سَبَقَ لَمَسّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) .

«لا حقّ لأيّ نبيّ أن يكون له أسرى . وما عليه إلّا أن يواصل القتال حتّى تتلطّخ الأرض من دم المشركين والأدناس ، وعليه أن يريق دماً كثيراً في الأرض . فأنتم أيّها المؤمنون من أصحاب رسولنا تريدون الدنيا طمعاً في متاعها المؤقّت وحطامها الزائل ، والله يريدكم نعمة الآخرة الدائمة الخالدة ، والله عزيز حكيم (عمله من وحي الاستقلال والعزّة ، ومن وحي الحكمة) . ولو لم يجر حكم الله الأزليّ في كتاب التقدير من قبل لمسّكم عذاب عظيم في الفدية التي أخذتموها من الأسرى وأطلقتموهم !»

وكلامه هذا ككلامه الآخر فاسد ولا يمكن قبوله ، لأنّ الآية بلفظها لا تعاتب على أخذ الفدية من الأسرى ، وإنّما تعاتب على نفس أخذ الأسرى ، مَا كَانَ لِنَبِيٍ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ... ولم تنزل آية وما وردت رواية في أنّ النبيّ كان أمرهم بالأسر ؛ بل روايات القصّة تدلّ على أنّ النبيّ لمّا أمر بقتل بعض الأسرى ، خاف الأصحاب أن يقتلهم عن آخرهم . فلهذا كلّموه وألحّوا عليه في أخذ الفدية منهم وقالوا : إنّنا نجهّز جيشنا ونتقوّى على أعداء الدين بالفدية التي نأخذها منهم . فردّ الله عليهم ذلك و عدّ طلبهم عرضَ الحياة الدنيا ؛ ولم يجز أخذ الأسير وإطلاقه بالفدية . وقال : على النبيّ أن يصبغ الأرض بإراقة دم المشركين فحسب . وهذا من أحسن الشواهد على أنّ العتاب في الآية متوجّه إلى المؤمنين خاصّة من غير أن يختصّ به النبيّ أو يشاركهم فيه ؛ وأنّ أكثر ما ورد من الأخبار في هذا المعنى موضوعة أو مدسوسة .

ويضاف إلى ذلك أنّ العتاب في الآية لو اختصّ برسول الله أو شمله وغيره ، لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغويّ وهو تفويت المصلحة معنى ووجه . وكيف يمكن حمل ذلك على المعصية الصغيرة والخطأ المغتفر ؟ إذ يقول في ذيل هذا العتاب : لَوْلَا كِتَبٌ مّنَ اللَهِ سَبَقَ لَمَسّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فلا يرتاب ذو لبّ في أنّ التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتّى إلّا مع كون المهدّد عليه من المعصية الكبيرة ، لا ترك الأولى أو الذنب والخطأ الصغير القابل للعفو والإغماض .

وهذا المعني أيضاً من الشواهد على أنّ العتاب في الآية متوجّه إلى غير رسول الله .

وبالجملة يظهر من مطالبنا المفصّلة أن لا ذنب ولا خطأ على رسول الله ، لا عُرفاً ولا لغة ، وذلك بالدلالة الصريحة المستفادة من الآيات الناطقة بأنّ عدم خروج المنافقين

أقرب إلى مصلحة المسلمين الحقيقيّة ، وأفضل لاجتماع عسكرهم وجيشهم . إذ إنّه يجعل المسلمين مصونين أكثر من وقوع الفتنة واختلاف الكلمة .

وهذه العلّة بعينها موجودة لو لم يأذن لهم النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم . ذلك أنّه إذا لم يأذن ، وأمر بالخروج ، فإنّ المنافقين يظهرون ما كانوا يخفونه من كفرهم ونفاقهم . وهم لم يستعدّوا للخروج قطّ ، وعند عدم الإذن ، تشتّد مخالفتهم ومواجهتهم لرسول الله . وكان النبيّ يعلم أنّهم غير مستعدّين للخروج ، ومقام رسول الله ومكانته أجلّ من أن يخفى عليه هذا المعنى ولا يعلمه ، بينما كان المنافقون بمرأى منه ومسمع ، وقال الله فيهم :

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدّوا لَهُ عُدّةٍ .

ويضاف إليه أنّ الله خاطب نبيّه لأنّه يعرفهم في لحن قولهم : وَلَتَعْرِفَنّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .

وحينئذٍ كيف يخفى عليه مثل قول أحدهم : إِئْذَن لّى وَلَا تَفْتِنّى . أو قول آخر في رسول الله : هُوَ أُذُنٌ . أو قول من يلمزه في الصدقات : وَمِنْهُم مّن يَلْمِزُكَ فِى الصّدَقَتِ . وهذا الكلام كلّه من طلائع النفاق يطلع منهم ، وما وراءه إلّا كفر وخلاف .

فقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتوسّم منهم النفاق والخلاف ؛ ويعلم بما في نفوسهم . ومع ذلك فعتابه صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنّه لِمَ لم يكف عن الإذن ولم يستعلم حالهم ولم يميّزهم من غيرهم ؟ ليس إلّا عتاباً غير جدّيّ للغرض المذكور .

وأمّا قوله الآخر : إنّ الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية : حَتّى يَتَبَيّنَ لَكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ . فهو خطأ أيضاً . لأنّ الذي تشتمل عليه الآية من المصلحة هو تبيّن الذين صدقوا للنبيّ وعلمه هو بالكاذبين ، لا مطلق تبيّنهم ولا مطلق العلم بالكاذبين . وقد ظهر ممّا تقدّم أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن يخفى عليه ذلك ؛ وأنّ حقيقة المصلحة إنّما كانت في الإذن ، وهي سدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة ؛ فإنّه كان يعلم من حالهم أنّهم غير خارجين البتة سواء أذن لهم في القعود أم لم يأذن . فلهذا بادر إلى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة .

وليس لك أن تتصوّر أنّه لو بان نفاقهم يومئذٍ وظهر خلافهم بعدم إذن النبيّ لهم بالقعود لتخلّص الناس من تفتينهم وإلقائهم الخلاف لما في الإسلام يومئذٍ ــ وهو يوم خروج النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى غزوة تبوك ــ من الشوكة والقوّة . وله صلّى الله عليه وآله وسلّم من نفوذ الكلمة .

وهذا التصوّر غير صحيح . فإنّ الإسلام يومئذٍ إنّما كان يملك القوّة والمهابة في أعين الناس من غير المسلمين . كانوا يرتاعون من شوكته ، ويعظّمون سواد أهله ؛ ويخافون حدّ سيوفهم ؛ وأمّا المسلمون في داخل مجتمعهم وبين أنفسهم ، فلم يخلصوا بعد من النفاق

ومرض القلوب ، ولم تستول عليهم بعدُ وحدة الكلمة وجدّ الهمّة والعزيمة . والدليل على ذلك نفس هذه الآيات وما يتلوها إلى آخر سورة براءة . ونزلت سورة براءة في السنة التاسعة من الهجرة .

وقد كان المنافقون تظاهروا بمثل ذلك يوم أُحُد . وقد هجم عليهم العدوّ في عقر دارهم ، فرجع ثلث الجيش الإسلاميّ من المعركة بقيادة المنافق عبد الله بن أُبَيّ . ولم يؤثّر فيهم عِظَة ولا إلحاح حتّى قالوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَكُمْ (٩٥) .

فكان ذلك أحد الأسباب العاملة في انهزام المسلمين (٩٦) .

أجل ، إنّ الآيات القرآنيّة الكريمة تنصّ على أنّ استئذان رسول الله في التخلّف عن الجهاد يتعلّق بالمنافقين ، لا بالمؤمنين ، لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ أَن يُجَهِدُوا بِأَمْوَ لِهِمْ وأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٩٧) .

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ * قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مّتَرَبِّصُونَ (٩٨) .

« يا نبيّنا » ! إذا بلغتك نعمة (كالظفر على العدوّ والغنيمة) فإنّهم يمتعضون . وإذا نزلت بك مصيبة (كالشدّة والعسرة والبلاء والنقص في النفس والمال) فإنّهم يقولون : نحن صُنّا أنفسنا منذ البداية (وتشبّثنا بعروة الأمان والسلامة بالقعود عن الحرب) ويتولّون وهم فرحون (ويذهبون إلى بيوتهم) . قل لن يصيبنا شيء أبداً إلّا ما كتب لنا الله مولانا وسيّدنا ! هو مولانا وقيّمنا وحارسنا وصاحب اختيارنا ووليّ أمرنا ! وعلى الله فليتوكلّ المؤمنون (يتّخذوه وكيلاً في شؤونهم) .

قل : هل تنتظرون بنا إلّا حسنتين ؟ (خصلتان محمودتان ونعمتان عظيمتان) إحداهما : الغلبة والغنيمة والنصر على الخصم في الدنيا . والأُخرى : الشهادة في سبيل الله والثواب الدائم في القيامة ويوم الجزاء ؟! أمّا نحن فننتظر أن يأتيكم العذاب إمّا من الله أو بأيدينا (إمّا يأتي العذاب منه أو أنّكم تقتلون بأيدينا بواسطة ظفرنا وغلبتنا عليكم) . فانتظروا هذا العذاب ! ونحن ننتظر الشهادة ، والجنّة ، والنصر ، والغنيمة . وننتظر لكم الذلّة والنكبة والموت والقتل بأيدينا ثمّ الدخول إلى جهنّم ! » .

قال الواقديّ : لمّا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتجهّز لغزوة تبوك ، جاءه خمسة من المنافقين من أصحاب مسجد ضرار وهم : مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيرٍ ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ، وَخِذَامُ بْنُ خَالِدٍ ، وَأَبُو حَبِيبَة بْنُ الأَزْعَرِ ، وَعَبْدُ اللَهِ بْنُ نَبتَل بْن حَارِث ، وقالوا : يا رسول الله ! إنّا رُسُل من خلفنا من أصحابنا !

إنّا قد بنينا مسجداً لذي القلّة والحاجة ، والليلة المَطيرة ، والليلة الشاتية . إذ لا يقدرون على الذهاب إلى مسجد قبا . ونحن نحبّ أن تأتينا فتصلّي بنا فيه . ورسول الله يتجهّز إلى تبوك ، فقال لهم : إنّي على جَناح سَفَر وحال شُغل ؛ ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا بكم فيه . فلمّا نزل بذي أوان [٩٩] راجعاً من تبوك ، أمر بهدمه [١٠٠] .

لمّا خرج رسول الله من المدينة ، ونزل عسكره في الجُرْف وثَنيّة الوَدَاع ، نصب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه أفضل صلوات الله وملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين في المدينة خليفة لأهل المدينة كافّة ، وكذلك لأهل رسول الله وعياله وإدارة شؤون الأُمّة .

وعندما رأى منافقو المدينة عليّاً عليه السلام مكان النبيّ ، طفقوا يبثّون الإشاعات على أنّ النبيّ لم يأخذه معه استثقالاً منه .

جاء في «تفسير عليّ بن إبراهيم» فلمّا اجتمع لرسول الله الخيول ، رحل من ثَنيّة الوَدَاع و خلّف أمير المؤمنين (عليّ بن أبي طالب عليه السلام) على المدينة فأرجف المنافقون بعليّ وقالوا : مَا خَلّفَهُ إلّا تَشَاؤماً بِهِ . فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليّاً ، فأخذ سيفه وسلاحه ، ولحق برسول الله بالجُرْف ؛ فقال له رسول الله : يَا عَلِيّ ! أَلَمْ أُخَلّفْكَ عَلَى المَدِينَةِ ؟! قال : نَعَمْ وَلَكِنّ المُنَافِقِينَ زَعَمُوا أَنّكَ خَلّفْتَنِي تَشَاؤُماً بِي !

فَقَالَ : كَذِبَ المُنَافِقُونَ يَا عَلِيّ ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ أَخِي وَأَنَا أَخُوكَ وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟! وَإِنْ كَانَ بَعْدِي نَبِيّ لَقُلْتُ أَنْتَ أَنْتَ ! وَأَنْتَ خَلِيفَتِي فِي أُمّتِي ؛ وَأَنْتَ وَزِيرِي وَأَخِي فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ !

فرجع أمير المؤمنين عليه السلام إلى المدينة [١٠١] .

وروى جمع عظيم من محدّثي الفريقين ومؤرّخيهم ومفسّريهم في كتبهم هذا الحديث حين خروج رسول الله إلى غزوة تبوك [١٠٢] .

وقال في «إعلام الورى» : هذا الخبر تلقّته الأُمّة الإسلاميّة بالقبول ؛ ورواه الشيعيّ والناصبيّ . وأجمعت الأُمّة على قبوله على اختلافها في النحل وتباينها في المذاهب [١٠٣] .

ولمّا تمّت التعبئة العامّة ، وكان عليهم أن يقطعوا تلك المسافة الطويلة في الفيافي القاحلة والجوّ الحارّ . عرض بعض المنافقين الأثرياء مساعداتهم الماليّة للجيش الإسلاميّ . وفعلوا ذلك ليراهم الناس ، ويصل خبر إنفاقهم إلى رسول الله ؛ وهكذا أرادوا عدم التحرّك ، والمحافظة على أرواحهم من القتل . ونزلت هذه الآيات فيهم :

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لّن يُتَقَبّلَ مِنكُمْ إِنّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلّا أَنّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصّلَوةَ إِلّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلّا

وَهُمْ كَرِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَ لُهُمْ وَلَآ أَوْلَدُهُمْ إِنّمَا يُرِيدُ اللَهُ لِيُعَذّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَوةِ الدّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَفِرُونَ (١٠٤) .

«يا أيّها النبيّ قل للمنافقين سواء أنفقتم رغبة أم قسراً (وأنفقتم على الجيش والحرب ودعاياتكم الكاذبة) فلن يقبل منكم ذلك أبداً لأنّكم قوم فاسقون (وإنفاقكم من منطلق الرياء !) .

ولا مانع من قبول نفقاتهم إلّا أنّهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة إلّا وهم كسالى غير راغبين . ولا ينفقون إلّا وهم كارهون أيضاً (١٠٥) .

فيا أيّها النبيّ لا يعجبك وفور أموالهم وكثرة أولادهم ! إنّما يريد الله أن يعذّبهم بها (ويبعدهم عن ساحة قربه) في الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون» .

وَيَحْلِفُونَ بِاللَهِ إِنّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَرَ تٍ أَوْ مُدّخَلًا لّوَلّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (١٠٦) .

«إنّ المنافقين (من أجل أن يخفوا نفاقهم) يقسمون بالله أنّهم منكم وما هم منكم لكنّهم يخافون من عظمة الإسلام وشوكته .

لو وجد هؤلاء ملجأً أو مغارات أو مدّخلاً (وعلموا أنّهم يعيشون فيه مطمئنيّن وآمنين من نفوذ كلمة المسلمين والقرآن ورسول الله) لتوجّهوا إليه ، ورفعوا العقبات من طريقهم بسرعة ، وانهزموا من هذه الساحة بقوّة وتحمّل للمقاومة» .

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَهِ وَجَهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُوْلُوا الطّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مّعَ الْقَعِدِينَ * رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (١٠٧) .

«وإذا أُنزلت سورة تدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله استأذنك الأثرياء المتمكّنون من المنافقين بأن لا يخرجوا معك . وقالوا لك : دعنا مع النساء والقاعدين بالمدينة (ولا يخرجوا مع المقاتلين لقتال العدوّ والدفاع عن حريم الدين والناموس والشرف) وطبع على قلوبهم فهم لا يفهمون ولا يدركون» .

إنّ المنافقين الذين استأذنوا رسول الله بالقعود هم عَبْدُ اللَهِ بْنُ أُبَيّ ين سَلُول ، وَجَدّ بْنُ قَيْسٍ ، وأصحابهم ونظائرهم .

قال الواقديّ : جاء ناس من المنافقين يسأذنون رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من غير علّة (وعيب ، أو فقر ومسكنة) فأذن لهم ؛ وكان المنافقون الذين استأذنوا بضعة وثمانين (١٠٨) . لَكِنِ الرّسُولُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَ تُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدّ اللَهُ لَهُمْ جَنّتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا ذَ لِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٩) .

وقال الواقديّ : وجاء المعذّرون من الأعراب فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم الله عزّ وجلّ . هم نفر من بني غِفَار منهم خُفَافُ بْنُ إيمَاء بْنُ رَحْضَة . اثنان وثمانون رجلاً [١١٠] .

وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الّذِينَ كَذَبُوا اللَهَ وَرَسُولَهُ سَيُصيبُ الّذَينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١١١] .

«وجاء جماعة من الأعراب يعتذرون من الحرب ، ويعرضون أعذارهم الحقيقيّة ، أو جماعة لم يكن لهم عذر ثابت كما أنّهم لم يعرضوا عذراً مشروعاً مقبولاً ، من أجل أن يؤذن لهم بعدم التحرّك . والذين كذبوا الله ورسوله ، قعدوا عن الخروج والقتال . سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم» .

قال الشيخ الطبرسيّ في تفسير هذه الآية الكريمة : ... أن يكون المراد المعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن . وإنّما ادغم التاء في الذال لقرب مخرجهما . أو أنّه أراد المقصّرون من التعذير فالمعذّر المقصّر الذي يريك أنّه معذور ولا عذر له . ففي الآية ثلاثة احتمالات :

الأوّل : المقصّرون الذين يعتذرون وليس لهم عذر عن أكثر المفسّرين .

الثاني : المعتذرون الذين لهم عذر . وهم نفر من بني غفار عن ابن عبّاس ؛ قال : ويدّل عليه قوله : وَقَعَدَ الّذِينَ كَذَبُوا اللَهَ وَرَسُولَهُ . فعطف الكاذبين عليهم . فدلّ ذلك على أنّ الأوّلين في اعتذارهم صادقون .

الثالث : وقيل : معناه الذين يتصوّرون بصورة أهل العذر وليسوا كذلك [١١٢] .

بَيدَ أنّ الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ عدّ الاحتمال الثاني منجّزاً وقال : الظاهر أنّ المراد بالمعذّرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله : وَقَعَدَ الّذِينَ كَذَبُوا ــ الآية . والسياق يدلّ على أنّ في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين إلى الأُخرى ، ليظهر به لؤم المنافقين وخستّهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم ، حيث إنّ فريضة الجهاد الدينيّة والنصرة للّه ورسوله هيّج لذلك المعذّرين من الأعراب وجاءوا إلى النبيّ يستأذنونه ؛ ولم يؤثّر في هؤلاء الكاذبين شيئاً [١١٣] .

فلهذا نزلت الآيات الآتية لبيان عدم معصية الضعفاء والمرضى وغير المتمكّنين ماليّاً ، إذا كانوا مؤمنين وساروا على نهج رسول الله :

لَيْسَ عَلَى الضّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ * وَلَا عَلَى الّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلّوا وّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدّمْعِ حَزَنًا أَلّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ [١١٤] .

جاء في التفاسير والتواريخ أنّ هؤلاء الأشخاص الذين بكوا لعدم تمكّنهم من السفر كانوا سبعة سُمّوا البكّائين . والروايات في أسمائهم مختلفة اختلافاً كبيراً [١١٥] .

قال عليّ بن إبراهيم في تفسيره : جاء البكّاؤون إلى رسول الله وهم سبعة : مِنْ بَنِي عَمْرِ بْنِ عَوْفٍ سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ ، قد شهدوا بدراً لا اختلاف فيه ؛ ومن بَنِي وَاقِف هَرَمِيّ بْنُ عُمَيْر ؛ ومن بَنِي جَارِيَة عَلِيّةُ بْنُ يَزِيد ، وهو الذي تصدّق بعَرضه [١١٦] . وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمر بصدقة ؛ فجعل الناس يأتون بها . فجاء عَلِيّة ، فقال : يا رسول الله ! والله ما عندي ما أتصدّق به ، وقد جعلت عَرضي حلّاً . فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : قد قبل الله صدقتك .

ومن بَنِي مَازِن أَبُو لَيْلَى عَبْدُ الرّحْمَنِ بْن كَعْب ؛ ومن بَنِي سَلِمَة عَمْرُو بْنُ عَتَمَة ؛ ومن بَنِي زُرَيْق سَلِمَةُ بْنُ صَخْر ؛ ومن بَنِي سُلَيْم عِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَة السلميّ . هؤلاء جاؤوا إلى رسول الله يبكون فقالوا : يا رسول الله ! ليس بنا قوّة أن نخرج معك . فأنزل الله هذه الآية [١١٧] .

وقال الواقديّ بعد بيان أسماء البكّائين : ولمّا خرج البكّاؤون من عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لقى يَامينُ بْنُ عُمَيْر أَبَا لَيْلَى المَازِنِيّ وَعَبْدَ اللَهِ بْنَ مُقَفّلِ المُزَنِيّ ، وهما يبكيان . فقال : وما يبكيكما ؟

قالا : جئنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليَحْمِلْنا ؛ فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ؛ وليس عندنا ما ننفق به على الخروج ؛ ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فأعطاهما (يَامِينُ بْنُ عُمَيْر) ناضحاً له ، فارتحلاه . وزوّد كلّ رجل منهما صاعين [١١٨] من تمر ، فخرجا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وحمل العبّاس بن عبد المطّلب منهم رجلين . وحمل عثمان منهم ثلاثة . وبالنتيجة خرج السبعة كلّهم مع رسول الله [١١٩] .

وتقدّم لنا الآيتان الآتيتان أعلى نموذج للتضحية في سبيل الله والفناء في إرادة النبوّة والولاية . وذلك في الترغيب والتحريض على الجهاد ولزوم الإيثار والتضحية في طريق رسول الله ، وضرورة تحمّل المشاكل والمشقّات والجوع والعطش والدخول في أرض الكافرين وإنفاق القليل والكثير في سبيل الله :

مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ [١٢٠] أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَ لِكَ بِأَ نَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢١] .

وتجهّز الجيش للتحرّك نحو تبوك . وتوجّه من الرجال ثلاثون ألفاً في اثني عشر ألفاً من الخيول ، وخمسة عشر ألفاً [١٢٢] من الإبل . وكانت المدّة التي أمضوها حتّى وصلوا إلى تلك الأرض عشرين يوماً . وبقي رسول الله هناك عشرة أيّام ونيّف [١٢٣] . واستمرّت المدّة عشرين يوماً ثمّ رجعوا .

وكان دليل رسول الله إلى تبوك عَلْقَمَةُ بْنُ الفَغْوَاءِ الخُزَاعِيّ . ومضى رسول الله فوصل ذا خشب . ولمّا كان الجوّ حارّاً ، لذا كان يبقي نهاره ويسير ليله . وكان يجمع من يوم نزل ذا خُشُب بين الظهر والعصر . يؤخّر الظهر (عن وقت الزوال) حتّى يُبرِد ، ويعجّل العصر . ثمّ يجمع بينها . فكلّ ذلك فعله حتّى رجع من تبوك إلى المدينة [١٢٤] .

وكان أبو ذرّ الغِفَاريّ (جُندُبُ بنُ جُنَادَة) تخلّف عن رسول الله ثلاثة أيّام ، وذلك أنّ جَمَلَه كان أعجف (وكان يقوّيه بالطعام والعلف تلك الأيّام . ثمّ جاء راكباً عليه مسافة ، وأخيراً عجز الجمل عن المسير في منتصف الطريق) فتركه أبو ذرّ وحمل ثيابه على كتفه ، وشدّ أثقاله على ظهره ، (وسار وحده ليلحق برسول الله) .

ولمّا ارتفع النهار ، نظر المسلمون إلى شخص مقبل ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : كان أبو ذرّ . فقالوا : هو أبو ذرّ رحمه الله .

قال رسول الله : أدركوه بالماء فإنّه عطشان ! فأدركوه بالماء . ووافى أبو ذرّ رسول الله ومعه إدَاوَة [١٢٥] فيها ماء .

فقال رسول الله : يا أبا ذرّ ! معك ماء وعطشت ؟!

فقال : نعم يا رسول الله ! بأبي أنت وأُمّي انتهيت إلى صخرة وعليها ماء السماء فذقته ، فإذا هو عذب بارد فقلتُ : لا أشربه حتّى يشربه حبيبي رسول الله . فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ : رَحِمَكَ اللَهُ ! تَعِيشُ وَحْدَكَ ، وَتَمُوتُ وَحْدَكَ وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ ، وَتَدْخُلُ الجَنّةَ وَحْدَكَ ! يَسْعَدُ بِكَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ يَتَوَلّوْنَ غُسْلَكَ وَتَجْهِيزَكَ وَدَفْنَكَ [١٢٦] !

ولمّا نفاه عثمان إلى الربذة [١٢٧] ، مات بها ابنه ذرّ . فوقف أبو ذرّ على قبره فقال : رَحِمَكَ اللَهُ يَا ذَرّ ، لَقَدْ كُنْتَ كَرِيمَ الخُلْقِ بَارّاً بِالوَالِدَينِ ! وَمَا عَلَيّ فِي مَوْتِكَ مِنْ غَضَاضَةٍ ؛ وَمَا لِي إِلَى غَيْرِ اللَهِ مِنْ حَاجَةٍ ؛ وَقَدْ شَغَلَنِي الاهْتِمَامُ لَكَ عَنِ الاغْتِمَامِ بِكَ! لَوْلَا هَوْلُ المُطّلَعِ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَكَانَكَ !

فَلَيْتَ شِعْرِي مَا قَالُوا لَكَ ؟ وَمَا قُلْتَ لَهُمْ ؟

ثُمّ قَالَ : اللَهُمّ إِنّكَ فَرَضْتَ لَكَ عَلَيهِ حَقّاً وَفَرَضْتَ لِي عَلَيْهِ حُقُوقاً فَإِنّي قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مَا فَرَضْتَ لِي عَلَيْهِ مِنَ الحُقُوقِ فَهَبْ لَهُ مَا فَرَضْتَ عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِكَ ! فَإِنّكَ أَوْلَى بَالحَقّ وَالكَرَمِ مِنّي !

وكانت لأبي ذرّ غنيمات يعيش هو وعياله منها ، فأصابها داء يقال له : النّقار [١٢٨] ، فماتت كلّها . فأصاب أبا ذرّ وابنته الفقر والعسر والجوع الشديد فماتت أهله .

قالت ابنته : ياأبتِ ! أصابنا الجوع ، وبقينا ثلاثة أيّام لم نأكل شيئاً !

قال أبو ذرّ : يا بنيّة ! قومي بنا إلى الرمل نطلب القَتّ [١٢٩] (وهو نبت له حبّ) فصرنا إلى الرمل ، فلم نجد شيئاً .

قالت البنت : فجمع أبي رملاً ، ووضع رأسه عليه ، ورأيت عينه قد انقلبت . فبكيت وقلت له : يا أبت ! كيف أصنع بك ، وأنا وحيدة ؟

فقال أبي : يا بنيّتي ! لا تخافي ، فإنّي إذا متّ جاءك مِن أهل العراق مَن يكفيك أمري . فإنّه أخبرني حبيبي رسول الله في غزوة تبوك ، فقال : يا أبا ذرّ ! تعيش وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتدخل الجنّة وحدك ! يسعد بك أقوام من أهل العراق ، يتولّون غسلك وتجهيزك ودفنك ! فإذا أنا متّ فمدّي الكساء على وجهي ، ثمّ اقعدي على طريق العراق ؛ فإذا أقبل ركب ، فقومي إليهم وقولي : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله قد توفّي .

قال الراوي : فدخل إليه قوم من أهل الربذة فقالوا : يا أبا ذرّ ما تشتكي ؟

قال : ذنوبي ! قالوا : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربّي ! قالوا : فهل لك بطبيب ؟! قال : الطبيب أمرضني .

قالت ابنته : لمّا عاين أبي الموت ، سمعته يقول : مرحباً بحبيب أتى على فاقة . لا أفلح من ندم . اللهمّ خنّقني خناقك ، فوحقّك إنّك لتعلم أنّي أُحبّ لقاءك .

قالت ابنته : فلمّا مات ، مددت الكساء على وجهه ، ثمّ قعدت على طريق العراق . فجاء نفر ، فقلت لهم : يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ ! هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله قد توفّي .

فنزلوا ومشوا يبكون فجاؤوا ، فغسّلوه ، وكفّنوه ، ودفنوه . وكان فيهم مَالِكُ الأَشْتَرِ النّخَعِيّ . روي أنّه قال : دفنته في حلّة كانت معي قيمتها أربعة آلاف درهم [١٣٠] .

قالت ابنته : كنت أُصلّي بصلاته ، وأصوم بصيامه فبينما أنا ذات ليلة نائمة عند قبره ، إذ سمعته يتهجّد بالقرآن في نومي كما كان يتهجّد به في حياته [١٣١] . فقلت : يا أبه ! ماذا فعل بك ربّك ؟!

فَقَالَ : يَا بُنَيّةُ ! قَدِمْتُ عَلَى رَبّ كَرِيمٍ ؛ رَضِيَ عَنّي وَرَضِيتُ عَنْهُ وَأَكْرَمَنِي وَحَبَانِي فَاعْمَلِي وَلَا تُغَرّي [١٣٢] .

وروى كبار الخاصّة والعامّة في كتبهم لقاء أبي ذرّ رسول الله في غزوة تبوك . وإخبار النبيّ باستشهاده وموته غريباً ، وتجهيزه ، وتكفينه من قبل جماعة من أهل العراق [١٣٣] .

وكان أبو ذرّ الغفاريّ من أعاظم صحابة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وقيل : ليس كمثله . مثل سلمان والمقداد بن الأسود الكنديّ أحد في الفقه والفضل [١٣٤] .

وجاء في «تفسير عليّ بن إبراهيم» في ذيل قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لِأَعَدّوا لَهُ عُدّةً [١٤٣] ــ الآية : وتخلّف عن رسول الله قوم من أهل ثبات وبصائر لم يكن يلحقهم شكّ ولا ارتياب ؛ ولكنّهم قالوا : نلحق برسول الله . منهم أَبُو خَيْثَمَة . ثمّ ذكر قصّته [١٤٤] . ولكن لمّا ذكرها الواقديّ بصورة أكثر تفصيلاً لذلك ننقلها فيما يأتي :

وكان أبو خَيْثَمَة قد تخلّف عن رسول الله . وكان لا يُتّهم في إسلامه ولا يُغمَص عليه ؛ فعزم له على ما عزم . فرجع بعد أن سار رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عشرة أيّام ، حتّى دخل على امرأتين له في يوم حارّ . فوجدهما في عريشين لهما . (العريش حجيرة يستظلّ بها وهي شبه الخيمة . تصنع من خشب وورق وغيرهما) قد رشّت كلّ واحدة منهما عريشها وبرّدت له فيه ماءً ، وهيّأت له فيه طعاماً .

فلمّا انتهى إليهما ، قام على العريشين ، فقال :

سُبْحَانَ اللَهِ ! رَسُولُ اللَهِ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخّرَ فِي الضّحّ [١٤٥] وَالرّيحِ وَالحَرّ يَحْمِلُ سِلَاحَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلَالٍ بَارِدٍ وَطَعَامٍ مُهَيّأٍ وَامْرَأَتَيْنِ حَسْنَاوَيْنِ مُقِيمٌ فِي مَالِهِ ؛ مَا هَذَا بِالنّصَفِ .

ثمّ قال : والله ، لا أدخل عريش واحدة منكما حتّى أخرج فألحق برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فأناخ ناضحه وشدّ عليه قَتَبَه ، وتزوّد ، وارتحل . فجعلت امرأتاه تكلّمانه ولا يكلّمهما ؛ وسار حتّى أدرك عُمَيْرَ بْنَ وَهَبِ الجُمَحِيّ بوادي القرى يريد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . فصحبه فترافقا ، حتّى إذا دَنَوا من تبوك . قال أبو خَيْثَمَة : يا عُمَيْرُ ! إنّ لي ذنوباً وأنت لا ذنب لك ! فلا عليك أن تخلّف عنّي حتّى آتي رسول الله قبلك ، فأعتذر إليه وأتوب .

ففعل عمير ، فسار أبو خَيْثَمَة حتّى إذا دنا من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ وهو نازل بتبوك ــ قال الناس : هذا راكب الطريق .

قال رسول الله : كن أبا خيثمة ؛ فقال الناس : يا رسول الله هذا أبو خيثمة .

فلمّا أناخ أبو خيثمة ناضحه ، أقبل فسلّم على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . فقال رسول الله : أَوْلَى لَكَ [١٤٦] يَا أَبَا خَيْثَمَة .

ثمّ أخبر رسول الله الخبر . فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خيراً ودعا له [١٤٧] .

المؤرّخون قالوا : وكان رهط من المنافقين يسيرون مع النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم في تبوك . منهم : وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِت ، والجُلاسُ بْنُ سُوَيد بْن الصّامِت ، وَمَخْشِيّ بْنُ حُمَيْرّ ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبْ . (وعندما كانوا يسيرون) . فقال ثعلبة : تحسبون أنّ قتال بني الأصفر (حرب الروم) كقتال غيرهم ؟! والله لكأ نّا بكم غداً مقرّنين في الحبال !

(وكان يقول هذا) إرجافاً برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وترهيباً للمؤمنين (من القتال) .

(ثمّ) قال وديعة : ما لي أرى قُرّاءنا هؤلاء أوعَبنا بطوناً ، وأكذَبنا ألسنةً ، وأجبنَنا عند اللقاء ؟!

وقال الجلاس (بعده : انظروا) هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منّا ! والله لئن كان محمّد صادقاً ، لنحن شرّ من الحمير ! والله ، لوددت أنّي أُقاضي على أن يُضرَب كلّ رجل منّا مائةَ جلدة ، وأنّا ننفلت من أن ينزل فينا القرآن بمقالتكم ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمّار بن ياسر : أدرك القوم فإنّهم قد احترقوا ؛ فسلهم عمّا قالوا ؛ فإن أنكروا ، فقل : بلى ، قد قلتم : كذا وكذا !

فذهب إليهم عمّار ، فقال لهم . فأتوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعتذرون إليه .

فقال وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ ، ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على ناقته ، وقد أخذ بحَقَب (الحزام الذي يشدّ به حقو البعير) ناقة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ورجلاه تنسفان الحجارة ، وهو يقول : يا رسول الله ! إنّما كنّا نخوض ونلعب ! ولم يلتفت إليه رسول الله صلّى الله علسه وآله وسلّم ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه :

يَحْذَرُ المُنَفِقُونَ أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنّ اللّهَ مُخْرِجٌ مّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنّ إِنّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَءَايَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَنِكُمْ إِن نّعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مّنكُمْ نُعَذّبْ طَآئِفَةً بِأَ نّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (١٤٨) .

قالوا : وكان عُمير ربيب جُلاس ، وهو أحد المؤمنين برسول الله . وعندما قال جُلاس : لَنحن شرّ من الحمير ، ردّ عليه عُمَير وقال له : فأنت شرّ من الحمار ! ورسول الله الصادق وأنت الكاذب !

وكان للجلاس دية في الجاهليّة على بعض قومه ، وكان محتاجاً . فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة ، أخذها له فاستغنى بها .

(وجاء الجُلاس عند رسول الله ، وحلف إنّه ما تكلّم بهذا الكلام الذي فيه كفر) . فأنزل الله على نبيّه هذه الآية :

يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَمِهِمْ وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا (همّوا بقتل رسول الله ، أو إخراجه من المدينة ، أو أيّ ضرب من ضروب الفساد والفوضى) وَمَا نَقَمُوا إِلّآ أَنْ أَغْنَهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ (في مقابل المحبّة والإخلاص المحض) فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلّوا يُعَذّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍ وَلَا نَصِيرٍ (١٤٩) .

وقال مَخْشِيّ بْنُ حُمَيّر : قد واللهِ يا رسول الله قعد بي ، (ومنعني من الخيرات اسمي) واسم أبي .

وكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشيّ بن حميّر ــ فسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عبد الرحمن أو عبد الله ــ وسأل الله عزّ وجلّ أن يقتل شهيداً ولا يعلم بمكانه (شهيد مجهول أو بعبارة أفضل شهيد مجهول القبر) فقتل يوم اليَمَامَة ، ولم يوجد له أثر [١٥٠] .

قالوا : وأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّ بطن من الأنصار أن يتّخذوا لواءً وراية . وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد دفع راية بني مالك بن النجّار إلى عُمَارة بْنِ حَزْمٍ . فأدرك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، فأعطاه الراية . قال عُمارة : يا رسول الله ! لعلّك وجدتَ عَلَيّ !

قَالَ : لَا وَاللَهِ وَلَكِنْ قَدّمُوا القُرْآنَ ! وَكَانَ أَكْثَرَ أَخْذَاً لِلقُرْآنِ مِنْكَ ! وَالقُرْآنُ يُقَدّمُ وَإِنْ كَانَ عَبْدَاً مُجَدّعَاً [١٥١] .

وعندما أصبح رسول الله في منزل من المنازل في طريق تبوك ، ضلّت نَاقَتهُ القَصْوَاء . فخرج أصحابه في طلبها . وعند رسول الله عُمَارَة بْنِ حَزْمٍ ــ وهو عقبيّ بدريّ قتل يوم اليمامة شهيداً ــ وكان في رحله زَيْدُ بْنُ اللّصَيْتِ أحد بني قَيْنُقَاع . كان يهوديّاً فأسلم ، (ولكنّه) نافق . وكان فيه خبث اليهود وغِشّهم . وكان مُظاهراً لأهل النفاق . فقال زيد وهو في رحل عُمارة ، وعُمارة عند النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أليس محمّد يزعم أنّه نبيّ ، وأنّه يخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ؟!

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ منافقاً يقول : إنّ محمّداً يزعم أنّه نبيّ ، وأنّه يخبركم بأمر السماء ، ولا يدري أين ناقته !

وإنّي والله ما أعلم إلّا ما علّمني الله ، وقد دلّني عليها ، وهي في الوادي في شِعب كذا وكذا ــ وأشار لهم إليه ــ حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتّى تأتوا بها . فذهبوا فجاؤوا بها .

فرجع عمارة إلى رَحله ، فقال : العجب من شيء ، حدّثناه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . أنّها عن مقالة قائل أخبره الله عنه ! قال : كذا وكذا ، الذي قال زيد .

قال : فقال رجل ممّن كان في رَحل عُمارة ، ولم يحضر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : زيد والله قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا .

(وما إن سمع عُماره هذا الكلام قام) وأقبل على زيد بن اللّصَيْت يَجَأُه في عنقه . ويقول : واللهِ ، إنّ في رَحلِي لَداهِية وما أدري . اخرج يا عدوّ الله من رحلي !

(قيل :) وكان الذي أخبر عمارة بمقالة زيد أخوه عَمْرو بن حَزْم . وكان في الرحل مع رهط من أصحابه . والذي ذهب فجاء بالناقة من الشعب الحَارِثُ بْنُ خَزَمَة الأَشْهَلِيّ ؛ وجدها وزمامها قد تعلّق في شجرة .

فقال زَيْدُ بْنُ اللّصَيْت : لكأنّي لم أُسلم إلّا اليوم . قد كنت شاكّاً في مُحَمّد ، وقد أصبحت وأنا فيه ذو بَصيرة . وأشهد أنّه رسول الله . فزعم الناس أنّه تاب . وكان خَارِجَةُ بنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ يُنكر توبته ويقول : لم يزل فَسْلاً حتّى مات [١٥٢] .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك ! وإنّكم لن تنالوها حتّى يضحى النهار . فمن جاءها فلا يمسّ من مائها شيئاً حتّى آتي .

قال مُعَاذُ بْنُ جَبَل : فجئناها (مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم) وقد سبق إليها رجلان ، والعين مثل الزلال ، تَبِضّ بشيء من ماء (تسيل قليلاً قليلاً) . فسألهما (رسول الله) : هل مَسِستُما من مائها شيئاً ؟!

قالا : نعم ! فسبّهما النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال لهما ما شاء الله أن يقول . ثمّ غَرَفُوا بأيديهم قليلاً قليلاً (بأمر النبيّ) حتّى اجتمع في شَنّ (قربة خلقة) ، ثمّ غسل النبيّ فيه وجهَه ويديه ، ثمّ أعاده فيها ، فجاءت العين بماء كثير ، فاستقى الناس . ثمّ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لمعاذ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد مُلِئ جِناناً [١٥٣] !

وكان عَبْدُ اللَهِ ذُو البِجَادَيْنِ من مُزَيْنَة ؛ وكان يتيماً لا مال له . قد مات أبوه فلم يورثه شيئاً . وكان عمّه مَيّلاً فأخذه وكفله حتّى كان قد أيسر ، فكانت له إبل وغنم ورقيق . فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة ، جعلت نفسه (تشتاق إلى زيارة رسول الله) ، وتتوق إلى الإسلام ؛ ولا يقدر عليه من عمّه ، حتّى مضت السنون والمشاهد كلّها ، فانصرف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من فتح مكّة راجعاً إلى المدينة .

فقال عَبْدُ اللَهِ لعمّه : يا عمّ ! قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمّداً ! فائذن لي في الإسلام !

فقال عمّه : والله لئن اتّبعت مُحَمّدَاً ، لا أترك بيدك شيئاً كنت أعطيتكه إلّا نزعته منك حتّى ثوبيك .

فقال عَبْدُ العُزّى وهو يومئذٍ اسمه : وأنا والله متّبع محمّداً ومسلم ، وتارك عبادة الحجر والوثن . وهذا ما بيدي فخذه !

فأخذ كلّ ما أعطاه ، حتّى جرّده من إزاره .

فأتى عبد الله أُمّه فقطعت بِجَادَاً لها باثنين (البجاد كساء فيه خطوط) [١٥٤] فائتزر بواحد ، وارتدى بالآخر . ثمّ أقبل إلى المدينة وكان بوَرِقَان (جبل من رحمى المدينة) .

فاضطجع في المسجد إلى السحر . ثمّ صلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الصبح . وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتصفّح الناس إذا انصرف من الصبح ، فنظر إليه ، فأنكره .

فقال : من أنت ؟ فانتسب له ، (وقال : اسمي عبد العزّى .) فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنت عَبْدُ اللَهِ ذُو البِجَادَيْنِ ! ثمّ قال : انزل منّي قريباً . فجعله من أضيافه ، وكان يعلّمه القرآن حتّى قرأ قرآناً كثيراً .

وكان (ذُو البِجَادَيْن) رجلاً صيّتاً ، فكان يقوم في المسجد ، فيرفع صوته بالقراءة .

فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى هذا الأعرابيّ يرفع صوته بالقرآن حتّى قد منع الناس القراءة ؟!

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : دعه يا عمر ! فإنّه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله !

ولمّا كان الناس يتجهّزون إلى تبوك ، جاء إلى النبيّ وقال : يا رسول الله ! ادع الله لي بالشهادة .

قال رسول الله : أبلغني لِحاء [١٥٥] سمُرَة (قشر شجرة سمرة) فأبلغه لحاءَ سَمُرة . فربطها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على عضده ، وقال : اللَهُمّ إنّي أُحَرّمُ دَمَهُ عَلَى الكُفّارِ ! فقال : يا رسول الله ! ليس أردت هذا .

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : (يا ذا البجادين) ! إنّك إذا خرجت غازياً في سبيل الله ، فأخذتك الحمّى ، فقتلتك ، فأنت شهيد ! وَوَقَصَتْك دابّتك فأنت شهيد ! لا تُبالِ بأيّةٍ كان !

ولمّا نزلوا تبوكاً ؛ وأقاموا بها أيّاماً ، توفّي عبد الله ذو البجادين .

فكان بَلاَلُ بْنُ الحَارِثُ يقول : حضرتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ومع بَلاَلُ المؤذّن شُعْلَةٌ من نار عند القبر واقفاً بها . وإذا رسول الله صلّى اله عليه وآله وسلّم في القبر ، وإذا أبو بكر ، وعمر يدلّيانه إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يقول : أدينا إليّ أخاكما !

ولمّا هيّأه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لشقّه ، قال : اللهمّ إنّي قد أمسيتُ عنه راضياً فارض عنه !

فقال عَبْدُ اللَهِ بْنُ مَسْعُود : يا ليتني كنت صاحب اللحد [١٥٦] .

وأقام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بتبوك عشرين ليلة يصلّي قصراً ، وهرقل يومئذٍ بحمص [١٥٧] .

وقال رجل من بَنِي سَعْد بن هُذَيْم : جئت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو جالس بتبوك في نفر من أصحابه ، وهو سابعهم ، فوقفت ، فسلّمت .

فقال : اجلس ! فقلت : يا رسول الله ، أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ ؛ وَأَنّكَ رَسُولُ اللَهِ . قال : أَفْلَحَ وَجْهَكَ . ثمّ قال : يا بلال ! أطعمنا ! فبسط بلال نطِعاً (بساط من الأديم) ثمّ جعل يخرج من حَميتٍ [١٥٨] له ، فأخرج خرجات بيده من تمر معجون بالسّمن والأَقِط . ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ! فأكلنا حتّى شبعنا . فقلت (أنا) : يا رسول الله ! إن كنت لآكل هذا وحدي !

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ [١٥٩] وَالمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعيٍ وَاحِدٍ . قال : ثمّ جئته من الغد متحيّناً لغدائه ، لأزداد في الإسلام يقيناً . فإذا عشرة نفر حوله . قال : هات ! أطعمنا يا بلال ! فجعل بلال يخرج من جراب تمر بكفّه قبضة قبضة . فقال له رسول الله : أَخْرِجْ وَلَا تَخَفْ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْتَاراً ! فجاء بلال بالجراب ، فنثره . قال : فَحزرتُه مُدّين . فوضع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يده على التمر ، ثمّ قال : كُلُوا بِاسْمِ اللَهِ ! فأكل القوم ، وأكلت معهم . وكنت صاحبَ تمرٍ . قال : فأكلت حتّى ما أجد له مسلكاً . وبقي على النّطع مثل الذي جاء به بلال ، كأنّا لم نأكل منه تمرة واحدة .

ثمّ عدتُ من الغد . وعاد نفر حتّى باتوا ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين . فقال رسول الله : يا بلال أطعمنا . فجاء بلال بذلك الجراب بعينه أعرفه ، فنثره . ووضع رسول الله يده عليه فقال : كُلُوا بِاسْمِ اللَهِ . فأكلنا حتّى نهلنا . ثمّ رفع بلال مثل الذي صبّ . ففعل مثل ذلك ثلاثة أيّام [١٦٠] .

وكان هِرْقَل (إمبراطور الروم) قد بعث رجلاً من غسّان إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فينظر إلى صفته وإلى علاماته ، إلى حمرة في عينيه ، وإلى خاتم النبوّة بين كتفيه ، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقة . فوعى (ذلك الرجل) أشياء من حال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ثمّ انصرف إلى هرقل ، فذكر له ذلك . فعلم هرقل أنّه نبيّ حقّ من الله .

فدعا قومه إلى التصديق به . فأبوا حتّى خافهم على ملكه . وهو في موضعه لم يتحرّك ، ولم يزحف (لقتال المسلمين) . وكان الذي خبّر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من بعثته أصحابه ودنوّه إلى أدنى الشام باطلاً . ولم يرد ذلك ولم يهمّ به .

وشاور رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أصحابه في التقدّم فقال عمر بن الخطّاب : إن كنت أُمرتَ بالمسير ، فسر !

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لو أُمرتُ به ما استشرتكم فيه !

قال (عمر) : يا رسول الله ! فإنّ للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ؛ وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوّك . فلو رجعت هذه السنة حتّى ترى ، أو يحدث الله لك في ذلك أمراً [١٦١] .

وكان عبد الله بن عمر يقول : كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بتبوك ، فقام يصلّى من الليل . وكان يكثر التهجّد من الليل (يفيق وينام) ولا يقوم إلّا استاك .

وكان إذا قام يصلّي ، صلّى بفناء خيمته . فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه . فصلّى ليلة من تلك الليالي . فلمّا فرغ ، أقبل على من كان عنده ، فقال : أُعْطِيتُ خَمْسَاً مَا أُعْطِيهُنّ أَحَدٌ قَبْلِي : بُعِثْتُ إِلَى النّاسِ كَافّةً ، وَإِنّمَا كَانَ النّبِيّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ . وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، أَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصّلَاةُ تَيَمّمْتُ وَصَلّيْتُ ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعْظِمُونَ ذَلِكَ ، وَلَا يُصَلّونَ إِلّا فِي كَنَائِسِهِمْ وَالبِيَعِ . وَأُحِلّتْ لِيَ الغَنَائِمُ آكُلُهَا ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُحَرّمُونَها . وَالخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ ؟ هِيَ مَا هِيَ ؟ هِيَ مَا هِيَ ؟ ثَلَاثَاً .

قَالُوا : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : قِيلَ لِي : سَلْ ! فَكُلّ نَبِيّ قَدْ سَأَلَ ! فَهِيَ لَكُمْ وَلِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ [١٦٢] .

إنّ ما كان في غزوُة تبوك من المصاعب ، والمشاكل ، والجوع ، والعطش ، وعدم وجود الراحلة لجميع الجنود ، مع بُعد الطريق ، وشدّة الحرّ في الصيف ، كلّ ذلك أضفى على هذه الغزوة طابعاً خاصّاً : وسمّي جيشها : جَيْشُ العُسْرَةِ [١٦٣] . واتّخذ هذا الاسم من الآية الآتية :

لَقَد تّابَ اللَهُ عَلَى النّبِيّ وَالْمُهَجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رّحِيمٌ [١٦٤] .

ذكر الشيخ الطبرسيّ : نزلت في غزاة تبوك وما لحق المسلمين فيها من العسرة حتّى همّ قوم بالرجوع ، ثمّ تداركهم لطف الله سبحانه . قال الحَسَن : كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثمّ ينزل فيركب صاحبه كذلك . وكان زادهم الشعير المُسَوّس ، والتمر المُدَوّد ، والإهَالَةَ السّخِنَة [١٦٥] .

وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم . فإذا بلغ الجوع من أحدهم ، أخذ التمرة فلاكها حتّى يجد طعمها ، ثمّ يعطيها صاحبه ، فيمصّها ، ثمّ يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتّى يأتي على آخرهم فلا يبقي من التمرة إلّا النواة [١٦٦] .

وروي عن أبي سعيد الخدريّ أنّه قال : أصبح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في طريقه إلى تبوك ، ولا ماء مع عسكره . فشكوا ذلك إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو على غير ماء . قال عَبْدُ اللَهِ بنُ أَبِي حَدْرَد : رأيت رسول الله استقبل القبلة فدعا ، ولا والله ما أرى في السماء سحاباً . فما برح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يدعو حتّى أنّي لأنظر إلى السحاب تأتلف من كلّ ناحية . فما رام مقامه حتّى سحّت علينا السماء بالرواء . فكأنّي أسمع تكبير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في المطر . ثمّ كشف الله السماء عنّا من ساعتها ، وإن الأرض إلّا غُدُرٌ يصبّ بعضها في بعض .

فسقى الناس وارتووا عن آخرهم ؛ وسمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : أَشْهَدُ إنّي رَسُولُ اللَهِ .

فقلت لرجل من المنافقين : وَيْحَكَ ! أَبَعْدَ هَذَا شَيءٌ ؟ فَقَالَ : سَحَابَةٌ مَارّةٌ . وهو أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ . ويقال : زَيْدِ بْنُ اللّصَيْت (١٦٧) .

يقول قَتَادَة ضمن حديث مفصّل عند الرجوع من تبوك أيضاً : كانت معي إداوَة فيها ماء وركْوَةٌ (١٦٨) لي أشرب فيها . وتوضّأ رسول الله من ماء الإداوة لصلاة الصبح ، ففضل فضلة ، فقال : احْتَفِظْ بِمَا فِي الإِدَاوَةِ وَالرّكْوَةَ فَإِنّ لَهَا شَأْنَاً .

ثمّ صلّى بنا رسول الله صلاة الصبح ، فقرأ سورة المائدة . ثمّ ركب فلحق الجيش عند زوال الشمس ونحن معه . وقد كادت تقطع أعناق الرجال والخيل عطشاً . فدعا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرّكوة ، فأفرغ ما في الإداوة فيها . فوضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه . وأقبل الناس فاستقوا ؛ وفاض الماء حتّى تَرَوّوا ، وأروَوْا خيلهم وركابهم . وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير ، ويقال : خمسة عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألفاً ، والخيل عشرة آلاف . وذلك قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لأبي قتادة : احْتَفِظْ بِمَا فِي الرّكْوَةِ وَالإِدَاوَةِ (١٦٩) .

وروى ابن أبي سَبْرَة ، عن موسى بن سعيد ، عن عِرْباض بْنِ سَارِيَة قال : كنت ألزم باب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحضر والسفر . وقال بعد شرح مفصّل لمعجزاته :

كنّا حول قبّة رسول الله في ليلة من الليالي ، وكان من عادة النبيّ أنّه يتهجّد في الليل ، فقام تلك الليلة يصلّي . فلمّا طلع الفجر ، ركع ركعتي الفجر ، وأذّن بلال وأقام ، فصلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالناس . ثمّ انصرف إلى فِناء قبّته ، فجلس وجلسنا حوله . وكنّا عشرة مع الفقراء الذين كانوا عنده .

فقال (رسول الله) : هل لكم في الغَداء ؟ قال عِرباض : فجعلت أقول في نفسي : أيّ غداء ؟ فدعا بلالَ بالتمر ، فوضع يده عليه في الصحفة ، ثمّ قال : كُلُوا بِاسْمِ اللَهِ . فأكلنا ، والذي بعثه بالحقّ حتّى شبعنا ، وإنّا لعشرة . ثمّ رفعوا أيديهم منها شبعاً ، وإذا التمرات كما هي .

قال رسول الله : لَوْلَا أَنّي أَسْتَحْيِي مِنْ رَبّي لَأَكَلْنَا مِنْ هَذَا التّمْرِ حَتّى نَرِدَ المَدِينَةَ عَنْ آخِرِنَا .

وطلع غُلَيّمٌ من أهل البلد ، وأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم التمرات بيده فدفعها إليه . فولّى الغلام يلوكُهنّ .

فلمّا أجمع رسول الله المسير من تبوك ، أرمل الناس إرمالاً شديداً . فشخص على ذلك الحال ، حتّى جاء الناس إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يستأذنونه أن ينحروا

ركابهم ، فيأكلوها . فأذن لهم . فلقيهم عمر بن الخطّاب وهم على نحرها ؛ فأمرهم أن يمسكوا عن نحرها ، ثمّ دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في خيمة له ، فقال : أذنتَ للناس في نحر حَمولتهم يأكلونها ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : شَكَوا إِلَيّ مَا بَلَغَ مِنْهُمُ الجُوعُ فَأَذِنْتُ لَهُمْ ، يَنْحَرُ الرّفْقَةُ البَعِيرَ وَالبَعِيرَيْنِ وَيَتَعَاقَبُونَ فِيمَا فَضَلَ مِنْ ظَهْرِهِمْ وَهُمْ قَافِلُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! لَا تَفْعَلْ ! فَإِنْ يَكُنْ للنّاسِ فَضْلٌ مِنْ ظَهْرِهِمْ يَكُنْ خَيْرَاً ؛ فَالظّهْرُ اليَوْمَ رِقَاقٌ [١٧٠] .

ولكن ادع بفضل أزوادهم ثمّ اجمعها فادع الله فيها بالبركة كما فعلتَ في منصرفنا من الحديبيّة حيث أرملنا ، فإنّ الله عزّ وجلّ يستجيب لك !

فنادى منادي رسول الله : من كان عنده فضل من زاد فليأت به . وأمر رسول الله بالأنطاع فَبُسِطت . فجعل الرجل يأتي بالمُدّ الدقيق ، والسويق ، والتمر . ويأتي الآخر بالقبضة من الدقيق ، والسويق ، والتمر ، والكِسَر . فيوضع كلّ صنفٍ من ذلك على حِدَة . وكلّ ذلك قليل .

فكان جميع ما جاءوا به من الدقيق والسويق والتمر ثلاثة أفراق [١٧١] حزراً . ثمّ قام النبيّ ، فتوضّأ ، وصلّى ركعتين ، ثمّ دعا الله عزّ وجلّ أن يبارك فيه .

فكان أربعة من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يحدّثون جميعاً حديثاً واحداً ، حضروا ذلك وعاينوه : أَبُو هُرَيْرَة ، وَأَبُو حُمَيْد السّاعِدِيّ ، وأَبُو زُرْعَة الجُهَنِيّ : مَعْبَد بْنُ خَالِد ، وسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السّاعِدِيّ . قالوا : ثمّ انصرف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ونادى مناديه : هَلُمّوا إلى الطعام ، خذوا منه حاجتكم !

وأقبل الناس ، فجعل كلّ من جاء بوعاء ، ملأه . فقال بعضهم : لقد طرحتُ يومئذٍ كِسرة من خبز ، وقبضة من تمر . ولقد رأيت الأنطاع تفيض ؛ وجئت بجرابين فملأت إحداهما سَويقاً ، والآخر خبزاً ، وأخذت في ثوبي دقيقاً بمقدار ما يكفينا إلى المدينة . فجعل الناس يتزوّدون الزاد حتّى نهلوا عن آخرهم ، حتّى كان آخر ذلك أن أُخذت الأنطاع ونُثر ما عليها . فجعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول وهو واقف :

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللَهُ ، وَأَ نّي عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا يَقُولُهَا أَحَدٌ مِنْ حَقِيقَةِ قَلْبِهِ إِلّا وَقَاهُ اللَهُ حَرّ النّارِ [١٧٢] .

وفي ضوء هذا الحديث ، لنا مع عمر بحث كلاميّ . فنقول : عندما جاء الناس ، واستأذنوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في نحر إبلهم بسبب ما أصابهم من الجوع . وهم أيضاً قالوا له : أذن لنا رسول الله . فحينئذٍ كيف يحقّ له أن ينهاهم عن النحر ؟ أليس أمره هذا أمراً في مقابل أمر رسول الله ؟ وهل يُبقي هذا الأمر قيمة لأمر رسول الله

؟ وهل يفوق هذا الأمر المنبعث عن تفكيرك الذاتي بمصلحة الأمر على المصلحة التي أصدر رسول الله أمره على أساسها ؟

وثانياً : ثمّ تأتي إلى رسول الله في خيمته وتقول له : لا تَفْعَلْ ! وهذا الكلام يحمل طابع الأمر ، وقد جاء بعد الأمر الذي أصدره رسول الله ، وبعد أن انشغل الناس بنحر إبلهم [١٧٣] .

وثالثاً : إنّ السبب الذي ذكرته في عدم النحر هو أنّ الإبل ضعيفة ، وإنّ المسلمين لا يحصلون على نصيب وافر من لحمها ، وينبغي الصبر حتّى تسمن ، ويفاد من لحمها فائدة كبيرة .

وهذا سبب عجيب جدّاً ، لأنّ قيمة كلّ شيء تظهر عند الحاجة إليه . ولأنّ قيمة منّ من لحم الإبل عند المجاعة تفوق قيمة ثلاثمائة كيلو غرام منه عند الرخاء والسرّاء . وما هو المانع من نحر كلّ قافلة بعيراً أو بعيرين ، فيشبع الجميع ، ويزول الجوع .

ورابعاً : إذا كنت تعرف النبيّ باستجابة الدعاء ، ورأيت البركة في طلبه ، كما ذكرت مصداق ذلك في غزوة الحديبيّة ، فإنّ النبيّ نفسه هو الذي أمر بالنحر ، وأمره في هؤلاء الناس أنفسهم . وهو الذي دعا وطلب من الله أن يعوّض الناس عن إبلهم المنحورة أضعافاً مضاعفة . وإنّ الطريق الذي يعطي فيه الله لا يقتصر على نفض الناس ما فضل من متاعهم في الأنطاع ، ودعاء رسول الله بالبركة فيه . إنّ الله يبارك من أيّ طريق شاء . وما من طريق خاصّ لفعله تعالى بحيث لو سدّ ، فلا طريق غيره . فهذا تفكير خاطئ . ألم تقرأ هذه الآية الكريمة الشريفة :

وَمَن يَتّقِ اللَهَ يَجْعَل لّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكّلْ عَلَى اللَهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنّ اللَهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَهُ لِكُلِ شَىْءٍ قَدْرًا [١٧٤] .

«كلّ من اتّقى الله (وصان نفسه من الذنوب والأعمال غير المرضيّة) فإنّ الله يجعل له مخرجاً (من المشاكل والمصائب والحوادث والفتن والبلايا والمعاصي وشرّ الشيطان الرجيم) (بحيث إنّه لا يصطدم بكلّ عقبة ، والطريق ثابت له في المقصد والمراد الذي يتقدّم من أجله ، وله مهرب من الشرور والآفات) ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكّل على الله ، فالله كافيه ، ويبلغه أمره وتقديره (ونفوذه وقدرته مع كلّ شيء يتعلّق به أمره من أجل تحقّقه) وقد جعل الله لكلّ شيء قدراً » .

ويستبين لنا من هذه الآيات أنّ الله ليس له طريق محدّد لإيصال الرزق وسائر الشؤون الجسميّة والروحيّة ، والملكيّة والملكوتيّة ، والظاهريّة والباطنيّة ، بل له طرق عديدة لا نهاية لها لإنفاذ أمره ومراده . بل هو نفسه يوجد الطريق . ولذلك على المؤمن الملتزم أن يتوكّل عليه ، ويعتقده وكيلاً وكفيلاً له في كافّة شؤونه ، ويفوّض إليه لا إلى غيره نفسه . وحينئذٍ لا يكفيه الله أمره فحسب ، بل هو ذاته له ، وهو كافيه .

ونحن نعلم أنّ طلب المعجزة من النبيّ دائماً ، وإجباره على إحداث أُمور خارقة عمل غير صحيح . وينبغي أن يكون طلب النبيّ ودعاؤه ، وطلبه الأُمور غير العاديّة عند الضرورة وفي الظروف الاستثنائيّة . و إذا أراد نبيّ ما من الله باستمرار أن يرزقه رزقاً وافراً كثيراً من طرق غير عاديّة وغير طبيعيّة ، فهذا مخالف للأدب حتّى لو رزقه الله ذلك . فلهذا رأينا رسول الله قال في رواية عِرباض :

لَوْلَا أَ نّي أَسْتَحيي مِنْ رَبّي لَأَكَلْنَا مِنْ هَذَا التّمْرِ حَتّى نَرِدَ المَدِينَةَ عَنْ آخِرِنَا .

وخامساً : لا نقرأ في هذه الرواية جملة صدّق فيها رسول الله عمر ، أو أجابه في الأقلّ . وما نقرأه فحسب أنّ منادي رسول الله نادى ... ولعلّ هذا المنادي كان من أعوانه ، ولم يرد تضييع أمر عمر في عدم نحر الإبل ، حتّى لو ضاع أمر النبيّ . فلهذا جعل النبيّ أمام أمر واقع ، إذ بُسطتِ الأنطاع ، ونُفِضَ الفضل من المتاع ، وقُسر النبيّ على الدعاء . صَلّى اللَهُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَهِ !

ولعلّ لسوء أدب عمر ما ورد في «السيرة الحلبيّة» [١٧٥] عن «صحيح مسلم» ، وفي «البداية والنهاية» عن البيهقيّ ، عن أحمد ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح أو عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخُدريّ ، إذ نقلوا هذه الرواية ولم يذكروا فيها نهي عمر الناسَ عن نحر الإبل . كما حذفوا نهيَ عمر رسولَ الله ، وأوردوا هذه العبارة مكانه : إِنْ فَعَلْتَ قَلّ الظّهْرُ .

لمّا توجّه النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى تبوك ، مرّ بالحِجر [١٧٦] . والحجر محلّ ديار ثَمُود والنبيّ صالح على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام . وتقع هناك بئر صالح التي شربت منها الناقة فلاحقوها . وفي الخبر أنّ الناس كانوا يمرّون بالحجر ، ويستقون من مائها ويعجنون . فنادى منادي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لا تشربوا من مائها ، ولا تتوضّؤوا منه للصلاة . وما كان من عجين فاعلفوه الإبل !

قال سَهْلُ بنُ سَعْد السّاعِديّ : كنت أصغر من في القافلة ، وكنت مقرئهم القرآن في تبوك . فلمّا نزلنا بالحجر ، عجنتُ لأصحابي ، وبعد أن اختمر العجين ، ذهبت أطلب حطباً ، فإذا منادي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ينادي : إنّ رسول الله يأمركم ألّا تشربوا من ماء بئرهم ! فجعل الناس يهرقون ما في أسقيتها ؛ وقالوا : يا رسول الله ! قد عجنّا . قال رسول الله : اعلفوه الإبلَ ! قال سهل : فأخذت ما عجنت فعلفت نِضوَين كانا أضعف ركابنا [١٧٧] . وأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن لا يدخل أحد من المسلمين بيوتهم إلّا باكين ، وقال : لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُعَذّبِينَ إِلّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ . فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيهِمْ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ [١٧٨] .

قال أبو سعيد الخُدريّ : جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بخاتم وجده في الحجر في بيوت المعذّبين . فأعرض عنه ، واستتر بيده أن ينظر إليه ، وقال : أَلْقِهِ !

فألقاه فما أدري أين وقع حتّى الساعة . وعندما حاذى رسول الله أهل الحجر وديارهم قال : هذا وَادِي النَّفْرِ . أي : الأرض التي ينبغي أن ينتقل عنها . فعجّل الناس بإخراج ركابهم منه . ورأيت رسول الله قد أسرع بناقته ، وترك ذلك الوادي وراءه [١٧٩] .

وعندما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في تبوك ، عقد ــ قبل رجوعه ــ صلحاً بينه وبين ملك إيلَه ، وأهل جِرْبَاء ، وَأَذْرُح [١٨٠] . وبعث خالد بن الوليد إلى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ للظفر بالأُكَيْدِر بْنِ عَبْدِ المَلِكِرجل من بني كنانة ، وكان ملكاً عليها وكان نصرانيّاً . وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لخالد : «إنّك ستجده يصيد البقر» !

فخرج خالد مع جنوده حتّى بلغ من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة . وكان الأُكيدر على سطح له ومعه امرأته . وباتت البقر تحكّ بقرونها باب القصر . فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا (الصيد) قطّ ؟!

قال : لا والله ! قالت : فمن يترك هذا ؟!

قال : لا أحد . فنزل ، فأمر بفرسه فأُسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له : حسّان ، فركب وخرجوا (من القصر بأسباب الصيد والنبال والأقواس) .

فلمّا خرجوا ، تلقّتهم خيل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فأخذته . (بَيدَ أنّ أخاه حسّاناً قاومهم) وقتلوا أخاه . وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب . فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبل قدومه عليه . ولمّا وصل القباء ، جعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجّبون منه .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أتعجبون من هذا ؟! فو الذي نفسي بيده ، لمناديل سَعد بن مَعَاذ في الجنّة أحسن من هذا .

ولمّا قدم (خالد بن الوليد) بأُكيدر على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حقن له دمه ، فصالحه على الجزية ، ثمّ خلّى سبيله . فرجع إلى قريته . وذُكر أنّ رسول الله بعث خالداً في أربعمائة وعشرين فارساً [١٨١] .

وحدثت واقعة العقبة في منتصف الطريق عند الرجوع من تبوك إلى المدينة وفيما يأتي قصّة العقبة :

لمّا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ببعض الطريق ، (وكان عليه أن يجتاز العقبة (المرقى الصعب من الجبال أو الطريق في أعلى الجبال) ، مكر به أُناس من المنافقين وائتمروا أن يَطرحوه من عقبة في الطريق . فلمّا بلغ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تلك العقبة ، أرادوا أن يسلكوها معه ، فأُخبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خبرَهم ، فقال للناس : اسلكوا بطنَ الوادي ، فإنّه أسهل لكم وأوسع . فسلك الناس كلّهم بطنَ الوادي ، وسلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم العقبة . وأمر عَمّارَ بْنَ يَاسِرٍ أن يأخذ بزمام الناقة يقودها . وأمر حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يسوق من خلفه .

فبينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في العقبة ، إذ سمع حِسّ القوم قد غَشوه . فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأمر حذيفة أن يردّهم .

فرجع حذيفة إليهم ، وقد رأوا غضب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمِحجَنٍ في يده . وظنّ القوم أنّ رسول الله قد أُطلع على مكرهم ، فانحطّوا من العقبة مسرعين حتّى خالطوا الناس (وضاعوا بينهم) .

وأقبل حذيفة حتّى أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فساق به . فلمّا خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من العقبة ، نزل الناس . فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : يا حذيفة ! هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم ؟! قال : يا رسول الله ! عرفت راحلة فلان وفلان . وكان القوم مُتَلَثّمين ، لم أُبصرهم من أجل ظلمة الليل !

ولمّا مضى الليل ، وجاء الصبح ، قال أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ [١٨٢] : يَا رَسُولَ اللَهِ ! ما منعك البارحة من سلوك الوادي ؟! فقد كان أسهل من العقبة !

قال (رسول الله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) : يَا أَبَا يَحْيَى ! أتدري ما أراد البارحة المنافقون ، وما اهتمّوا به (ونووه) ؟! قالوا : نتبعه في العقبة . فإذا أظلم الليل عليه ، قطعوا أنساع [١٨٣] راحلتي ونَخَسوها حتّى يطرحوني من راحلتي .

فقال أُسيد : يا رسول الله ! قد اجتمع الناس ، ونزلوا ، فَمُرْ كلّ بطن و (قبيلة) أن تقتل الرجل الذي همّ بهذا (وهو منها) . فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتلْه ! وإن أحببت ــ والذي بعثك بالحقّ ــ فنبّئني بهم ، فلا تبرح حتّى آتيك برؤوسهم ، وإن كانوا في النّبِيت [١٨٤] ، فكفيتُكم (شرّهم) ! ومُر سيّد الخزرج ، يكفك شرّ مَن في ناحيته !

فإنّ مثل هؤلاء يُتركون يا رسول الله ؟! حتّى متى نُداهنهم ! وقد صاروا اليوم في القلّة والذلّة ؛ وضرب الإسلام بجِرانه ، فما يُستبقى من هؤلاء !

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأُسيد : إنّي أكره أن يقول الناس : إنّ محمّداً لمّا انقضت الحرب بينه وبين المشركين (اطمأنّ و) وضع يده في قتل أصحابه ! قال أُسيد : يا رسول الله ! هؤلاء ليسوا بأصحاب !

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أليس يُظهرون شهادة أن لا اله إلّا الله ؟! قال : بلى ، ولا شهادة لهم !

قال (رسول الله) : أليس يظهرون أنّي رسول الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة لهم .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : فَقَدْ نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ أُولَئِكَ [١٨٥] .

وعن أبي سعيد الخُدريّ قال كان أهل العقبة الذين أرادوا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاثة عشر رجلاً ، قد سمّاهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لحُذَيفة وعَمّار [١٨٦] .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريّ إنّ عَمَارَ بْنَ يَاسِرٍ تنازع ورجل من المسلمين في شيءٍ فاستبّا . فلمّا كاد الرجل يعلو عمّاراً في السّباب ، قال عمّار : كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : اللَهُ أَعْلَمُ ! قال عمّار : أخبرني عن علمك بهم ! فسكت الرجل .

فقال من حضر لعمّار : بيّن له ما سألته عنه ! وأراد عمّار من سؤاله شيئاً قد خفي على الحاضرين . وكره الرجل أن يحدّثه . وأقبل القوم على الرجل ليقل ! فقال : كنّا نتحدّث أنّهم كانوا أربعة عشر رجلاً .

قال عمّار : فإنّك إن كنت منهم ، فهم خمسة عشر رجلاً ؟!

فقال الرجل : مهلاً ! أذكّرك الله أن تفضحني !

قال عمّار : والله ما سمّيت أحداً ، ولكنّي أشهد أنّ الخمسة عشر رجلاً ، اثنا عشر منهم حَرْبٌ لِلّهِ ولِرَسُولِهِ «فِي الحَيَوةِ الدّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظّلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ اللّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ» (١٨٧) .

وعن الزهريّ قال : لمّا نزل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن راحلته ، وهي باركة ، أُوحيَ إليه . فلهذا قامت راحلته تجرّ زمامها . حتّى لقيها حُذيفة بن اليمان ، فأخذ بزمامها ، فاقتادها . وحين رأى رسول الله جالساً ، أناخها ثمّ جلس عندها حتّى قام رسول الله ، فأتاها ، وقال : من هذا ؟ قلتُ : أنا حذيفة يا رسول الله !

فقال الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم : يا حذيفة ! إنّي مسرّ إليك أمراً فلا تذكرنّه ! إنّي نُهيت أن أُصلّي على فلان ، وفلان : رهط من المنافقين ! وسمّاهم لحذيفة (١٨٨) ، ولم يُعلم أحداً غيره . فلمّا توفّي رسول الله ، كان عمر إذا مات رجل ممّن يظنّ أنّه من رهط العقبة ، أخذ بيد حذيفة ، فقاده إلى الصلاة عليه . فإن مشى معه حذيفة ، صلّى عليه عمر . وإن انتزع يده من يد عمر وأبى أن يمشي ، انصرف من الصلاة عليه (١٨٩) .

وروى المجلسيّ رضوان الله عليه عن «الاحتجاج» للطبرسيّ ، «والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام» قائلاً : لقد رام الفجرة الكفرة ليلة العقبة قتل رسول الله ، ورام من بقي من المنافقين بالمدينة قتل أمير المؤمنين ؛ فما قدروا على مغالبة ربّهم . حملهم على ذلك حسدهم لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في أمير المؤمنين عليه السلام ، لما فخم من أمره ، وعظم من شأنه عليه السلام . بالأخص أنّه خرج من المدينة وقد كان خلفه عليها وقال له : إنّ جبرائيل أتاني وقال لي :

يَا مُحَمّدُ ! إِنّ العَلِيّ الأَعْلَى يُقْرِئُكَ السّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ : يَا مُحَمّدُ ! إِمّا أَنْتَ تَخْرُجُ وَيُقِيمُ عَلِيّ ، أَوْ تُقِيمُ أَنْتَ وَيَخْرُجُ عَلِيّ ، لَابُدّ مِنْ ذَلِكَ ــ الحديث (١٩٠) .

ثمّ نقل هذه الحادثة مفصّلاً . وقد أحجمنا عن ذكرها كلها خشية الإطالة .

وذكر المفسّرون في تفسير الآية الكريمة : يَحْلِفُونَ بِاللَهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وقد أوردنا تفسيرها أنّ أحد الاحتمالات في قوله : وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا : هو همّهم بقتل رسول الله في العقبة [١٩١] .

ونصّ عليّ بن إبراهيم ، والشيخ الطبرسيّ على هذا الموضوع . وقال الشيخ الطبرسيّ أيضاً : قيل : نزلت في عَبْدِ اللَهِ بْنِ أُبَيّ بْنِ سَلُولٍ ، وكان قد ذهب مع رسول الله في غزوة بني المُصْطَلَق . قال لأصحابه : لَئِن رّجَعْنَآ إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ مِنْهَا الأَذَلّ [١٩٢] . ويقصد من الأعزّ نفسه، والأذلّ رسول الله (والعياذ بالله) ! سمع ذلك منه زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ ، وأخبر رسول الله بالمدينة . وأنكر عبد الله بن أُبيّ . وعنّف الأنصار زيد بن أرقم الذي كان صغيراً على إخباره النبيّ . وحلف عبد الله بن أُبي إنّه لم يقل ، وإنّ زيد بن أرقم يكذب ، فنزلت الآية وفضحت عبد الله [١٩٣] .
[١٩٣] .

أجل ، ذكر أصحابنا رضوان الله تعالى عليهم قصّة الفتك [١٩٤] برسول الله والعزم على اغتياله بالتفصيل ، وذلك عند رجوعه من حجّة الوداع ونصب أمير المؤمنين عليه السلام إماماً وخليفة في غدير خمّ . وإن كانوا قد ذكروا ذلك أيضاً عند الرجوع من غزوة تبوك . بَيدَ أنّه موجز جدّاً . والمهمّ محاولة اغتيال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم التي اتّفق عليها أربعة عشر رجلاً من المنافقين كان يعرفهم عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان في ضوء روايات الشيعة . وذلك عند رجوع رسول الله من الجحفة إلى المدينة في عقبة الأبواء . وكان هدف أُولئك من تلك المحاولة الإخلال بخلافة مولى الموحدّين وإمامته . وترك خطبة الغدير ناقصة ، مع عدم البيعة المجدّدة من قبل رسول الله بالمدينة .

وبعد أن روى الشيخ العيّاشيّ حديث الغدير في الحجفة وخطبة رسول الله هناك مفصّلاً عن جابر بن أرقم ، عن أخيه زيد بن أرقم ، قال في ذيله : وكان إلى جانب خبائي (في الجحفة) خباء لنفر من قريش ، وهم ثلاثة ، ومعي حذيفة بن اليمان ، فسمعنا أحد الثلاثة وهو يقول : والله إنّ محمّداً لأحمق ، إن كان يرى أنّ الأمر يستقيم لعليّ بعده . وقال آخر : أتجعله أحمق ؟ ألم تعلم أنّه مجنون ؟ قد كاد أن يصرع عند امرأة ابن أبي كبشة [١٩٥] . وقال الثالث : دعوه إن شاء أن يكون أحمق . وإن شاء أن يكون مجنوناً ! والله ما يكون ما يقول أبداً .

فغضب حذيفة من مقالتهم ؛ فرفع جانب الخباء ، فأدخل رأسه إليهم ، وقال : فعلتموها ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بين أظهركم ، ووحي الله ينزل عليكم ؟! والله لأخبرنّه بكرة بمقالتكم !

فقالوا له : يا أبا عبد الله ! إنّك لها هنا ؛ وقد سمعت ما قلنا ؛ اكتم علينا ؛ فإنّ لكلّ جوار أمانة ! قال حذيفة : ما هذا من جوار الأمانة ، ولا من مجالسها . ما نصحت الله ورسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث !

فقالوا له : يا أبا عبد الله ! فاصنع ما شئت ! فو الله لنحلفنّ أنّا لم نقل ، وأنّك قد كذبت علينا ! أفتراه يصدّقك ، ويكذّبنا ، ونحن ثلاثة ؟ فقال لهم حذيفة : أمّا أنا فلا أُبالي إذا أدّيت النصيحة إلى الله وإلى رسوله ، فقولوا ما شئتم أن تقولوا ! ثمّ مضى حتّى أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وعليّ عليه السلام إلى جانبه محتب بحمائل سيفه ، فأخبره بمقالة القوم .

فبعث إليهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فأتوه . فقال لهم : ماذا قلتم ؟

فقالوا : وما الله ما قلنا شيئاً . فإن كنت بُلّغتَ عنّا شيئاً ، فمكذوب علينا ! فهبط جبرائيل بهذه الآية : يَحْلِفُونَ بِاللَهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَلُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .

وقال علي عليه السلام عند ذلك : ليقولوا ما شاؤوا ! والله إنّ قلبي بين أضلاعي ؛ وإنّ سيفي لفي عنقي . ولئن همّوا ، لأهمّنّ .

فقال جبرائيل للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : اصبر للأمر الذي هو كائن ! فأخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم علياً عليه السلام بما أخبره به جبرائيل ، فقال : إذاً أصبر للمقادير .

قال (الإمام الصادق) أبو عبد الله عليه السلام : وقال رجل من الملأ شيخ : لَئِنْ كُنّا بَيْنَ أَقْوَامِنَا كَمَا يَقُول هَذَا ، لَنَحْنُ أَشَرّ مِنَ الحَمِيرِ . وقال شابّ إلى جنبه : لَئِنْ كُنْتَ صَادِقاً لَنَحْنُ أَشَرّ مِنَ الحَمِيرِ (١٩٦) .

وروى الشيخ العيّاشيّ أيضاً عن جعفر بن محمّد الخزاعيّ ، عن أبيه ، قال : سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول : لمّا قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في غدير خمّ ، مرّ المقداد بجماعة منهم وهم يقولون : وَاللَهِ إِنْ كُنّا وَقَيْصَرَ لَكُنّا فِي الخَزّ وَالوَشْي وَالدّيبَاجِ وَالنّسَاجَاتِ ؛ وَإِنّا مَعَهُ فِي الأَخْشَنَيْنِ : نَأْكُلُ الخَشِنَ وَنَلْبَسُ الخَشِنَ حَتّى إِذَا دَنَا مَوْتُهُ وَفَنِيَتْ أَيّامُهُ وَحَضَرَ أَجَلُهُ ، أَرَادَ أَنْ يُوَلّيَها عَلِيّاً مِنْ بَعْدِهِ أَمَا وَاللَهِ لَيَعْلَمَنّ .

قال : فمضى المقداد وأخبر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال صلّى الله عليه وآله : الصّلَاةُ جَامِعَةً ، قال : فقالوا : قد رمانا المقداد . (وقالوا مع أنفسهم) : نحلف عليه . قال : فجاؤوا حتّى جثوا بين يدي رسول الله ، وقالوا : بآبائنا وأُمهاتنا يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ! والذي بعثك بالحقّ ، وأكرمك بالنبوّة ، ما قلنا ما بلغك ؛ لا والذي اصطفاك على البشر ، (ما قلنا) !

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم :

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ يَحْلِفُونَ بِاللَهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمّوا بِكَ يَا مُحَمّدُ لَيْلَةَ العَقَبَةِ وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَهُ مِن فَضْلِهِ (١٩٧) ،

كَانَ أَحَدُهُمْ يَبِيعُ الرّؤُوسَ ؛ وَآخَرُ يَبِيعُ الكُرَاعَ ، وَيَفْتِلُ القَرَامِلَ ، فَأَغْنَاهُمُ اللَهُ بِرَسُولِهِ ؛ ثُمّ جَعَلُوا حَدّهُمْ وَحَدِيدَهُمْ عَلَيْهِ (١٩٨) .

وذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره في ذيل الآية المباركة : يَأَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ (١٩٩) خطبة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في غدير خمّ مفصّلاً ، إلى أن قال : أَلَا وَإِنّهُ سَيَرِدُ عَلَيّ الحَوْضَ مِنْكُمْ رِجَالٌ يَدْفَعُونَ عَنّي ! فَأَقُولُ : رَبّ أَصْحَابِي ! فَيُقَالُ :

يَا مُحَمّدُ ! إِنّهُمْ أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ؛ وَغَيّرُوا سُنّتَكَ ؛ فَأَقُولُ : سُحْقَاً سُحْقَاً (٢٠٠) .

ثمّ عرض حوادث مسجد الخيف والغدير مفصّلاً . وذكر قول رسول الله : أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ، وَأَحِبّ مَنْ أَحَبّهُ . ثمّ قال : اللَهُمّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ وَأَنَا مِنَ الشّاهِدِينَ .

فاستفهمه عمر من بين أصحابه ، فقال : يا رسول الله ! هذا من الله ومن رسوله ؟! فقال رسول الله: نعم من الله ورسوله ! إنّهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ وَإِمَامُ المُتّقِينَ وَقَائِدُ الغُرّ المُحَجّلِينَ ، يُقْعِدُهُ اللَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى الصّرَاطِ فَيُدْخِلُ أَوْلِياءَهُ الجَنّةَ وَأَعْدَاءَهُ النّارَ .

فقال أصحابه الذين ارتدّوا بعده : قد قال محمّد في مسجد الخيف ما قال ، وقال ها هنا ما قال وإن رجع إلى المدينة يأخذنا بالبيعة له .

فاجتمعوا أربعة عشر رجلاً ، وائتمروا على قتل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقعدوا له في العقبة . وهي عقبة أرْشَى بين الجحفة والأبواء . فقعدوا سبعة عن يمين العقبة ، وسبعة عن يسارها لينفّروا ناقة رسول الله .

ولمّا جنّ الليل ، تقدّم رسول الله في تلك الليلة العسكر ، فأقبل ينعس على ناقته ؛ فلمّا دنا من العقبة ، ناداه جبرائيل : يا محمّد ! إنّ فلاناً و فلاناً قعدوا لك . فنظر رسول الله خلفه ، فقال : مَن هذا خلفي ؟ فقال حذيفة بن اليمان : أنا يا رسول الله ، حذيفة بن اليمان !

قال (رسول الله) : سمعتَ ما سمعتُ ؟ قال : بلى . قال : فاكتم !

ثمّ دنا رسول الله منهم فناداهم بأسمائهم . فلمّا سمعوا نداء رسول الله ، مرّوا ودخلوا في غمار الناس ، وقد كانوا عقلوا رواحلهم ، فتركوها . ولحق الناس برسول الله ، وطلبوهم . وانتهى رسول الله إلى رواحلهم ، فعرفهم . فلمّا نزل (من العقبة) ، قال : مَا بَالُ أَقْوَامٍ تَحَالَفُوا فِي الكَعْبَةِ إِنْ مَاتَ مُحَمّدٌ أَوْ قُتِلَ أَنْ لَا يَرُدّوا هَذَا الأَمْرَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَدَاً .

فجاؤوا إلى رسول الله ، فحلفوا إنّهم لم يقولوا من ذلك شيئاً ، ولم يريدوه ، ولم يهمّوا بشيء في رسول الله . فأنزل الله (هذه الآية) : يَحْلِفُونَ بِاللَهِ مَا قَالُوا (أن لا يردّوا هذا الأمر عن أهل بيت رسول الله) وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا (من قتل رسول الله) وَمَا نَقَمُوا إِلّآ أَنْ أَغنَهُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِن يَتَوَلّوْا يُعَذّبْهُمُ اللَهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍ وَلَا نَصِيرٍ [٢٠١] .

فرجع رسول الله إلى المدينة ؛ وبقي بها المحرّم والنصف من صفر ، لا يشتكي شيئاً . ثمّ ابتدأ به الوجع الذي توفّي فيه [٢٠٢] .

وروى السيّد ابن طاووس عن أبي سعيد السمّان بإسناده أنّ إبليس أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في صورة شيخ حسن السمت ، فقال : يا محمّد ! ما أقلّ من يبايعك على ما تقول في ابن عمّك : عليّ ؟! فأنزل الله (هذه الآية) :

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ [٢٠٣] .

(ويومئذٍ) اجتمع جماعة من المنافقين الذين نكثوا عهد النبيّ ، فقالوا : قد قال محمّد بالأمس في مسجد الخيف ما قال : وقال ها هنا ما قال . فإن رجع إلى المدينة ، يأخذ البيعة لعليّ ؛ والرأي أن نقتل محمّداً قبل أن يدخل المدينة .

ثمّ ذكر ابن طاووس مضمون هذه الرواية التي نقلناها آنفاً عن «تفسير القمّيّ» . ذكرها برواية أبي سعيد السمّان ؛ وختمها بهذه التتمّة [٢٠٤] .

وعقد فصلاً مستقلّاً بعد هذه الرواية في كلام الزمخشريّ ، وقال : فصل فيما ذكر الزّمَخْشَرِيّ في كتاب «الكَشّاف» . وهو : ممّن لا يتّهم (بالتشيّع أو التحيّز لأهل البيت) عند أهل الخلاف (من العامّة) . فقال (ما هذا لفظه) في تفسير قوله تعالى : لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ [٢٠٥] : عن ابن جريح (إنّ المنافقين) وقفوا لرسول الله ليلة الثنيّة [٢٠٦] على العقبة ، وهم اثنا عشر رجلاً لِيَفْتِكُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ غَزَاةِ تَبُوكَ وَقَلّبُوا لَكَ الأُمُورَ وَدَبّرُوا لَكَ الحِيَلَ وَالمَكائِدَ وَ دَوّرُوا الآرَاءَ فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ .

وقرئ : وقلّبوا لك الأُمور (بتخفيف الراء) حَتّى جَآءَ الْحَقّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ [٢٠٧] .

وكذلك قال الزمخشريّ في كتاب «الكشّاف» في تفسير قوله تعالى : وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَمِهِمْ وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا [٢٠٨] ما هذا لفظه : «وهو الفَتْكُ برسول الله . وذلك عند مرجعه من تبوك ؛ توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل . وأخذ عمّار بن ياسر رضي الله عنه بزمام راحلته يقودها ، وحذيفة خلفه يسوقها . فبينا هو كذلك إذ سمع حذيفة توقّع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثّمون ، فقال : إليكم أعداء الله فهربوا [٢٠٩] .

ونستخلص ممّا تقدّم أنّ محاولتين كانتا قد جرتا لاغتيال رسول الله في العقبة . الأُولى في غزوة تبوك ، والأُخرى عند الرجوع من حجّة الوداع . وأنّ وجه الشبه بين المحاولتين سواء في العقبة ، أم عند قيادة عمّار وسياقة حُذَيفة أم في عدد المنافقين أربعة عشر كانوا أم خمسة عشر ، لا يمكن الحكم بوحدتهما من منظار تأريخيّ إذ اتّخذا طابعين وصورتين ، وإنّما هما حادثتان متّسمتان بمواصفات متميّزة .

وعبارة الزمخشريّ في «الكشّاف» كما رأينا على التعدّد ، بَيدَ أنّها ليست كما استظهرها ابن طاووس وقال : في الرجوع من الغدير ؛ والزمخشريّ غير متّهم بالتشيّع .

ذلك أنّ ما جاء في عبارة الزمخشريّ هو أنّ إحدى الواقعتين كانت قبل غزوة تبوك ؛ مع أنّنا نعلم أنّ واقعة الغدير كانت بعد غزوة تبوك . وكانت غزوة تبوك في شهر رجب

إلى شهر رمضان سنة ٩ ه ، ومن الطبيعيّ أنّ واقعة العقبة التي حدثت عند رجوعه صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت في أوائل شهر رمضان ؛ لكنّ واقعة الغدير كانت في السنة العاشرة من الهجرة ، ولابدّ أن تكون واقعة العقبة قد حدثت بعد اليوم الثامن عشر إلى أيّام تلتها .

بَيدَ أنّا لمّا كنّا نعلم أنّ قصّة ثالثة لم تقع في العقبة ، بحيث أراد المنافقون فتك رسول الله في العقبة ، ينبغي أن نقول : إنّ تغييراً قد حصل في كيفيّة بيان الواقعتين في كلام رواة «الكشّاف» ، أي : الرواة الذين نقل الزمخشريّ عنهم .

ونعود إلى أصل قصّة تبوك ، وسرد بقيّة الحوادث الواقعة عند دخول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة . قال الواقديّ في تفسير الآية الكريمة : وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا :

هم الذين همّوا بقتل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في العقبة . كانوا يقولون مع أنفسهم : إذا رجعنا إلى المدينة ، وتخلّصنا من محمّد ، «نضع التاج على رأس عبد الله بن أُبيّ فنتوّجُهُ [٢١٠] » . فأنزل الله هذه الآية : فلم ينالوا ما قصدوه .

ولمّا نزل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بذي أوان (التي لا تبعد أكثر من ساعة عن المدينة ، أنبأه الله بقصّة مسجد ضرار وبُناته : إذ بنوا ذلك المسجد حسب ميثاق كانوا قد اتّفقوا عليه ، ويأتيهم أبو عامر الراهب الفاسق من الشام ، ويتحدّث لهم . ويتكلّمون معه في موضوعات متنوّعة . لأنّ أبا عامر كان قد قال : أنا لا أستطيع أن آتي المسجد الذي بناه بنو عمرو بن عوف بقبا . إنّما أصحاب محمّد يلحظوننا بأبصارهم ، ويشتموننا ويعيبون علينا [٢١١] . فلهذا إنّ بني غنم بن عوف الذين كانوا إخوة بني عمرو بن عوف ، وكانوا يحسدون إخوتهم على بناء مسجد قبا ، ويقولون : نصلّي في مكان كان مربطاً للحمير (إذ كان مسجد قبا لامرأة كانت تربط فيه حميرها) ، بنوا مسجداً في محلّتهم ليكون مستقّلاً لهم ، ويأتيهم أبو عامر الراهب من الشام فيؤمّهم . ويكون لهم بما يصطلح عليه نادياً أو مقرّاً لاتّخاذ القرار ضدّ صحابة رسول الله .

وكان المسلمون في تلك الناحية كلّهم يصلّون في مسجد قبا قبل بناء هذا المسجد ؛ ولمّا بُني هذا المسجد ، صُرف عن مسجد قبا جماعة ، وكانوا يصلّون في هذا المسجد . وأدّى هذا العمل إلى أن يتضرّر بنو عمرو بن عوف ضرراً معنويّاً ، وتتفرّق جماعة المسلمين وتتشتّت وحدتهم ، ويجلسون في ذلك المسجد ويعيبون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ويستهزؤون به .

ذلك أنّ الذي أمرهم ببناء هذا المسجد هو أبو عامر ــ الذي سمّاه رسول الله فاسقاً ــ وقال للمنافقين : ابنوا مسجد ضرار ، مسجداً جديداً ، واستمّدوا ما استطعتم من قوّة وسلاح ! فإنّي ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند كثيرين من الروم ، ونخرج

محمّداً وأصحابه من المدينة . ولهذا ، فإنّ عملهم المذكور وجه رابع من أوصاف هذا المسجد ، وهو الإرصاد . أي : أنّه أُعدّ لمن حارب الله ورسوله ، وهو أبو عامر الراهب الفاسق .

أجل ، لمّا قدم رسول الله ذي أوان ، أتاه بانو مسجد ضرار ، وطلبوا منه أن يأتيهم ، ويفتتح مسجدهم بالصلاة فيه كما صلّى في مسجد قبا !

فأنبأه الله بهذا الخبر من السماء :

وَالّذِينَ اتّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤمِنِينَ وَإِرْصَادًا لّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (أبو عامر) مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلّا الْحُسْنَى (نشر الإسلام ومساعدة الضعفاء والشيوخ الكبار في الليلة المطيرة وغيرها) وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنّهُمْ لَكَذِبُونَ * (يا أيّها النبيّ) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لّمَسْجِدٌ (قبا) أُسّسَ عَلَى التّقْوَى مِنْ أَوّلِ يَوْمٍ أَحَقّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبّونَ أَن يَتَطَهّرُوا وَاللّهُ يُحِبّ الْمُطّهّرِينَ * أَفَمَنْ [٢١٢] أَسّسَ بُنْيَنَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مّنْ أَسّسَ بُنْيَنَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنّمَ (من حيث لا يشعر) ؟! وَاللّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّلِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ (ولن يبلغوا مرحلة اليقين والاطمئنان) إِلّآ أَن تَقَطّعَ قُلُوبُهُمْ (ويزول ذلك الشكّ والريب فيقطّع قلوبهم) وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (يرفع تلك الجماعة ، ويذلّ هذه الجماعة) [٢١٣] .

ولمّا نزلت هذه الآية : استدعى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عاصم بن عوف العجلانيّ ، ومالك بن دُخْشُمْ من بني عمرو بن عوف ، وقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه ، وحرّقاه . وروي أنّه بعث عمّار بن ياسر ، ووحشيّاً فحرّقاه . وأمر بأن يتّخذ كناسة يلقي فيها الجيف [٢١٤] .

وجاء في تفسير عليّ بن إبراهيم : بعث رسول الله مالك بن الدّخْشَمْ الخزاعيّ وعامر بن عديّ أخا بني عمرو بن عوف . قال مالك لعامر : انتظرني حتّى أُخرج ناراً من منزلي ! فدخل (منزله) ، فجاء بنار ، وأشتعل في سعف النخل ، ثمّ أشعله في المسجد ، فتفرّقوا ، إلّا زيدَ بن جَارِيَة بن عَامِر [٢١٥] فإنّه قعد (في المسجد) حتّى احترقت البُنْية ، ثمّ أمر بهدم حايطه [٢١٦] .

وقال الواقديّ بعد هذا الموضوع : خرج مالك بن الدخشم ، وعاصم ابن عديّ ، بعد إشعال النار ، سريعين يعدُوَان حتّى انتهيا إلى المسجد بين المغرب والعشاء ، وهم فيه ، وإمامهم يومئذٍ مُجَمّع بن جَارِيَة . فقال عاصم : ما أنسى تشرّفهم إلينا كأنّ آذانهم آذان السّرحان . فأحرقناه حتّى احترق . وكان الذي ثبت فيه من بينهم زيد بن جارية حتّى احترقت أَلْيَتُهُ [٢١٧] . فهدمناه حتّى وضعناه بالأرض ، وتفرّقوا [٢١٨] .

قال الشيخ الطبرسيّ في تفسير قوله : وَإِرْصادًا لّمَن حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ : هو أبو عامر الراهب . وكان من قصّته أنّه كان قد ترهّب في الجاهليّة ، ولبس المسوح . فلمّا

قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة ، حسده ، وحزّب عليه الأحزاب . ثمّ هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف . فلمّا أسلم أهل الطائف ، لحق بالشام . وخرج إلى الروم وتنصّر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة الذي قُتل مع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم أُحد . وكان جنباً فغسلته الملائكة .

وسمّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أبا عامر الفاسق . وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا ، وابنوا مسجداً . فإنّي أذهب إلى قيصر ، وآتي من عنده بجنود ، وأُخرج محمّداً من المدينة . فكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون أن يجيئهم أبو عامر . فمات قبل أن يبلغ ملك الروم . وجاء خبر موته إلى المدينة [٢١٩] .

وقال الواقديّ : سئل عاصم بن عديّ عمّا حمل المنافقين على بناء مسجد ضرار ؟! فقال : «كان المنافقون يجتمعون في مسجدنا (مسجد قبا) ، فإنّما هم لا يَتناجَون فيما بينهم ، ويَلتفت بعضهم إلى بعض ، فيَلحظَهم المسلمون بأبصارهم ، فشقّ ذلك على المنافقين . (ولهذا) أرادوا مسجداً يكونون فيه ، لا يغشاهم فيه إلّا مَن يريدون ممّن هو على مثل رأيهم .

وكان أبو عامر يقول : لا أقدر أن أدخل مربدكم [٢٢٠] هذا ! وذاك أنّ أصحاب محمّد يلحظونني وينالون منّي ما أكره . قال المنافقون : نحن نبني مسجداً نتحدّث فيه عندنا [٢٢١] .

وورد في «مجمع البيان» في تفسير الآية : يُحِبّونَ أَن يَتَطَهّرُوا ، أنّ المراد هو التطهّر بالماء عن البول والغائط ، وهو المرويّ عن السيّدين الباقر والصادق عليهما السلام .

وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال لأهل قبا : ماذا تفعلون في طهركم ، فإنّ الله قد أحسن عليكم الثناء ؟! قالوا : نغسل أثر الغائط . فقال (رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم) : أنزل الله فيكم : وَاللَهُ يُحِبّ الْمُطّهّرِينَ [٢٢٢] .

وجاء في تفسير «العيّاشيّ» عن الحلبيّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ المراد من قوله : لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التّقْوَى مِنْ أَوّلِ يَوْمٍ ، هو مسجد قبا [٢٢٣] .

وكذلك عن زُرارة ، وحمران ، ومحمّد بن مسلم ، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله : لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التّقْوَى مِنْ أَوّلِ يَوْمٍ ، قالا : مسجد قبا . وأمّا قوله : أَحَقّ أَن تَقُومَ فِيهِ (فالمراد منه أنّ الصلاة فيه أحقّ من الصلاة) في مسجد النفاق . وكان على طريقه إذا أتى مسجد قبا . فقام فينضح بالماء والسدر ، ويرفع ثيابه عن ساقيه . ويمشي على حجر في ناحية الطريق ، ويسرع في المشي ، ويكره أن يصيب ثيابه منه شيء .

(قال الراوي) سألته هل كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يصلّي في مسجد قبا ؟!

قال : نعم ! كان منزله على سَعد بن خَيْثَمة الأنصاريّ (عند هجرته من مكّة إلى المدينة) .

فسألته : هل كان لمسجد رسول الله سقف ؟ فقال : لا . وقد كان بعض أصحابه قال : ألَا تسقف مسجدنا يا رسول الله ؟!

قال : عَرِيشٌ كَعَرِيشِ مُوسَى [٢٢٤] .

وبعد أن بيّن الله تعالى حال المنافقين الذين بنوا مسجد ضرار ، قال في تبيان حال المؤمنين :

إِنّ اللَهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَ لَهُم بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ يُقَتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّا فِى التّوْرَيةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَ لِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ * التّئِبُونَ العَبِدُونَ الحَمِدُونَ السّئِحُونَ الرّ كِعُونَ السّجِدُونَ الْأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَهِ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ [٢٢٥] .

قال الشيخ الطبرسيّ في تفسير هذه الآيات : والجهاد قد يكون بالسيف . وقد يكون باللسان . وربما كان جهاد اللسان أبلغ ؛ لأنّ سبيل الله دينه ؛ والدعاء إلى الدين يكون أوّلاً باللسان ، والسيف تابع له ؛ ولأنّ إقامة الدليل على صحّة المدلول أولى . وإيضاح الحقّ وبيانه أحرى ، وذلك لا يكون إلّا باللسان . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأمير المؤمنين عليه السلام : يَا عَلِيّ ! لَأَنْ يَهْدِيَ اللَهُ عَلَى يَدَيْكَ نَسَمَةً خَيْرٌ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشّمْسُ !

وقال أيضاً : عن الزجّاج في قول الحقّ تعالى : فِى التّوْرَبةِ وَالْإِنجِيلِ إنّها تدلّ على أنّ أهل كلّ ملّة أُمروا بالقتال ، ووعدوا عليه الجنّة [٢٢٦] .

وروى العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه عن «الكافي» بإسناده عن سماعة ، عن أبي عبد الله عليه السلام (أنّه) قال : لقي عبّاد البصريّ عليّ بن الحسين عليهما السلام في طريق مكّة : فقال له : يَا عَلِيّ بْنَ الحُسَيْنِ ! تَرَكْتَ الجِهَادَ وَصُعُوبَتَهُ وَأَقْبَلْتَ عَلَى الحَجّ وَلِيْنَتِهِ ؛ إنّ اللَهَ يَقُولُ : «إِنّ اللَهَ اشْتَرَى» ... إلى آخر الآيات . فقال عليّ بن الحسين : إذَا رَأَيْنَا هَؤُلَاءِ الّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ فَالجِهَادُ مَعَهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الحَجّ .

ثمّ قال العلّامة : يريد الإمام السجّاد عليه السلام ما في الآية الثانية : التّئِبُونَ الْعَبِدُونَ ... إلى آخره من الأوصاف [٢٢٧] .

أي : أنّ مراد الإمام السجّاد هو أنّ حكّام الإسلام لمّا كانوا حائزين على الصفات التي وصفهم بها الله ، فالقتال معهم ضدّ أعداء الدين أفضل من الحجّ . أمّا لو كان الجهاد في ركاب عبد الملك بن مروان ، وهشام ، والوليد ، ويزيد بن عبد الملك وأمثالهم ، وهم

حكّام الجور في عصر الإمام ، فلا فضيلة للجهاد في سبيلهم ، لأنّه ليس جهاداً في سبيل الله . وحينئذٍ الحجّ أفضل .

يقول الشيخ الطبرسيّ رضوان الله عليه في ذيل الآية : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ : هذا أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يبشّر المصدّقين بالله المعترفين بنبوّته بالثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة خاصّة ، إذا جمعوا هذه الأوصاف . وقد روى أصحابنا رضوان الله عليهم أنّ هذه صفات الأئمّة المعصومين عليهم السلام ؛ لأنّه لا يكاد يجمع هذه الأوصاف على تمامها وكمالها غيرهم .

ثمّ روى الطبرسيّ لقاء الزّهريّ الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام في طريق مكّة ومؤاخذته الإمامَ على ترك الجهاد ، وجواب الإمام المتمثّل بقوله أن لو كان أُمراء الحرب يحملون هذه الصفات ... بنفس العبارة والمضمون الذي ذكره العلّامة عن «الكافي» عن عبّاد البصريّ [٢٢٨] .

أجل ، انتهت رحلة غزوة تبوك ، وعاد النبيّ الأكرم والمسلمون إلى المدينة . ولم يلحق المنافقين إلّا الخجل ، والذلّ ، والخيبة . فلا هم استطاعوا أن يقتلوا النبيّ في العقبة ، ولا هم رأوا النبيّ والمسلمين أسرى مغلولين بالسلاسل والحبال على يد جنود الروم ، ولا هم قدروا على إثارة الفتن والقلاقل في المدينة عند غياب رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ووجود مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام . لقد طاش سهمهم ، ومات أبو عامر ، رئيسهم ، واحترق مسجد ضرار ، مسجدهم . وأضحوا وحيدين بلا ناصر ولا معين . ولا قوّة ، ولا نظم ، ولا عِدّة ، ولا عُدّة . وفي مثل هذه الحالة ، تكشف لنا الآيتان المباركتان الآتيتان حقيقتهم ، قال جلّ من قائل :

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَفِرُونَ * هُوَ الّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [٢٢٩] .

فلهذا نقرأ أنّ المنافقين كانوا يأتون الى النبيّ في المدينة بعد غزوة تبوك ويعتذرون إليه بصور وأشكال مختلفة . وكانت مجموعة منهم تقول : سنشارك في الغزوات إلى جانبك في المستقبل . فنزلت هذه الآية :

فَإِن رّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَتِلُوا مَعِىَ عَدُوّا إِنّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوّلَ مَرّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَلِفِينَ [٢٣٠] .

قال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه : المراد بالخالفين المتخلّفون بحسب الطبع كالنساء ، والصبيان ، والمرضى ، والزمنى . وقيل : المتخلّفون من غير عذر . وقيل : الخالفون هم المنافقون وأهل الفساد . وفي قوله : فَإِن رّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مّنْهُمْ ــ الآية ، دلالة على أنّ هذه الآية وما في سياقها المتّصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت

ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في سفره ، ولمّا يرجع إلى المدينة ، وهو سفره إلى تبوك [٢٣١] .

ويعرض القرآن الكريم معاذيرهم وأيمانهم المؤكّدة وطلبهم من النبيّ أن يتغاضى عنهم ، ويصفح عن ذنبهم ، ويرضى عنهم ، فيقول :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدّونَ إِلَى عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَبهُمْ جَهَنّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِنّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَسِقِينَ [٢٣٢] .

قال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه : قوله تعالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُمْ : هذا الحلف منهم كما كان للتوسّل إلى صرفكم عنهم ليأمنوا الذمّ والتقريع ، كذلك هو للتوسّل إلى رضاكم عنهم ! أمّا الإعراض فافعلوه ؛ لأنّهم رجس لا ينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته أن تتعرّض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق . فلا تتعرّضوا لهم بالتقريع والعتاب ونحوهما . وأمّا الرضى ، فاعلموا أنّكم إن ترضوا عنهم فَإِنّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَسِقِينَ . وعلى هذا يكون المعنى : أنّكم إن رضيتم عنهم ، فقد رضيتم عمّن لم يرض الله عنه ، أي : رضيتم بخلاف رضى الله ! ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عمّا يسخط ربّه . فهو أبلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين [٢٣٣] .

والشاهد على هذا المطلب ما جاء في تفسير عليّ بن إبراهيم لمّا قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من تبوك ، كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون المنافقين ويؤذونهم ، فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن التعرّض لهم [٢٣٤] .

وقال في «مجمع البيان» : نزلت الآيات في جَدّ بنِ قَيسٍ وَمُعَتّب بْنِ قُشَيْرٍ وأصحابهما من المنافقين . وكانوا ثمانين رجلاً . ولمّا قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة راجعاً عن تبوك ، قال (لأصحابه) : لَا تُجَالِسُوهُمْ وَلَا تُكَلّمُوهُمْ ، عن ابن عبّاس . وقيل : نزلت في عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيّ ، حلف للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يتخلّف عنه بعدها ، وطلب إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يرضى عنه ، عن مقاتل [٢٣٥] .

وكذلك نزل في المنافقين من الأعراب قوله :

الأَعْرَابُ [٢٣٦] أَشَدّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبّصُ بِكُمُ الدّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٣٧] .

إلى أن قال :

وَمِمّنْ حَوْلَكُمْ مّنَ الْأَعْرَابِ مُنَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذّبُهُم مّرّتَيْنِ ثُمّ يُرَدّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (٢٣٨) .

وكذلك يعرض القرآن الكريم أحوال المنافقين وتزلزلهم عند نزول سورة أو آية ، فيقول :

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مّن يَقُولُ أَيّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمّا الّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمّا الّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مّرَضٌ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَفِرُونَ * أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلّ عَامٍ مّرّةً أَوْ مَرّتَيْنِ ثُمّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذّكّرُونَ * وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ (وبعضهم عند رسول الله طبعاً ، وما يحدث لهم من شدّة القلق والاضطراب والتزلزل المشهود في سيماهم) نّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيكُم مّنْ أَحَدٍ (وهل اطّلع على اضطرابكم أحد أو لا ؟) ثُمّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنّهُمْ قَوْمٌ لّا يَفْقَهُونَ (٢٣٩) .

ويبيّن أحوال المنافقين أيضاً عند تقسيم الصدقات والزكاة الواجبة إذ كانوا يلمزون النبيّ :

وَمِنْهُم مّنْ يَلْمِزُكَ فِى الصّدَقَتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لّمْ يُعْطَوا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَهُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَهُ سَيُؤْتِينَا اللَهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنّآ إِلَى اللَهِ رَ غِبُونَ (٢٤٠) .

وَمِنْهُمُ الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبِىّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لّلّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَهُ وَرَسُولُهُ أَحَقّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنّهُ مَن يُحَادِدِ اللَهَ وَرَسُولَهُ فَأَنّ لَهُ نَارَ جَهَنّمَ خَلِدًا فِيهَا ذَ لِكَ الخِزْىُ الْعَظِيمُ (٢٤١) .

قال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه : يمكن أن يكون قوله : أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ من الإضافة الحقيقيّة ؛ أي : سمّاع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي ، وفيه خير لكم . ويسمع من المؤمنين النصيحة ، وفيها خير لكم . ويمكن أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة . أي : أُذن هي خير لكم ، لأنّه لا يسمع إلّا ما ينفعكم ولا يضرّكم !

والفرق بين الوجهين أنّ اللازم على الأوّل أن يكون مسموعه خيراً لهم ، كالوحي من الله ، والنصيحة من المؤمنين . واللازم على الثاني أن يكون استماعه استماع خير ، وإن لم يكن مسموعه خيراً ، كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيراً لهم لكنّه يستمع إليه فلا يردّه فيحترم بذلك قائله ؛ ثمّ يحمل ذلك القول منه على الصحّة فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظنّ به ؛ ثمّ لا يرتّب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه ، فلا يؤاخذ مَن قيل فيه بما قيل فيه . فيكون قد احترم إيمانه ، كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر .

ومن هنا يظهر أنّ الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله : يُؤْمِنُ بِاللَهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ [٢٤٢] .

وقال تعالى في بخل المنافقين وعدم التزامهم بوعودهم ، ولمزهم المؤمنين في الصدقات : وَمِنْهُم مّنْ عَهَدَ اللَهَ لَئِنْ ءَاتَىنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصّدّقَنّ وَلَنَكُونَنّ مِنَ الصّلِحِينَ [٢٤٣] * فَلَمّآ ءَاتَىهُم مّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلّوا وّهُم مّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُوا اللَهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنّ اللَهَ يَعْلَمُ سِرّهُمْ وَنَجْوَىهُمْ وَأَنّ اللَهَ عَلّمُ الْغُيُوبِ * الّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطّوّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصّدَقَتِ وَالّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٢٤٤] .

قال الشيخ الطبرسيّ : قيل : نزلت (هذه الآية) في ثَعْلَبَة بنِ حَاطِبٍ . وكان من الأنصار ، فقال للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : ادع الله أن يرزقني مالاً !

فقال (رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم) : يَا ثَعْلَبَةُ ! قَلِيلٌ تُؤَدّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ ؛ أَمَا لَكَ فِي رَسُولِ اللَهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ؟! وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَرَدْتُ أَنْ تَسِيرَ الجِبَالَ مَعِي ذَهَبَاً وَفِضّةً لَسَارَتْ !

ثمّ أَتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن يرزقني مالاً ! والذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالاً ، لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه !

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : اللهمّ ارزق ثعلبة مالاً ! فاتّخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحّى عنها . فنزل وادياً من أوديتها . ثمّ كثرت نموّاً حتّى تباعد عن المدينة .

فاشتغل بذلك عن (صلاة) الجمعة والجماعة . وبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إليه المصدق ليأخذ الصدقة . فأبى ، وبخل ، وقال : مَا هَذَا إلّا أُخْتُ الجِزْيَةِ .

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ! يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ! فنزلت هذه الآيات فيه . وروي ذلك عن أبي أمامة الباهليّ مرفوعاً .

وقيل : إنّ ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله ، تصدّقت منه ، وآتيتُ كلّ ذي حقّ حقّه ، ووصلتُ منه القرابة ، فابتلاه الله . فمات ابن عمّ له ، فورثه مالاً ، ولم يفِ بما قال : فنزلت . عن ابن عبّاس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

وقيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ، ومُعَتّب بن قشَير ، وهما من بني عمرو بن عوف قالا : لئن رزقنا الله مالاً لنصدّقنّ . فلمّا رزقهما الله المال ، بخلا به . عن الحسن ، ومجاهد [٢٤٥] .

وقال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه بعد ذكر هذه الرواية : ما ذكره من الروايات لا يدفع بعضها البعض ؛ فمن الجائز أن يكون ثعلبة عاهد النبيّ بذلك ثمّ أشهد

عليه جماعة من الأنصار ، وأن يكون معه في ذلك غيره ، فتتأيّد الروايات بعضها ببعض [٢٤٦] .

ومن بين الذين تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في غزوة تبوك ــ ماعدا المتخلّفين من المنافقين ، والمعذّرين ، والذين التحقوا فيما بعد كأَبِي خَيْثَمَة ــ ثلاثة أشخاص . إذ ظلّوا في المدينة مع إيمانهم برسول الله ، لكن اعتراهم ضعف ، وتثاقلوا مع قدرتهم الماليّة والبدنيّة . إلى أن عاد جيش رسول الله من تبوك . وروى المؤرّخون كالواقديّ وغيره [٢٤٧] قصّة هؤلاء الأشخاص الثلاثة مفصّلاً . بَيدَ أنّا ننقلها هنا عن الشيخ الطبرسيّ بإيجاز :

يقول : نزلت الآية وَعَلَى الثّلَثَةِ الّذِينَ خُلّفُوا في شأن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَمَرَارَة بْنِ الرّبِيعِ وَهِلَالِ بْنِ أُمَيّة [٢٤٨] . وذلك أنّهم تخلّفوا عن رسول الله ولم يخرجوا معه ، لا عن نفاق ولكن عن توانٍ ، ثمّ ندموا .

ولمّا قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة ، جاؤوا إليه واعتذروا ، فلم يكلّمهم النبيّ ، وتقدّم إلى المسلمين بأن لا يكلّمهم أحد منهم ؛ فهجرهم الناس كلّهم حتّى الصبيان . وجاءت نساؤهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقلن له : نعتزلهم ؟! فقال : لا ، ولكن لا يقربوكنّ .

فضاقت عليهم المدينة ؛ فخرجوا إلى رؤوس الجبال . وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ، ولا يكلّمونهم . فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ، فهلّا نتهاجر نحن أيضاً ؟ فتفرّقوا ، ولم يجتمع منهم اثنان . وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرّعون إلى الله ، ويتوبون إليه ، فقبل الله توبتهم ؛ وأنزل فيهم هذه الآية :

وَعَلَى الثّلَثَةِ الّذِينَ خُلّفُوا حَتّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنّوا أَن لّا مَلْجَأَ مِنَ اللَهِ إِلّآ إِلَيهِ ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنّ اللَهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيم [٢٤٩] .

قال الواقديّ : وقدم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة في رمضان سنة تسع [٢٥٠] . فقال : الحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا رَزَقَنَا فِي سَفَرِنَا هَذَا مِنْ أَجْرٍ وَحَسَنَةٍ وَمَنْ بَعْدَنَا شُرَكَاؤُنَا فِيهِ .

قالت عائشة : يا رسول الله ! أصابكم السفر وشدّة السفر ، وَمَن بعدكم شركاؤكم فيه ؟ !

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّ بِالمَدِينَةِ لَأَقْوَاماً مَا سِرْنَا مِنْ مَسِيرٍ وَلَا هَبَطْنَا وَادِيَاً إِلّا كَانُوا مَعَنَا ، حَبَسَهُمُ المَرَضُ ؛ أَوَ لَيْسَ اللَهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : «مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفّةً» [٢٥١] ؟ فَنَحْنُ غُزَاتُهُمْ وَهُمْ قَعَدَتُنَا [٢٥٢] . وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَدُعَاؤُهُمْ أَنْفَذُ فِي عَدُوّنَا مِنْ سِلَاحِنَا !

وجعل المسلمون يبيعون سلاحهم ويقولون : قد انقطع الجهاد . فجعل القويّ منهم يشتريها لفضل قوّته . ف (لمّا) بلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فنهاهم عن ذلك وقال : لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِن أُمّتِي يُجَاهِدُونَ عَلَى الحَقّ حَتّى يَخْرُجَ الدّجّالُ (٢٥٣) .

ومرض عَبْدُ اللَهِ بْنُ أُبَيّ في ليالٍ بقين من شوّال . ومات في ذي القعدة . وكان مرضه عشرين ليلة . وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوده فيها . فلمّا كان اليوم الذي مات فيه ، دخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهو يجود بنفسه . فقال : قَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ حُبّ اليَهُودِ . فقال عبد الله بن أُبَيّ : أبغضهم سَعْدُ بْنُ زُرَارَة ، فما نفعه !

ثمّ قال ابن أُبيّ : يَا رَسولَ اللَهِ ! ليس بحين عِتاب ! هو الموت . فإن متّ فاحضر غُسلي وأَعطِني قميصَك ، أُكفّن فيه ! فأعطاه الأعلى ــ وكان عليه قميصان ــ فقال : الذي يلي جلدك ! فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه ، ثمّ قال : صلّ عَلَيّ واستغفر لي !

وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حضر غُسله وكفّنه . ثمّ حُمل إلى موضع الجنائز . فتقدّم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليصلّي عليه (٢٥٤) .

فلمّا قام ، وثب إليه عمر بن الخطّاب فقال : يا رسول الله ! أتصلّي على ابن أُبيّ ، وقد قال يوم كذا كذا ، ويوم كذا كذا ؟ فعدّ عليه قوله .

فتبسّم رسول الله وقال : أَخّرْ عَنّي يَا عُمَرُ ! فلمّا أكثر عليه عمر ، قال (رسول الله) : إنّي قد خُيّرت فاخترت ؛ ولو أعلم أنّي إذا زدت على السبعين ، غُفِر له ، زدت عليها . وهو قوله عزّ وجلّ : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ ذَ لِكَ بِأَ نّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ وَاللَهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الفَسِقِينَ (٢٥٥) .

وقيل : إنّه قال : سأزيد على السبعين . فصلّى رسول الله ، ثمّ انصرف . فلم يكن إلّا يسيراً حتّى نزلت هذه الآية :

وَلَا تُصَلّ عَلَى أَحَدٍ مّنْهُم مّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ (٢٥٦) .

وكان مُجَمّع بْنُ جَارِيَة يقول : ما رأيت رسول الله أطال على جنازة قطّ ما أطال عليها من الوقت ، ثمّ خرجوا حتّى انتهوا إلى قبره .

فكان عَمْرُو بْنُ أُمَيّة الضّمْرِيّ يقول : لقد جَهدِنا أن ندنو من سريره ، فما نقدر عليه . قد غلب عليه هؤلاء المنافقون وكانوا قد أظهروا الإسلام ، وهم على النفاق . من بني قينقاع وغيرهم كسَعْدِ بْنِ حُنَيْفٍ وَزَيْدِ بْنِ اللّصيْتِ وَسَلَامَة بْنِ الحُمَامِ وَنُعْمَانِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَرَافِعِ بْنِ حَرْمَلَة وَمَالِكِ بْنِ أَبِي نَوْفَلٍ وَدَاعِسٍ وَسُوَيْدٍ . وكانوا أخابث المنافقين ، وكانوا هم الذين يعرّضونه .

وكان ابنه عبد الله (سمّاه رسول الله عبد الله) ليس شيء أثقل عليه ولا أعظم من رؤيتهم . (وكان هذا الابن من خواصّ عبد الله) ، ويغلق دون المنافقين الباب . وكان عبد الله بن أُبيّ يقول : لا يليني غيرهم ، ويقول (لابنه) : أنت والله أحبّ إليّ من الماء على الظّمَأ ! و (كان المنافقون) يقولون (له) : ليت أنّا نفديك بالأنفس ، والأولاد ، والأموال ، (ولم تكن متّ!) ولمّا وقفوا على حفرته ، ورسول الله صلىّ الله عليه وآله وسلّم واقف يلحظهم ، ازدحموا على النزول في حفرته ، وارتفعت الأصوات حتّى أُصيب أنف داعِس ؛ وجعل عُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ يذبّهم ويقول : اخفضوا أصواتكم عند رسول الله . حتّى أُصيب أنف داعس فسال الدم . وكان يريد أن ينزل في حفرته ، فنُحّي ، ونزل رجال من قومه ، أهل فضلٍ وإسلام . وكان لمّا رأوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من الصلاة عليه وحضوره ، ومن القيام عليه ، فنزل في حفرته ابنه عَبْدُ اللَهِ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَة بْنُ الصّامِتِ وَأَوْسُ بْنُ خَوْلى حتّى سُوّي عليه (قبره) . وإنّ عِلْيَة أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والأكابر من الأوس والخزرج يُدلونه في اللّحد ، وهم قيام مع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . وكان رسول الله قد وقف على قبره حتّى دُفن ، وعزّى ابنَه ، وانصرف .

وكان عَمْرُو بْنُ أُمَيّة يقول : ما لقى عليه أصحابه هؤلاء المنافقون ؟! فهم من جهة يَحثون عليه الترابَ في القبر ، (ومن جهة أُخرى) يقولون : يا ليت أنّا فديناك بالأنفس ؛ وكنّا متنا قبلك ، وهم يحثون التراب على رؤوسهم . فكان الذي يحسن أمره يقول : الخزرج قوم أهل فقر ، وكان يحسن إليهم [٢٥٧] .

وفي تفسير «الدرّ المنثور» بعد كلام رسول الله لعمر : أخّر عنّي يا عمر ! قال عمر : صلّى عليه رسول الله ، ومشى في جنازته ، حتّى قام على قبره ، وفرغ منه فَعَجِبْتُ لِي وَلِجُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ، وَاللَهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ [٢٥٨] .

وروى في «الدرّ المنثور» أيضاً عن ابن أبي حاتم ، عن الشعبيّ (قال) إنّ عمر بن الخطّاب : قال : لَقَدْ أَصَبْتُ فِي الإِسْلَامِ هَفْوَةً مَا أَصَبْتُ مِثْلَهَا قَطّ . أراد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يصلّي على عَبْدِ اللَهِ بْنِ أُبَيّ ، فأخذتُ بثوبه ، فقلتُ : والله ما أمرك الله بهذا . لقد قال الله : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِر لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ . وقال رسول الله : قد خيّرني ربيّ فقال : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» ! فقعد رسول الله على شفير القبر ؛ فجعل الناس يقولون لابنه عبد الله : يا حُبَاب ! افعل كذا ! يا حُبَاب! افعل كذا ! فقال رسول الله : الحُباب اسم الشيطان . أنت عَبْدُ اللَهِ [٢٥٩] .

وقال الشيخ الطبرسيّ : نهى الله سبحانه نبيّه عن الصلاة على المنافقين وقال : لَا تُصَلِ عَلَى أَحَدٍ مّنْهُم مّاتَ أَبَداً ، لأنّه كان يصلّي عليهم ويجري عليهم أحكام المسلمين . وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ .

(إذ كان) إذا صلّى على ميّت ، يقف على قبره ساعة ويدعو له . فنهاه الله تعالى عن الصلاة على المنافقين ، والوقوف على قبورهم والدعاء لهم . ثمّ بيّن سبحانه سبب الأمرين (الصلاة والدعاء) فقال : إنّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . فما صلّى رسول الله بعد ذلك على منافق ، حتّى قبض .

وفي هذه الآية وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ دلالة على أنّ القيام على القبر للدعاء عبادة مشروعة . ولولا ذلك ، لم يخصّ الله سبحانه بالنهي عنه الكافر .

وروي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على عبد الله بن أُبيّ ، وألبسه قميصه قبل أن ينهى عن الصلاة على المنافقين . عن ابن عبّاس ، وجابر ، وقتادة .

وروي عن أنس ، والحسن أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أراد أن يصلّي عليه فأخذ جبرائيل بثوبه ، وتلا عليه : وَلَا تُصَلِ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مّاتَ أَبَداً .

وروي أنّه قيل لرسول الله : لِمَ وجهت بقميصك إليه يكفن فيه ، وهو كافر ؟! فقال : إِنّ قَمِيصِي لَنْ يُغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَهِ شَيْئَاً . وإنّي أُؤمّل من الله أن يدخل بهذا السبب في الإسلام خلق كثير .

فروي أنّه أسلم ألف من الخزرج لمّا رأوه يطلب الاستشفاء [٢٦٠] بثوب رسول الله . ذكر الزجّاج ذلك وقال : والأكثر في الروايات أنّه لم يصلّ عليه [٢٦١] .

وجاء في تفسير «عليّ بن إبراهيم» : لمّا رجع رسول الله إلى المدينة ، ومرض عبد الله بن أُبيّ ؛ وكان ابنه عبد الله مؤمناً ، جاء (الابن) إلى رسول الله وأبوه يجود بنفسه ، فقال : يا رسول الله ! بأبي أنت وأُمّي ! إنّك إن لم تأت أبي ، كان ذلك عاراً علينا !

فدخل (رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعيادته ، والمنافقون عنده . فقال ابنه عبد الله : (يا رسول الله !) فاستغفر له ! فقال عمر : ألم ينهك الله يا رسول الله أن تصلّي عليهم أو تستغفر لهم ؟! فأعرض عنه رسول الله . فأعاد عليه .

فقال له رسول الله : وَيْلَكَ! إنّي خيّرت فاخترتُ . إنّ الله يقول : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ .

ولمّا مات ابن أُبيّ ، جاء ابنه إلى رسول الله ، فقال : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ! إن رأيت أن تحضر جنازته ! فحضره رسول الله وقام على قبره .

فقال عمر : يا رسول الله ! ألم ينهك الله أن تصلّي على أحد منهم مات أبداً وأن تقوم على قبره ؟! فقال له رسول الله : وَيْلَكَ ! وهل تدري ما قلتُ ؟ إنّمَا قُلْتُ : اللَهُمّ احْشُ قَبْرَهُ نَاراً وَجَوْفَهُ نَاراً وَأَصْلِهِ النّارَ . فبدا من رسول الله ما لم يحبّ [٢٦٢] .

وذكر العيّاشيّ في تفسيره هذه الرواية قريباً من هذا المضمون عن زرارة ، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام [٢٦٣] .

ونقل في رواية أُخرى عن حنان بن سدير ، عن أبيه ، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام ، قال : مات رجل من المنافقين . فبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على أبيه [٢٦٤] وقال : إذا فرغت منه ، فأعلمني . فلمّا عزم على التحرّك ، أرسل وراء رسول الله ، فجاء ، وأخذ بِيَدِ ابنه في الجنازة ، ومضى . فتصدّى له عمر وقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَمَا نَهَاكَ رَبّكَ عَنْ هَذَا ، أَنْ تُصَلّي عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدَاً ، أَوْ تَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ ؟! فلم يجبه .

ولمّا كان قبل أن ينتهوا به إلى القبر ، أعاد عمر كلامه أيضاً . فقال له رسول الله : ما رأيتنا صلّينا له على جنازة ، ولا قمنا على قبر ! ثمّ قال : إنّ ابنه رجل من المؤمنين وكان يحقّ علينا أداء حقّه . وقال عمر : أعوذ بالله من سخط الله وسخطك يا رسول الله [٢٦٥] .

وقال الفيض الكاشانيّ رضوان الله عليه بعد بيان هاتين الروايتين [٢٦٦] في تفسير «الصافي» : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيّياً كريماً ، كما قال الله عزّ وجلّ : فَيَسْتَحيِ مِنكُمْ وَاللَهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِ [٢٦٧] . فكان يكره أن يفتضح رجل من أصحابه ممّن يظهر الإيمان ؛ (فلهذا) كان يدعو على المنافقين ويورّي أنّه يدعو لهم . وهذا معنى قوله لعمر : ما رأيتنا صلّينا له على جنازة ولا قمنا على قبر ! وكذا معنى قوله في حديث القمّيّ : خيّرت فاخترت الاستغفار .

إلى أن قال : إن صحّ حديث القمّيّ ، (فإنّه) لم يستند إلى المعصوم ؛ والاعتماد على حديث العيّاشيّ هنا أكثر منه على حديث القمّيّ ، لاستناده إلى قول المعصوم دونه ، لانّ سياق كلام القمّيّ تارة يدلّ على أنّه كان سبب نزول الآية قصّة ابن أُبيّ ؛ وأُخرى تدلّ على نزولها قبل ذلك . وفي كتاب « الكافي » عن الإمام الصادق عليه السلام : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يكبّر على قومٍ خمساً وعلى قوم آخرين أربعاً . فإذا كبّر على رجل أربعاً ، اتّهم ، يعني بالنفاق . وفيه أيضاً وفي تفسير العيّاشيّ عنه عليه السلام : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا صلّى على ميّت كبّر وتشهّد ؛ ثمّ كبّر وصلّى على الأنبياء ؛ ثمّ كبّر ودعا للمؤمنين ؛ ثمّ كبّر الرابعة ودعا للميّت ؛ ثمّ كبّر وانصرف . فلمّا نهاه الله عزّ وجلّ عن الصلاة على المنافقين ، كبّر وتشهّد ؛ ثمّ كبّر وصلّى على النبيّين ؛ ثمّ كبّر ودعا للمؤمنين ؛ ثمّ كبّر الرابعة وانصرف ولم يدع للميّت [٢٦٨] .

وَأَمّا أُسْتَاذُنَا العَلّامَة الطّبَاطَبَائِيّ قدّس الله سرّه ، فقد تعرّض لهذا الموضوع في موضعين :

الأوّل : في ذيل الآية الكريمة : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ . التردّد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل والترك ؛ أي :

أنّ فعل الاستغفار لغو ، ولا فائدة فيه كقوله تعالى : قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يُتَقَبَّلْ مِنكُمْ (٢٦٩) .

فالمعنى : أنّ هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها ، لأنّ طلبها لهم لغو لا أثر له .

وقول الله تعالى:

إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

تأكيد لما ذكر قبله من لغويّة الاستغفار لهم ؛ وبيان أنّه طبيعة المغفرة لا تنالهم البتة سواء سئلت المغفرة في حقّهم أم لم تسأل ، وسواء كان الاستغفار مرّة أم مرّات قليلاً أم كثيراً . فذكر السبعين كناية عن كثرة الاستغفار ، من غير أن تكون هناك خصوصيّة للعدد حتّى يكون الواحد والاثنان من الاستغفار ، حتّى يبلغ السبعين غير مؤثر في حقّهم . فإذا جاوز السبعين أثّر أثره . ولذلك علّله بقوله : ذَ لِكَ بِأَ نّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ . أي : أنّ المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله ، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار ، ولا وجوده واحداً أو كثيراً ، فهم على كفرهم . واستعمال السبعين في الكثرة المجرّدة عن الخصوصيّة كاستعمال المائة والألف فيها كثير في اللغة (٢٧٠) .

وقال في البحث الروائيّ : وفي «الدرّ المنثور» أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أنّ عَبْدَ اللَهِ بْن أُبَيّ قال لأصحابه : لولا أنّكم تنفقون على محمّد وأصحابه ، لانفضّوا من حوله ، و هو القائل : لَيُخْرِجَنّ الأَعَزّ مِنْهَا الأَذَلّ (٢٧١) .

يريد من الأعزّ نفسه ، والأذل رسول الله [والعياذ بالله] . فأنزل الله (هذه الآية) : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ (٢٧٢) .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لأزيدنّ على السبعين ، فأنزل الله:

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ (٢٧٣) .

وقال بعد ذكر روايتين أُخريين بهذا المضمون بسندين آخرين عن «الدرّ المنثور» : ممّا لا ريب فيه أنّ هذه الآيات ممّا نزلت في أواخر عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ وقد سبقتها في النزول السور المكّيّة عامّة وأكثر السور والآيات المدنيّة قطعاً . وممّا لا ريب فيه لمن يتدبّر كتاب الله لا رجاء في نجاة الكفّار والمنافقين ، وهم أشدّ منهم إذا ماتوا على كفرهم ونفاقهم ؛ ولا مطمع في شمول المغفرة الإلهيّة لهم ، فهناك آيات كثيرة مكّيّة ومدنيّة صريحة قاطعة في ذلك .

والنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أجلّ من أن يخفى عليه ما أنزل الله إليه ؛ أو أن لا يثق بما وعدهم الله من العذاب المخلّد وعداً حتميّاً ، فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى والإلحاح في طلب الغفران لهم .

أو أن يخفى عليه أنّ التردّد في الآية لبيان اللغويّة ؛ وأن لا خصوصيّة لعدد السبعين حتّى يطمع في مغفرتهم لو زاد على السبعين .

وليت شعري : ماذا يزيد قوله تعالى في سورة المنافقون : «سواء أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنّ الله لا يهدى القوم الفاسقين» على قوله تعالى في سورة التوبة : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنّهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين» ؟! وقد علّل الله سبحانه نفي المغفرة نفياً مؤبدّاً فيهما بأنّهم فاسقون ، والله لا يهدي القوم الفاسقين .

فقد تلخّص أنّ هذه الروايات وما في معناها موضوعة يجب طرحها [٢٧٤] .

وقال بعد ذلك : قوله في الروايات التي لم تذكر عدم الاستغفار في سورة (المنافقون) وذكرته في سورة التوبة ، كالرواية الواردة في «الدرّ المنثور» إذ قال رسول الله لعمر بعد هذه القضيّة : أَخّرْ عَنّي يَا عُمَرُ إِنّي قَدْ خُيّرْتُ ؛ قَدْ قِيلَ لِي : «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً» ، فَلَوْ أَعْلَمُ أَنّي زِدْتُ عَلَى السّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ ، زِدْتُ عَلَيْهَا ، صريح في أنّه كان آئساً من شمول المغفرة له ، وهو يشهد بأنّ المراد من قوله : «إنّي قد خيّرت قد قيل لي : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» أنّ الله قد ردّد الأمر ؛ ولم ينهه عن الاستغفار ؛ لا أنّه خيّره بين الاستغفار وعدمه تخييراً حقيقيّاً حتّى ينتج تأثير الاستغفار في حصول المغفرة أو رجاء ذلك .

ومن ذلك يُعْلَمْ أنّ استغفاره لعبدالله بن أُبيّ ، وصلاته عليه ، وقيامه على قبره إن ثبت شيء من ذلك ، لم يكن شيء من ذلك لطلب المغفرة والدعاء له جدّاً كما جاء في رواية عليّ بن إبراهيم القمّيّ [٢٧٥] .

الثاني في ذيل الآية الكريمة:

وَلَا تُصَلّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ [٢٧٦] .

نهى (الله النبيّ) عن الصلاة لمن مات من المنافقين ، والقيام على قبره . وقد علّل النهي بأنّهم كفروا وفسقوا وماتوا على فسقهم .

وقد علّل لغويّة الاستغفار لهم في قوله تعالى السابق (في الآية ٨٠ ، من السورة ٩ : التوبة) «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» . وكذا في قوله (في الآية ٦ ، من السورة ٦٣ : المنافقون) «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنّ الله لا يهدى القوم الفاسقين» .

ويتحصّل من الجميع أنّ من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به ، فلا سبيل له إلى النجاة يهتدي به ؛ وأنّ الآيات الثلاث جميعاً تكشف عن لغويّة الاستغفار للمنافقين ، والصلاة على موتاهم ، والقيام على قبورهم للدعاء لهم [٢٧٧] .

وذكر في البحث الروائيّ روايات عن «الدرّ المنثور» بتخريج البخاريّ ، ومسلم ، وابن أبي حاتم ، وابن أبي منذر ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقيّ في «دلائل النبوّة» ، وكذلك بتخريج البخاريّ ، وأحمد ، والترمذيّ ، والنسائيّ ، وابن أبي حاتم ، والنحّاس ، وابن حبّان ، وابن مردويه ، وأبي نُعَيم في «حلية الأولياء» ، ذكر هؤلاء أنّ عبد الله بن أُبيّ لمّا مات ، دُعي رسول الله للصلاة عليه ، فأخذ عمر بن الخطّاب بثوب رسول الله فقال : ألم ينهك الله عن الصلاة على المنافقين ؟

قال رسول الله : إنّي خُيّرتُ ... وأنا أستغفر له أكثر من سبعين مرّةً !

قال عمر : إنّه منافق . وصلّى عليه رسول الله ونزلت الآية وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ ، فترك رسول الله الصلاة على المنافقين . وقال العلّامة الطباطبائيّ بعد ذكر عدد من الروايات الأُخرى القريبة من هذا المضمون : وقد ورد استغفار رسول الله لعبد الله بن أُبيّ وصلاته عليه في بعض المراسيل من روايات الشيعة أوردها العيّاشيّ والقمّيّ في تفسيريهما .

«وهذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض والتدافع واشتمالها على التعارض فيما بينها ، تدفعها الآيات الكريمة دفعاً بيّناً لا مرية فيه .

أمّا أوّلاً فلظهور قوله تعالى : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ ظهوراً بيّناً في أنّ المراد بالآية بيان لغويّة الاستغفار للمنافقين دون التخيير ، وأنّ العدد (سبعين) جيء به لمبالغة الكثرة لا لخصوصيّة في السبعين بحيث ترجى المغفرة مع الزائد على السبعين . والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أجلّ من أن يجهل هذه الدلالة فيحمل الآية على التخيير ثمّ يقول سأزيد على سبعين ثمّ يذكّره غيره بمعنى الآية فيصرّ على جهله حتّى ينهاه الله عن الصلاة وغيرها بآية أُخرى ينزّلها عليه .

على أنّ جميع هذه الآيات المتعرّضة للاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم كقوله : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وقوله : لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ تعلّل النهي واللغويّة بكفرهم وفسقهم ، حتّى قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَبُ الْجَحِيمِ [٢٧٨] ينهى عن الاستغفار معلّلاً ذلك بالكفر وخلود النار . وكيف يتصوّر مع ذلك جواز الاستغفار لهم والصلاة عليهم ؟

وثانياً : أنّ سياق الآيات التي منها قوله وَلَا تُصَلِ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا صريح في أنّ هذه الآية إنّما نزلت والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في سفره إلى تبوك ولمّا يرجع إلى المدينة ، وذاك في سنة ثمان (من الهجرة) ؛ وقد وقع موت عبد الله بن أُبيّ بالمدينة سنة تسع من الهجرة . كلّ ذلك مسلّم من طريق النقل .

فما معنى قوله في هذه الروايات : أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صلّى على عبد الله (بن أُبيّ) وقام على قبره ، ثمّ أنزل الله عليه : وَلَا تُصَلّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مّاتَ أَبَداً ؟!

وأعجب منه ما وقع في بعض الروايات السابقة أنّ عمر قال للنبيّ : أتصلّي على عبد الله بن أُبيّ وقد نهاك (الله) عن الصلاة للمنافقين ؟ فقال (رسول الله) إنّ ربّي خيّرني ؛ ثمّ أنزل الله : وَلَا تُصَلّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم .

وأعجب منه ما في الرواية الأخيرة من نزول قوله : سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ والآية من سورة (المنافقون) (وقد نزلت بعد الآية الواردة في سورة التوبة استَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . والجميع يعلم أنّها) نزلت بعد غزوة بني المصطلق ، وكانت في سنة خمس ، وعبد الله بن أُبيّ حيّ عندئذٍ . وقد حكي في السورة قوله : لَئِن رّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ مِنْهَا الْأَذَلّ .

وقد اشتمل بعض هذه الروايات وتعلّق به بعض من انتصر لها على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّما استغفر وصلّى على عبد الله بن أُبيّ ليستميل قلوب رجال منافقين من الخزرج إلى الإسلام . وكيف يستقيم ذلك ؟ وكيف يصحّ أن يخالف النبيّ النصّ الصريح من الآيات استمالة لقلوب المنافقين ومداهنة معهم ؟ وقد هدّده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله : إِذًا لّأَذَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ [٢٧٩] . فالوجه أنّ هذه الروايات موضوعة يجب طرحها بمخالفة الكتاب [٢٨٠] .

وأقول : لا ريب في التناقض الوارد في معنى ومضمون الروايات الواردة في هذه القصّة كما قال أُستاذنا الكريم أفاض الله علينا من بركات تربته . بَيدَ أنّ أصل استغفار النبيّ لعبد الله بن أُبيّ ، وصلاته عليه ، واعتراض عمر عليه من القضايا الثابتة في التأريخ تقريباً . ولا يمكن تجاهل هذه القضيّة مع غضّ النظر عمّا علق بها من حواشٍ وزوائد . ونقول لتوضيح هذه الحقيقة :

من الضروريّات المستفادة من القرآن والسنّة أنّ الكافرين الذين يموتون على كفرهم وشركهم لا منجى لهم . ولا ينفعهم الاستغفار بعد الموت ، بل لا مسوّغ له شرعاً ، وورد النهي عنه . ولا ينبغي للمسلمين أن يستغفروا للمشركين ، أو يصلّوا عليهم ، أو يقيموا على قبورهم للاسترحام . وبالعكس ، ينبغي أن يستغفروا للمسلمين ويصلّوا عليهم ، ويتعاملوا معهم في كلّ أمر من أُمور الزواج ، والمعاملات ، ومراسم التكفين والدفن وغيرها وفقاً للتعاليم الإسلاميّة سواء كانوا مؤمنين في باطنهم ، أم منافقين لم يؤمن باطنهم ، لكنّهم لم تجر على ألسنتهم كلمة الارتداد والكفر ، ولم يثبت حكم الحاكم الإسلاميّ بكفرهم .

لذلك يتأ لّف الصفّ الإسلاميّ الطويل من المؤمنين الحقيقيّين والمنافقين الذين أضمروا النفاق في قلوبهم في مقابل المشركين . وينبغي التعامل مع هذا الصفّ الطويل بحكم

المسلمين في جميع الشؤون المتعلّقة بالعبادات والمعاملات والسياسات والأحكام كما ينظر إلى أفراده على أنّهم مسلمون . وإن بدت عليهم آثار النفاق ، بَيدَ أنّها لم تثبت .

إنّ كلّ من شهد الشهادتين فهو مسلم ، ويحرم دمه وماله وعرضه . وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تحترمه ، وتتعامل معه في جميع الأُمور كإنسان مسلم .

إنّ الآية مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَبُ الْجَحِيمِ (٢٨١)

تخصّ المشركين لا المنافقين الذين لم يثبت كفرهم وشركهم عند الحاكم الإسلاميّ . فهذه الشريحة من المنافقين مسلمون .

ورأينا أخيراً أنّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ عندما طلب من النبيّ قتل منافقي العقبة الذين أرادوا الفتك به ، قال له رسول الله : ألم يقرّوا بالتوحيد ويشهدوا بنبوّتي ؟! قال : نعم ! قال : نهاني الله عن قتل هؤلاء .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعامل مع عبد الله بن أُبيّ وسائر المنافقين كمسلمين وإن كانوا من أخبث الأشخاص . فكان يأخذ الزكاة من أغنيائهم ؛ ويدفع الزكاة لفقرائهم . ويطبّق عليهم كافّة الأحكام الإسلاميّة الحربيّة والسلميّة كالمسائل المتعلّقة بالحرب وتقسيم الغنائم .

واستمرّ هذا العمل حتّى غزوة بني المصطلق ، إذ خرج عبد الله بن أُبيّ مع رسول الله من المدينة في السنة الخامسة من الهجرة ، وقال لأصحابه ما قال سرّاً من غير أن يحضر أحد من أصحاب رسول الله ، وأساء الأدب إلى رسول الله بكلماته البذيئة المشينة المذكورة في سورة (المنافقون) . ولم يُخبر رسول الله بخبره إلّا زيد بن أرقم الذي كان صغيراً بين الخزرج الذين كان عبد الله من وجهائهم وأشرافهم . وأنكر عبد الله ذلك بتمام معنى الكلمة ، وحلف إنّه لم يقل ، وإنّ زيداً يكذب ، حتّى نزلت تلك الآيات المذكورة في سورة (المنافقون) .

ومنها قوله:

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ إِنّ اللَهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَسِقِينَ.

أي : يا أيّها النبيّ لا تشقّ على نفسك كثيراً من أجل المنافقين ، ولا تطلب لهم الخير ولا تستغفر لهم ! إنّهم كذا وكذا ، وتذهب أتعابك ، ومعاناتك من أجلهم ، وعشقك الفيّاض لهدايتهم أدراج الرياح . فقد ران الشقاء على قلوبهم ، وليس فيها نافذة أمل ، وقد أوصدوا طريق الهداية بوجوههم نتيجة لسوء اختيارهم ، ولا تشملهم مغفرة الله .

ولا نقرأ أيضاً في سورة (المنافقون) حكماً بكفر عبد الله بن أُبيّ . فالعبارات الواردة هي من قبيل :

إِنّ الْمُنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ، إِنّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ، قَاتَلَهُمُ اللَهُ أَنّى يُؤْفَكُونَ ، وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ ، إِنّ اللَهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَسِقِينَ ، وَلَكِنّ الْمُنَفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ، وَلَكِنّ الْمُنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

فالله يذكر هؤلاء . ومن المعلوم أنّه لا يُحْكَمُ بكفر أحد من خلال هذه العبارات ، فيجعل في زمرة المشركين ويخلّد في النار من حيث الحكم الظاهر للإسلام .

وأمّا الآية:

سَوَآءٌ عَلَيهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ،

فهي لا تنهى عن الاستغفار ، بل تفيد أنّ الاستغفار لا فائدة فيه لهؤلاء . ولا تتعب نفسك ولا تشقّ عليها من أجلهم . ولا تترك راحتك واستراحتك ونومك وطعامك لهدايتهم ! كما تفيد الآية السادسة من السورة الثانية : البقرة:

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

والآية العاشرة من السورة ٣٦ : يس :

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

ومن الطبيعيّ أنّ أمثال هذه الآيات لا تفيد أنّ هداية الكفّار حرام عليك أيّها النبيّ ، وأنّ الله نهاك عن ذلك ، بل تفيد أنّ عمل هؤلاء قد تجاوز حدّه ، وأنّ إنذارك لهم لا يثمر ، فلماذا تزعج نفسك بهذا الحجم ؟ ولماذا تعاني وتقاسي إلى هذا الحدّ ؟ ولماذا تسخّر وجودك كلّه لإرشادهم ؟

إنّا أرسلناك للإبلاغ . وما عليك إلّا البلاغ . ولست مسؤولاً عن ذنوب أُولئك وشركهم !

فَهَلْ عَلَى الرّسِلِ إِلّا الْبَلَغُ الْمُبِينُ (٢٨٢) .

فَإِن تَوَلّوْا فَإِنّمَا عَلَيْكَ الْبَلَغُ الْمُبِينُ (٢٨٣) .

وَمَا عَلَى الرّسُولِ إِلّا الْبَلَغُ الْمُبِينُ (٢٨٤) .

فيبلغ ما يُوحَى إليه .

طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى إِلّا تَذْكِرَةً لّمَن يَخْشَى (٢٨٥) .

فَذَكّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٢٨٦) .

وَذَكّرْ فَإِنّ الذّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٢٨٧) .

فَذَكّرْ إِن نّفَعَتِ الذّكْرَى (٢٨٨) .

فَذَكّرْ إِنّمَآ أَنتَ مُذَكّرٌ * لّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٨٩) .

فهذه الآيات كلّها تفيد أنّ مهمّتك ــ أيّها النبيّ ــ التذكير . قم بعملك ، ولا شغل لك بإيمانهم وكفرهم الحقيقيّين ! فذلك ليس بيدك ، بل بِيَدِ الله . ولا تعذّب نفسك في تبليغ أحكامه ؛ ولا تزهقها ! ولا تأسَ على شركهم وكفرهم ؛ ولا تشفق عليهم !

وأكثر هذه الآيات وضوحاً وصراحة هي الآية السادسة ، من السورة ١٨ : الكهف:
فَلَعَلّكَ بَخِعٌ نّفْسَكَ عَلَى ءَاثرِهِمْ إِن لّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا .
ومثلها الآية الثالثة ، من السورة ٢٦ : الشعراء :
لَعَلّكَ بَخِعٌ نّفْسَكَ أَلّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

وكان النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعامل مع المنافقين بنفس الحكم الإسلاميّ العامّ الذي يتعامل به مع المسلمين ، إلى أن مات عبد الله بن أُبيّ ، ثمّ نزلت الآيات الواردة في سورة التوبة بعد أن صلّى على جنازته واستغفر له ، وأمرته تلك الآيات أن لا يصلّي على أحد منهم ، ولا يقيم على قبره ، لأنّهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون : وَلَا تُصَلِ عَلَى أَحَدٍ مّنْهُمْ مّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ . ونلحظ هنا حكماً بكفر عبد الله بن أُبيّ ونظائره ، ونهياً للنبيّ عن الصلاة عليهم ! وكذلك حكمت الآية الكريمة الآتية بكفر المنافقين : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَهُ لَهُمْ ذَ لِكَ بِأَ نّهُمْ كَفَرُوا بِاللَهِ وَرَسُولِهِ وَاللَهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الفَسِقِينَ . وقد نزلت هذه الآية فيما بعد ، وفي ضوئها لم يعد الاستغفار لهم مفيداً ، بل أصبح محظوراً .

هاتان الآيتان كلتاهما في سورة التوبة (الأُولى هي الآية ٨٤ ، والثانية هي الآية ٨٠) ونزلت هذه السورة في غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة . واستغرقت ثلاثة أشهر من السنة المذكورة اعتباراً من رجب إلى شهر رمضان ؛ وتوفّي عبد الله بن أُبيّ في ذي العقدة من السنة المشار إليها . ومن الثابت أنّ القرائن والشواهد المتحصّلة تفيد أنّ هاتين الآيتين نزلتا بعد موت ابن أُبيّ .

ومعنى قولهم : إنّ سورة التوبة نزلت في غزوة تبوك ، هو أنّها نزلت في تلك الأيّام والشهور التي سبقتها وتلتها ، لا أنّ آياتها كلّها نزلت في تلك السفرة ؛ إذ إنّ من الواضح أنّ الآيات التي تعبّئ الناس وتحثّهم على السفر ، لابدّ أن تنزل قبل السفر ، كالآية الكريمة :

يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ (الآية ٣ ٣٨)

والآية الكريمة:
إِلّا تَنفِرُوا يُعَذّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ (الآية ٣٩)
والآية الكريمة:
انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَهِدُوا بِأَمْوَ لِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَهِ (الآية ٤١) .
اللَهِ (الآية ٤١) .

ومن الواضح أيضاً أنّ الآيات الواقعة في أوائل السورة كانت بعد سفر تبوك . كالآيات الكريمة الآتية:

بَرَآءَةٌ مّنَ اللَهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الّذِينَ عَهَدْتّم مّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاَعْلَمُوا أَنّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَهِ وَأَنّ اللَهَ مُخْزِى الْكَفِرِينَ * وَأَذَ نٌ مّنَ اللَهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الحَجّ الْأَكْبَرِ أَنّ اللَهَ بَرِىءٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ

إلى الآية ٣٧:

إِنّمَا النّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلّ بِهِ الّذِينَ كَفَرُوا .

إنّ جميع هذه الآيات النازلة في سياق واحد ، نزلت في ذيالقعدة من هذه السنة ، وهي تخاطب المشركين في مكّة ومناطقها . وقد بعث رسول الله في بادئ الأمر أبا بكر لقراءتها على المشركين في موسم الحجّ بمكّة . ثمّ عزله بأمر الله واختار أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين للقيام بهذه المهمّة . فأخذها الإمام عليه السلام من أبي بكر وتوجّه إلى مكّة وقرأها على المشركين في موسم الحجّ بمنى .

أجل ، يتحصّل ممّا ذكرنا ما يأتي : أوّلاً : كان استغفار رسول الله وصلاته آنذاك قبل نزول هاتين الآيتين اللتين حكمتا بكفر المنافقين . وكان على رسول الله يومئذٍ أن يصلّي على كلّ مسلم ظاهر الإسلام ويستغفر له ، وفقاً للحكم العامّ .

ثانياً : كان عمله صلّى الله عليه وآله غير مخالف للقرآن ، ذلك أنّ النهي عن الصلاة ، والوقوف على القبر ، ولغويّة الاستغفار لكفرهم ، كلّ أُولئك كان بعد وفاة ابن أُبيّ ، وصلاة رسول الله عليه ، وقيامه على قبره ، واستغفاره له .

ثالثاً : كان اعتراض عمر على النبيّ ومنعه من الصلاة خطأً محضاً وخبطاً صرفاً ؛ إذ لم ينزل حكم بعدم الصلاة بعدُ . وأنّ ما نراه في بعض روايات العامّة أنّ عمر قال للنبيّ : ألم ينهك الله عن الصلاة على المنافقين ؟ كلام موضوع ، مضافاً إلى أنّه يغاير ما ورد في بعض الروايات التي نقلوها ، ومنها هذه الرواية التي تذكر أنّ رسول الله لم يبتعد كثيراً عن المدينة بعدُ ، حتّى نزلت هذه الآية:

وَلَا تُصَلّ عَلَى أَحَدٍ مّنْهُم مّاتَ أَبَدًا .

بأيّ إذن شرعيّ أو مسوّغ عقليّ يقف عمر بوجه رسول الله ويحول دون تحقيق ما يريد ؟ وكيف يتجرّأ فيجرّ ثوب رسول الله ويمنعه على مرأى ومسمع آلاف المجتمعين من كبار الأنصار من طائفة الأوس والخزرج في وقت قد تقدّم فيه رسول الله ووقف على الجنازة من أجل الصلاة ؟ وبعد أن قال له رسول الله : أَخّرْ عَنّي يَا عُمَرُ ! لم يعتنِ ، وقال : فعل ابن أبيّ في اليوم الفلانيّ كذا وكذا ، فلا تُصلّ عليه !

ولو أراد رسول الله العمل بهذه الأقوال ، فإنّ أوّل من يستحقّ المحاكمة هو عمر لما صدر منه أمام الملأ المجتمعين ، إذ تقدّم أمام رسول الله ، ومنعه من الصلاة .

هل أنت نبيّ يا عمر ؟ أو أنت جبرائيل ؟ هل أنت الآمر يا عمر ، ورسول الله المأمور ؟ !

يضاف إلى ذلك كلّه ، هل حُمّلت يا عمر إصر عبد الله بن أُبيّ ، وتخاف أن لو غُفر له ، فإنّ آصاره تقع عليك ؟ وهل يخطأ رسول الله وهو صاحب المقامات والدرجات العظيمة ، وأنت لا تخطأ ، وتزعم أنّك تفهم ؟ وهل كان أمره خلطاً وخبطاً ، وأمرك صحيحاً صائباً مستقيماً ؟ فلهذا نرى في بعض روايات العامّة أنّه يعترف بتقصيره ، ويعدّ عمله هذا هفوة . ونقرأ في بعضها الآخر أنّه يعجب من جرأته على رسول الله ، وكأنّه يقول : كيف تجرّأْتُ ووقفتُ أمام رسول الله ، ومنعته ، وجذبت ثوبه ؟!

وهنا تسجّل مدرسة الشيعة مؤاخذتها على هذه الأعمال بجدّ وصراحة . وترى أنّ هذا الشخص المنتهك غير خليق بالخلافة . وتعتقد أنّه عادٍ ، متجاوز ، غاصب ، وذلك لانتهاكاته الكثيرة ، كهذا الانتهاك ، وانتهاكه الآخر وهو أشدّ وأنكى إذ تفوّه بكلمته الشهيرة ، ورسول الله يحتضر ، فقال : « إنّ الرجل ليهجر ! » وانتهاكه الثالث بعد وفاة النبيّ الأعظم ، إذ أخذ أمير المؤمنين إلى المسجد ، وهو شاهر سيفه ليرغمه على البيعة والتسليم لأفكاره وآرائه ، وأفكار أعوانه وآرائهم . وتذهب المدرسة المذكورة إلى أنّ الخلافة والإمامة حقّ الإمام المعصوم والنائب الحقيقيّ لرسول الله .

أجل ، إنّنا نتصوّر أنّ جميع المهاجرين والأنصار كانوا عباداً مطيعين لأمر رسول الله ، وكانوا ينتظرون صدور الأمر منه فحسب ، فيسرعوا إلى تنفيذه بأنفسهم وقلوبهم . لا ، ليس كذلك . فقد كان كثير منهم عتاة متمرّدين ذوي توجّهات عدوانيّة منتهكة ، ولم يشكروا الله ورسوله على إسلامهم ، إذ هاجر رسول الله من مكّة إلى المدينة ، وواجه المصاعب والشدائد من أجل إرشادهم وإغاثتهم وهدايتهم ، بل كانوا يمنّون على رسول الله أنّهم أسلموا ، وأنّ الأنصار آووا المهاجرين ، وأنّهم الذين فعلوا كذا وكذا من الأعمال . ولولا ذلك الخلق المحمّديّ الرفيع الذي نطق به القرآن الكريم ، إذ قال : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٢٩٠) لتفرّقوا عنه بأجمعهم ، ولم يتمسّك أحد منهم بالإسلام . وكان نبيّنا العظيم بحراً من الرحمة ، وإن كان تشبيهه بالبحر قاصراً حقّاً . فهو الذي طوّع أُولئك الأعراب الجفاة المتعنّتين المستكبرين وذلّلهم . وكان على ما كان عليه من العفو والإغماض والإيثار والرحمة الواسعة كالبحر العميق المتلاطم الذي لم يلوّثه فم الكلب . ولم يتغيّر ولم يأسن ولم يصبح مضافاً بفعل ما تدخله من مكدّرات الحوادث والطعون المشينة .

وكان عبد الله بن أُبيّ رجلاً ذا نفوذ وقدرة ، ومال عظيم وثروة ، وبيت مفتوح للقادمين ، إذ كان يساعد المعوزين من الخزرج ، ويرى نفسه رئيسهم ومقدّمهم . وله قصب السبق

على الأوس . وكان ينظر إلى النبيّ نظرة ازدراء واستصغار واحتقار ؛ وينظر إلى المؤمنين الفقراء نظرة امتهان وخفّة . ولم يستطيع أن يدرك تلك الروح العظيمة التي كان يتحلّى بها رسول الله ، وتلك الدرجة الرفيعة ، وجمال الخلوص ، ولطافة الخلوة ، وظرافة المماشاة والمداراة وعمله مع الله وخلقه . ونجد في كلّ زمان ومكان أنّ سواد الناس والعامّة من الهمج الرعاع كانوا تابعين لأمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعتبرون رؤساء القوم ووجهاءهم وأعيان المحلّة والمدينة . ولولا ما كان عليه رسول الله من رحابة الصدر ، وعمق الإدراك ، وعظم التحمّل والصبر الذي يزعزع الطود ، لما ترك هؤلاء الأشخاص أحداً يقترب من الإسلام .

كان رسول الله يواجه أمثال هذه الشخصيّات المستكبرة ، فما عساه أن يفعل ؟ وهل كان بمقدوره أن يصدر حكم الإعدام بحقّ هؤلاء ؟ أبداً أبداً . فهم الذين كانوا يقلبون المدينة على النبيّ ، كما فعلوا ذلك سرّاً وتعاونوا مع اليهود والمشركين وحرّضوهم على حرب رسول الله والمؤمنين .

لم يتمكّن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يجري على ابن أُبيّ حدّ القذف ، وهو الذي اتّهم عائشة بالزنا . ووردت هذه القصّة في القرآن الكريم . وعلى الرغم من أنّ حكم حدّ من قذف مؤمناً أو مؤمنة بالزنا قد نزل في القرآن الكريم ، وكان يعمل به ، بَيدَ أنّ رسول الله لم يستطع أن يجري عليه الحدّ ، وهو الذي قذف زوجة رسول الله بالزنا ، وعلم الجميع أنّه كذب وافتراء . أي : لم تكن القدرة المركزيّة لرسول الله من حيث أصحابه إلى درجة أنّهم يستطيعون إحضاره وإجراء الحدّ عليه ؛ لأنّ حدّه يعني حدّ المنافقين كافّة ، بل حدّ معظم أعوانه ومن دار في فلكه ؛ وكان إجراء حدّ واحد يعادل إجراء ألف حدّ ، إذ كان عبد الله يتمتّع بمكانة اجتماعيّة وقوميّة بين العرب تفوق مكانة ألف رجل منهم . وحينئذٍ لو كان قد أُجري عليه الحدّ ، فلا يقرّ قرار أعوانه وأنصاره ، بل لاتّخذ كلّ منهم موضعه على سجيّة رئيسهم ، وانبروا للدفاع والقتال والمخاصمة ، وأقسموا أيماناً مؤكّدة على قذف عائشة بالزنا ؛ ولتعطّل الحدّ ، بل ويبقى هذا العار لاصقاً بعائشة على امتداد التأريخ ، مع أنّها كانت بريئة من ذلك .

وتحدّث المُلّا صَالِحُ المَازِنْدَرَانِيّ في شرح «أُصول الكافي» عن سبب سكوت أمير المؤمنين عليه السلام وعدم قيامه بالسيف بعد رسول الله لاسترجاع حقّه وإعادة منصبه في الخلافة والإمامة . وذكر سبعة وجوه ، جعل الوجه الخامس منها عدم تمكّن الإمام ، كما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يتمكّن من إجراء الحدّ على عبد الله بن أُبيّ الذي افترى على عائشة .

وأجاب عن كلام بعض العامّة الذين قالوا : لو كان الحقّ مع عليّ ، فلماذا لم يقم بالسيف بعد وفاة رسول الله ، مع أنّ أخذ الحقّ واجب ؟ وإذا كان رسول الله قد عيّنه وصيّاً

وخليفة وإماماً للمسلمين بعده ، فإنّ واجبه الشرعيّ والعقليّ يتطلّب منه القيام وأخذ حقّه . وإن لم يفعل ، فهو آثم . ولمّا كان عليّ لا يذنب ، فإنّ القيام بالسيف لم يجب عليه ؛ أي : أنّ الخلافة لم تكن حقّه الإلهيّ . وقال الملّا صالح ما نصّه : وأمّا خامساً ، فلأنّ العياض شارح «صحيح مسلم» نقل في حديث الإفك عن بعض علمائكم (علماء السنّة) أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّما لم يحدّ عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين بالافتراء على زوجته عائشة ، لأنّه كانت له منعة منه ويخشى من إقامته افتراق الكلمة ، وظهور الفتنة . فإذا جاز للنبيّ ترك الحدّ لخوف الفتنة مع كثرة أعوانه وأنصاره ، فقد جاز لعليّ عليه السلام ترك المحاربة والمقاتلة مع عدم المعاون لمثل ذلك [٢٩١] .

وأمّا الآيات المباركة:

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا [٢٩٢] .

فإنّها تتحدّث عن كيدهم لتقريب النبيّ إلى المشركين وركونه إليهم في أُصول المعارف والتوحيد ، أي : في ما أنزل الله ، لا في عدم التمكّن من إجراء الإحكام بسبب عدم القدرة والقوّة في الخارج . كما رأينا في باب غدير خمّ أنّ الله تعالى كان يأمر نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بتبليغ إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ووصايته وخلافته بواسطة جبرائيل عليه السلام ، بَيدَ أنّ النبيّ كان يخشى الفتنة والفوضى ، فلهذا كان ينتهز الفرصة المناسبة حتّى نزلت عليه الآية:

وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [٢٩٣] .

فأوقف النبيّ الأكرم القافلة في غدير خمّ ، وخطب خطبته الغرّاء المعروفة.

صَلّى اللَهُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَهِ !

أجل ، تحدّثنا عن خصوصيّات غزوة تبوك مفصّلاً ليستبين وضع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمير المؤمنين عليه السلام يومذاك في مواجهة المنافقين الذين كان لهم حزب وتكتلّ ، ومجالس سمر شيطانيّة خفيّة . وليُعْلَم السبب الذي دفع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى استخلاف أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام على المدينة ، وعدم أخذه معه في تلك السفرة وهو الذي كان معه في جميع غزواته ، وهو الطليعيّ الوحيد ، وحامل لوائه ، وحاميه وناصره ومعينه ، وهو المخلص المتحمّس المشفق الفدائيّ لرسول الله . فلم يصطحبه وتركه في المدينة لئلّا تضطرب أوضاعها بخطط المنافقين ، ولتقطع صولته وأُبّهته يد المتآمرين ، وليدحض خططهم وبرامجهم . ولكي لا تسقط المدينة بزحف الكفّار والمشركين ومؤازرة المنافقين وهي بيضة الإسلام ومحور ومقرّ بلاد المسلمين ، وحينئذٍ تذهب أتعاب رسول الله ومعاناته خلال اثنتين وعشرين سنة هدراً .

وهنا قال له رسول الله : يَا عَلِيّ ! إِنّ المَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلّا بِي أَوْ بِكَ ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! وإِلّا لَكُنتَ نَبِيّاً يَا عَلِيّ .

صَلّى اللَهُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ !

ويتّضح ممّا بيّناه أنّ ما قاله الطبريّ في تاريخه [٢٩٤] ، وابن الأثير في تاريخه [٢٩٥] أنّ رسول الله خلف على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة الغِفَارِيّ ؛ وكذلك ما قاله ابن كثير [٢٩٦] ، والواقديّ [٢٩٧] ، وابن هشام [٢٩٨] إنّه خلفه ، أو خلف مُحمّد بن مَسْلَمة الأنصاريّ [٢٩٩] على المدينة ، وخلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام على أهله ، كلّ ذلك كلام باطل ومخالف للشواهد والقرائن القطعيّة في التأريخ ، وذلك للأسباب الآتية :

أوّلاً : ذكر صاحب «السيرة الحلبيّة» هذين الشخصين مضافاً إلى أنّه قال : وقيل : خلف على أهل المدينة ابْنَ أُمّ مَكْتُوم . وقيل : عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ [٣٠٠] . والتردّد بين هؤلاء الأشخاص دليل على أنّ استخلاف ذينك الشخصين احتمال محض لا يقوم على حجّة . بل إنّ التردّد بين الشخصين المذكورين ينسف القاطعيّة والعلم ، وينزل بالحتميّة واليقين إلى الشكّ والاحتمال .

ثانياً : قال مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ البِرّ في «الاستيعاب» : إنّ استخلاف عليّ بن أبي طالب على المدينة وعلى عيالات رسول الله في غزوة تبوك مِنْ أَثْبَتِ الآثَارِ وَأَصَحّهَا .

وقال ابن عبد البرّ في هذا الكتاب ضمن ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام : دفع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الراية يوم بدر إلى عليّ ، وهو ابن عشرين سنة . ذكره السرّاج في تاريخه . ولم يتخلّف عن مَشْهَدٍ شهده رسول الله مذ قدم المدينة إلّا تبوك ، فإنّه خلّفه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على المدينة وعلى عِيَاله بعده في هذه الغزوة . واستخلاف عليّ على المدينة من أثبت الآثار وأصحّها . وقال له : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . وحديث المنزلة من أثبت الأخبار وأصحّها . رواه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ . وطرق حديث سعد فيه كثيرة جدّاً قد ذكرها ابْنُ أَبِي خَيْثَمة وغيره . ورواه ابن عبّاس ، وأبو سعيد الخُدْرِيّ ، وأُمّ سَلَمَة ، وأسماء بنت عُمَيْس ، وجابر بن عبد الله ، وجماعة يطول ذكرهم [٣٠١] .

وقال عليّ بن برهان الدين الحَلَبيّ الشافعيّ صاحب «السيرة» بعد ذكر مُحَمّد بن مَسْلَمَة ، وَسِبَاع بن عُرْفُطَة ، وَابْن أُمّ مَكْتُوم : قال ابْنُ عَبْدِ البِرّ : خلف عليّ بْن أبي طالب على المدينة ، وهو الأثبت والأتقن [٣٠٢] .

وقال الشيخ المفيد : ولمّا أراد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الخروج من المدينة ، استَخْلَفَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السّلَامُ فِي أَهْلِهِ وَوُلْدِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَمَهَاجِرِهِ ؛ وَقَالَ لَهُ : يَا عَلِيّ ! إِنّ المَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلّا بِي أَوْ بِكَ ! (أي : أنّ الأمر ينتهي إلى الفساد عند عدم وجودي ووجودك) .

وذلك أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم علم من خبث نيّات الأعراب ، وكثير من أهل مكّة ومن حولها ممّن غزاهم ، وسفك دماءهم . فأشفق أن يطلبوا المدينة عند نَأْيِهِ عنها وحصوله ببلاد الروم أو نحوها . فمتى لم يكن فيها من يقوم مقامه ، لم يؤمن من معرّهم ، وإيقاع الفساد في دار هجرته ، والتخطّي إلى ما يشين أهله ومخلّفيه . وعلى أنّه لا يقوم مقامه في إرهاب العدوّ وحراسة دار الهجرة ، وحياطة من فيها إلّا أمير المؤمنين عليه السلام . فلهذا استخلفه استخلافاً ظاهراً ، ونصّ عليه بالإمامة من بعده نصّاً جليّاً .

وذلك فيما تظاهرت به الرواية أنّ أهل النفاق لمّا علموا باستخلاف رسول الله عليّاً على المدينة ، حسدوه لذلك ، وعظم عليهم مقام أمير المؤمنين فيها بعد خروجه ؛ وعلموا أنّها تتحرّس به ، ولا يكون فيها للعدوّ مطمع .

فساء المنافقين ذلك ، وكانوا يؤثرون خروجه معه لما يرجونه من وقوع الفساد والاختلاط عند نأي رسول الله عن المدينة ؛ وخلوّها من مرهوب مخوف يحرسها ؛ وغبطوه على الرفاهية والدعة بمقامه في أهله ؛ وتكلّف من خرج منهم المشاقّ بالسفر بالخطر ، فأرجفوا به وقالوا : لم يستخلفه رسول الله إكراماً له وإجلالاً ومودّة ، وإنّما خلّفه استثقالاً له فبهتوا بهذا الإرجاف كبهت قريش لرسول الله بالجنون تارة ، وبالشعر أُخرى ، وبالسحر مرّة ، وبالكهانة أُخرى ، وهم يعلمون في رسول الله ضدّ ذلك ونقيضه ، كما علم المنافقون ضدّ ما أرجفوا به على أمير المؤمنين وخلافه ، وأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان أخصّ الناس بأمير المؤمنين ، وكان هو أحبّ الناس إليه وأسعدهم عنده وأحظاهم عنده ، وأفضلهم لديه .

فلمّا بلغ أمير المؤمنين عليه السلام إرجاف المنافقين به ، أراد تكذيبهم وإظهار فضيحتهم ، فلحق بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقال : يَا رَسُولَ اللَهِ ! إنّ المنافقين يزعمون أنّك خلّفتني استثقالاً ومقتاً !

فَقَالَ لَهُ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : ارْجِعْ يَا أَخِي إِلَى مَكَانِكَ ! فَإِنّ المَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلّا بِي أَوْ بِكَ ! فَأَنْتَ خَلِيفَتِي فِي أَهلِ بَيْتِي وَدَارِ هِجْرَتِي وَقَوْمِي ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٣٠٣] !

ثالثاً : إنّ الكلمات التي خاطب بها رسولُ الله أمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام في حديث المنزلة ، أو التي أُثرت عن الرواة تدلّ على خلافة الإمام على جميع أهل المدينة . كرواية أبي داود الطيالسيّ في مسنده عن شعبة ، عن الحكم ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد أنّه قال:

خَلّفَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! أَتُخَلّفُنِي فِي النّسَاءِ وَالصّبْيَانِ ؟! فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟! [٣٠٤]

وذلك أنّه :

أوّلاً : في كلمة خلّف إطلاق . وهي تفيد استخلافه على الجميع ؛ وبالأخصّ جاء جوابه صلّى الله عليه وآله وسلّم في رواية ابن إسحاق كما يأتي : كَذَبُوا وَلَكِنِّي خَلَّفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرَائِي [٣٠٥] . ومن المعلوم أنّ هذه الجملة لا تفيد الإطلاق فحسب ، بل هي عامّة لكافّة شؤون المدينة وما يحتاج أهلها جميعهم .

ثانياً : قوله : إِنّ المَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلّا بِي أَوْ بِكَ [٣٠٦] نصّ صريح على استخلافه على المدينة كلّها .

ثالثاً : ورد في تفسير عليّ بن إبراهيم : وَخَلّفَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلَيهِ السّلَامُ عَلَى المَدِيْنَةِ [٣٠٧] . ولمّا جاء الإمام إلى رسول الله شاكياً من المنافقين ، قال له صلّى الله عليه وآله وسلّم : يَا عَلِيّ ! أَلَمْ أُخَلّفْكَ عَلَى المَدِينَةِ [٣٠٨] ؟!

رابعاً : رأينا في رواية الشيخ المفيد قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : فَأَنْتَ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَدَارِ هِجْرَتِي وَقَوْمِي [٣٠٩] . وتنصّ هذه العبارة على العموم .

خامساً : ذكر الشيخ الطبرسيّ قائلاً : وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المَدِينَةِ عَلِيّاً ، وَقَالَ : إِنّهُ لَابُدّ لِلْمَدِينَةِ مِنّي أَوْ مِنْكَ [٣١٠] . وذكر أيضاً : إمّا أَنْ تَخْرُجَ أَنْتَ وَيُقِيمَ عَلِيّ وَإِمّا أَنْ يَخْرُجَ عَلِيّ وَتُقِيمَ أَنْتَ [٣١١] .

سادساً : قال ابن حجر العسقلانيّ : وَقَالَ لَهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ . أي : لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي [٣١٢] !

تنصّ هذه العبارة كسابقاتها على عموميّة الاستخلاف على جميع شؤون الناس . ويستفاد هذا المعنى التفسيريّ من تشبيه منزلته بمنزلة هارون من موسى ، فكما أنّ موسى لم يؤذن له بالذهاب إلى جبل طور للمناجاة دون أن ينصب أخاه هارون خليفة له على أُمّته ، فكذلك أنا لم يؤذن لي التوجّه إلى غزوة تبوك إلّا أن أنصبك يا عليّ خليفة لي !

إنّ ما يبدو من كلمات بعض المؤرّخين إذ ذكروا أنّ الذين نصبهم رسول الله في غزوة تبوك هم غير أمير المؤمنين عليه السلام ، مع اعتراف الجميع بنصبه على أهل البيت ، وبحديث المنزلة ، هو إمّا سهو وخطأ تمثّل في ذكره مع من نصبهم رسول الله في سائر الغزوات ، وحجّة الوداع ، وعمرة الحُدَيْبِيّةِ كسِبَاعِ بْنِ عُرْفُطَة ، وَمُحَمّدِ بْنِ مَسْلَمة ، وَابْنِ أُمّ مَكْتُومٍ ؛ وإمّا سهو وخطأ متعمّد ارتكبه بعض أصحاب السير ويلاحظ من سِيَرهم جيّداً أنّهم مغرضون ، وقد دسّوا في التأريخ الصحيح والثابت . وأنّ الراوي الأوّل الذي ارتكب هذا التحريف والخيانة ، قد سار بسيرته الآخرون أيضاً فأخذوا كلامه وسطّروه في كتبهم ، وذلك إمّا بتأييد خيانته ، أو من وحي التساهل وعدم الإمعان والنقد والتحليل للسيرة والتأريخ الصحيح . وكذلك جاء بعدهم من توكّأ على قوله ، ونقله إلى الأجيال المعاصرة والقادمة يداً بيد ، حتّى نجد أنّ أحد الكتّاب المعاصرين ممّن ألّف في السيرة النبويّة باللغة

الفارسيّة يقول : على الرغم من أنّه (النبيّ) خلّف محمّد بن مسلمة على المدينة ، بَيدَ أنّه قال لعليّ عليه السلام : «أنت خليفتي في أهل بيتي وقومي والمهاجرين ، ولا يصلح لذلك إلّا أنا أو أنت» .

ومن المؤسف جدّاً أنّ شيعيّاً يتمتّع بالصلاح والخلوص ، وقد ألّف كتابه خدمة للثقافة الإسلاميّة والمسلمين ، غفل عن هذه النقطة ، وحرّف التأريخ الثابت ــ من حيث لا يشعر ــ وفقاً لأهواء واضعي الأحاديث بعد إدانة عليّ عليه السلام وعزله في بيته . وسبب الخطأ هو ضيق الأُفق الملحوظ في بعض تواريخ العامّة ــ التي مرّ ذكرها ــ . وعدم التتبّع التامّ في أقوال مصادر العامّة ، وعدم التتبّع في سِيرَ الشيعة ومصادرهم التأريخيّة .

إنّ النقطة المهمّة والجديرة بالاهتمام هي أنّ كتّابنا ينبغي أن لا يجعلوا كتب العامّة مصادرهم الأصليّة في دراساتهم ، ويتّكئوا على أقوالهم ، ويذكروا كتبهم وعلماءهم من غير نظر واهتمام بسيرة الشيعة . إنّه لضرر عظيم وخسارة فادحة إذ تنقلب حقيقة مدرسة التشيّع . ذلك التشيّع الذي استطاع أن يبرز وجهه الحقيقيّ من خلال آلاف المرارات ، والدماء المهراقة ، وأظهر الحقّ من بين الافتراءات والتهم وضروب البهتان والقتل والتعذيب ، ودحض الباطل وأبعده . وإذا هؤلاء يتوجّهون إلى كتب العامّة تبرّعاً بلا ثمن . تلك الكتب التي أُلّفت لترسيخ مذهب حكّام الجور والسلاطين الظالمين ، ولم تدّخر وسعاً لتدمير حقيقة التشيّع بكلّ حربة من حرابها ، واستخدمت كلّ وسيلة ممكنة من أجل ذلك . وجعلها هؤلاء مصادر وملاجئ لموضوعاتهم التحقيقيّة والعلميّة .

فلهذا نحن نستفيد في هذا الكتاب من مصادر الشيعة الرصينة بحمد الله ومنّه ؛ ولنا حديث من مصادر العامّة أيضاً للتأييد واعتراف الخصم من باب : وَالفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ [٣١٣] . وكذلك نختدم فنّ الجدل ، ونقمع الخصم وندكّ صولته بحربته نفسها . وهذا هو باب الجدل إذ تُتّخذ ثوابت الخصم منه ، ثمّ يُدَان بعين مقدّماته الثابتة المسلّمة : وَجَادِلْهُم بِالّتِى هِىَ أَحْسَنُ [٣١٤] . وهذا هو طريق بحثنا . أوّلاً : يبلغ بالإنسان إلى الأُصول والمعارف الحقّة الحقيقيّة في ضوء المباني المسلّمة والمحقّقة ؛ ويبلغ العقائد والمعارف من باب البرهان الذي يضع المسلّميّات واليقينيّات في صغرى قياسه وكبراه . ثانياً : يعرّف الخصم على آرائه ومواضع نقده وتزييفه ؛ ويرغمه على التسليم .

لقد ألّف العلّامة الكبير المرحوم الأمينيّ رحمة الله عليه كتابه القيّم «الغدير» لإبطال آراء المخالفين من العامّة فحسب ، كي يقسرهم على الاعتراف والإقرار بحقّانيّة مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام وإمامته وولايته ووصايته بلا فصل ؛ ويضعضع مذهب المناوئين ؛ لا أنّه كتبه للشيعة الذين ينبغي أن يأخذوا أُصول معارفهم من مصدر وسند معيّنين . فلهذا استُفيد في هذا الكتاب من الجدل ليس غيره ، كما توكّأ على مصادر العامّة وكتبهم فحسب .

ل وكذلك ألّف العلّامة السيّد محمّد قُلي كتاب «تشييد المطاعن» [٣١٥] للردّ على «التحفة الاثنا عشريّة» . وألزم نفسه بالاستفادة من روايات العامّة ومصادرهم . وإلّا فلا دور لهذا الكتاب في الردّ على التحفة المذكورة .

وصنّف العلّامة مير حامد حسين الهنديّ النيسابوريّ كتابه الشريف «عبقات الأنوار» [٣١٦] في الردّ على كتاب «التحفة العزيزيّة» الذي هو نفسه كتاب «التحفة الاثنا عشريّة» . ولا حيلة إلّا بالاستناد إلى مصادر العامّة ، وتفهيمهم بالمسلّمات الثوابت الموجودة في كتبهم .

وكذلك نلحظ كتب المرحوم العلّامة السيّد شرف الدين العامليّ ك «المراجعات» و «الفصول المهمّة» و «أبو هريرة» ، فإنّها التزمت بنفس المنهج ؛ وعرضت طريق الحقيقة بالاستناد إلى مصادر العامّة المتقنة ؛ وألزمت المخالف بالقبول .

أمّا الذين لم تؤلّف كتبهم للردّ ، ولم تصنّف لإلزام المخالفين ، بل صنّفت لإرشاد وهداية عموم المسلمين سواء كانوا من الشيعة أم من السنّة . وحتّى لو كانوا من المسلمين وغيرهم ، فعليهم أن يصنّفوا كتبهم على أساس المقدّمات البرهانيّة ومن وحي المقدّمات المسلّمة الثابتة ، من الكتب والمصادر الموثوقة ، والعلماء المرضيّين البعيدين عن التعصّبات الجاهليّة .

أجل ، لنعد إلى أصل الموضوع ، وهو أنّ استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة في غزوة تبوك ممّا لا شكّ ولا شبهة فيه . حتّى أنّ ابن تيميّة الحرّانيّ الذي كان رأس المناوئين وطليعة ركب العناد واللجاجة في طرح إشكالاته وافتراءاته وضروب بهتانه بالنسبة إلى الأخبار والأحاديث الصحيحة المأثورة عن رسول الله في أمير المؤمنين عليه السلام لميستطع أن يُشكل على العلّامة الحلّيّ رضوان الله عليه في استشهاده بهذا الحديث ؛ وإنّما وجّه مؤاخذته إلى موضع آخر . وتوضيح ذلك .

روى أحمد بن حنبل في مسنده عن يحيى بن حَمّاد ، عن أبي عَوَانَة ، عن أبي بَلْج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : إنّي لجالس إلى ابن عبّاس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا : يا ابن عبّاس ! إمّا أن تقوم معنا ونذهب إلى مكان آخر ونتحدّث ! وإمّا تخلو بنا عن هؤلاء ! قال ابن عبّاس : بل أنا أقوم معكم ــ وقال ابن ميمون : وهو يومئذٍ صحيح ، قبل أن يعمى ــ .

فذهبوا مع ابن عبّاس وتحدّثوا ؛ فلم نعلم ما قالوا ، فَجَاءَ ابْنُ عَبّاسٍ يَنْفُضُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : أُفّ وتُفّ ! وَقَعُوا فِي رَجُلٍ لَهُ عَشْرٌ ؛ وَقَعُوا فِي رَجُلٍ

(١) قَالَ لَهُ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : لَأَبْعَثَنّ رَجُلًا لَا يُخْزِيهِ اللَهُ أَبَدًا يُحِبّ اللَهَ وَرَسُولَهُ . قَالَ : فَاسْتَشْرَفَ لَهَا مَنِ اسْتَشْرَفَ . قَالَ : أَيْنَ عَلِيّ ؟! قَالُوا : هُوَ فِي الرّحْلِ

يَطْحَنُ ! قَالَ : وَمَا كَانَ أَحَدُكُمْ لِيَطْحَنَ ؟! قَالَ : فَجَاءَ وَهُوَ أَرْمَدُ لَا يَكَادُ يُبْصِرُ . قَالَ : فَنَفَثَ فِي عَيْنَيْهِ ؛ ثُمّ هَزّ الرّايَةَ ثَلَاثاً ؛ فَأَعْطَاهَا إِيّاهُ ، فَجَاءَ بِصَفِيّةَ بِنْتِ حُيَيّ .

(٢) قَالَ : ثُمّ بَعَثَ فُلَاناً بِسُورَةِ التّوْبَةِ ، فَبَعَثَ عَلِيّاً خَلْفَهُ ؛ فَأَخَذَهَا مِنْهُ . قَالَ : لَا يَذْهَبُ بِهَا إِلّا رَجُلٌ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ .

(٣) قَالَ : وَقَالَ لِبَنِي عَمّهِ : أَيّكُمْ يُوَالِيني (بحيث لا يفصل بيني وبينه أيّ حجاب ، ويكون معي في السرّاء والضرّاء كنفسي ومتكفّلاً بأُموري) فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ؟! قَالَ : وَعَلِيّ مَعَهُ جَالِسٌ ، فَأَبَوا . وَقَالَ عَلِيّ : أَنَا أُوَالِيكَ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ! قَالَ : أَنْتَ وَلِيّي فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ . قَالَ : فَتَرَكَهُ ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : أَيّكُمْ يُوالِيني فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ؟ فَقَالَ عَلِيّ : أَنَا أُوَالِيكَ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ! فَقَالَ أَنْتَ وَلِيّي فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ . وَكَانَ أَوّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النّاسِ بَعْدَ خَدِيجَةَ .

(٤) قَالَ : وَأَخَذَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ثَوْبَهُ فَوَضَعَهُ عَلَى عَلِيّ وَفَاطِمَةَ وَحَسَنٍ وَحُسَيْنٍ ، فَقَالَ «إِنّمَا يُرِيدُ اللَهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيرًا» .

(٥) قَالَ : وَشَرَى عَلِيّ نَفْسَهُ . لَبِسَ ثوب النّبيّ صَلّى اللَهُ عَلَيه وَآلِهِ وَسَلّمَ ثُمّ نَامَ مَكَانَهُ . قَالَ : وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيّ نَائِمٌ . قَالَ : وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنّهُ نَبِيّ اللَهِ . قَالَ : فَقَالَ : يَا نَبِيّ اللَهِ ! قَالَ : فَقَالَ لَهُ عَلِيّ : إِنّ نَبِيّ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَدِ انْطَلَقَ نَحْوَ بِئْرِ مَيْمُونٍ فَأَدْرِكْهُ ! قَالَ : فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ فَدَخَلَ مَعَهُ الغَارَ . قَالَ : وَجُعِلَ عَلِيّ يُرْمَى بِالحِجَارَةِ كَمَا يُرْمَى نَبِيّ اللَهِ وَهُوَ يَتَضَوّرُ قَدْ لَفّ رَأْسَهُ فِي الثّوْبِ لَا يُخْرِجُهُ حَتّى أَصْبَحَ ، ثُمّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ فَقَالُوا : إِنّكَ لَلَئِيمٌ كَانَ صَاحِبُكَ نُرَامِيهِ فَلَا يَتَضَوّرُ وَأَنْتَ تَتَضَوّرُ وَقَدِ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ .

(٦) قَالَ : وَخَرَجَ النّاسُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ . قَالَ : فَقَالَ لَهُ عَلِيّ : أَخْرُجُ مَعَكَ ؟! قَالَ : فَقَالَ لَهُ نَبِيّ اللَهِ : لَا ، فَبَكَى عَلِيّ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ ! إِنّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي !

(٧) قَالَ : وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَهِ : أَنْتَ وَلِيّي فِي كُلّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي !

(٨) وَقَالَ : سُدّوا أَبْوَابَ المَسْجِدِ غَيْرَ بَابِ عَلِيّ فَقَالَ : فَيَدْخُلُ المَسْجِدَ جُنُباً وَهُوَ طَرِيقُهُ لَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ غَيْرُهُ .

(٩) قَالَ : وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإِنّ مَوْلَاهُ عَلِيّ .

(١٠) قَالَ : وَأَخْبَرَنَا اللَهُ عَزّ وَجَلّ فِي القُرْآنِ أَنّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ عَنْ أَصْحَابِ الشّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ هَلْ حَدّثَنَا أَنّهُ سَخِطَ عَلَيْهِمْ بَعْدُ ؟ قَالَ : وَقَالَ نَبِيّ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ لِعُمَرَ حِينَ قَالَ : ائْذَنْ لِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ (حاطب بن أبي بُلتَعَة) ! قَالَ : أَوَ كُنْتَ فَاعِلاً ؟! وَمَا يُدْرِيكَ ! لَعَلّ اللَهَ قَدِ اطّلَعَ عَلَى بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [٣١٧] .

وروى العلّامة الحلّيّ هذه الرواية في كتاب «منهاج الكرامة» بعد حذف رواتها من عمرو بن ميمون إلى قول رسول الله : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيّ مَوْلَاهُ ، وقال : وعن عمرو بن ميمون [٣١٨] .

وذكرها ابن تيميّة في كتاب «منهاج السّنّة» مع تتمّة بعنوان رواية العلّامة مرفوعة [٣١٩] ، وأوردها عن العلّامة بتعبير : قال الرافضيّ [٣٢٠] . ثمّ انبرى إلى جوابها ، أنّها غير مسندة ، بل مرسلة (بلا سند) لو ثبتت عن عمرو بن ميمون ؛ مضافاً إلى أنّ في الرواية ألفاظاً مفتراة على نبيّ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كقوله : لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي .

فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ذهب غير مرّة وخليفته على المدينة غير عليّ . كما اعتمر عمرة الحديبيّة ، وعليّ معه ، وخليفته غيره . وغزا بعد ذلك غزوة خيبر ، ومعه عليّ ، وخليفته بالمدينة غيره . وغزا غزوة الفتح ، وعليّ معه ، وخليفته بالمدينة غيره . وغزا حنيناً والطائف ، وعليّ معه ، وخليفته بالمدينة غيره . وحجّ حجّة الوداع ، وعليّ معه ، وخليفته بالمدينة غيره . وغزا غزوة بدر ، ومعه عليّ ، وخليفته بالمدينة غيره . وكلّ هذا معلوم بالأسانيد الصحيحة ، وباتّفاق أهل العلم بالحديث . وكان عليّ معه في غالب الغزوات ، وإن لم يكن فيها قتال . إلى أن قال :

وفي غزوة تبوك ، ما كان استخلاف عليّ إلّا على النساء والصبيان ؛ والمرضى والفقراء الذين عذرهم الله . وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا ؛ أو متّهم بالنفاق . وكانت المدينة آمنة لا يخاف على أهلها ، ولا يحتاج المستخلَف من قبل رسول الله إلى جهاد .

وقال العلّامة الأمينيّ في جوابه : كان الأحرى بالرجل (ابن تيميّة) أن يحرّم ويحرّج على العلماء النظر في كتابه ؛ فيختصّ خطابه بالرعرة الدهماء ممّن لا يعقل أيّ طرفيه أطول (قدّهم أو عرض بدنهم) ، لأنّ نظر العلماء فيه يكشف عن سوءته ؛ ويوضّح للملأ إعوازه في العلم ، وانحيازه عن الصدق والأمانة . ويظهر تدجيله وتزويره وتمويهه على الحقائق . ومن المحتمل جدّاً أنّه قد غالى في عظمة نفسه يوم خوطب بشيخ الإسلام . فحسب أنّ الأُمّة تأخذ ما يقوله كأُصول مسلّمة لا تناقشه فيه الحساب . وإذ أخفق ظنّه وأكدى أمله ، فهلمّ معي نمعن النظرة في هملجته حول هذا الحديث ، وما له فيه من جلبة وصخب .

فأوّل ما يتقوّل فيه : إنّه مرسل ، وليس بمسند .

فكأنّ عينيه في غشاوة عن مراجعة السند لإمام مذهبه أحمد بن حنبل ، فإنّه أخرجه في ج ١ ، ص ٣٣١ عن يحيى بن حمّاد ، عن أبي عوانة ، عن أبي بلج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عبّاس .

ورجال هذا الحديث رجال الصحيح غير أبي بلج ، وهو ثقة عند الحفّاظ ، كما مرّت في ترجمته ، ج ١ ، ص . ٧١

وأخرجه أيضاً بسند صحيح رجاله كلّهم ثقات ، الحافظ النسائيّ في «الخصائص» ص ٧ ، والحاكم في «المستدرك» ج ٣ ، ص . ١٣٢ وصحّحه الحاكم والذهبيّ . والطبرانيّ كما في «مجمع الزوائد» للحافظ الهيثميّ وصحّحه . وكذلك أبو يعلى كما في «البداية والنهاية» ، وابن عساكر في «الأربعين الطوال» ؛ وذكره ابن حجر في «الإصابة» ج ٢ ، ص ٥٠٩ ، وجمع آخرون أسلفناهم في الجزء الأوّل ، ص . ٥١

ولذلك ، ما عذر الرجل في نسبة الإرسال إلى مثل هذا الحديث ؟ وإنكار سنده المتّصل الصحيح الثابت ؟ أهكذا يُفعل بودايع النبوّة ؟! أهكذا تلعب يد الأمانة بالسنّة والعلم والدين ؟

والأعجب ، أنّه عطف بعد ذلك على فقرات من الحديث ، وهو يحاول تفنيدها ، ويحسبها من الأكاذيب .

منها قول رسول الله : لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي . فارتآه كذباً مستدلّاً بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ذهب غير مرّة وخليفته على المدينة غير عليّ .

ومن حلّل حقيقة الأمر من هذا الموقف ، واستطلعها ، علم : أنّ هذا الموقف الخاصّ ، أي : الخروج إلى غزوة تبوك قضيّة شخصيّة لا تعدو قصّة تبوك . لما كان صلّى الله عليه وآله وسلّم يعلمه من عدم وقوع الحرب فيها . وكانت حاجة المدينة إلى خلافة مثل أمير المؤمنين عليها مسيسة لِما تداخل القوم من عظمة ملك الروم (هرقل) ، وتقدّم جحفله الجرّار ؛ وكانوا يحسبون أنّ رسول الله صلّى الله عليه واله وسلّم وحشده الملتفّ به لا قِبَلَ لهم به ؛ ومن هنا تخلّف المتخلّفون من المنافقين ؛ فكان أقرب الحالات في المدينة بعد غيبة رسول الله أن يرجّف بها المنافقون للفتّ في عضد صاحب الرسالة ، والتزلّف إلى عامل بلاد الروم الزاحف الذي عبّأ الجيش ، وهو في حالة التقدّم شيئاً فشيئاً .

وعندئذٍ ومع وجود مثل هذه المتطلّبات والأحوال في المدينة ، كان من الواجب أن يخلّف عليها أمير المؤمنين عليه السلام المهيب في أعين القوم ، والعظيم في النفوس الجامحة ؛ وقد عرفوه بالبأس الشديد ، والبطش الصارم ، اتّقاء بادرة ذلك الشرّ المترقّب . وإ لّا فأمير المؤمنين عليه السلام لم يتخلّف عن مشهد حضره رسول الله إلّا غزوة تبوك [٣٢١] ؛ وعلى هذا اتّفق علماء السير كما قال سبط بن الجوزيّ في «التذكرة» ص . ١٢

وفي وسع الباحث أن يستنتج ما بيّناه من قول رسول الله لأمير المؤمنين : كَذَبُوا وَلَكِنْ خَلّفْتُكَ لِمَا وَرَائِي [٣٢٢] . وكذلك ما ورد في الحديث الصحيح أنّ رسول الله حين أراد أن يذهب إلى تبوك ، قال لأمير المؤمنين : وَلَابُدّ مِنْ أَنْ أُقِيمَ أَوْ تُقِيمَ فَخَلّفَهُ [٣٢٣] .

وإذا عرفتَ ذلك كلّه ، فلا يذهب عليك أنّ قول رسول الله : لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي [٣٢٤] ليس له مغزى إلّا خصوص هذه الواقعة ؛ وليس في لفظه عموم يستوعب كلّ ما غاب عن المدينة .

إذاً ، في ضوء ما نقضه هذا الرجل (ابن تيميّة) ، فإنّ قوله باستخلاف غير عليّ على المدينة في غير هذه الواقعة كلام باطل . حيث لم يكن فيه من إرجاف المنافقين وإثارتهم الفتنة ؛ وكانت حاجة الحرب أمسّ إلى وجود أمير المؤمنين عليه السلام حيث لم يكن غيره كمثله يكسر صولة الأبطال ، ويغير في وجوه الكتائب .

فكان رسول الله في أخذ أمير المؤمنين معه إلى الحروب واستخلافه في مغيّبه يتبع أقوى المصلحتين .

مضافاً إلى ذلك ، أنّ هذا الرجل (ابن تيميّة) حاول تصغيراً لصورة هذه الخلافة ، فقال : كان الاستخلاف في تبوك على النساء والصبيان وذوي الأعذار وغيرهم . ولكن نظّارة التنقيب لا تزال مكبّرة لها من شتّى النواحي .

الأُولى : قول رسول الله : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؟ وهو يعطي إثبات كلّ ما لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من رتبةٍ وعملٍ ومقامٍ ونهضةٍ وحكمٍ وإمارةٍ وسيادةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام عدا ما أخرجه الاستثناء من النبوّة [٣٢٥] ، كما كان هارون من موسى كذلك . فهذا المقام هو مقام الخلافة عن رسول الله ، وانزال لعليّ منزلة نفسه ، لا محض استعمال عليّ في المدينة كما يظنّه الظانّون .

فقد استعمل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبل هذه على البلاد أُناساً ، وعلى المدينة آخرين ، وأمّر على السرايا رجالاً لم يقل في أحد منهم ما قاله في هذا الموقف ؛ فهي منقبة تخصّ أمير المؤمنين عليه السلام فحسب .

الثانية : قول رسول الله فيما مرّ عن سَعْدِ بْنِ أَبِيْ وَقّاصٍ : كَذَبُوا وَلَكِنْ خَلّفْتُكَ لِمَا وَرَائِي ، لمّا طعن رجال من المنافقين في إمرة عليّ . ولا يقصد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم به إلّا إلى ما أشرنا إليه من خشية الإرجاف بالمدينة عند مغيّبه ، وأنّ إبقاء أمير المؤمنين كان لإبقاء بيضة الدين عن أن تنتهك وحذار أن يتّسع خرقها بهملجة المنافقين ، لولا هناك من يطأ فورتهم بأخمص بأسه وحجاه ، فكان قد خلّفه لمهمّة لا ينوء بها غيره .

الثالثة : قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السلام في حديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم ، قالا : قال رسول الله لعليّ حين أراد يغزو : إِنّهُ لَابُدّ مِنْ أَنْ أُقِيمَ أَوْ تُقِيمَ ، فَخَلّفَهُ [٣٢٦] .

وهذا الكلام يدلّ على أنّ بقاء أمير المؤمنين عليه السلام على حدّ بقاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في كلاءة بيضة الدين ، وإرحاض معرّة المفسدين . فهو أمر واحد يقام بكلّ منهما على حدّ سواء . وناهيك به من منزلة ومقام .

الرابعة : ما صحّ عن سعد بن أبي وقّاص من قوله : وَاللَهِ لَأَنْ يَكُونَ لِي وَاحِدَةٌ مِنْ خِلَالٍ ثَلَاثٍ أَحَبّ إِلَيّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيهِ الشّمْسُ ، لَأَنْ يَكُونَ قَالَ لِي مَا قَالَ لَهُ حِينَ رَدّهُ مِنْ تَبُوكَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ، أَحَبّ إِلَيّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيهِ الشّمْسُ ــ الحديث [٣٢٧] .

وذكر العلّامة الأمينيّ هنا الرواية التي نقلناها عن «مروج الذهب» في هذا الجزء ، ثمّ قال :

وصحّ عند الحفّاظ الأثبات أنّ معاوية أمر سعداً فقال : ما منعك أن تسبّ أبا تراب ؟! قال (سعد في جوابه) : أما ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ ، فلن أسبّه ؛ لإن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم !

سمعت رسول الله يقول لعليّ وخلّفه في تبوك ، فقال له عليّ : يا سول الله ! تخلّفني مع النساء والصبيان ؟! فقال له رسول الله : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؛ إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟! ــ الحديث [٣٢٨] .

وكذلك بعد أن ذكر الحديث الذي نقلناه في هذا الكتاب عن «غاية المرام» ، عن ابن أبي الحديد ، وابن كثير ، وهو نقله عن «البداية والنهاية» لابن كثير ، ج ٨ ، ص ٧٧ [٣٢٩] ، قال : إنّ هذا الذي كان يستعظمه سعد في عداد حديث الراية والتزويج بالصدّيقة الطاهرة بوحي من الله العزيز ، اللذين هما من أربى الفضائل ، ويراه معاوية لو كان سمعه فيه ، لما قاتل عليّاً ، ولكان يخدم عليّاً ما عاش ، لابُدّ وأن يكون على حدّ ما وصفناه حتّى يتسنّى لسعد تفضيله على ما طلعت عليه الشمس أو حمر النعم ؛ ولمعاوية إيجاب الخدمة له ، دون الاستخلاف على العائلة لينهض بشؤون حياتها كما هو شأن الخدم ؛ أو يُنصب عَيناً على المنافقين فحسب ، ليتجسّس أخبارهم كما هو وظيفة الطبقة الواطئة من مستخدم الحكومات .

الخامسة : قول سعيد بن المسيّب بعد ما سمع حديث المنزلة عن إبراهيم ، أو عامر ابني سعد بن أبيوقّاص . يقول : فلم أرضَ ، فأحببت أن أشافه بذلك سعداً ، فأتيته ، فقلت : ما حديث حدّثني به ابنك عامر ؟!

فأدخل سعد إصبعيه في أُذنيه وقال : سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَهِ وَإِلّا اسْتَكَّتَا [٣٣٠] . فماذا كان سعيد بن المسيّب يستعظمه من الحديث ، حتّى طفق يستحفي خبره من نفس سعد بعدما سمعه من ابنه ؟ فأكّد له سعد ذلك التأكيد ، فهل يمكن أن يكون قد فهم من مؤدّاه ما ذكرناه من العظمة ؟

السادسة : قول الإمام أبي بَسطام شُعْبَة بْنِ الحَجّاجِ في الحديث : كان هارون أفضل أُمّة موسى ، فوجب أن يكون عليّ عليه السلام أفضل من كلّ أُمة محمّد صلّى الله عليه وآله

وسلّم صيانة لهذا النصّ الصحيح الصريح ، كما قال موسى لأخيه هارون : اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ [٣٣١] .

السابعة : قال الطّيّبيّ : مِنّي (في هذه العبارة) خبر المبتدأ ؛ ومن اتّصاليّة ؛ ومتعلّق الخبر خاصّ والباء زائدة ، كما في قوله تعالى : فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُمْ بِهِ [٣٣٢] ، أي : فَإِنْ آمَنوا إيمَاناً مِثْلَ إيمَانِكُمْ . يعني : أَنْتَ مُتّصِلٌ وَنَازِلٌ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى . وفيه تشبيه ، ووجه الشبه مبهم بيّنه بقوله : إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . فعُرف أنّ الاتّصال المذكور بين رسول الله وأمير المؤمنين ليس من جهة النبوّة ؛ بل من جهة ما دونها ، وهي الخلافة [٣٣٣] .

إنّ الغرض من بيان هذا الحديث ، مضافاً إلى ما يضمّه من فوائد ، هو أنّه بلغ من القوّة درجة حتّى أنّ ابن تيميّة الحَرّانيّ الناصبيّ وعدوّ آل الرسول لم يسجّل أيّ مؤاخذة قطّ على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة عند غياب رسول الله .

وخالَ الحديث المسند الذي رواه إمامه ورئيس مذهبه أحمد بن حنبل في مسنده مع ذكر جميع رواته مُعَنْعَناً ، مُرْسلاً ، لأنّ العلّامة الحلّيّ رضوان الله عليه ذكره في «منهاج الكرامة» بعد حذف أسناده . وسجّل مؤاخذته على إرسال الحديث . فمُني بخَبْطٍ وغلط عظيم ، وحار في قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إلّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي ؛ وهذا ناتج عن عدم خبرته بتأريخ المنافقين ووضعهم . وقد ذكرنا ترجمتهم مفصّلاً في هذا الكتاب .

إنّ النقطة المهمّة الواردة في ذيل الحديث ، وقد ذكرناها في عداد المنقبة العاشرة ــ بَيدَ أنّ العلّامة الحلّيّ على ما يبدو لم يذكرها في منهاجه ، وقطع الحديث عند النقطة التي بلغها ، وكذلك فعل العلّامة الأمينيّ في «الغدير» تبعاً للعلّامة ، إذ بلغ بحديث «مسند أحمد بن حنبل» عند نفس النقطة [٣٣٤] ــ هي أنّ ابن عبّاس بعد أن عدّ مناقب أمير المؤمنين عليه السلام العشر ، بلغ قوله : لا ينبغي لأصحاب بدر وأصحاب الشَجَرَة أن يرضوا عن أنفسهم ؛ ويغترّوا ويتباهوا ويرون أنفسهم من أهل الجنّة بمجرّد اشتراكهم في غزوة بدر ، أو بيعتهم تحت الشجرة ونزول الآية فيهم : لَّقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [٣٣٥] . فهذا الرضا المؤقّت كان بحسب حالهم آنذاك . ونلاحظ أنّ الله قد غضب على بعضهم فيما بعد ، فما عاد رضا الله دائماً . أمّا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقد اشترك في بدر وحُنين ، وكان سبّاقاً على الجميع ، ولم يسخط عليه الله بسبب تغيير النهج ، لأنّه لم يغيّر نهجه ، بل كان على منهاج رسول الله . وأمّا عمر ، فقد غيّر نهجه ، وخرج من السنّة ، فلهذا نزلت آية السخط والغضب الإلهيّ وهي تنطق بجهنّميّته ، وبيّنها رسول الله .

وذيل الحديث هو أنّ ابن عبّاس قال : وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ في القرآن أنّه رضي عنهم [٣٣٦] ، عن أصحاب الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ؛ فهل أخبرنا أنّه سخط عليهم بعد ذلك ؟ (نعم ، أخبر بذلك) .

قال ابن عبّاس : وقال نبيّ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمر حين قال : ائذن لي فأضرب عنقه ! قال : وَكُنْتَ فَاعِلَاً وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ اللَهَ قَدِ اطّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ . (عنق حاطب بن أبي بُلتَعة ، كما ورد في صحيح البخاريّ ومسلم ، إذ كان يرسل أخبار المسلمين إلى المشركين بمكّة سرّاً [٣٣٧]) .

وهذه الآية (اعملوا ما شئتم) هي الآية ٤٠ ، من السورة ٤١ : فصّلت : إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى ءَايَتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَى فِى النّارِ خَيْرٌ أَم مّن يَأْتِى ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وهذا الكلام الصادر من النبيّ لانحراف وإلحاد عمر وأعوانه قويّ جدّاً .

وتوضيح ذلك : أوّلاً : أراد رسول الله بهذا الكلام أن يشعر عمر أنّه لا فضل له على حَاطِبِ بْنِ أَبِي بُلْتَعَة الخائن والجاسوس الذي كان يتجسّس لمصلحة كفّار العرب ومشركيهم ، فيكون خليقاً بقتله ؛ وعمر بما أنّه عمر لا يحقّ له قتله . ثانياً : لا ينبغي لعمر وأمثاله أن يغترّوا ويتباهوا لحضورهم في غزوة بدر ، أو بيعتهم تحت الشجرة ونزول الآية الدالّة على رضا الله عنهم جميعاً . ذلك أنّ الآية الدالّة على سخط الله وغضبه عليهم لإلحادهم وهتكهم آيات الله ، وتحليلهم حرام الله ، وتمزيقهم حجاب عصمة الناموس الإلهيّ والنبويّ قد نزلت بعد ذلك .

إنّ الآية الكريمة اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ لم تتكرّر في القرآن الكريم ، وإنّ تلاوة الرسول لها ، واستشهاده بها ، مع المضامين التي قبلها ، وتتمثّل في أنّ الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يُلقَى في النار خير أم من يأتي آمناً بسلامٍ يوم القيامة ؟ والممارسات التي صدرت عن عمر وحزبه سواء في عصر رسول الله أم بعد وفاته ، والتطبيق الدقيق لهذه الآية مع تلك الجنايات ، وضروب الهتك والانتهاك ، كلّ ذلك يدلّ جيّداً على أنّ آيات الرضا عن أهل بدر والرضوان كانت مؤقّتة ، وأنّها نزلت وفقاً لوضعهم يومئذٍ ؛ وهي لا تدلّ على أنّ الله يرضى عنهم فيما بعد حتّى لو ارتكبوا ألف جناية وخيانة . وبالأخصّ نرى في قوله : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ تهديداً عجيباً . ويشعر أنّ حبل ربطكم قد انفرط ، وأنّ السيل بلغ الزّبى ، فاعملوا ما شئتم ، فأنا عليم بما تعملون .

وقد أخرج هذا الحديث ، مضافاً إلى أحمد بن حنبل في مسنده ــ ونحن ذكرناه ــ الحاكم في «المستدرك» ج ٣ ، ص ١٣٤ ، وابن حجر العسقلانيّ في «الإصابة» ج ٢ ، ص ٥٠٢ ، عن أحمد بن حنبل والنسائيّ ، عن طريق عمرو بن ميمون .

وذكر صاحب «الإصابة» في آخره ما نصّه : وقَالَ رَسُولُ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : يَا عُمَرُ ! مَا يُدْرِيكَ إنّ اللَهَ اطّلَعَ عَلَى بَدْرٍ فَقَالَ : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [٣٣٨] » ؟! وذكره ابن حجر الهيثميّ في «مجمع الزوائد» ج ٩ ، ص ١٢٠ ، وقال : رواه أحمد والطبرانيّ أيضاً في «الكبير» و «الأوسط» باختصار .

أجل ، لقد تحدّثنا هنا عن هذا المقام والموطن ، أي : موطن حديث المنزلة عند سفر رسول الله إلى تبوك حديثاً وافياً بحمد الله وتوفيقه . ومن المناسب أن نختم بحثنا هذا بأبيات منسوبة إلى ديوان أمير المؤمنين عليه السلام .

أَلَا بَاعَدَ اللَهُ أَهْلَ النّفَاقْ
وَأَهْلَ الأَرَاجِيفِ وَالبَاطِلِ
يَقُولُونَ لِي قَدْ قَلَاكَ الرّسُولْ
فَخَلّاكَ فِي الخَالِفِ الخَاذِلِ
وَمَا ذَاكَ إلّا لِأَنّ النّبِيّ
جَفَاكَ وَمَا كَانَ بِالفَاعِلِ
فَسِرْتُ وَسَيْفِي عَلَى عَاتِقِي
إِلَى الرّاحِمِ الحَاكِمِ الفَاضِلِ
فَلَمّا رَآنِي هَفَا قَلْبُهُ
وَقَالَ مَقَالَ الأَخِ السّائِلِ
أَمِمّ ابْنَ عَمّي ؟ فَأَنْبَأْتُهُ
بِأَرْجَافِ ذِي الحَسَدِ الدّاغِلِ
فَقَالَ : أَخِي أَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ
كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى وَلَمْ يَأْتَلِ [٣٣٩]

ونتوسّل بهذا الرباعيّ :

رَأَيْتُ وَلَائِي آلَ طَهَ وَسِيلَةً
عَلَى رَغْمِ أَهْلِ البُعْدِ يُورِثُنِي القُرْبَى
فَمَا طَلَبَ المَبْعُوثُ أَجْرَاً عَلَى الهُدَى
بِتَبْلِيغِهِ إلّا المَوَدّةَ لِلْقُرْبَى [٣٤٠]

اللَهُمّ صَلّ عَلَى سِرّ الأَسْرَارِ ، وَمَشْرِقِ الأَنْوَارِ ، المُهَنْدِسِ فِي الغُيُوبِ اللّاهُوتِيّةِ ، السّيّاحِ فِي الفَيَافِي الجَبَرُوتِيّةِ ، المُصَوّرِ لِلهَيُولَى المَلَكُوتِيّةِ ، الوَالِي لِلوَلَايَةِ النّاسُوتِيّةِ ، أُنمُوذَجِ الوَاقِعِ ، وَشَخْصِ الإِطْلَاقِ ، المُنْطَبِعِ فِي مَرَايَا الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ ، سِرّ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ، سَيّدِ الأَوْصِيَاءِ وَالصّدّيقِينَ ، صُورَةِ الأَمَانَةِ الإِلهِيّةِ ، مَادّةِ العُلُومِ الغَيْرِ المُتَنَاهِيَةِ ، الظّاهِرِ بِالبُرْهَانِ ، البَاطِنِ بِالقُدْرَةِ وَالشّانِ ، بَسْمَلَةِ كِتَابِ المَوْجُودِ ، فَاتِحَةِ

مُصْحَفِ الوُجُودِ ، حَقِيقَةِ النّقْطَةِ البَائِيّةِ ، المُتَحَقّق بَالمَرَاتِبِ الإنْسَانِيّةِ حَيْدَرِ آجَامِ الإبْدَاعِ ، الكَرّارِ فِي مَعَارِكِ الاخْتِرَاعِ ، السّرّ الجَلِيّ ، وَالنّجْمِ الثّاقِبِ ، عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ الصّلَاةُ وَالسّلَامُ [٣٤١] .

[٣٤١] .

تعليقات:

١) الآية ١٤٢ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢) مجمع البيان» ج ٢ ، ص ٤٧٣ ، طبعة صيدا .

٣) تفسير «الميزان» ج ٨ ، ص ٢٤٧ و . ٢٤٨

٤) ليس ترتيب هذه المقامات من حيث الزمن ، بل من حيث الإحصاء والتعداد .

٥) كانت دار الندوة تمثّل مجلس الشورى لعرب الجاهليّة . إذ كان رؤساؤهم يجتمعون فيها للتشاور واتّخاذ القرار في الشؤون المهمّة .

٦) مروج الذهب» ج ٣ ، ص ٢٣ و ٢٤ ، طبعة مطبعة السعادة سنة . ١٣٦٧ ومن طبعة مطبعة دار الأندلس ، ص ١٤ و . ١٥ وهذه القصيدة في ديوان السيّد إسماعيل الحميريّ ، من ص ١٦٠ إلى ص ١٦٢ ، تحت الرقم . ٤٥ روى ذلك أوّلاً عن «مروج الذهب» ج ٣ ، ص . ٢٤ وثانياً : ذكر البيت الأوّل ، والثاني ، والخامس ، والثالث ، والسابع عن «أعيان الشيعة» ج ١٢ ، ص ٢٣٩ ، ونقل بيتاً آخر ــ وهو الذي جعله البيت السادس في الديوان ــ عن ص ١٣٦ من «أعيان الشيعة» ، والبيت هو :

إذَا أَتَى مَعْشَرَاً يَوْمَاً أَنَامَهَم

إنَامَةَ الرّيحِ فِي تَدْمِيرِهَا عَادَا

أي إذا جاء أبو الحسن عليّ بن أبي طالب لقتال جماعة المشركين في يوم من الأيّام ، فإنّه ينيمهم على الأرض كما أنامت الريح قوم عاد .

إذن ، جاءت هذه القصيدة في ديوان الحميريّ ذات أحد عشر بيتاً . وروى في «الاستيعاب» ج ٣ ، ص ١١٣٣ الأبيات السبعة الأُولى عن الحميريّ .

٧) يقصد الحميريّ من «تيم أخا صلَف» طلحة بن عبيد الله الذي نكث بيعة أمير المؤمنين عليه السلام وتحرّك لحربه في واقعة الجمل . وكذلك تيم اسم قبيلة عائشة . والمراد من عديّ الجاحد حقّ الله عبد الله بن عمر ، وهو من قبيلة عدي ، ومن المتخلّفين عن موكب المبايعين ؛ والقصد من بني أسَدْ الزبير بن العوّام الذي نكث البيعة أيضاً ودخل في قضيّة الجمل ؛ إذ إنّ الزبير من بني أسَدْ بن العُزّى بن قُصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي . وكذلك كان ولده عبد الله قد أدّى دوراً كبيراً في تأريث نار الحرب . والمراد من رهط سعد ، سعد بن أبي وقّاص . واسم أبي وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة . والمقصود من بني زهر بنو زهرة ، قبيلة سعد بن أبي وقّاص . وكان قد جاء في كلام معاوية وهو يخاطب سعد بن أبي وقّاص : يأبى عليك ذلك (الخلافة) بنو عذرة . وقال معاوية هذا الكلام لسعد وهو يسخر منه ويضرط له . وفيه كناية عن القدح

في نسبه ؛ ذلك أنّه أراد أن يشعره أنّه ليس من قريش ! وينبغي أن يكون الخليفة من قريش ! ونسبه يرجع إلى بني عذرة .

٨) سفينة البحار» ج ١ ، ص . ٥٠٦ ولا يخفى أنّ المرحوم الميرزا عبد الله أفندي نقل المطلب المذكور في «رياض العلماء» عن المرحوم السيّد مرتضى بن الداعي صاحب كتاب «تبصرة العوامّ» ، وهو أحد علماء الشيعة الكبار . وتقصّينا في المصادر المعيّنة ك «الإصابة» و «الاستيعاب» ، و «وفيّات الأعيان» فلم نجد صحابيّاً باسم سعيد بن مالك . إلّا في «تنقيح المقال» إذ قال المامقانيّ في ج ٢ ، ص ١٠ : إنّ اسم أبي سعيد الخدريّ سعد أو سعيد بن مالك . وذكرت سائر الكتب أنّ اسم أبي سعيد هو سعد بن مالك . وحينئذٍ لعلّ المراد من سعيد بن مالك في عبارة «رياض العلماء» هو أبو سعيد الخدريّ . كما نصّ صاحب «مروج الذهب» على أنّ أبا سعيد الخدريّ كان أحد المتخلّفين عن البيعة . وعدّه صاحب «تنقيح المقال» نقلاً عن الشيخ في رجاله من أصحاب النبيّ تارة ، ومن أصحاب أمير المؤمنين تارة أُخرى . وذهب الشيخ الكشّيّ إلى أنّه من السابقين الأوّلين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام . وفي حديث الفضل بن شاذان عدّه الإمام الرضا عليه السلام من الذين كانوا يعملون على منهاج النبيّ ولم يغيّروا ولم يبدّلوا . ونقل العلّامة عن البرقيّ أنّه كان من أصفياء أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام . وقال الإمام الصادق عليه السلام : كان من أصحاب رسول الله وكان مستقيماً ــ إلى آخر الكلام .

٩) ما بين الهلالين في النسخة البدل .

١٠) مروج الذهب» ج ٢ ، ص ٣٦١ و ٣٦٢ ، طبعة مطبعة السعادة .

١١) الاستيعاب» ج ٢ ، ص . ٦٠٧

١٢) تنقيح المقال» ج ٢ ، ص . ١٢

١٣) مروج الذهب» ج ٣ ص ٢٤ و . ٢٥ وهذه الآية ٢٣ ، من السورة ٨ : الأنفال .

١٤) الطبقات الكبرى» لابن سعد ، ج ٣ ، ص . ١٤٣

١٥) الطبقات الكبرى» لابن سعد ، ج ٣ ، ص . ١٤٤

١٦) الاستيعاب» ج ٢ ،ص ٦٠٩ و . ٦١٠

١٧) الاستيعاب» ج ٢ ، ص . ٦١٠

١٨) نفسه ج ٣ ، ص . ١١٢٠

١٩) تنقيح المقال» ج ٢ ، ص ١١ ، . ١٢

٢٠) الاستيعاب» ج ٢ ، ص . ٦٠٨ ورواه في ص ٦٠٧ بقوله : اللهمّ سدّد سهمه ، وأجب دعوته .

٢١) الآية ٥٩ ، من السورة ٤ : النساء .

٢٢) الآية ٩ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٢٣) نقل المجلسيّ رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» ج ٤ ، ص ٩٠ ، طبعة الكمبانيّ ، عن كتاب «الاختصاص» للشيخ المفيد ، عن ابن عبّاس ، قال : لمّا بُعث محمّد صلّى الله عليه وآله أمر أن يكتب إلى أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى كتاباً . وكان كاتبه يومئذ سعد بن أبي وقّاص ، فكتب إلى يهود خيبر : بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد بن عبد الله الأُمّيّ رسول الله إلى يهود خيبر : أمّا بعد ؛ فإنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ــ الحديث .

٢٤) روى في «الاستيعاب» ج ٢ ، ص ٦٠٧ عن الواقديّ ، عن سلمة ، عن عائشة بنت سعد ، عن سعد ، قال : أسلمت وأنا ابنُ تسع عشرة سنة . فإذا كان إسلامه في أوّل البعثة إذ كان عمر أمير المؤمنين عليه السلام عشر سنوات ، فهو يكبر الإمام بتسع سنين . وروى ابن سعد في طبقاته ، ج ٣ ، ص ١٤٨ و ١٤٩ عن عائشة بنت سعد قالت : مات أبي في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ، فحمل إلى المدينة على رقاب الرجال . وصلّى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة . وذلك في سنة ٥٥ ه وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة . وفي ضوء الرواية السابقة إذا كان عمره في أوّل البعثة تسع عشرة سنة ، فقد بلغ السابعة والثمانين يوم موته . وذكر في «الاستيعاب» ج ٢ ، ص ٦١٠ ، عن أبي زُرعة ، عن أحمد بن حنبل أنّ سعد بن أبي وقّاص مات أيّام معاوية وهو ابن ثلاث وثمانين سنة .

٢٥) جاء في «أقرب الموارد» السّخّل والسُخّال الضعفاء من الرجال الأرذال . يقال : رجالٌ سُخّل وسُخّال . قال خالد : واحدهم سَخْل . والسّخْلُ أيضاً ما لم يَتم من كلّ شيء . أمّا ولد الشاة فهو سَخْلَة [كيف] ما كان . وجمعه سَخْل وسِخال وسُخْلان .

٢٦) بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٦٣٥ ، طبعة الكمبانيّ . ومضافاً إلى ابن بابويه ، فإنّ ابن قولويه ذكرها أيضاً في «كامل الزيارات» ص ٧٤ وفيها اسم سعد بن أبي وقّاص ، لكنّ الشيخ المفيد ذكرها في «الإرشاد» بلفظ : قام إليه رجل . وفيما يأتي كلامه : ... خطب عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال في خطبته : سلوني قبل أن تفقدوني ! فو الله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائةً وتهدي مائة إلّا نبّأتكم بناعقها وسائقها إلى يوم القيامة . فقام إليه رجل فقال : أخبرني كم في رأسي ولحيتي من طاقة شعر ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : والله لقد حدّثني خليلي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بما سألت عنه وإنّ على كلّ طاقة شعر في رأسك مَلَكاً يلعنك وعلى كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطان يستفزّك وإنّ في بيتك لسخلاً يقتل ابن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وآية ذلك مصداق ما أخبرتك به ولولا أنّ الذي سألت عنه يعسر برهانه لأخبرتك به ولكن آية ذلك

ما نبأت به من لعنتك وسخلك الملعون . وكان ابنه في ذلك الوقت صبيّاً صغيراً يحبو . فلمّا كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان ، تولّى قتله وكان الأمر كما قال أمير المؤمنين عليه السلام . «الإرشاد» ص «١٨٢ و ١٨٣ ، الطبعة الحجريّة . ونقل ابن شهرآشوب هذه القضيّة برمّتها في مناقبه ج ١ ، ص ٤٢٧ عن فضيل بن الزبير ، عن أبي الحكيم ، عن مشايخه .

٢٧) يقول : «من فرّ من ضرائب الملك ، فإنّ غول الصحراء يجعل منه حمّالاً» .

٢٨) جاء في «مقاتل الطالبيّين» ج ١ ، ص ٥١ و ٥٢ طبعة دار المعرفة بلبنان ، ضمن خطبة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : وما خلف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.

وورد هذا المطلب أيضاً في «الطبقات» لابن سعد ، ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ وكذلك في «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص . ١٧٢

٢٩) مقاتل الطالبيّن» ج ١ ، ص . ٥٠

٣٠) مقاتل الطالبيّين» ج ١ ، ص . ٧٣ وقال في سند آخر أيضاً : توفّي الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقّاص في أيّام بعدما مضى من إمارة معاوية عشر سنين وكانوا يرون أنّه سقاهما سمّاً . وورد ذلك في تعليقة لابن أبي الحديد .

٣١) عامر ، ومصعب ، وإبراهيم ، وعمر . وبنته عائشة كانت من الرواة .

٣٢) وردت رواية بسند متّصل عن الحارث بن ثعلبة في «الأمالي» للمفيد ، ص ٥٥ إلى ٥٨ ، في المجلس السابع ، طبعة جماعة المدرّسين . وملخّصها : قدم رجلان يريدان مكّة والمدينة في الهلال أو قبل الهلال ، فوجدا الناس ناهضين إلى الحجّ . قالا : فخرجنا معهم فإذا نحن بركب فيهم رجل كأنّه أميرهم . فانتبذ منهم فقال [لنا] : كونا عراقيّين ؟! قلنا : نحن عراقيّان ! قال : كونا كوفيّين ؟! قلنا : نحن كوفيّان ! قال : ممّن أنتما ؟ قلنا : من بني كنانة . قال : من أيّ كنانة ؟ قلنا : من بني مالك بن كنانة . قال : رحب على رحب وقرب على قرب ! أُنشد كما بكلّ كتاب منزل ونبيّ مرسل ، أسمعتما عليّ بن أبي طالب يسبّني أو يقول : إنّه معادي أو مقاتلي ؟! قلنا : من أنتَ ؟ قال : أنا سعد بن أبي وقّاص . قلنا : لا . قال : أسمعتماه يضنّ باسمي [ويذكرني بسوء] ؟ قالا : [قلنا] : لا . قال : الله أكبر ؛ الله أكبر قد ضللت إذاً ... بعد أربع سمعتهنّ من رسول الله صلّى الله عليه وآله فيه لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها أُعمرّ فيها عمر نوح . ثمّ ذكر سعد هذه الأربع ومنها : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي ــ الحديث . (وورد هذا الحديث في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٤٣٥

، طبعة الكمبانيّ ، ومن الطبعة الحديثة ج ٤٠ ، ص ٣٩ إلى ٤١ ؛ كذلك ورد في «غاية المرام» ص ١٢٩ ، الحديث ١٢).

٣٣) الاستيعاب» ج ٣ ، ص . ١١١٧

٣٤ــ٣٥ــ٣٦) «الاستيعاب» ج ٣ ، ص . ٩٥٣

٣٧) الاستيعاب» ج ٣ ، ص . ٩٥٣ ووردت في «تاريخ دمشق» ، الجزء الخاصّ بترجمة أمير المؤمنين عليه السلام ، الجزء الثالث في التعليقة ص ١٧٣ و ١٧٤ روايات كثيرة عن مصادر مختلفة في تأسّف عبد الله بن عمر على قعوده عن القتال وعدم نصرة أمير المؤمنين عليه السلام .

٣٨) ذكر في «الاستيعاب» ج ٣ ص ٩٥٢ و ٩٥٣ قائلاً : قال أبو عمر : مات عبد الله بن عمر بمكّة سنة . ٧٣ وكان الحجّاج قد أمر رجلاً فسمّ زُجّ رمحه وزحمه في الطريق ، ووضع الزجّ في ظهر قدمه . وذلك أنّ الحجّاج خطب يوماً وأخّر الصلاة فقال ابن عمر : إنّ الشمس لا تنتظرك ! فقال له الحجّاج : لقد هممتُ أن أضرب الذي فيه عيناك ! قال : إن تفعل فإنّك سفيه مسلّط ! وقيل : إنّه أخفى قوله ذلك عن الحجّاج ولم يسمعه . وكان يتقدّم في المواقف بعرفة وغيرها إلى المواضع التي كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقف بها . فكان ذلك يعزّ على الحجّاج ، فأمر الحجّاج رجلاً معه حَربة يقال : إنّها كانت مسمومة . فلمّا دفع الناس من عرفة ، لصق به ذلك الرجل فأمَرّ الحربة على قدمه وهي في غرز راحلته فمرض منها أيّاماً . فدخل عليه الحجّاج يعوده ، فقال له : من فعل بك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : وما تصنع به ؟! قال : قتلني الله إن لم أقتله ! قال : ما أراك فاعلاً ! أنتَ الذي أمرت الذي نخسني بالحربة . فقال : لا تفعل يا أبا عبد الرحمن ! وخرج عنه . ونقل في «سفينة البحار» في مادّة عَبَدَ عن «گلزار قدس» (روضة القدس) للمحقّق الكاشانيّ قال : لمّا دخل الحجّاج مكّة وصلب ابن الزبير ، راح عبد الله بن عمر إليه ، وقال : مدّ يدك لأُبايعك لعبد الملك . قال رسول الله : من مات ولم يعرفإمام زمانه مات ميتة جاهليّة . فأخرج الحجّاج رجله وقال : خذ رجلي فإنّ يدي مشغولة . فقال ابن عمر : أتستهزئ منيّ ؟ قال الحجّاج : يا أحمق بني عَديّ ! ما بايعتَ عليّاً وتقول اليوم : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة ! أَوَ ما كان عليّ إمام زمانك ؟ والله ما جئتَ إليّ لقول رسول الله ! بل جئت مخافة تلك الشجرة التي صلب عليها ابن الزبير .

٣٩) روى علماء الشيعة والعامّة في كتبهم مضمون هذا الحديث بَلِ اللَهُ أَدْخَلَهُ وَأَخْرَجَكُمْ على نحو الاستفاضة . ومن هؤلاء : الإمام الحافظ عليّ بن حسن بن هبة الله الشافعيّ المعروف بابن عساكر الذي كان يعيش في القرن السادس . رواه في تاريخه

المعروف : «تاريخ دمشق» عند ترجمة عليّ بن أبي طالب في ج ٢ ، ص ٣١٢ إلى ٣١٤ بأربعة أسانيد مختلفة تحت الرقم ٨١٦ إلى الرقم . ٨١٩

وأخرج في ج ٣ ، ص ٥٥ ، الحديث ١٠٩٤ بسنده أنّ سعد بن مالك (أبا سعيد الخدريّ) أتى سعد بن أبي وقّاص ، فقال له سعد : بلغني أنّكم تعرضون على سبّ عليّ بالكوفة ! فهل سببته ؟ قال سعد بن مالك : معاذ الله ! قال سعد بن أبي وقّاص : والذي نفس سعد بيده لقد سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يقول في عليّ شيئاً لو وضع المنشار على فرقي [ظ] على أن أسبّه ما سببته أبداً .

٤٠) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٢٩ و ١٣٠ ، الحديث . ١٤

٤١) الآية ٩ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٤٢) ذكر كبار الخاصّة والعامّة لقاء معاوية سعد بن أبي وقّاص بعبارات مختلفة في كتبهم ومن هؤلاء عليّ بن عيسى الإربليّ . فقد أخرج في «كشف الغمّة» ص ٤٣ و ٤٤ عن «المناقب» للخوارزميّ بإسناده عن أبي عيسى الترمذيّ ، عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص ، عن أبيه ، قال : أمر معاوية سعد بن أبي وقّاص أن يسبّ عليّاً فامتنع . فقال معاوية : ما منعك أن تسبّ أبا تراب ؟! قال : سمعت ثلاثة أشياء عن رسول الله في عليّ لأن تكون لي واحدة أحبّ إليّ من حمر النعم ! سمعت رسول الله يقول لعليّ وخلفه في بعض مغازيه تكون أنت في بيتي إلى أن أعود . قال له عليّ : يا رسول الله ! تخلّفني مع النساء والصبيان ؟ فقال رسول الله : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبوّة بعدي ؟ وسمعته يقول يوم خيبر : لَأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله . قال : فتطاولنا لها . فقال النبيّ : ادْعُوا عليّاً . فأتى عليّ وبه رمد . فبصق رسول الله في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه . ولمّا نزلت هذه الآية : قل تعالوا ندع أبنآءنا وأبنآءكم ونسآءنا ونسآءكم وأنفسنا وأنفسكم ــ إلى آخر الآية ، دعا رسول الله عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، ثمّ قال : اللَهُمّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي !

قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث حَسَنٌ غريبٌ صحيح من هذا الوجه . وقال رضي الله عنه : قال رسول الله : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى . أخرجه الشيخان البخاريّ ومسلم في صحيحيهما بطرق مختلفة . ورواه ابن حجر العسقلانيّ في كتاب «الإصابة» ج ٢ ، ص ٥٠٣ عن الترمذيّ بسند قويّ ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه سعد . وذكره ابن الأثير الجزريّ في «أُسد الغابة» ج ٤ ، ص ٢٥ ، ٢٦ في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام . وورد هذا الحوار بين معاوية وسعد في «غاية المرام» القسم الأوّل ص ١١٤ ، الحديث ٥٣ عن العامّة ، و ص ١٣٠ عن الخاصّة . بَيدَ أنّ مؤلّفه نقل منقبة أُخرى وهي نزول آية التطهير ودخول الخمسة الطيّبة تحت الكساء مكان آية أنفسنا . وأخرج هذا الحديث عن ابن شيرويه في كتاب «الفردوس» . وكذلك

أورد النصّ الأوّل في «غاية المرام» ص ١١٥ ، الحديث ٥٧ عن موفّق بن أحمد الخوارزميّ في مناقبه ، وفي ص ١٢٣ و ١٢٤ عن إبراهيم الحمّوئيّ في «فرائد السمطين » عن العامّة ، وفي ص ١٣٠ ، الحديث ١٩ ، عن الخاصّة ، عن «الأمالي» للشيخ الطوسيّ . وأخرج الحاكم النصّ الثاني في مستدركه ، ج ٣ ، ص ١٠٨ و . ١٠٩ وكذلك أخرجه ابن الأثير الجزريّ في «أُسد الغابة» ج ٤ ، ص ٢٥ و . ٢٦

٤٣) وذكر ابن كثير هذا الحديث في «البداية والنهاية» ج ٨ ، ص ٧٧ عن كثير نوري ، عن عبد الله بن بدليل .

٤٤) روى في «كنز العمّال» بسندين ، وفي «المناقب» للخوارزميّ عن أمير المؤمنين عليه السلام : لمّا كان يوم الحديبيّة خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وعدد من رؤساء المشركين فقالوا : يا رسول الله ! خرج بك ناس من أبنائنا وإخوتنا وأرقّائنا ليس بهم فقه فى الدين ، وإنّما خرجوا فراراً من أموالنا وضياعنا وأملاكنا التي كانوا يعملون بها ، فارددهم إلينا . فشاور [رسول الله] أبا بكر في أمرهم . فقال : صدقوا يا رسول الله . وقال لعمر : ما ترى ؟ فقال : مثل قول أبي بكر . فقال رسول الله : يا معشر قريش ليبعثنّ الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان ، فيضرب رقابكم على الدين . فقال أبو بكر : من هو يا رسول الله ؟ وقال عمر : من هو يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : خَاصِف النّعل في المسجد . وقد كان ألقى نعله إلى أمير المؤمنين يخصفها . ثمّ قال أمير المؤمنين : قال رسول الله : لَا تَكْذِبُوا عَلَيّ فَإنّ مَنْ كَذَبَ عَلَيّ مُتَعَمّدَاً فَلْيَتَبَوّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ . «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص ١٥٣ و ١٥٤ ، الحديث ٤٣٣ و ٤٣٤ طبعة حيدر آباد ؛ و «المناقب» للخوارزميّ ، ص ٨٥و «٨٦ ، طبعة النجف .

٤٥) غاية المرام» ص ١٢٥ ، الحديث ٩٩ عن العامّة .

٤٦) غاية المرام» ص ١٠٩ و ١١٠ ، الحديث ١ إلى ١١ عن العامّة .

٤٧) غاية المرام» ص ١١٠ ، الحديث ١٢ إلى ١٤ عن العامّة .

٤٨) غاية المرام» ص ١١٠ و ١١١ ، الحديث ١٥ إلى ٢١ عن العامّة .

٤٩) غاية المرام» ص ١١١ ، الحديث الثاني والعشرون ، و فيه أيضاً ص ١١٦ ، الحديث ٦١ ، عن العامّة بسند آخر عن موفّق بن أحمد الخوارزميّ في «الفضائل» .

٥٠) غاية المرام» ص ١١١ و ١١٢ ، الحديث ٢٣ إلى ٤٠ عن العامّة . وقال ابن طاووس في «الطرائف» ج ١ ، ص ٥١ إلى ٥٥ بعد نقل ستّة أحاديث في المنزلة عن «مسند أحمد بن حنبل» ، و «الجمع بين الصحيحين» للحميديّ ، و «صحيح البخاريّ» و «صحيح مسلم» وغيرها : وقد صنّف القاضي أبو القاسم التنوخيّ ــ وهو من أعيان رجال العامّة ــ كتاباً سمّاه : «ذكر الروايات عن النبيّ» أنّه قال لأمير المؤمنين عليّ بن

أبي طالب : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي ، وبيان طرقها واختلاف وجوهها .

وروى التنوخيّ حديث النبيّ لعليّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسى عن عمر بن الخطّاب ، وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عبّاس ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد الخدريّ ، وجابر بن سمرة ، ومالك بن حويرث ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم ، وأبي رافع مولى رسول الله ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وأخيه زيد بن أبي أوفى ، وأبي سريحة ، وحذيفة بن أُسيد ، وأنس بن مالك ، وأبي بريدة الأسلميّ ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبي أيّوب الأنصاريّ ، وعقيل بن أبي طالب ، وحبشى بن جنادة السلوليّ ، وأُمّ سلمة زوجة النبيّ ، وأسماء بنت عميس ، وسعيد بن المسيّب ، ومحمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام ، وحبيب بن أبي ثابت ، وفاطمة بنت عليّ ، وشرحبيل بن سعد .

وقد ذكر الحاكم أبو نصر الحربيّ في كتاب «التحقيق لما احتجّ به أمير المؤمنين عليه السلام يوم الشورى» وهذا الحاكم من أعيان المذاهب الأربعة ، وقد كان أدرك حياة أبي العبّاس بن عقدة الحافظ ، وكانت وفاة ابن عقدة سنة . ٣٣٣ فذكر أنّه روى قول النبيّ في عليّ : أنت منيّ بمنزلة هارون من موسى عن خلق كثير . ثمّ ذكر أنّه رواه عن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقّاص ، والحسن بن عليّ بن أبي طالب ، وعبد الله بنعبّاس ، وعبد الله بن عمر ، وابن المنذر ، وأُبيّ بن كعب ، وأبي اليقظان ، وعمّار بن ياسر ، وجابر بن عبد الله ، وأبي سعيد الخدريّ ، وفاطمة بنت حمزة ، وفاطمة بنت رسول الله ، وأسماء بنت عميس ، وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب ، ومعاوية ، وبريدة ، وأنس وجابر بن سمرة ، ومالك بن حويرث ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وحبشي بن جنادة .

٥١) غاية المرام» ص ١١١ ، الحديث ٣٢ ؛ ومناقب ابن المغازليّ ص ٣٢ و ٣٣ ، الحديث ٤٩ ؛ ورواه أيضاً الحافظ الذهبيّ في «ميزان الاعتدال» ج ١ ، ص ٢٦٢ ؛ وكذلك رواه ابن حجر العسقلانيّ في «لسان الميزان» ج ٢ ، ص . ٣٢٤

٥٢) غاية المرام» ص ١١٢ ، الحديث الأربعون عن العامّة ؛ وكذلك ورد في ص ١١٤ و ١١٥ منه مضمون هذا الحديث بسند آخر عن الخوارزميّ في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام تحت الحديث ٥٥ عن العامّة ؛ ورواه أيضاً في ص ١١٤ في الحديث ٥٢ عن العامّة بأسناد أُخرى عن كتاب «الفردوس» لابن شيرويه الديلميّ ؛ وذكره أيضاً في ص ١٢٤ ، الحديث ٩٢ ، عن العامّة بسند آخر عن عليّ بن أحمدالمالكيّ في «الفصول المهمّة» . وقال عمر في ذيله : قال رسول الله : كذب من زعم أنّه يحبنيّ ويبغضك . يا عليّ ! من أحبّك فقد أحبّني . ومن أحبّني أحبّه الله تعالى

وأدخله الله الجنّة . ومن أبغضك فقد أبغضني . ومن أبغضني أبغضه الله تعالى وأدخله النار . وكذلك جاء هذا الحديث كلّه في «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص ١٠٨ بوصفه مسند عمر ، وقال : أخرجه حسن بن بدر فيما رواه الخلفاء ، والحاكم الدركُنيّ ، والشيرازيّ في «الألقاب» ، وابن النجّار .

٥٣) غاية المرام» ص ١١٢ ، الحديث ٤٢ ، عن العامّة .

٥٤) غاية المرام» ص ١١٤ ، الحديث ٤٨ ، عن العامّة .

٥٥) الجُرف بضمّ الجيم وسكون الراء موضع يبعد عن المدينة فرسخاً واحداً . جعل رسول الله الموعد فيه ، فيجتمع الجيش كلّه فيه ، ثمّ ينطلق منه .

٥٦) غاية المرام» ص ١١٤ ، الحديث ٥٠ ، عن العامّة .

٥٧) جاء في «الطبقات» لابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٦٦ : أنّ بين دومة الجندل وبين المدينة خمس عشرة ليلة . وقال في «معجم البلدان» : وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول . (وكلّ مرحلة ثمانية فراسخ ومسافة يوم واحد) . وقال أيضاً : دُومة الجُندل بضمّ الدال وفتحها . وقد أنكر ابن دريد الفتح وعدّه من أغلاط المحدّثين . فأمّا دومة فعليها سور يتحصّن به . وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد . وهو حصن أُكَيْدِر بن عبد الملك بن عبد الحيّ بن أعيا بن الحارث . وكان سلطانه . وفتح خالد بن الوليد هذا الحصن ، وأسلم أُكَيْدِر فأشخصه خالد إلى المدينة ، وعقدت معاهدة بينه وبين النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

٥٨) جاء في «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥١ : أنّه عسكر بالجُرف . وورد في «معجم البلدان» : الجرف على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

٥٩) جاء في «السيرة النبويّة» لابن هشام ج ٤ ، ص ٩٤٦ : ضرب عبد الله بن أُبَيّ معه على حده عسكره أسفل من عسكر رسول الله نحو ذُباب . وفي ضوء ما يزعمون فإنّ عسكره ليس أقلّ من عسكر رسول الله ؛ «الطبقات» لابن سعد ج ٢ ، ص ١٦٥ ؛ و «المغازي» للواقديّ ، ج ٣ ، ص ٩٩٥ ؛ و «تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ٧

٦٠) المغازيّ» للواقديّ ، ج ٣ ، ص ٩٩٥ و ٩٩٦ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص١٤٩ و١٥٠ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٧٧ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٨ ، الطبعة الرابعة ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص . ٣٩٩

٦١) بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٥ ، طبعة الكمبانيّ ، عن تفسير الإمام العسكريّ عليه السلام .

٦٢) ضبطه المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٤ طبعة الكمبانيّ : الدرثوك نقلاً عن «تفسير عليّ بن إبراهيم» ؛ وقال عن الجوهريّ : الدّرثوك ضرب من البسط وخمل وتشبه به فروة البعير .

٦٣) ورد في «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٠ ما نصّه : وقيل للروم بنو الأصفر لأنّهم ولد روم بن العيص بن إسحاق نبيّ الله . وكان يسمّى الأصفر لصفرة به . فقد ذكر العلماء بأخبار القدماء أنّ العيص تزوّج بنت عمّه إسماعيل فولدت له الروم . وكان به صفرة ، فقيل له : الأصفر . وقيل : الصفرة كانت بأبيه العيص ــ انتهى . وقال المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٦ : قال في «القاموس» : بنو الأصفر ملوك الروم أولاد الأصفر بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم . أو لأنّ جيشاً من الحبشة غلب عليهم فوطىء نساءهم ، فوُلد لهم أولاد صفر .

٦٤) قال في «معجم البلدان» البلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمّان .

٦٥) وقال : حمص بالكسر ثمّ السكون ، والصاد مهملة . بلد مشهور قديم كبير مسوّر . وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق . ووردت هذه القصّة أيضاً في تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣١٢ ، عن «تفسير القمّيّ» .

٦٦) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٤٨ ؛ و «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ، ج ٢ ، ص . ٢٧٧ وقال محمّد حسنين هيكل في كتاب «حياة محمّد» ص ٤٢٥ حول سبب غزوة تبوك : ولم تكن ناحية من نواحي شبه الجزيرة إلّا بدأت تحسّ سلطان محمّد . ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان إلّا بعث النبيّ إليها قوّة يحملها على الإذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها أو الإسلام ودفع الزكاة . وفيما [كانت] عينه على بلاد العرب جميعاً حتّى لا ينتقض فيها منتقض ، وحتّى يستتبّ الأمن في ربوعها من أقصاها وإذ اتّصل بمحمّد نبأ من بلاد الروم أنّها تهيّئ جيوشاً لغزو حدود العرب الشماليّة غزواً ينسي الناس انسحاب العرب الماهر في مؤتة . وينسي الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف في كلّ ناحية ليتاخم سلطان الروم في الشام ، وسلطان فارس في الحيرة . واتّصل به النبأ مجسماً أيّما تجسيم .

وقال في ص ٤٢٩ : وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك . وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوّته ، فآثرت الانسحاب بجيشها الذي كانت وجّهت إلى حدودها ليحتمي داخل بلاد الشام في حصونها . فلمّا انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمّد أمر انسحاب الروم ونُمي إليه ما أصابهم من خوف ، لم يَرَ محلّاً لتتبّعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه .

٦٧) قال في «معجم البلدان» : ثَنِيّةُ الوَدَاع ثنيّة مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكّة . وقيل سمّيت بذلك لأنّها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكّة .

٦٨) المغازي» للواقديّ المتوفّى سنة ٢٠٧ ه ، ج ٣ ، ص ٩٨٩ إلى ٩٩٢ ؛ و «حبيب السّير» ج ١ ، ص . ٣٩٨

٦٩) الآيتان ٣٨ و ٣٩ ، من السورة ٩ : التوبة .

٧٠) الآية ٤٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٧١) الآية ٤١ ، من السورة ٩ : التوبة .

٧٢) تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٣٢ و ٣٣ ، طبعة صيدا .

٧٣) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٢٩٦ و . ٢٩٧

٧٤) جاء في «المغازي» للواقدي : تحتقب يعني : تركبها وراءك . وورد في «تفسير عليّ بن إبراهيم» ص ٢٦٧ : تحتفد أي : تخدمها . وهكذا نقلها في «الميزان» عن التفسير المذكور . ولكنّ المجلسيّ قال في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٦ : تحتفد : تجعلهنّ حفدة لك أي : أعواناً وخدماً . وفي بعض النسخ : تستحفد . ولعلّه أصوب .

٧٥) وردت هذه القصّة حتّى الكلمة المشار إليها في تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣١٣ و ٣١٤ عن «تفسير القمّيّ» ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص ٤٢٦ و . ٤٢٧

٧٦) الآيتان ٨١ و ٨٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٧٧) الآية ٤٩ ، من السورة ٩ : التوبة .

٧٨) المغازي» للواقديّ ، ج ٣ ، ص ٩٨٩ إلى ٩٩٣ ؛ وذكر ابن هشام مختصره في سيرته ، ج ٤ ، ص ٩٤٣ و ٩٤٤ ؛ وتفسير «نور الثّقَلَين» ج ٢ ، ص ٢٢٣ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٥٠

٧٩) سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٤ ؛ و«السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٠ ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص . ٤٢٧

٨٠) جاء الشباب بمعنى التّشْبِيب . يقال : قصيدةٌ حَسَنَةُ الشّباب . أي : استعمل فيها التشبيب جيّداً . والتشبيب هو ذكر أيّام الشباب واللهو والتغزّل . وهو وصف الشاعر محاسن النساء . وشرح هيامه وانجذابه إليهنّ .

٨١) الذراع : الطول من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى ، وهو قرابة نصف متر وأربعة أذرع يعني مترين . وفيه كناية عن مقدار القبر .

٨٢) تفسير القمّيّ» ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٣١٣ ؛ ورواها المجلسيّ في «بحارالأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٤ عن «تفسير القمّيّ» ؛ وشرح المجلسيّ في ص ٦٢٥ بعضاً من فقراتها تحت عنوان : بيان . منها أنّه قال : قال في «النهاية» : خير الأُمور عوازمها يعني فرائضها التي عزم الله عليك بفعلها . والمعنى ذات عزمها التي

فيها عزم . وقيل : هي ما وكّدت رأيك وعزمك عليه ووفيت بعهد الله فيه . والعزم الجدّ والصبر . وقال فيه : إيّاكم ومُحَدثات الأُمور جمع محدثة بالفتح وهي ما لم يكن معروفاً كتاباً ولا سنّة ولا إجماعاً . وقال في «النهاية» : وفي الحديث : ومن الناس من لا يذكر الله إلّا مهاجراً يريد هجران القلب وترك الإخلاص في الذكر فكان قلبه مهاجراً للسانه غير مواصل له . ومنه الحديث : ولا يسمعون القرآن إلّا هجْراً ، يريد الترك والإعراض عنه . والأمر إلى آخره ، أي الأمر ينفع إذا انتهى إلى آخره أو الأمر ينسب في الخير والشرّ والسعادة والشقاوة إلى آخره . وعلى التقديرين الفقرة الثانية كالتفسير لها .

وجاء في روايات العامّة : شرّ الروايا روايا الكذب . وذكر الواقديّ هذه الخطبة في «المغازيّ» ج ٣ ، ص ١٠١٦ و ١٠١٧ ، ولكنّه قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خطبها في تبوك . وأوردها ابن كثير في «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ١٣ عن البيهقيّ ، و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٦١

٨٣) ذكر المجلسيّ هذه الخطبة في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٥١٢ ضمن الأخبار المتعلّقة بغزوة أُحد . ورواها نقلاً عن الواقديّ . كما أنّ الواقديّ أوردها في «المغازيّ» ج ١ ، ص ٢٢١ إلى . ٢٢٣

٨٤) معنى هذه الجملة هو : «أنّني الذي أنشد هذه الأشعار ، وأهوى تلك المحبوبة أعنيكِ أيّتها الفتاة الجالسة في الخيمة» . ونقول في اللغة الفارسيّة مثله : «به در می گویم ، دیوار تو بشنو» وترجمته الحرفيّة : «أنا أتحدّث إلى الباب واسمع أيّها الجدار» . وجاء هذا المثل في كتاب «مجمع الأمثال» للميدانيّ ج ١ ، ص ٤٩ و ٥٠ من طبعة بيروت . وقال هناك : أوّل من قال : إيّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ سهل بن مالك الفزاريّ ، وذلك أنّه خرج يريد النعمان ، فمرّ ببعض أحياء طيء ، فسأل عن سيّد الحيّ ، فقيل له : حارثة بن لام ، فأَمّ رحله فلم يصبه شاهداً ؛ فقالت له أُخته : انزل في الرحب والسعة ! فنزل ، فأكرمته ولاطفته ؛ ثمّ خرجت من خبائها ، فرأى أجمل أهل دهرها وأكملهم . وكانت عقيلة قومها ، وسيّدة نسائها . فوقع في نفسه منها شيء ، فجعل لا يدري كيف يرسل إليها ، ولا ما يوافقها من ذلك . فجلس بفناء الخباء يوماً ، وهي تسمع كلامه ، فجعل ينشد ويقول :

يا أُخت خَير البَدْو والحضاره
كيف ترين في فتى فزاره ؟
أَصبح يَهْوى حُرّةَ معطاره
إيّاكِ أَعنِي واسمعي يَاجَاره

فلمّا سمعت قوله ، عرفت أنّه إيّاها يعني ، فقالت : ما يقول هذا ذو عقل أريب ، ولا رأي مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقم ما قمت مكرّماً ، ثمّ ارتحل متى شئت مسلماً . ويقال : أجابته نظماً فقالت :

إنّي أقول يا فتى فزاره
لا أبتغي الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذي الجاره
فارحل إلى أهلك باستخاره

فاستحى الفتى وقال : ما أردتُ منكراً ، واسوأتاه ! قالت : صدقت . فكأنّها استحيت من تسرّعها إلى تهمته ، فارتحل ، فأتى النعمان فحيّاه وأكرمه . فلمّا رجع ، نزل على أخيها . فبينا هو مقيم عندهم ، تطلّعت إليه نفسها ، وكان جميلاً . فأرسلت إليه أن اخطبني إن كان لك إليّ حاجة يوماً من الدهر ، فإنّي سريعة إلى ما تريد . فخطبها ، وتزوّجها ، وسار بها إلى قومه .

يضرب هذا المثل لمن يتكلّم بكلام ، ويريد به شيئاً غيره .

٨٥) الآية ٦٥ من السورة ٣٩ : الزمر .

٨٦) الآية ٧٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٨٧) تفسير «نور الثّقَلين» ج ٢ ، ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ؛ وفي «الميزان» ج ٩ ، ص ٣١٤ نقلاً عن «العيون» .

٨٨) الآية ١٧ ، من السورة ٨٠ : عبس .

٨٩) الآية ١٩ ، من السورة ٧٤ : المدّثّر .

٩٠) الآية ٣٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٩١) الآيتان ٤٧ و ٤٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٩٢) قال الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه في تفسير الآية الأخيرة : أي : أُقسم لقد طلبوا المحنة واختلاف الكلمة وتفرّق الجماعة من قبل هذه الغزوة ــ وهي غزوة تبوك ــ كما في غزوة أُحد حين رجع عبد الله بن أُبَيّ بثلث القوم وخذل النبيّ صلّى الله عليه وآله . وقلّبوا لَكَ الأُمور بدعوة الناس إلى الخلاف وتحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد ، وبعث اليهود والمشركينعلى قتال المؤمنين والتجسّس وغير ذلك حتّى جاء الحقّ ــ وهو الحقّ الذي يجب أن يُتّبع ــ وظَهَرَ أمرُ الله وهم كارهون . (تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٠٤) .

٩٣) الآية ٤٦ ، من السورة ٩ : التوبة .

٩٤) الآيتان ٦٧ و ٦٨ ، منالسورة ٨ : الأنفال .

٩٥) الآية ١٦٧ ، من السورة ٣ : آل عمران ؛ وتمامها:

وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لّاتّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَ هِهِم مّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

٩٦) الميزان في تفسير القرآن» ج ٩ ، ص ٢٦٧ إلى . ٣٠٢ والمطالب التي عزم على تفنيدها هنا من تفسير «المنار» ج ١٠ ، ص ٤٦٥ و ٤٦٦ للشيخ محمّد عبده المصريّ . وألّفه سيّد محمّد رشيد رضا .

٩٧) الآيتان ٤٤ و ٤٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

٩٨) الآيات ٥٠ إلى ٥٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٩٩) جاء في «وفاء الوفاء بأحوال المصطفى» ج ٢ ، ص ٢٥٠ : ذو أوَان موضع على ساعة من المدينة .

١٠٠) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٥ و ١٠٤٦ ؛ و «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٢ ؛ و «تفسير عليّ بن إبراهيم» ص . ٢٨٠

١٠١) تفسير القمّيّ» ص ٢٦٨ ؛ وجاء في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٤ عن «تفسير القمّيّ» .

١٠٢) الإرشاد» للمفيد ص ٨٣ إلى ٨٥ من الطبعة الحجريّة ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٣ و ٦٢٤ عن «الإرشاد» وفي ص ٦٢٧ عن «الاحتجاج» للطبرسيّ ، وعن «تفسير إلامام الحسن العسكريّ عليه السلام» ، وفي ص ٦٢٩ عن «الأمالي» للشيخ الطوسيّ روايتان : الأُولى عن أبي سعيد الخدريّ ، والأُخرى بسنده عن الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وكذلك في ص ٦٣٠ بسند آخر عن تفسير الإمام . ورواه أيضاً في ج ٩ ، ص ٢٣٧ عن «الأمالي» للطوسيّ ، عن الرضا ، عن آبائه ، وفي ص ٢٣٩ عن كتاب «العمدة» لابن بطريق ، بإسناده عن سعيد بن مالك (أبو سعيد الخدريّ) ، وفي ص ٢٤٠ عن كتاب عليّ بن عبد الواحد الواسطيّ ، عن سعد بن أبي وقّاص ، وفيها أيضاً عن ابن بطريق في كتاب «المستدرك» عن كتاب «المغازي» لمحمّد بن إسحاق ، وفي ص ٢٤١ عن ابن حجر العسقلانيّ في «فتح الباري شرح صحيح البخاريّ» عن سعد بن أبي وقّاص ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥١ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٦ و ٩٤٧ ؛ و «تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٣٦٨ طبعة مطبعة الاستقامة ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٧ ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص ٣٩٩ ؛ و «الطبقات الكبرى» لابن سعد ، ج ٣ ، ذكر في ص «٢٣ و ٢٤ أربع روايات بأربعة أسناد . ونقل ابن المغازليّ في مناقبه من ص ٢٧ إلى ٣٧ سبع عشرة رواية في حديث المنزلة تحت الرقم ٤٠ إلى ٥٦ ، وأربع منها نصّت على وقت التوجّه إلى تبوك ؛ و «مسند أحمد بن حنبل» ج ١ ، ص ١٧١ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ،

ص ٢٧٨ ؛ و «الاستيعاب» ج ٣ ، ص ١٠٩٧ ؛ و «الإصابة» ج ٢ ، ص ٥٠٢ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٨٦ عن تفسير «الدرّ المنثور» و «أُسد الغابة» ج ٤ ، ص ٢٥ و ٢٦ ، وكذلك في «أُسد الغابة» ج ١ ، ص . ١٨٨

١٠٣) إعلام الورى بأعلام الهدى» تأليف أمين الإسلام أبي عليّ ، فضل بن حسن الطبرسيّ صاحب «مجمع البيان» ص ١٦٩ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣١ ، عن «إعلام الورى» .

١٠٤) الآيات ٥٣ إلى ٥٥ ، من السورة ٩ : التوبة .

١٠٥) روى العلّامة الخبير والمحدّث الجليل الشيخ عبد عليّ بن جمعة العَرُوسيّ الحُوَيزيّ في تفسير «نور الثقلين» ج ٢ ، ص ٢٢٦ عن «أُصول الكافي» بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال : لا يضرّ مع الإيمان عمل ولا ينفع مع الكفر عمل ألا ترى أنّه قال : «وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلّا أنّهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون» .

١٠٦) الآيتان ٥٦ و ٥٧ ، عن السورة ٩ : التوبة .

١٠٧) الآيتان ٨٦ و ٨٧ ، من السورة ٩ : التوبة .

١٠٨) المغازي»ج ٣ ، ص ٩٩٥ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٦٥ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٦ ، الطبعة الرابعة .

١٠٩) الآيتان ٨٨ و ٨٩ ، من السورة ٩ : التوبة .

١١٠) المغازي» ج ٣ ، ص . ٩٩٥

١١١) الآية ٩٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

١١٢) مجمع البيان» ج ٣ ، ص . ٥٩

١١٣) الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٩ و . ٣٨٠

١١٤) الآيتان ٩١ و ٩٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

١١٥) الميزان» ج ٩ ، ص ٣٨٧ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٧٧ و . ٢٧٨

١١٦) جاء في «النهاية» لابن الأثير ج ٣ ، ص ٨٤ أنّ العَرض بالسكون المتاع .

١١٧) تفسير القميّ» ص ٢٦٨ و ٢٦٩ ؛ وتفسير «نور الثقلين» ج ٢ ، ص ٢٥٢ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٨٧ وكلاهما نقل عن تفسير القمّيّ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٥ عن «تفسير القمّيّ» .

وأورد الواقديّ في «المغازي» أسماء البكّائين ، فذكر عُلبة مكان عَلِيّة ، وعُتْبَة بدل عَتَمَة في ج ٣ ، ص ٩٩٤ ؛ وفي ص ١٠٢٤ قال : غَنَمَة . وقال صاحب «السيرة

الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٤٨ و ١٤٩ : كان البكّاؤون من فقهاء الصحابة . ولم يعدّ القاضي البيضاويّ عِرباض بن سارية منهم ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص . ٩٤٥

١١٨) الصاع مَنّ تبريزيّ تقريباً ، أي في حدود ثلاثة كيلو غرامات .

١١٩) المغازي» ج ٣ ، ص . ٩٩٤

١٢٠) قال الجوهريّ : الأعرابيّ منسوب إلى الأعراب ، وليس له مفرد . والمراد بالأعراب الناس الذين يعيشون في البادية ولا يتعلّمون الأحكام الشرعيّة .

١٢١) الآيتان ١٢٠ و ١٢١ ، من السورة ٩ : التوبة .

١٢٢) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٥٨ وذكر معظم المؤرّخين كالواقديّ في «المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٠٢ ، أنّ الخيول كانت عشرة آلاف والإبل مثلها .

١٢٣) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٦١ وقال : ذكر الحافظ الدمياطيّ أنّ رسول الله أقام في تبوك عشرين ليلة .

١٢٤) المغازي» ج ٣ ، ص . ٩٩٩

١٢٥) الإداوة إناء صغير من جلد يصبّون فيه الماء ، وجمعها أداوى .

١٢٦) بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٥ ، عن «تفسير القمّيّ» ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ص ٢٨٠ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٨ الطبعة الرابعة ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٥٠ و . ٩٥١

١٢٧) لا خلاف بين المؤرّخين في نفي أبي ذرّ إلى الربذة . وذكر ابن أبي الحديد ذلك في شرحه ، طبعة دار الإحياء تحت الرقم ١٢٨ : ومن كلامه عليه السلام لأبي ذرّ الغفاريّ ، ج ٨ ، ص ٢٥٢ إلى . ٢٦٢

١٢٨) نُقَار كغُراب ، داء الماشية كالطاعون .

١٢٩) القَتّ حبّ برّي يأكله أهل البادية بعد دقّه وطبخه .

١٣٠) ذكر أبو نعيم وفاة أبي ذرّ الغفاريّ وتكفينه في «حلية الأولياء» ج ١ ، ص ١٦٩ و ١٧٠ بتفصيل آخر .

١٣١) التهجّد بالقرآن هو قراءته في سور صلاة الليل . فقد كانوا ينامون ويستيقظون . وإذا ما استيقظوا فإنّهم يصلّون عدداً من الركعات . وكانوا يتلون فيها بعد الفاتحة شيئاً من القرآن بصوت عالٍ جميل . ثمّ ينامون ، ويستيقظون ثانية فيتلون القرآن في ركعات الصلاة على نفس الوتيرة حتّى تتمّ إحدى عشرة ركعة وهي صلاة الليل . وكان رسول الله وأصحابه الأبرار والأئمّة الطاهرون عليهم السلام يتلون القرآن ليلاً على الكيفيّة المذكورة . وإنّه لمشهد أخّاذ عجيب حقّاً . والآيات الواردة في سورة المزمّل تأمر بقراءة القرآن ليلاً بنفس الطريقة . رزقنا الله إن شاء الله وجميع إخواننا المؤمنين بالتأسّي بنبيّه

الأكرم فإنّه أُسْوَةٌ حَسَنَة . وَمِنَ الّيْلِ فَتَهَجّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبّكَ مَقَامًا مّحْمُودًا . (الشفاعة الكبرى) . (الآية ٧٩ ، من السورة ١٧ : الإسراء) .

١٣٢) تفسير عليّ بن إبراهيم» ص ٢٧٠ و ٢٧١ ؛ وذكرها المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٧٧٦ و ٧٧٧ طبعة الكمبانيّ ، وأورد تخلّف أبي ذرّ في ص ٦٢٤ منه . ونقل هذه القصّة مفصّلاً أيضاً في أوائل كتابه «عين الحياة» ؛ و «تفسير الميزان» ج ٩ ، ص . ٣١٥

١٣٣) المغازي» للواقديّ ، ج ٣ ، ص ١٠٠٠ و . ١٠٠١ وذكر الواقديّ أنّ ابن مسعود وجماعة من أهل العراق تولّوا غسله ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٣ إلى ١٥٥ ؛ و «أُسد الغابة» ج ١ ، ص ٣٠٢ ؛ وروى ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» ج ١ ، ص ٢٥٢ إلى ٢٥٦ إسلام أبي ذرّ ووفاته مفصّلاً وقال : إنّ الذين قدموا من الكوفة كانوا عبد الله بن مسعود مع عدد من فضلاء أصحابه كحُجر بن أدْبر ، ومالك بن الحارث الأشتر ، وفتى من الأنصار ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٨ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٨٠ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص . ٩٥١

١٣٤) قال المجلسيّ رضوان الله عليه في كتاب «عين الحياة» ص ٢ : «أبو ذرّ الغفاريّ من قبيلة غِفار ، اسمه جُنْدُب بن جُنَادة . وما يستفاد من أخبار الخاصّة والعامّة هو أنّ أحداً من الصحابة لم يبلغ درجة سلمان الفارسيّ ، وأبي ذرّ الغفاريّ ، والمقداد بن الأسود الكنديّ في جلالة قدرهم وعظم شأنهم بعد المعصومين صلوات الله عليهم»* . وقال في ص ٥ و ٦ : نقل أرباب السير المعتمدة أنّ أبا ذرّ توجّه إلى الشام في أيّام عمر ، وأقام هناك حتّى زمان عثمان . ولمّا بلغته قبائح عثمان ، بخاصّة إهانته وضربه عمّار بن ياسر ، طفق يطعن في عثمان ويذمّه ، وكان يشهّر به قادحاً فيه ، ويتحدّث في قبائح أعماله . وعندما كان يشاهد ممارسات معاوية الشنيعة ، كان يوبّخه ويقرّعه . ويحثّ الناس على الانقياد لولاية الخليفة بالحقّ أمير المؤمنين عليه السلام ، ويعدّد مناقبه لأهل الشام . ورغّب كثيراً منهم في التشيّع . والمشهور أنّ الشيعة في الشام وجبل عامل الآن هم من بركات أبي ذرّ . وكتب معاوية إلى عثمان ينبّئه بحقيقة الحال ويعلمه أنّه لو بقي في هذه البلدة أيّاماً أُخرى ، فإنّه سيزهّد الناس في عثمان فيرغبوا عنه . فأجابه عثمان أن إذا وصلك كتابي فاحمل أبا ذرّ على مركب صعب ، وأشخص معه دليلاً فظّاً يسوق مركبه ليلاً ونهاراً ، حتّى يغلبه النوم فينسى ذكري وذكرك .

ولمّا وصل الكتاب إلى معاوية ، دعا أبا ذرّ ، وأجلسه على سنام بعير صعب بلا عظاء ، وأوكل به رجلاً فظّاً عنيفاً . وكان أبو ذرّ طويلاً نحيفاً . وقد أخذ الشيب منه مأخذه يومئذٍ ، وابيضّ شعر رأسه ووجهه ، وضعف كثيراً . وساقه الدليل بعنف ، وليس على البعير رحل . وتقرّحت فخذاه من سير البعير سيراً صعباً بغيضاً ، وتساقط لحمه

ودخل المدينة مرهقاً متعباً مغموماً . وعندما أتوا به إلى عثمان ، ونظر إليه ذلك الملعون ، قال له : لا قرّت عين برؤيتك يا جُنْدُب !

قال أبو ذرّ : سمّاني أبي جُنْدُباً . وسمّاني المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم عبد الله !

قال عثمان : تزعم أنّك مسلم ، وتقول عنّا : إنّ الله فقير ونحن أغنياء . متى قلتُ هذا ؟! قال أبو ذرّ : لم أقل هذا ؛ ولكنّي أشهد أنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثين رجلاً ، اتّخذوا مال الله دولاً ، وعباده خولاً ، ودين الله تعالى دغلاً ؛ ثمّ يخلّص الله تعالى منهم عباده ــ انتهى موضع حاجتنا من كلام العلّامة المجلسيّ رضوان الله عليه .

ولابدّ أن نعرف أنّ رجال العامّة من أصحاب التصانيف والتراجم لم يدّخروا وسعاً في بيان منزلة أبي ذرّ ومكانته . وأجمعوا على أنّه كان في الدرجة الأُولى بين الصحابة من حيث سبقه إلى الإسلام وتقدّمه في الفقه والقرآن وزهده وصدقه وصراحة لهجته ووقوفه أمام الكفر والنفاق والانتهاك . وأنّه كان من حواريّي مولى الموالي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وشيعته الحقيقيّين المخلصين وأتباعه الثابتين وأنصاره المتفانين المتأهّبين .

١٣٥) وترجم له ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» ج ١ ، ص ٢٥٢ إلى ٢٥٦ ، وابن الأثير الجزريّ في بابين من كتابه : «أُسد الغابة» ، الأوّل : باب الكنى ، ج ٥ ، ص ١٨٦ إلى ١٨٨ ، والآخر : باب الأسماء ، ج ١ ، ص ٣٠١ و . ٣٠٣ كما ترجم له برهان الدين الحلبيّ الشافعيّ في «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٤ و . ١٥٥ وقال هؤلاء في ترجمته : كان أبو ذرّ من الأقدمين في الإسلام . وهو رابع أو خامس من أسلم . ولمّا سمع بخبر رسول الله ، لم يكن في مكّة يومئذٍ ، بل كان في بلدته في طائفة بني غِفار . فأسرع إليها بمجرّد سماعه الخبر ، وتشرّف بالمثول بين يدي رسول الله ، وأسلم . وبعد أن ذكروا نفيه إلى الربذة من قبل عثمان وموته هناك غريباً وحيداً ، قالوا : روى عنه جمع من الصحابة . وكان من أوعية العلم المبرّزين في الزهد ، والورع ، والقول بالحقّ .

سئل عليّ عليه السلام عنه ، فقال : ذَلِكَ رَجُلٌ وَعَى عِلْماً عَجَزَ عَنْهُ النّاسُ ثُمّ أَوْكَأَ عَلَيْهِ ولَمْ يُخْرِجْ شَيْئاً مِنْهُ .

وروي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : أَبُو ذَرّ فِي أُمّتِي شَبيهُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي زُهْدِهِ .

وأخرج بعضهم عن رسول الله أنّه قال : مَنْ سَرّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى تَوَاضُعِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي ذَرّ .

ورُوي في حديث ورقاء وغيره عن أبي الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أنّه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : مَا أَظَلّتِ الخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلّتِ الغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرّ .

وروي هذا الكلام أيضاً من حديث أبي الدرداء .

وروى إبراهيم التيميّ ، عن أبيه ، عن أبيذرّ أنّه قال : كَانَ قُوتِي عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ ؛ فَلَسْتُ بِزَائِدٍ عَلَيْهِ حَتّى أَلْقَى اللَهَ تَعَالَى .

وحدّث الأعمش ، عن شمر بن عطيّة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، قال كنت عند أبي الدرداء فجاءه رجل (وهو عثمان) من المدينة . فسأله أبو الدرداء : أَيْنَ تَرَكْتَ أَبَا ذَرّ ؟! فقال : إلى الربذة . فقال أبو الدرداء : إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ . لَوْ أَنّ أَبَا ذَرّ قَطَعَ مِنّي عُضْوَاً لَمَا هِجْتُهُ لِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ يَقُولُ فِيهِ ــ انتهى ملخّصاً ما ذكرناه من عبارة «الاستيعاب» نصّاً .

١٣٦) وقال ابن الجزريّ في «أُسد الغابة» ج ١ ، ص ٣٠١ : كان أبو ذرّ أوّل من حيّا رسول الله بتحيّة الإسلام . وقال في ج ٥ ، ص ١٨٧ : وتوفّي سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين من الهجرة بالربذة . وصلّى الله عليه عبد الله بن مسعود .

وجاء في «تفسير عليّ بن إبراهيم» في تفسير الآية : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَرِكُمْ ثُمّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . والآية التي بعدها . وهما الآيتان ٨٤ و ٨٥ ، من السورة ٢ : البقرة : نزلت في أبي ذرّ رحمة الله عليه وعثمان بن عفّان ، وكان سبب ذلك لمّا أمر عثمان بنفي أبي ذرّ إلى الربذة ، دخل عليه أبو ذرّ ، وكان عليلاً متوكّئاً على عصاه ، وبين يدي عثمان مائة ألف درهم قد حملت إليه من بعض النواحي ، وأصحابه حوله ينظرون إليه ، ويطمعون أن يقسمها فيهم .

فقال أبو ذرّ : ما هذا المال ؟ فقال عثمان : مائة ألف درهم حملت إليّ من بعض النواحي ، أُريد أضمّ إليها مثلها ، ثمّ أرى فيها رأيي .

فقال أبو ذرّ : يا عثمان ! أيّما أكثر مائة ألف درهم أو أربعة دنانير ؟! فقال عثمان : بل مائة ألف درهم !

قال أبو ذرّ : أما تذكر أنا وأنت وقد دخلنا على رسول الله عشيّاً فرأيناه كئيباً حزيناً ، فسلّمنا عليه ، فلم يردّ علينا السلام . فلمّا أصبحنا أتيناه ، فرأيناه ضاحكاً مستبشراً ، فقلنا له : بآبائنا وأُمهّاتنا ! دخلنا إليك البارحة ، فرأيناك كئيباً حزيناً ، ثمّ عدنا إليك اليوم ، فرأيناك فرحاً مستبشراً !

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : نعم ! كان قد بقي عندي من فيء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسّمتها ، وخفت أن يدركني الموت وهي عندي . وقد قسّمتها اليوم واسترحت منها .

فنظر عثمان إلى كعب الأحبار وقال : يا أبا إسحاق ! ما تقول في رجل أدّى زكاة ماله المفروضة ، هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيئاً ؟ فقال (كعب الأحبار) : لا ، ولو اتّخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضّة ، ما وجب عليه شيء .

فرفع أبو ذرّ عصاه ، فضرب بها رأس كعب . ثمّ قال له : يا ابن اليهوديّة الكافرة ! ما أنت والنظر في أحكام المسلمين ؟ قول الله أصدق من قولك حيث قال :

وَالّذِينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ وَالْفِضّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَهِ فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ.

(الآيتان ٣٤ و ٣٥ ، من السورة ٩ : التوبة) .

فقال عثمان : يا أبا ذرّ ، إنّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ! ولولا صحبتك لرسول الله لقتلتك !

١٣٧) فقال أبو ذرّ : كذبت يا عثمان ! أخبرني حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : لا يقتلونك ! وأمّا عقلي ، فقد بقي منه ما أحفظ حديثاً سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيك وفي قومك !

فقال [عثمان] : وما سمعت من رسول الله فيّ وفي قومي ؟

قال [أبو ذرّ] : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : إِذَا بَلَغَ آلُ أَبِي العَاصِ** ثَلَاثِينَ رَجُلاً ، صَيّرُوا مَالَ اللَهِ دُوَلاً ؛ وَكِتَابَ اللَهِ دَغَلاً ، وَعِبَادَهُ خَوَلاً ؛ وَالفَاسِقِينَ حِزْبَاً وَالصّالِحِينَ حَرْبَاً .

فقال عثمان : يا معشر أصحاب محمّد ! هل سمع أحد منكم هذا من رسول الله ؟!

فقالوا (كلّهم) : لا ، ما سمعنا هذا (من رسول الله) ! فقال عثمان (لأبي ذرّ) : ادع عليّاً !

فجاء أمير المؤمنين عليه السلام . فقال له عثمان : يا أبا الحسن ! انظر ما يقول هذا الشيخ الكذّاب ؟!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مه يا عثمان ! لا تقل: كذّاب، فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : مَا أَظَلّتِ الخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلّتِ الغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرّ .

فقال أصحاب رسول الله : صدق عليّ . وقد سمعنا هذا من رسول الله !

فبكى أبو ذرّ عند ذلك وقال : ويلكم ! كلّكم قد مدّ عنقه إلى هذا المال ، ظننتم أنّي أكذب على رسول الله ؟

ثمّ نظر (أبو ذرّ) إليهم ، فقال : من خيركم ؟! فقالوا : أنت تقول : إنّك خيرنا ؟!

قال : نعم ! خلّفت حبيبي رسول الله في هذه الجبّة وهو عنّي راضٍ ، وأنتم قد أحدثتم أحداثاً كثيرة ؛ والله سائلكم عن ذلك ؛ ولا يسألني !

فقال عثمان : يا أبا ذرّ ! اسألك بحقّ رسول الله إلّا ما أخبرتني عن شيء أسألك عنه .

فقال أبو ذرّ : والله لو لم تسألني بحقّ محمّد رسول الله أيضاً لأخبرتك !

فقال (عثمان) : أيّ البلاد أحبّ إليك أن تكون فيها ؟!

فقال (أبو ذرّ) : مكّة حرم الله وحرم رسول الله أعبد الله فيها حتّى يأتيني الموت !

فقال عثمان : لا ، ولا كرامة لك . قال أبو ذرّ : المدينة حرم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ! قال عثمان : لا ، ولا كرامة لك . فسكت أبو ذرّ .

فقال عثمان : أيّ البلاد أبغض إليك أن تكون فيها ؟! قال : الربذة التي كنت فيها على غير دين الإسلام !

فقال عثمان : سر إليها ! فقال أبو ذرّ : قد سألتني فصدقتك . وأنا أسألك فاصدقني ! قال (عثمان) : نعم ! قال أبو ذرّ : لو بعثتني في بعث من أصحابك إلى المشركين ، فأسروني ، وقالوا : لا نفديه إلّا بثلث ما تملك ! فهل تفعل ؟! قال : كنت أفديك ! قال أبو ذرّ : فإن قالوا : لا نفديه إلّا بنصف ما تملك ؟!

قال (عثمان) : كنت أفديك . قال أبو ذرّ : فإن قالوا : لا نفديه إلّا بكلّ ما تملك ! قال عثمان : كنت أفديك .

١٣٨) قال (أبو ذرّ) : الله أكبر ، قال حبيبي رسول الله يوماً : يا أبا ذرّ وكيف أنت إذا قيل لك : أيّ البلاد أحبّ إليك أن تكون فيها ؟ فتقول : مكّة حرم الله وحرم رسوله أعبد الله فيها حتّى يأتيني الموت . فيقال لك : لا ، ولا كرامة لك ! فتقول : فالمدينة حرم رسول الله . فيقال لك : لا ، ولا كرامة لك ! ثمّ يقال لك : فأيّ البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ فتقول : الربذة التي كنت فيها على غير دين الإسلام . فيقال لك : سر إليها !

فقلت لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : وإنّ هذا لكائن ؟

فقال : إي والذي نفسي بيده إنّه لكائن .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! أَفَلَا أَضَعُ سَيْفِي هَذَا عَلَى عَاتِقِي فَأَضْرِبَ بِهِ قُدُمَاً قُدُمَاً .

قَالَ : لَا ! اسْمَعْ وَاسْكُتْ وَلَو لِعَبْدٍ حَبَشِيّ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَهُ فِيكَ وَفِي عُثْمَانَ آيَةً .

فَقُلْتُ : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَهِ ؟! فَقَالَ : قَولُهُ تَعَالَى :

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مّن دِيَرِكُمْ ثُمّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمّ هَؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَرِهِمْ تَظَهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَى تُفَدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَ لِكَ مِنكُمْ إِلّا خِزْىٌ فِى الْحَيَوةِ الدّنْيَا وَيَوْمَ القِيَمَةِ يُرَدّونَ إِلَى أَشَدّ الْعَذَابِ وَمَا اللَهُ بِغَفِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ» ــ الآيتان ٨٤ و ٨٥ ، من السورة ٢ : البقرة . («تفسير القمّيّ» ص ٤٣ إلى ٤٦) .

١٣٩) وروى محمّد بن يعقوب الكُلينيّ في «روضة الكافي» من ص ٢٠٦ إلى ٢٠٨ بسنده المتّصل عن أبي جعفر الخُثْعَمِيّ قال : قال : لمّا سيّر عثمان أبا ذرّ إلى الربذة (وكان قد نهى عن مشايعته وتوديعه) شيّعه أمير المؤمنين ، وعقيل ، والحسن ، والحسين عليهم السلام ، وعمّار بن ياسر رضي الله عنه . فلمّا كان عند الوداع ، قال أمير المؤمنين عليه السلام :

يا أبا ذرّ ! إنّك إنّما غضبت للّه عزّ وجلّ فارج من غضبت له ! إنّ القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ! فأرحلوك عن الفِناء (أو عن فناء دارهم أو دار رسول الله) ، وامتحنوك بالبلاء ! ووالله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً ثمّ اتقّى الله عزّ وجلّ جعل له منها مخرجاً ! فلا يؤنسك إلّا الحقّ ! ولا يوحشك إلّا الباطل !

ثمّ تكلّم عقيل ، فقال : يا أبا ذرّ ! أنت تعلم أنّا نحبّك ؛ ونحن نعلم أنّك تحبّنا ! وأنت قد حفظت فينا ما ضيّع الناس إلّا القليل ! فثوابك على الله عزّ وجلّ ! ولذلك أخرجك المخرجون ؛ وسيّرك المسيّرون ! فثوابك على الله عزّ وجلّ ! فاتّق الله واعلم أنّ استعفاءك البلاء من الجزع ، واستبطاءك العافية من اليأس ! فدع اليأس والجزع ، وقل : حسبي الله ونعم الوكيل .

ثمّ تكلّم [الإمام] الحسن عليه السلام فقال : يا عمّاه ! إنّ القوم قد أتوا إليك ما قد ترى ! وإنّ الله عزّ وجلّ بالمنظر الأعلى (مشرف على جميع الخلق وعالِم بما يصدر عنهم وإنّه لا يعزب عن علمه شيء من أُمورهم) . فدع عنك ذكر الدنيا بذكر فراقها ! وشدّة ما يرد عليك لرخاء ما بعدها ! واصبر حتّى تلقى نبيّك صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو عنك راضٍ إن شاء الله .

ثمّ تكلّم (الإمام) الحسين عليه السلام فقال : يا عمّاه ! إنّ الله تبارك وتعالى قادر أن يغيّر ما ترى وهو كلّ يوم في شأن . إنّ القوم منعوك دنياهم ، ومنعتهم دينك ! فما أغناك عمّا منعوك ! وما أحوجهم إلى ما منعتهم ! فعليك بالصبر ! فإنّ الخير في الصبر ، والصبر من الكرم ؛ ودع الجزع ، فإنّ الجزع لا يغنيك !

ثمّ تكلّم عمّار رضي الله عنه فقال : يا أبا ذرّ ! أوحش الله من أوحشك ! وأخاف من أخافك ! إنّه والله ما منع الناس أن يقولوا الحقّ إلّا الركون إلى الدنيا والحبّ لها ! إلّا الطاعة مع الجماعة (حتّى لو كانت على الباطل) والملك لمن غلب عليه ! وإنّ هؤلاء القوم دعوا الناس إلى دنياهم فأجابوهم إليها ، ووهبوا لهم دينهم فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

هو الخسران المبين .

١٤٠) ثمّ تكلّم أبو ذرّ رضي الله عنه فقال : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته بأبي وأُميّ هذه الوجوه ! فإنّي إذا رأيتكم ذكرت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بكم ! وما لي بالمدينة شجن لأسكن غيركم ! وإنّه ثقل على عثمان جواري بالمدينة ، كما ثقل على معاوية بالشام . فآلى عثمان أن يسيّرني إلى بلدة فطلبت إليه أن يكون ذلك إلى الكوفة ، فزعم أنّه يخاف أن أُفسد على أخيه*** الناس بالكوفة . وآلى بالله ليسيّرني إلى بلدة لا أرى فيها أنيساً ولا أسمع بها حسيساً . وإنّي والله ما أُريد إلّا الله عزّ وجلّ صاحباً ؛ وما لي مع الله وحشة . حَسْبِي اللَهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَهُوَ رَبّ العَرْشِ العَظِيمِ وَصَلّى اللَهُ عَلَى سَيّدِنَا مُحَمّدٍ وَآلِهِ الطّيّبِينَ .

أمّا أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّ خطبته في «نهج البلاغة» تحت الرقم ١٢٨ تمثّل كلامه لأبي ذرّ عند التوديع . وذكرها ابن أبي الحديد وشرحها في الجزء الثامن من شرحه ص ٢٥٢ إلى ٢٦٢ ، طبعة دار الإحياء . وقال : وقد روى هذا الكلام أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في كتاب «السقيفة» عن عبد الرزّاق ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس ، قال : لمّا أُخرج أبو ذرّ إلى الربذة ، أمر عثمان ، فنودي في الناس : ألّا يكلّم أحد أبا ذرّ ولا يشيّعه . وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به . فخرج به . وتحاماه الناس إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وعقيلاً ، وحسناً ، وحسيناً عليهما السلام ، وعمّاراً . ثمّ عرض كلامهم واحداً واحداً لأبي ذرّ ، وكلام أبي ذرّ لهم بنفس العبارات التي نقلناها عن «روضة الكافي» . وقال : لمّا أراد الحسن عليه السلام أن يكلّم أبا ذرّ ويودّعه ، قال مروان : إيهاً يا حسن ! ألا تعلم أنّ أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى عن كلام هذا الرجل . فإن كنت لا تعلم ، فاعلم ذلك ! فحمل عليّ عليه السلام على مروان ، فضرب بالسوط بين أُذُنَي راحلته ، وقال : تنحّ ! نحّاك الله إلى النار ! فرجع مروان مغضباً إلى عثمان ، فأخبره الخبر . فتلظّى عثمان على عليّ عليه السلام .

١٤١) لمّا رجع عليّ عليه السلام ومن معه إلى المدينة ، جاء عليّ عليه السلام إلى عثمان . فقال له عثمان : ما حملك على ردّ رسولي ، وتصغير أمري ؟

فقال عليّ عليه السلام : أمّا رسولك ، فأراد أن يردّ وجهي فرددته . وأمّا أمرك فلم أُصغّره ! قال عثمان : أما بلغك نهيي عن كلام أبي ذرّ ؟

قال عليّ : أَوَ كلّما أمرت بأمر معصية ، أطعناك فيه ؟ قال عثمان : أَقِدْ مروان من نفسك !

قال (عليّ) : ممّ ذا ؟ قال عثمان : من شتمه ! وجذب راحلته !

قال (عليّ) : أمّا راحلته فراحلتي بها . وأمّا شتمه إيّاي ، فو الله لا يشتمني شتمة إلّا شتمتك مثلها ، لا أكذب عليك ! فغضب عثمان ، وقال : لِمَ لا يشتمك مروان ؟ كأنّك خير منه ؟!

قال عليّ : إي والله ، ومنك . ثمّ قام فخرج .

* ــ ذكر الكلينيّ في «روضة الكافي» ص ٢٩٧ و ٢٩٨ إسلام أبي ذرّ . وجاء فيه ما نصّه : لمّا أسلم أبو ذرّ على رسول الله ، قال له رسول الله : انطلق إلى بلادك فإنّك تجد ابن عمّ لك قد مات وليس له وارث غيرك . فخذ ماله وأقم عند أهلك حتّى يظهر أمرنا» . وورد في كتب تراجم العامّة أنّ أبا ذرّ مكث هناك إلى ما بعد غزوة الخندق . ثمّ أتى المدينة وأقام إلى جوار رسول الله حتّى وفاته ؛ ولذلك لم يشترك في غزوة بدر ، وأُحُد ، والأحزاب .

** ــ أبو العاص جدّ عثمان بن عفّان ومروان بن الحكم ؛ إذ إنّ عثمان هو ابن عفّان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس ؛ ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس . فلهذا كان عثمان ابن عمّ مروان .

إنّ نفي عثمان أبا ذرّ الغفاريّ إلى الربذة ، وضرب عمّار بن ياسر ، وضرب عبد الله بن مسعود ضرباً أدّى إلى وفاته ، كلّ ذلك من جرائم عثمان المكشوفة . لقد أشخص عثمان أبا ذرّ الغفاريّ إلى الربذة ، وهو ذلك الصحابيّ العظيم الذي لم يبلغ أحد درجته بعد المعصومين أشخصه إلى هناك لقيامه بالإرشاد وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . ومات أبو ذرّ في الربذة وليس له كفن . وكانت بنته قلقة عند وفاته ، ماذا تفعل وهو بلا كفن . بينما كان هو وقومه من آل أبي العاص يبذّرون بيت المال ويبتزّون أموال المسلمين بلا حساب . وجاءت ترجمته في كتاب «أُسد الغابة» ج ٣ ، ص ٣٧٦ إلى . ٣٨٢ وكذلك وردت ترجمة الحكم بن أبي العاص في الكتاب نفسه : ج ٢ ، ص ٣٣ إلى . ٣٥ وقال مؤلّفه : أسلم الحكم يوم الفتح . وروى بسنده المتّصل عن قيس بن حبتر ، عن بنت الحكم بن أبيّ العاص أنّها قالت (لأبيها) الحكم (يوماً) : ما رأيت قوماً كانوا أسوأ رأياً وأعجز في أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم منكم يا بني أُميّة ! فقال (الحكم) : لا تلومينا يا بُنية ! إنّي لا أُحدّثكِ إلّا ما رأيت بعينيّ هاتين ! والله ما نزال نسمع قريشاً تقول : يصلّي هذا الصابئ (محمّد) في مسجدنا (المسجد الحرام) . فتواعدوا له تأخذوه ! فتواعدنا إليه ، فلمّا رأيناه ، سمعنا صوتاً ظننّا أنّه ما بقي بتهامة جبل إلّا تفتّت علينا . فما عقلنا حتّى قضى صلاته ، ورجع إلى أهله . ثمّ تواعدنا ليلة أُخرى . فلمّا جاء ، نهضنا إليه فرأيت الصفا والمروة التقتا إحداهما بالأُخرى ، فحالتا بيننا وبينه ، فو الله ما نفعنا ذلك .

١٤٢) وروى ابن الأثير أيضاً بسنده المتّصل الآخر عن نافع بن جُبَير بن مُطعِم ، عن أبيه (أنّه) قال : كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فمرّ الحكم بن أبي العاص ، فقال

النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : وَيْلٌ لِأُمّتِي مِمّا فِي صُلْبِ هَذَا . والحكم طريد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان .

(وولد مروان في السنة الثانية أو الثالثة من الهجرة بالمدينة ، ولم ير النبيّ قطّ) . وقيل : ولد بالطائف . وقد اختُلف في السبب الموجب لنفي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الحكم إلى الطائف . فقيل : كان يتسمّع سرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ويطّلع عليه من باب بيته . وإنّه هو الذي أراد رسول الله أن يفقأ عينه بِمدرَى في يده لمّا اطّلع عليه من الباب. وقيل: كان يحكي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مشيته وبعض حركاته. وكان النبيّ يتكفّأ في مشيته . فالتفت يوماً فرآه يتخلّج في مشيته . فقال : كن كذلك . فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذٍ . فذكره عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت في هجائه لعبد الرحمن ابن الحكم ، فقال :

إِنّ اللّعِينَ أَبُوكَ فَارْمِ عِظَامَهُ
إِنْ تَرْمِ تَرْمِ مُخَلّجَاً مَجْنُونَا
يُمْسِي خَمِيصَ البَطْنِ مِنْ عَمَلِ التّقَى
وَيَظَلّ مِنْ عَمَلِ الخَبِيثِ بَطِينَا

ومعنى قول عبد الرحمن : إنّ اللعين أبوك ، فروى ابن خيثمة عن عائشة أنّها قالت لمروان بن الحكم حين قال لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر لمّا امتنع من البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد ما قال والقصّة مشهورة : أَمّا أَنْتَ يَا مَرْوَانُ فَأَشْهَدُ أَنّ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ لَعَنَ أَبَاكَ وَأَنْتَ فِي صُلْبِهِ .

وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها ؛ إلّا أنّ الأمر المقطوع به أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم مع حلمه وإغضائه على ما يكره ، ما فعل به ذلك إلّا لأمر عظيم . ولم يزل منفيّاً حياة النبيّ . فلمّا وُلّي أبو بكر الخلافة ، قيل له في الحكم ليردّه إلى المدينة . فقال : ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكذلك عمر . فلمّا وُلّي عثمان الخلافة ، ردّه ، وقال : كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فوعدني بردّه .

*** ــ يعني الوليد بن عتبة أخا عثمان لأُمّه . وكان عثمان ولّاه الكوفة . وذكر الزمخشريّ وغيره أنّه صلّى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً وقال : هل أزيدكم . «مرآة العقول» .

١٤٣) الآية ٤٦ ، من السورة ٩ : التوبة .

١٤٤) تفسير القمّيّ» ص ٢٩٦ و ٢٧٠ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣١٥ عن «تفسير القمّيّ» .

١٤٥) قال ابن الأثير في «النهاية» ج ٣ ، ص ١٢ : الضحّ : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض .

١٤٦) أولى لك كلمة تهديد ووعيد . والمعنى : قاربك الشرّ فاحذر . وقيل : معناه : الوَيْلُ لَكَ . وقيل : أولاك الله ما تكرهه .

١٤٧) المغازي» ج ٣ ، ص ٩٩٨ و ٩٩٩ ؛ وتفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٩ طبعة صيدا ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٧ و ٨ ؛ و «تفسير القمّيّ» ص ٢٧٠ ؛ و تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣١٥ ، عن «تفسير القمّيّ» ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٢ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٢ و ٦٢٣ ؛ وكذلك في ص ٦٢٥ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٧٨ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٦ ، الطبعة الرابعة ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٧ و ٩٤٨ ؛ و «كتاب محمّد» ص . ٤٢٨

١٤٨) الآيات ٦٤ إلى ٦٦ من السورة ٩ : التوبة .

١٤٩) الآية ٧٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

وذكر الشيخ الطبرسيّ هذه القضيّة في «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٥١ طبعة صيدا ، كأحد الاحتمالات المطروحة في تفسير الآية المباركة . وأوردها المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٦ ، عن «تفسير القمّيّ» .

١٥٠) المغازي» للواقديّ ، ج ٣ ، ص ١٠٠٣ إلى ١٠٠٥ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٩ ، الطبعة الرابعة ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٥١ و . ٩٥٢

١٥١) المغازي» ج ٣ ، ص . ١٠٠٣

١٥٢) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٠٩ و ١٠١٠ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٩ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٣ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٩ عن «الخرائج والجرائح» للراونديّ ؛ وكذلك أوردها في ص ٦٣٢ من «الكافي» ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٧٩ و ٢٨٠ ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص ٣٩٩ و ٤٠٠ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٩ و . ٩٥٠

١٥٣) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠١٢ و . ١٠١٣ وحدث مثل هذه الواقعة عند الرجوع من تبوك . كما قال في ص ١٠٣٩ من هذا الكتاب : عند الرجوع من تبوك كان بينها وبين وادي الناقة حجر أو جبل يخرج منه قدر ما يروي الراكبَيْن أو الثلاثة . فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : من سبقنا إلى ذلك المكان (الوَشل) فلا يستقينّ منه شيئاً حتّى نأتي . فسبق إليه أربعة من المنافقين . ولمّا وصل رسول الله ، قال : ألم أنهَكم ؟ ولعنهم ودعا عليهم ، ثمّ نزل فوضع يده في الوَشَل حتّى اجتمع في كفّه منه ماء قليل ، ثمّ نَضَحه ، ثمّ مسحه بيده ، ثمّ دعا بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق الماء فشرب الناس ما شاءوا ، وَسَقَوا ما شاءوا . قال سلَمة بن سَلامة بن وَقش : قلت لوديعة بن ثابت (وهو أحد المنافقين

الأربعة) : ويلك ! أبعد ما ترى شيء ؟ أما تعتبر ؟! قال : قد كان يفعل مثل هذا من قبل ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٥ و ١٦٢ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٢ عن «الكافي» ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ١٢

١٥٤) قال ابن هشام في سيرته ، ج ٤ ، ص ١٧٢ : البِجَادُ : الكِسَاءُ الغَيظ الجافي .

١٥٥) جاء في «صحاح اللغة» ص ٢٤٨٠ : اللّحاء قِشر الشّجَر .

١٥٦) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠١٣ و ١٠١٤ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص . ٩٥٤

١٥٧) المغازي» ج ٢ ، ص . ١٠١٥

١٥٨) قال في «صحاح اللغة»ص ٢٤٧ : الحميت : الزق الذي لا شعر عليه ، وهو للسمن .

١٥٩) قال ابن الأثير في «النهاية» ج ٤ ، ص ١٠١ : الأمعاء جمع معي . وهي المصارين . والمصران هو المعي ، وجمعها مصارين .

١٦٠) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠١٧ و . ١٠١٨ وجاءت رسالة هرقل ورسول الله بنحو آخر يشبه ما ذكرناه ، وذلك في «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ١٥ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٦١

١٦١) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠١٨ و ١٠١٩ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٣ عن «الكافي» وجاء في هذه الرواية : وأسلم هرقل سرّاً منهم وامتنع من قتال النبيّ ، ولم يؤذن النبيّ لقتاله ، فرجع ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص . ٤٠٠

١٦٢) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٢١ و . ١٠٢٢ وأخرج السيوطيّ ذيل هذا الحديث في «الجامع الصغير» ص ٤٦ و ٤٧ كالآتي : روى البخاريّ ، ومسلم ، والنسائيّ ، عن جابر صحيحاً ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أُعطيت خمساً لم يُعْطَهنّ أحَدٌ مِنَ الأنبياء قبلي : نُصِرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيّما رجل من أُمّتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأُحِلّت لي الغنائم ، ولم تُحَلّ لأحدٍ قبلي ، وأُعْطِيتُ الشفاعة ، وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصّة ، وبُعثتُ إلى الناس كافّةً . ويبدو أنّ هذا الحديث من حيث مفاد متنه أصحّ من الحديث المذكور سلفاً . لأنّ الأشياء الخمسة فيه محدّدة ومعلومة . وأحدها : قوله : نصرتُ بالرعب . أي : أنّ أحد أسباب نصري وظفري هو إلقاء الله الرعب والخوف في قلوب أعدائنا . ولم ترد هذه الفقرة في رواية الواقديّ المشار إليها في «المغازي» . وأمّا الشفاعة في هذا الحديث فهي الشيء الخامس الوارد في «المغازي» ، إذ يقول رسول الله : فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلّا الله .

١٦٣) قال في «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٤٧ : ويقال لها : غزوة العَسِيرَة . ويقال لها : الفَاضِحَة ، لأنّها أظهرت حال كثير من المنافقين .

١٦٤) الآية ١١٧ ، من السورة ٩ : التوبة .

١٦٥) المسوّس هو الذي وقع فيه السوس . والسوس دود يقع في الطعام والصوف . والإهالة بكسر الهمزة الشحم أو الشحم المقليّ . والسّخَنَة بفتح السين والنون أي : المتغيّر الفاسد .

١٦٦) مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٩ ؛ وذكره المجلسيّ أيضاً في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٢ ، طبعة الكمبانيّ ، عن تفسير «مجمع البيان» ؛ وتفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٤٣١ عن «مجمع البيان» ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص . ٣٩٩

١٦٧) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٠٩ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٧٩ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٩ ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص . ٤٢٩

١٦٨) الإداوة إناء هرميّ الشكل من جلد يحفظ فيه الماء . والركوة إناء من جلد يشرب فيه الماء .

١٦٩) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٠ و ١٠٤١ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٩ عن «الخرايج والجرايح» للراونديّ .

١٧٠) وقال عمر مثلها لرسول الله أيضاً عندما أشخص أبا هريرة ليبشّر المؤمنين الحقيقيّين بالجنّة . وذكرها العلّامة الأمينيّ في «الغدير» ج ٦ ، ص ١٧٥ و ١٧٦ عن «سيرة عمر» لابن الجوزيّ ، ص ٣٨ ، و «شرح ابن أبي الحديد» ج ٣ ، ص ١٠٨ و ١١٦ ، و «فتح الباري» ج ١ ، ص ١٨٤ ، في سياق قضيّة من القضايا فقال : قال رسول الله : يا أبا هريرة ! اذهب بنعليّ هاتين . فمن لقيته وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه فبشّره بالجنّة ! (قال أبو هريرة) : فخرجت فكان أوّل من لقيت عمر ، فقال : ما هذان النعلان ؟ قلت : نعلا رسول الله بعثني بهما وقال : مَن لَقِيتَهُ يَشْهَدُ أَنْ لَاإِلَهَ إِلّا اللَهُ مُسْتَيقِناً بِهَا قَلْبهُ ، بَشّرْهُ بِالجَنّةِ . فضرب عمر في صدري فخررتُ لإستي ، وقال : ارجع إلى رسول الله ! فأجهشت بالبكاء راجعاً . فقال رسول الله : ما بالك ؟ قلتُ : لقيتُ عمر فأخبرته بما بعثتني به ، فضرب صدري ضربة خررتُ لإستي ، وقال : ارجع إلى رسول الله ! فخرج رسول الله فإذا عمر فقال : ما حملك يا عمر على ما فعلتَ ؟

فقال عمر : أَنتَ بَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَة بِكَذَا ؟ قال النبيّ : نعم !

قال : فَلَا تَفْعَلْ فَإِنّي أَخْشَى أَنَ يَتّكِلَ النّاسُ عَلَيهَا فَيَتْرُكُوا العَمَلَ ، خَلّهِمْ يَعْمَلُونَ .

فقال رسول الله : فَخَلّهِم .

١٧١) قال في « القاموس المحيط » ج ٣ ، ص ٢٨٣ و ٢٨٤ ، طبعة بيروت : «الفرق بفتح الفاء جمعها أفراق ، وهو مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستّة عشر رطلاً» ــ انتهى .

وعبارة ستّة عشر رطلاً هي تعبير آخر لعبارة : ثلاثة آصع ، لأنّ كلّ صاع أربعة أمداد . وكلّ مُدّ رطل وثلث الرطل ، المدّ الواحد ٤٣ الرطل . فثلاثة آصع وهي اثنا عشر مدّاً تساوي ستّة عشر رطلاً ، ٤٣ ١٦ * ١٢ ، وفي حسابنا (بالفارسيّة) إذا كان كلّ مدّ ٧٥٠ غراماً تقريباً ، فإنّ الثلاثة آصع التي اجتمعت عند رسول الله تربو على تسعة كيلو غرامات ، ذلك أنّ ١٢١٠٠٠ ٩ * . ٧٥٠

١٧٢) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٣٦ إلى ١٠٣٩ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٩ عن «الخرايج والجرايح» للراونديّ .

١٧٣) العجيب هنا أنّ العامّة ترى أنّ هذا الحديث وأمثاله من فضائل عمر ، وتقول : كان ذا رأي وهيبة وسداد إذ عمل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله . وهذا خطأ كبير يتمثّل في أنّهم لم يفهموا حقيقة معنى ومفهوم النبوّة والعصمة . وأنّهم خالوا مماشاته ومداراته في مثل هذه الأُمور ، وخفض جناحه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وصبره أمام تعنّتهم وتحكّمهم رغم إصرارهم على مخالفة رأيه ، ممّا يدلّ على عظمته الروحيّة وأخلاقه الرحبة وحلمه وصفحه وخلقه العظيم الذي أثنى عليه الله تعالى إذ قال : وَإِنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ، خالوا ذلك كلّه دليلاً على صحّة عمل المنتهكين . وثمّة حديث آخر ، كهذا الحديث ، رواه محبّ الدين الطبريّ في كتاب «الرياض النضرة» في كتاب فضائل عمر ، ج ٢ ، ص ٨٣ و . ٨٤ قال : روى أبو هريرة فقال : «أتيت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فأعطاني نعليه وقال : إذهب بنعليّ هاتين ، فمن لقيته وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلّا الله مستيقناً بها قلبه فبشّره بالجنّة . (قال أبو هريرة) فكان أوّل من لقيته عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ فقلت : هاتان نعلا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعثني بهما (وقال) : من لقيته يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه بشّره بالجنّة ! فضرب (عمر) بيده بين ثديي فخررتُ (منها) لإستي فقال لي : ارجع يا أبا هريرة ! فرجعت إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأجهشت بالبكاء وركبني عمر فإذا هو على أثري . فقلت (لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم) لقيت عمر فأخبرته ؛ بالذي بعثني به . فضرب بين صدري ضربة خررت لإستي وقال : ارجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . (فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمر) : ما حملك يا عمر على ما فعلت ؟ فقال : يا رسول الله ! أبعثت أبا هريرة بنعليك (وقلت له) : من لقى يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه بشّرته بالجنّة ؟! قال (النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم) : نعم . قال (عمر) : لَا تَفْعَلْ فَإِنّي أَخَافُ أَنْ يَتّكِلْ النّاسُ عَلَيْهَا فَخَلّهُمْ مَا يَعْمَلُونَ . فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : فخلّهم . وأخرجه أحمد ومسلم . ثمّ قال محبّ الدين الطبريّ صاحب الكتاب : تقرير النبيّ عمله دليل على صحّة رأيه واجتهاده ــ انتهى . أوّلاً : ينبغي أن نعدّ

هذه الرواية على فرض صحّتها من مثالب عمر . وعدّها العامّة من مناقبه . ثانياً : لا دلالة فيها على صحّة رأي عمر واجتهاده أبداً . والأمر كما ذكرناه .

١٧٤) الآيتان ٢ و ٣ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

١٧٥) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٩ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٩ و ... ١٠ قال : لمّا كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعةٌ . فقالوا : يا رسول الله ! لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادّهنّا ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : افعلوا . فجاء عمر ، فقال : يا رسول الله ! إن فعلت ، قلّ الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله فيها بالبركة لعلّ الله أن يجعل فيها البركة ــ الحديث .

١٧٦) قال في «معجم البلدان» ج ٢ ، ص ٢٢١ : الحجر بكسر الحاء : اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام . قال الاصطخريّ : الحجر قرية صغيرة قليلة السكّان ، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال . وبها كانت منازل ثمود . قال الله تعالى : وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين . قال : ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف جبال ، وتسمّى تلك الجبال الأثالث . وهي جبال إذا رآها الرائيّ من بُعد ظنّها متّصلة . فإذا توسّطها ، رأى كلّ قطعة منها منفردة بنفسها ، يطوف بكلّ قطعة منها الطائف . وحواليها الرمل لا تكاد تُرتقى . كلّ قطعة قائمة بنفسها ، لا يصعدها أحد إلّا بمشقّة شديدة . وهناك بئر ثمود التي قال الله فيها ، وفي الناقة : لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم .

١٧٧) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٠٦ و ١٠٠٧ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٨١ ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص ٤٠٠ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٨ ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص . ٤٢٨

١٧٨) المغازى» ١٠٠٨ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥٢ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص . ٢٧٩

١٧٩) المغازي» ص . ١٠٠٨

١٨٠) البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ١٦ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٩ ، الطبعة الرابعة ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص ٤٢٩ ؛ و «إعلام الورى» ص . ١٢٩

١٨١) البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ١٦ و ١٧ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٢ عن «إعلام الورى» للشيخ الطبرسيّ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٤ و ٦٣٥ عن «تفسير الإمام» ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٩ ، الطبعة الرابعة ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص ٤٣٠ ؛ و «إعلام الورى» ص . ١٣٠

١٨٢) جاء في «أُسد الغابة» ج ١ ، ص ٩٢ و ٩٣ : كان أُسَيْدُ بنُ حُضيْر من الأنصار ومن الأوس . يكنّى : أبا يحيى . وكان أبوه حضير فارس الأوس في حروبهم مع الخزرج . وكان له حصن واقم . وكان رئيس الأوس يوم بُعاث . وأسلم أُسيد قبل سعد بن معاذ على

يد مصعب بن عمير بالمدينة . وآخى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بينه وبين زيد بن حارثة . وكان أحد العقلاء الكلمة أهل الرأي . وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن . قال : قرأت ليلة سورة البقرة ، وفرس لي مربوط ، ويحيى ابني مضطجع قريب منّي وهو غلام فجالت الفرس . فقمت وليس لي همّ إلّا ابني (أن تركله الفرس) . ثمّ قرأت فجالت الفرس ، فقمتُ وليس لي همّ إلّا ابني . ثمّ قرأت فجالت الفرس . فرفعت رأسي ، فإذا شيء كهيئة الظلّة في مثل المصابيح مقبل من السماء فهالني ، فسكتّ . فلمّا أصبحتُ ، غدوت على رسول الله فأخبرته !

فقال رسول الله : اقرأ يا أبا يحيى .

قلت : قد قرأت فجالت الفرس ، فقمت ليس لي همّ إلّا ابني .

قال : اقرأ يا أبا يحيى !

فقلت : قد قرأت ، فجالت الفرس ، فقمت ليس همّ لي إلّا ابني .

قال : اقرأ يا أبا يحيى !

فقلت : قد قرأت ، فرفعت رأسي ، فإذا كهيئة الظلّة فيها المصابيح فهالني . فقال : تلك الملائكة دنوا لصوتك . ولو قرأت حتّى تصبح ، لأصبح الناس ينظرون إليهم . توفّي أُسيد بن حضير في شعبان سنة عشرين ، ودفن بالبقيع .

١٨٣) الأنساع جمع نسعة . وهو سير مضفور يجعل زماماً للبعير . ونخس نخساً الدابّة : غرز جنبها أو مؤخّرها بعود أو دسار ، فهاجت .

١٨٤) النبيت ، أي : حتّى لو كانوا من أولاد النبيت . وهو عمرو بن مالك بن أوس . «أنساب الأشراف» للبلاذريّ ، ج ١ ، ص . ٢٨٧

١٨٥) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٢ إلى ١٠٤٤ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٦٢ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٩ عن «الخرايج والجرايح» للراونديّ . ورواه البيهقيّ في ص ٦٣٢ من «دلائل النبوّة» ؛ و «إعلام الورى» ص ١٣٠ و ١٣١ عن «دلائل البيهقيّ» .

١٨٦) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٤ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٦٢ وقال في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٧ أقول : إنّ رسول الله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن ، أحدها يوم حملوا على رسول الله في العقبة ، وقصدوا تحريك ناقته وتذليلها . وهم اثنا عشر رجلاً من بني أُميّة وخمسة من سائر الناس . فلعن النبيّ جميع من كان على العقبة إلّا نفسه وناقته وقائده وسائقه (القائد أمام الناقة وهو عمّار ، والسائق خلفها وهو حذيفة) .

١٨٧) الآيتان ٥١ و ٥٢ ، من السورة ٤٠ : غافر . وتمام الآية الأُولى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الحَيَوةِ الدّنْيَا وَيَوْمَ الْأَشْهَدُ . وذكر الواقديّ هذه الرواية في «المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٤ و . ١٠٤٥

١٨٨) في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٩ عن تفسير الإمام ، و «الاحتجاج» للطبرسيّ : كان حذيفة أعلم الناس بالمنافقين .

١٨٩) المغازي» ج ٣ ، ص . ١٠٤٥ وذكره في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢١ عن تفسير «مجمع البيان» في تفسير الآية: يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم.

١٩٠) بحار الأنوار» ج ٦ ، ص . ٦٢٦

١٩١) ذكر المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢١ عن الشيخ الطبرسيّ في تفسير : وهمّوا بما لم ينالوا أنّ المراد قتل رسول الله في العقبة .

١٩٢) الآية ٨ ، من السورة ٦٣ : المنافقون .

١٩٣) مختصر من ص ٢٩٣ و ٢٩٤ من الجزء الخامس «مجمع البيان» ، تفسير سورة المنافقون .

١٩٤) فَتَكَ يَفْتِكُ وَيَفْتُكُ من باب ضَرَبَ يضرب ونصر ينصر . ولها أربعة مصادر : فَتكاً ، وفِتكاً ، وفُتكاً ، وفتوكاً ، ومعناها الهجوم على شخص غفلة وقتله .

قال ابن الأثير الجزريّ في «النهاية» : فَتَكَ فِيهِ «الإيمانُ قَيّدَ الفَتْكَ» الفتك أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارّ غافل فيشُدّ عليه فيقتله ، والغيلة أن يَخدعه ثمّ يقتله في موضع خفيّ . وقد تكرّر ذكر الفتك في الحديث . وقال القمّيّ في «سفينة البحار» ج ٢ ، ص ٣٤٤ في مادّة فتك : ورد عن الصادق عليه السلام : الإسلامُ قَيّدَ الفتك . وقال الجزريّ : الإيمان قَيّد الفتك . والفتك هو أن يحمل شخص على آخر غفلة ويقتله .

وروي في «مستدرك الحاكم» ج ٤ ، ص ٢٥٣ بإسناده عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : لَايَفْتُكُ المؤمنُ ، الإيمان قَيّد الفتك . هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وجاء في «تاريخ الطبريّ» ج ٧ ، ص ٥٢٥ ، طبعة دار المعارف بمصر : أنّ محمّد النفس الزكيّة لم يأذن بالفتك بالمنصور الدوانيقيّ . وذكر أنّ أبا جعفر الدوانيقيّ حجّ سنة . ١٤٠ واختفى عنه محمّد وإبراهيم ابنا عبد الله المحض . واجتمع أعوانهما بمكّة وأرادوا الفتك بالمنصور . وقال ابن محمّد النفس الزكيّة ويدعى الأشتر : أنا أكفيكموه . فقال محمّد : لا والله ، لا أقتله غيلة حتّى أدعوه . فنقض أمرهم ذلك وما كانوا أجمعوا عليه .

وقال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ٢١٩ بعد بيان الحوادث التي وقعت بعد وفاة رسول الله : أتى جماعة من المهاجرين مع الزبير وأبي سفيان عند عليّ عليه السلام والعبّاس للاستنهاض . فقال العبّاس : والله لولا أنّ الإسلام قيّد الفتك لتدكدكت جنادل صخر يسمع اصطكاكها من المحلّ الأعلى . وخطب أمير المؤمنين عليه السلام .

١٩٥) قال المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢١١ ضمن بيانه : قال الفيروزآباديّ : كان المشركون يقولون للنبيّ : ابن أبي كبشة ، شبّهوه بابن أبي كبشة ، وهو رجل من خزاعة . خالف قريشاً في عبادة الأوثان . وهي كنية وهب بن عبد مناف جدّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من قِبَلِ أُمّه ، لأنّه كان نزع إليه في الشبه ؛ أوكنية زوج حليمة السعديّة .

١٩٦) تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٩٧ إلى ٩٩ ، الحديث ٨٩ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢١٠ ، عن العيّاشيّ ؛ و «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص . ١٤٥ ونقل الشيخ الحرّ العامليّ مختصر هذه الرواية في «إثبات الهداة» ج ٣ ، ص ٥٤٦ عن «تفسير العيّاشيّ» .

١٩٧) هذه ليست عبارة الآية ، بل هي اقتباس من الآية ٧٤ ، من السورة ٩ : براءة .

١٩٨) تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ٩٩ و ١٠٠ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢١١ ؛ و «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٧١٦ ؛ و «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص . ١٤٦

١٩٩) الآية ٦٧ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢٠٠) نقل العلّامة الأمينيّ في «الغدير» ج ٣ ، ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ستّ روايات صحيحة من «صحيح البخاريّ» و «صحيح مسلم» في هذا المضمون . وذكر العلّامة الطباطبائيّ في تفسير «الميزان» ج ٣ ، ص ٤٢٠ في رواية صحيحة عن «صحيح البخاريّ» و «مسلم» عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : يَرِدُ عَلَيّ يَوْمَ القِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي (أو قال : مِنْ أمّتِي) فَيُحَلّؤُونَ عَنِ الحوضِ ؛ فَأَقُولُ : يَا رَبّ أَصْحَابِي ؛ فَيَقُولُ : لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ! ارْتَدّوا عَلَى أَدْبَارِهِمُ القَهْقَرَى فَيُحَلّؤُونَ . وكذلك في «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٧ و ٨ روايات كثيرة عن طريق العامّة حول انحراف الصحابة .

وذكر الكلينيّ في «روضة الكافي» ص ٣٤٥ بإسناده عن زرارة ، عن الباقر أو الصادق عليهما السلام رواية في رؤيا النبيّ الأكرم القردةَ تنزو على منبره .

٢٠١) الآية ٧٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٠٢) تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ» ص ١٥٩ إلى ١٦٢ ؛ وذكرها في «بحار الأنوار» ج٩ ، ص ١٩٩ و ٢٠٠ عن «تفسير القمّيّ» .

٢٠٣) الآية ٢٠ ، من السورة ٣٤ : سبأ .

٢٠٤) الإقبال» ص . ٤٥٨

٢٠٥) الآية ٤٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٠٦) الثنيّة : الطريق الذي ينتهي بالعقبة .

٢٠٧) تفسير الكشّاف» ج ١ ، ص ٥٤٥ و ٥٤٦ ، طبعة مطبعة ليسي كلكتّا ، ١٢٧٦ ه ، وهي أقدم طبعة ل «الكشّاف» ، ومن طبعة مطبعة شرفيّة ج ١ ، ص . ٣٩٨

٢٠٨) الآية ٧٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٠٩) الإقبال» ص ٤٥٨ و ٤٥٩ ؛ وتفسير «الكشّاف» ج ١ ، ص ٥٥٤ طبعة ليسي كلكتّا ، وطبعة مطبعة شرفيّة ج ١ ، ص . ٤٠٣

٢١٠) المغازي» ج ٣ ، ص . ١٠٦٨

٢١١) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٦ ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص . ٤٣٢

٢١٢) في « المغازي » ج ٣ ، ص ١٠٧٣ و ١٠٧٤ إذ يبيّن هذه الآيات ، يقول : حدّثنا ابن أبي الزناد ، عن شَيبَة بن نِصاح ، عن الأعرج ، قال : إنّما عنى الرجلين ، ولم يعن المسجدين .

٢١٣) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٦٣ و ١٦٤ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٨١ و . ٢٨٢ والآيات هي : ١٠٧ إلى ١١٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢١٤) مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٣ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٤١٥ عن «مجمع البيان» ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٣ عن «مجمع البيان» ، وفي ص ٦٣٤ عن «تفسير القمّيّ» ؛ و «حبيب السير» ج ١ ، ص ٤٠٠ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٥٦ و . ٩٥٧

٢١٥) ورد في تفسير القمّيّ ، و «الميزان» الذي نقل عن القمّيّ : زيد بن حارثة . ونحن صحّحناه من نسخة الواقديّ يزيد بن جارية .

٢١٦) تفسير القمّيّ» ص ٢٨١ ؛ و «تفسير الميزان» ج ٩ ، ص ٤١٤ عن «تفسير القمّيّ» ؛ و «المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٦ ؛ و «تفسير نور الثقلين» ج ٢ ، ص . ٢٦٩

٢١٧) جاء فى «تفسير القمّيّ» حتّى احترقت البُنْيَةُ . وفي «المغازي» : حتّى احترقت إِلِيَتُهُ . وقد ترجمنا كلّاً منها حسب معناها .

٢١٨) المغازي» ج ٣ ، ص . ١٠٤٦

٢١٩) مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٢ و ٧٣ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٤١٥ عن «مجمع البيان» .

٢٢٠) المربد : الموضع الذي تُحبس فيه الإبل والغنم .

٢٢١) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٤٨ و . ١٠٤٩

٢٢٢) تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٣ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٤١٦ عن «مجمع البيان» ؛ وتفسير «نور الثقلين» ج ٢ ، ص ٢٦٨ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٤ عن «تفسير العيّاشيّ» .

٢٢٣) تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ١١١ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٤١٥ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٢ ؛ و «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ١٦٢ ؛ و «تفسير الصافي» ج ١ ، ص ٧٣١ ؛ وتفسير «نور الثقلين» ج ٢ ، ص . ٢٦٧

٢٢٤) العريش حجرة تبنى من القماش أو الورق وأمثالهما . كالكوخ المبني في البساتين أو الأراضي الزراعيّة للاستظلال به من الشمس . وكان العريش معبد موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام . ذكر العيّاشيّ هذه الرواية في تفسيره : ج ٢ ، ص ١١١ و ١١٢ ؛ ووردت في «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٢ ؛ وتفسير «البرهان» ج ٢ ، ص ١٦٢ ؛ و«تفسير الصافي» ج ١ ، ص . ٧٣١

٢٢٥) الآيتان ١١١ و ١١٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٢٦) تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص . ٧٥ والشاهد على كلام الطبرسيّ عن الزجّاج أنّ الآية تدلّ على وجوب الجهاد في الشرائع السابقة هو الآيات ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ من السورة ٣ : آل عمران : وَكَأَيّن مّن نّبِيّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبّ الصّبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاّ أَن قَالُوا رَبّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَفِرِينَ فَاتَبهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْأَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبّ المُحْسِنِينَ . بل إنّ هذه الآيات لمّا كانت تبشّر بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة في مقابل الجهاد فهي كالآيات التي هي مثار بحثنا ، إذ ضمن الله لهم الجنّة .

٢٢٧) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٤٢٩ ؛ وفي تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٦ هذا المضمون من السؤال والجواب في طريق مكّة ، عن الزهريّ والإمام .

٢٢٨) مجمع البيان» ج ٣ ، ص . ٧٦

٢٢٩) الآيتان ٨ و ٩ ، من السورة٦١ : الصفّ .

٢٣٠) الآية ٨٣ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٣١) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٨ ؛ وتفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص . ٥٦

٢٣٢) الآيات ٩٤ إلى ٩٦ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٣٣) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص . ٣٨٢

٢٣٤) الميزان» ج ٩ ، ص . ٣٨٨

٢٣٥) مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٦١ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص . ٣٨٨

٢٣٦) قال الراغب الإصفهانيّ في مفرداته : العرب وُلدْ إسماعيل ، والأعراب جمعه في الأصل ؛وصار ذلك اسماً لسكّان البادية .

٢٣٧) الآيتان ٩٧ و ٩٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٣٨) الآية ١٠١ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٣٩) الآيات ١٢٤ إلى ١٢٧ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٤٠) الآيتان ٥٨ و ٥٩ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٤١) الآيات ٦١ إلى ٦٣ من السورة ٩ : التوبة .

٢٤٢) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص . ٣٢٩

٢٤٣) ذكر في تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٠ و ٣٧١ ، عن تفسير «الدرّ المنثور» أنّه أخرج عن البخاريّ ، ومسلم ، والترمذيّ ، والنسائيّ ، عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان .

٢٤٤) الآيات ٧٥ إلى ٧٩ من السورة ٩ : التوبة .

٢٤٥) تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٥٣ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٦٩ و ٣٧٠ .

٢٤٦) الميزان» ج ٩ ، ص . ٣٧٠

٢٤٧) المغازي » للواقديّ ، ج ٣ ، ص ١٠٤٩ إلى . ١٠٥٦ وذكرها عليّ بن إبراهيم في تفسيره في ذيل الآية ٤٦ : ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ، في ص . ٢٧٢ وفي تفسير «الميزان » ج ٩ ، ص ٣١٦ و ٣١٧ عن «تفسير القمّيّ» .

٢٤٨) ذكر الواقديّ أسماء هؤلاء الثلاثة في «المغازي» أيضاً في باب الآيات الواردة في غزوة تبوك ، ج ٣ ، ص . ١٠٧٥

٢٤٩) تفسير «مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٧٩ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٤٣١ و ٤٣٢ عن «مجمع البيان» و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٦٥ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢٢ و ٦٢٣ عن «مجمع البيان» ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٠ عن «تفسير العيّاشيّ» ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٨٢ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٩ ط ٤ ؛ و «سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ٩٤٦ و ٩٥٧ ؛ وكتاب «حياة محمّد» ص . ٤٣٣ والآية هي ١١٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٥٠) وكذلك ذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص . ٢٨٢

٢٥١) الآية ١٢٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٥٢) قَعَدَة يعني كثير القعود . ويقال قَعَد لمن لا يذهبون إلى الحرب . وأقعَدَهُ عَنِ الأَمْرِ : حبسه عنه .

٢٥٣) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٥٦ و ١٠٥٧ ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٦٣ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٢ عن «دلائل النبوّة» للبيهقيّ ؛ و «إعلام الورى» ص ١٣١ .

٢٥٤) ذكر هيكل الصلاة على عبد الله بن أُبيّ مختصراً في كتاب «حياة محمّد» ص . ٤٣٢

٢٥٥) الآية ٨٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٥٦) الآية ٨٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٥٧) المغازي» ج ٣ ، ص ١٠٥٧ إلى ١٠٦٠ ، وكذلك في ص ١٠٧٠ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ : ص ٣٤ و . ٣٥

٢٥٨) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٢ و ٣٧٣ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ٣٥

٢٥٩) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٣ و ٣٧٤ ؛ ونقل ابن هشام هذه الرواية في سيرته ج ٤ ، ص ٩٧٩ عن ابن عبّاس ، عن عمر ، إلى أن قال عمر : فلمّا وقف عليه يريد الصلاة ، تحوّلتُ حتّى قمتُ في صدره فقلتُ ــ إلى آخره .

٢٦٠) الاستشفاء طلب الشفاء . ولا يناسب هنا ، لأنّ عبد الله بن أُبيّ كان يعلم أنّه يموت . وأراد هذا القميص كفناً له . ولذلك يمكن أن يكون في النسخة : استشفاع بمعنى اتّخاذ الشفيع . فكتبت العين همزة سهواً . ويمكن أيضاً أنّه أراد الاستشفاء بمعناه الأعمّ ؛ أي : طلب الشفاء في الأمر الروحيّ والنفسيّ ، وهو لا يغاير الموت أيضاً .

٢٦١) مجمع البيان» ج ٣ ، ص ٥٧ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٢١ و . ٦٢٢

٢٦٢) تفسير القمّيّ» ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ؛ و «تفسير الصافي» ص ٢٣٧ ؛ و «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٣ و . ٣٧٤

٢٦٣) تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص . ١٠١

٢٦٤) يبدو أنّ الصحيح هو ابنه . ولكن لمّا جاء في النسخة : أبيه ، لذلك أوردناها كما هي . وفي الحالة الأُولى لابدّ أن تكون الكلمة : ابنه . وهي قريبة من كلمة : أبيه في الكتابة .

٢٦٥) تفسير العيّاشيّ» ج ٢ ، ص ١٠٢ ؛ و «تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ١٤٩ ؛ و «تفسير الصافي» الطبعة الحجريّة ص . ٢٣٧

٢٦٦) يعني رواية عليّ بن إبراهيم ، ورواية العيّاشيّ .

٢٦٧) الآية ٥٣ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النّبِىِ إِلّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنّ ذَ لِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النّبِىّ فَيَسْتَحْىِ مِنكُمْ وَاللَهُ لَا يَسْتَحْىِ مِنَ الْحَقّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَعًا فَسْئَلُوهُنّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَ لِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوا أَزْوَ جَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنّ ذَ لِكُمْ كَانَ عِندَ اللَهِ عَظِيمًا .

٢٦٨) تفسير الصافي» ص . ٢٣٧

٢٦٩) الآية ٥٣ من السورة ٩ : التوبة .

٢٧٠) تفسير «الميزان» ج ٩ : ص ٣٦٨ و . ٣٦٩

٢٧١) الآية ٨ ، من السورة ٦٣ : المنافقون .

٢٧٢) الآية ٨٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٧٣) الآية ٦ من السورة ٦٣ : المنافقون .

٢٧٤) الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧١ و . ٣٧٢

٢٧٥) الميزان» ج ٩ ، ص ٣٧٢ و ٣٧٣ ، ونحن ذكرنا الرواية الواردة في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ في هذا الكتاب عن «تفسير القمّيّ» ، و «تفسير الصافي» وتفسير «الميزان» .

٢٧٦) الآية ٨٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٧٧) الميزان» ج ٩ ، ص . ٣٧٨

٢٧٨) الآية ١١٣ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٧٩) الآية ٧٥ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢٨٠) تفسير «الميزان» ج ٩ ، ص ٣٨٣ إلى . ٣٨٦

٢٨١) الآية ١١٣ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢٨٢) الآية ٣٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢٨٣) الآية ٨٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢٨٤) الآية ٥٤ ، من السورة ٢٤: النور ؛ والآية ١٨ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٢٨٥) الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٢٠ : طه .

٢٨٦) الآية ٤٥ ، من السورة ٥٠ : ق .

٢٨٧) الآية ٥٥ من السورة ٥١ : الذاريات .

٢٨٨) الآية ٩ ، من السورة ٨٧ : الأعلى .

٢٨٩) الآيتان ٢١ و ٢٢ ، من السورة ٨٨ : الغاشية .

٢٩٠) الآية ٤ ، من السورة ٦٨ : القلم .

٢٩١) شرح روضة الكافي» للملّا صالح ، ج ١١ ، ص . ٢٨١

٢٩٢) الآيات ٧٣ إلى ٧٥من السورة ١٧ : الإسراء .

٢٩٣) الآية ٦٧ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢٩٤) تاريخ الأُمم والملوك» ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، طبعة مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

٢٩٥) الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، طبعة بيروت ، سنة . ١٣٨٥

٢٩٦) البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ٧

٢٩٧) المغازي» ج ٣ ، ص . ٩٩٥

٢٩٨) سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص . ٩٤٦

٢٩٩) وفي ضوء هذه المصادر التأريخيّة ، قال محمّد حسنين هيكل في كتاب «حياة محمّد» : وقد استخلف على المدينة محمّد بن مسلمة ، وخلّف عليّ بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم* . ولم يشر هيكل في هذا الكتاب إلى حديث المنزلة قطّ ، ولم يذكر أبا

ذرّ الغفاريّ في غزوة تبوك ، مع أنّه ذكر أبي خيثمة ، وكعب بن مالك ورفقاءه المتخلّفين . ومن هنا يجد سوء ظنّنا بهيكل وأمثاله شواهد وقرائن تتمثّل في أنّ هؤلاء الأشخاص الذين يزعمون أنّهم رجال العلم والتأريخ والمجتمع كيف يروقلهم أن يحجبوا الحقائق ويتجاهلوا المسلّمات الثابتات من وحي تعصّباتهم الجاهليّة .

* ــ «حياة محمّد» ص . ٤٢٨

٣٠٠) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٤٩

٣٠١) الاستيعاب» ج ٣ ، ص . ١٠٩٧

٣٠٢) السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص . ١٤٩

٣٠٣) الإرشاد» للمفيد ، ص ٨٣ و ٨٤ الطبعة الحجريّة ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٧ و ١٩٨ ، الطبعة الرابعة ، عن الشيخ المفيد .

٣٠٤) البداية والنهاية» ج ٥ ، ص . ٧

٣٠٥) تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٧ ؛ و «مناقب ابن المغازليّ» فيما نقله صاحب «غاية المرام» ص ١١٤ ، الحديث ٥٠ عن العامّة ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص . ٢٧٨

٣٠٦) الإرشاد» للمفيد ، ص ٨٣ و ٨٤ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ٢ ، ص ١٩٧ و ١٩٨ ، الطبعة الرابعة ، عن المفيد .

٣٠٧) تفسير القمّيّ» ص . ٢٤٦

٣٠٨) تفسير القمّيّ» ص . ٢٤٦

٣٠٩) الإرشاد» للمفيد ، ص ٨٣ و ٨٤ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٤ ، ص ٦٢٤ ، طبعة الكمبانيّ ، عن «الإرشاد» .

٣١٠) إعلام الورى» للطبرسيّ ، ص ١٢٩ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ١٣١ ، طبعة الكمبانيّ ، عن «إعلام الورى» .

٣١١) بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٣٥ ، عن «تفسير الإمام» ؛ و «طبقات ابن سعد» ج ٣ ، ص ٢٤ : لابدّ من أن أُقيم أو تقيم .

٣١٢) الإصابة» ج ٢ ، ص ٥٠٢ ؛ و «مسند أحمد بن حنبل» في ضوء ما نقله صاحب «غاية المرام» ص ١١٤ ، الحديث ٤٨ ، عن العامّة .

٣١٣) مثل يضرب للثناء على من يعترف الصديق والعدوّ بفضله . وأصل البيت هو : ل

وَمَلِيحَةٍ شَهِدَتْ بِهَا ضَرّاتُهَا
وَالفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ

٣١٤) الآية ١٢٥ ، من السورة ١٦ : النحل : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

٣١٥) قال في « الذريعة » ج ٤ ، ص ١٩٢ و ١٩٣ : كتاب «تشييد المطاعن لكشف الضغائن» بجميع أجزائه الآتية ثامن مجلّدات «الأجناد الاثنا عشريّة المحمّديّة» في ردّ «التحفة الاثنا عشريّة» الدهلويّة المرتّبة على اثنى عشر باباً في الردّ على الإماميّة . والتشييد هذا ردّ على خصوص الباب العاشر من التحفة الذي هو في دفع المطاعن . وردّ الباب الأوّل منه الذي هو في حدوث فرق الشيعة ، اسمه «السيف الناصريّ» . وردّ الباب الثاني منه الذي هو في نسبة المكائد إلى الشيعة ، اسمه «تقليب المكائد » . وردّ الباب السابع منه الذي هو في الإمامة ، اسمه «برهان السعادة» . وردّ الباب الحادي عشر منه الذي هو في الأوهام والتعصّبات والهفوات ، اسمه «مصارع الأفهام» . كلّ هذه الكتب من مجلّدات كتاب «الأجناد» باللغة الفارسيّة ، مطبوعة بالهند . وجميع هذه الكتب من تأليفات العلّامة السيّد محمّد قلي ابن السيّد محمّد حسين بن حامد حسين بن زين العابدين الموسويّ النيسابوريّ الكنتوريّ المولود في سنة ١١٨٨ ، والمتوفّى في التاسع من المحرّم ، سنة ١٢٦٠ .

٣١٦) ذكر صاحب «الذريعة» في ج ١٥ ، ص ٢١٤ و ٢١٥ مطالب حول كتاب «العبقات» ، نذكر فيما يأتي موجزاً منها : «عبقات الأنوار في مناقب الأئمّة الأطهار» في مجلّدات ضخام كبار لإثبات إمامة الأئمّة ، للسيّد المير حامد حسين بن محمّد قلي خان صاحب بن محمّد بن حامد النيسابوريّ الكنتوريّ المتوفّى في سنة ١٣٠٦ . هو ردّ على الباب السابع من «التحفة الاثنا عشريّة» الذي هو في مبحث الإمامة . ورتّبه على منهجين : المنهج الأوّل : في دلالة الآيات القرآنيّة المستدلّ بها للإمامة ، وهو غير مطبوع . والمنهج الثاني : في دلالة الأحاديث الاثني عشر على الإمامة والجواب عن اعتراضات صاحب التحفة عليها ، في اثني عشر جزءاً ؛ لكلّ حديث جزء . فالجزء الأوّل من المنهج الثاني في حديث الغدير . والثاني في حديث المنزلة . والثالث في حديث : إنّ عليّاً منّي وأنا من عليّ وهو وليّ كلّ مؤمن من بعدي . والرابع في حديث الطير . والخامس في حديث : أنا مدينة العلم وعليّ بابها . والسادس في حديث التشبيه : من أراد أن ينظر إلى آدم ونوح فلينظر إلىعليّ . والسابع في حديث : من ناصب عليّاً الخلافة فهو كافر . والثامن في حديث النور : كنت أنا وعليّ بن أبي طالب نوراً . والتاسع في حديث الراية يوم خيبر . والعاشر في حديث : عليّ مع الحقّ حيث دار . والحادي عشر في حديث قتال عليّ بالتأويل والتنزيل . والثاني عشر في حديث الثقلين . وهذه المجلّدات مجموعة تشكّل المنهج الثاني .

٣١٧) مسند أحمد بن حنبل» ج ١ ، ص ٣٣٠ و ٣٣١ ؛ وكذلك في «غاية المرام» ص ١١٢ ، الحديث ٤١ عن العامّة ، عن «مسند أحمد بن حنبل» إلى الفقرة التاسعة : من كنت مولاه ... .

٣١٨) منهاج الكرامة في إثبات الإمامة» ص ٣٤ و ٣٥ ، الطبعة الحجريّة .

٣١٩) تتمّتها : وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مرفوعاً أنّه بعث أبا بكر بالبراءة إلى أهل مكّة فسار بها ثلاثاً ثمّ قال لعليّ عليه السلام : إلْحَقْهُ فردّه وبلّغها أنت ففعل . ولمّا قدم أبو بكر على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بكى وقال : يا رسول الله ! أحدث فيّ شيءٌ ؟ قال : لا ، ولكن أمرني ربّي ألّا يبلّغه إلّا أنا أو رجل منّي .

٣٢٠) منهاج السنّة» ج ٣ ، ص ٨ ، الفصل التاسع .

٣٢١) الاستيعاب» ج ٣ ، ص ٣٤ ، في حاشية «الإصابة شرح التقريب» ج ١ ، ص ٨٥ ؛ «الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ١٦٣ ؛ «الصواعق المحرقة» ص ٧٢ ؛ «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٤٨ ؛ «الإسعاف» ص ١٤٩ ؛ «الإصابة» ج ٢ ، ص . ٥٠٧

٣٢٢) الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ١٦٢ ، «الإمتاع» للمقريزيّ ص ٤٤٩ ؛ «عيون الأثر» ج ٢ص ٢١٧ ؛ «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٤٨ ؛ «شرح المواهب» للزرقانيّ ج ٣ ، ص ٦٩ ؛ «سيرة زيني دحلان» ج ٢ ، ص . ٣٣٨

٣٢٣) ذكر الهيثميّ في «مجمع الزوائد» ج ٩ ، ص ١١١ : أنّ الطبرانيّ أخرج هذه الجملة بسند صحيح .

٣٢٤) وردت هذه العبارة نفسها في «مجمع الزوائد» ج ٩ ، ص . ١٢٠

٣٢٥) عرفنا الاستفادة من هذا الحديث في مباحث صدر الكتاب كالآتي : لا يريد الحديث أن يجعل منزلة أمير المؤمنين عليه السلام أقلّ من منزلة الأنبياء حتّى من منظار النبوّة ، بل يريد أن يشعر أنّ هذا المنصب لك فحسب لعدم وجود نبيّ بعدي ! وإلّا فإنّ شأنك ومقامك ودرجتك ومرتبتك وقدرتك على الاتّصال بعوالم الملكوت هي بنحو أكمل وأتمّ كما كانت للأنبياء . فلهذا عندما شكى أمير المؤمنين إلى رسول الله في الجرف خارج المدينة بقوله : إنّ قريشاً تزعم أنّك خلّفتني استثقالاً منّي ! قال له رسول الله : طال ما آذت الأُمَمُ أَنْبياءَها . أي : أنّ هذا أذى يؤذونني به في نسبة هذا الخلاف ، وأذى يؤذونك به في هذا الاتّهام والبهتان . (نقلنا كلام رسول الله المذكور من كتاب «إعلام الورى» ص ١٢٩) .

٣٢٦) أخرجه الطبرانيّ بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح إلّا ميمون البصريّ ، وهو ثقة . وثّقه ابن حبان كما في «مجمع الزوائد» ج ٩ ، ص . ١١١

٣٢٧) خصائص النسائيّ ص ٣٢ ؛ و «مروج الذهب» ج ٢ ، ص . ٦١

٣٢٨) جامع الترمذيّ» ج ٢ ، ص ٢١٣ ؛ و «مستدرك الحاكم» ج ٣ ، ص ١٠٨ وصحّحه ، وأقرّه الذهبيّ . وأخرجه باللفظ المذكور مسلم في صحيحه . ونقله الحافظ الكنجيّ في «الكفاية» ص ٢٨ ؛ والبدخشانيّ في «نزل الأبرار» ص ١٥ عن مسلم ، والترمذيّ ؛ وذكره بهذا اللفظ ابن حجر في «الإصابة» ج ٢ ، ص ٥٠٩ عن الترمذيّ ، وميرزا محذوم الجرجانيّ في الفصل الثاني من «نواقص الروافض» نقلاً عن مسلم ، والترمذيّ .

٣٢٩) وقال في «البداية والنهاية» ج ٨ ، ص ٧٧ بعد هذا الحديث : وفي رواية من وجه آخر أنّ هذا الكلام كان بين سعد ومعاوية وهما بالمدينة في حجّة حجّها معاوية . وأنّهما قاما إلى أُمّ سلمة فسألاها ، فحدّثتهما بما حدّث به سعد ، فقال معاوية : لو سمعتُ هذا قبل هذا اليوم لكنت خادماً لعليّ حتّى يموت أو أموت .

٣٣٠) رواه النسائيّ في «الخصائص» بعدّة طرق ، ص . ١٥

٣٣١) الحافظ الكنجيّ في «الكفاية» ص . ١٥٠

٣٣٢) الآية ١٣٧ ، من السورة ٢ : البقرة : فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

٣٣٣) شرح المواهب» للعلّامة الزرقانيّ ، ج ٣ ، ص ٧٠ ؛ و «الغدير» ج ٣ ، ص ١٩٧ إلى . ٢٠٢

٣٣٤) يبدو أنّ العلّامة الحلّيّ عدّ سبق عليّ عليه السلام إلى الإسلام بعد خديجة رقماً مستقلّاً وقد ذكرناها ضمن الرقم الثالث ؛ وحينئذٍ لا يرتبط ذيل الحديث بتلك المناقب ، بل يصبح مطلباً مستقلّاً ذُكر في مثالب عمر وأمثاله . ولهذا السبب الذي أوردناه ويتمثّل في أنّ ذيل الحديث هو المنقبة العاشرة ، عدّ بعض الرواة حديث سبق عليّ إلى الإسلام منقبة مستقلّة . ورووا في حديثهم أنّ المناقب بضع عشرة ، والله العالم .

٣٣٥) الآية ١٨ ، من السورة ٤٨ : الفتح:

لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا .

٣٣٦) ليس في «المستدرك» ج ٣ ، ص ١٣٤ كلمة (عنهم) .

٣٣٧) ذكر هذا المفاد في تعليقة المدرك نفسه .

٣٣٨) وكذلك ذكر هذا الحديث الشريف محبّ الدين الطبريّ الشافعيّ في كتاب «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى» ص ٨٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ ، تحت عنوان «ذكر اختصاصه بعشر» عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عبّاس . ثمّ قال الطبريّ : أخرج هذا الحديث بتمامه أحمد وأبو القاسم الدمشقيّ في «الموافقات» و «الأربعين الطوال» ؛ وذكر النسائيّ بعض فقراته كما شرح بعض ألفاظ الحديث ؛ وكذلك ذكر ملّا على المتّقي بعض

عباراته في «كنز العمّال» ج ٦ ، ص ١٥٣ عن «المستدرك» للحاكم ، و «مسند أحمد بن حنبل» عن ابن عبّاس ، في الحديث رقم ٢٥٥٩ : قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم لعليّ : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّك لست بنبيّ ، إنّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي .

ورواه الذهبيّ أيضاً في «تلخيص المستدرك» للحاكم ، ج ٣ ، ص ١٣٢ ، وهو مطبوع بحيد رآباد الدكن مع «المستدرك» نفسه ، وقال في آخره : هذا حديث صحيح ، كما قال الحاكم أيضاً : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجه البخاريّ ومسلم بهذا السياق . وكذلك ذكره القندوزيّ في «ينابيع المودّة» ص ٢٣٤ ، طبعة إسلامبول سنة ١٣٠١ ، وقال : أخرجه ابن المغازليّ الشافعيّ ؛ وذكره النسائيّ في «الخصائص» ص ٧ ، وذكره الطبريّ أيضاً في كتابه الآخر «الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، طبعة مصر سنة . ١٣٢٧ وأورده أيضاً العلّامة عبيد الله بن مظهر جمال في كتابه : «أرجح المطالب في عدّ مناقب عليّ بن أبي طالب» ص ٦٩٢ ، طبعة لاهور ، ثمّ عدّ جمعاً من العلماء الذين ذكروه في كتبهم واحداً واحداً ، ومنهم أبو يعلي ، والخوارزميّ ، وابن عساكر ، والسيوطيّ في «جمع الجوامع» .

٣٣٩) بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٦٦٣ ، طبعة الكمبانيّ .

٣٤٠) مجالس المؤمنين» شرح ترجمة محيى الدين العربيّ .

٣٤١) من صلوات محيي الدين الطائيّ العربيّ . شرحها الحكيم السيّد صالح الخلخاليّ تحت عنوان «شرح مناقب محيي الدين» («الذريعة» ج ١٣ ، ص ٢٦١) . وكان الخلخاليّ تلميذ الميرزا أبو الحسن جلوه . وقال صاحب «الذريعة» ج ٨ ، ص ٢٦٩ : «دوازده إمام» ينسب إلى محيي الدين بن العربيّ المدفون بصالحيّة دمشق ، ولكنّه قال في ج ٢٢ ، ص ٣١٧ و ٣١٨ : ينسب «مناقب دوازده إمام» إلى محيي الدين ، ولعلّه من إنشاء العيانيّ الخفريّ . وقال في ج ٩ ، ص ٧٧٧ : العيانيّ الخفريّ ، محمّد بن محمود الدهدار الشيرازيّ .

٧٧٧ : العيانيّ الخفريّ ، محمّد بن محمود الدهدار الشيرازيّ .

الدرسان التاسع والأربعون والخمسون بعد المائة: سائر المقامات في حديث المنزلة ، واستضعاف أمير المؤمنين كهارون

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين

ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَلَمّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمّ إِنّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظّلِمِينَ * قَالَ رَبِ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ [1] .

تدور هذه الآيات حول تخلّف قوم موسى عن دين التوحيد عند غيبته لمناجاة الله تعالى والتكلّم معه جبل الطور خلال أربعين ليلة ؛ فعبدوا العجل بدعوة السامريّ . وكثر أتباع السامريّ ، فلم يستطيع هارون أن يصدّهم عن شركهم ، إلى درجة أنّهم كادوا يقتلونه . ولمّا عاد موسى من الطور ، ورأى قومه يعبدون العجل ، وغضب على أخيه إذ لم يتّبع طريقه ، ولم يردع قومه عن ذلك العمل القبيح ، ولم يصلح شؤونهم ، وعرض هارون عذره ، ورأى موسى مشروعيّة عذره ، أشفق على أخيه ، وطلب من الله أن يغفر له ولأخيه ويرحمهما .

ووردت الآيات التي تتحدّث عن موسى وبنيإسرائيل في كثير من سور القرآن ، بخاصّة من سورة البقرة ، والأعراف ، وطه ، والقصص . وذُكر اسم موسى عليه السلام في القرآن كثيراً ، كما جرى الحديث فيه عن قصصه وقصص قومه بحيث لم يتحدّث القرآن بهذا الحجم عن الأنبياء الآخرين بما فيهم إبراهيم عليه السلام الذين كان أفضل الأنبياء وأشرفهم جميعاً ، ماعدا الرسول الأكرم خاتم الأنبياء والمرسلين ، وله مقام أرفع في توحيد ذات الحقّ .

ويعود السبب في ذلك إلى أنّ القرآن ليس كتاباً قصصيّاً يسرد لنا حكايات عن الأنبياء وأقوامهم بأُسلوب قصصيّ من أجل الاطّلاع على أحوالهم فحسب . بل هو كتاب حكمة وموعظة وبيان لفضائل الإنسان وكمالاته ، لكي يتّبعه الناس ، ويحظوا بالسعادة المطلقة ؛ وكذلك يتحدّث عن قبائح الأعمال والأخلاق والعقائد والسنن والآداب حتّى يبتعد الناس عنها .

ولمّا كانت النفوس البشريّة متماثلة في جبلّتها ، وأُسلوب طيّها طريق التكامل ، أو السقوط في حضيض الهوى . وكان بنو إسرائيل أكثر الطوائف والأُمم مِراءً مع أنبيائهم ، وكانوا يطرحون مؤاخذاتهم الواهية المنبعثة عن تثاقلهم وتساهلهم وتكاسلهم وميوعتهم في الشؤون الحياتيّة العظيمة ، وكانوا يركنون إلى المال والكنوز الفانية وزخارف الدنيا ، ويهتمّون بمصالحهم الذاتيّة وأُمورهم الاعتباريّة ، ولم يتركوا أهواءَهم على الرغم ممّا قام به موسى وأخوه هارون من الدلالة على طريق والهداية التامّة الكاملة ، فلهذا تكلّم عنهم القرآن أكثر من غيرهم ؛ لكي تتّغط نفوس جميع الذين يأتون بعد نزول القرآن إلى يوم القيامة ، ويعرفوا طريقهم جيّداً ، أُولئك الذين هم كبنيإسرائيل من حيث النفسانيّات والمهلكات والمنجيات وتطوّر الأحوال وتشتّت الخواطر ، وظهور الآراء والمقاصد المستجدّة ، والعقائد والأخلاق الجديدة ؛ فيعتبروا بقراءة هذا الآيات وتطبيقها على أنفسهم ، وأعمالهم وأخلاقهم وتعاملهم مع نبيّهم وأئمّة الدين وولاة الشرع المبين . وحتّى لا تزلّ أقدامهم كالسابقين ، ولا يكونوا كتلك الطائفة البائسة المنقلبة من بني إسرائيل في المؤاخذات ، وضروب التثبيط والتكاسل ، والقيام بالشؤون الحياتيّة ، وعدم اتّباع أولياء الدين والأئمّة الميامين المنصوبين من قبل سيّد المرسلين ، وعدم طاعتهم طاعة محضة . ولكي يفهموا أنّ النفوس واحدة ، وأنّ اسم المسلم ، واليهوديّ ليسا أكثر من اسمين فحسب . وفي ميزان الحقائق ويوم القيامة يجري الامتحان والاختبار على ميزان الحقيقة والصلاح والتقوى والإيمان والولاية ، لا على الاسم . ولو كان هؤلاء كأُولئك في خَور النفس ، واعوجاج الطريق ، وعدم الانقياد الصرف ، والمماراة في الأُمور ، فلا فرق بينهم وبين تلك الطائفة من بني إسرائيل وستكون عاقبتهم واحدة .

ومن هنا أمر الله الناس في هذا الكتاب السماويّ : القرآن الكريم أن يتلوه في أطراف نهارهم وآناء ليلهم ، كي يطّلعوا على الخصائص النفسيّة ، لموسى وهارون عليهما السلام ، وعزمهما الراسخ ، وصبرهما واستقامتهما إذ أودع الله في نفس كلّ ذي نفس أمثلة ونماذج من ذلك . وكذلك يتعرّفوا على مواصفات أُولئك القوم وسلبيّاتهم غير المؤثّرة ، فلا يؤثِروا الهوى الإسرائيليّ على نور التوحيد والإيمان الراسخ والصبر والاستقامة الموسويّة والهارونيّة . وليتّقد نور التوحيد في قرارة نفوسهم فيقشع غمائم الظلام .

وبناءً على هذا ، مثل من يتلو القرآن ويطّلع على أحوال أُولئك القوم وآثارهم ، ويتعرّف على أسباب سقوطهم ونكبتهم كمثل من يدرس أحوال نفسه وآثارها ، فيحصل منها ومن شؤونها على نتيجة مخالفتها للدين وتعاليمه وأوليائه عند التمرّد ، كما يحصل على نتيجة موافقتها عند الانقياد .

كان لموسى على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام مقام النبوّة والرسالة ، وهو أحد أنبياء أُولي العَزْم [٢] وله كتاب سماويّ وشريعة وقانون . وأطلعه الله على عوالم الغيب ،

وفتح له باب التكلّم معه فأصبح كليم الله وولد من الأسباط بمصر في ظلّ تسلّط وسيطرة فرعون والفراعنة وقومه الذين كانوا من الأقباط . وببركة هذا النبيّ الكريم ورحمته اجتمع الأسباط وانضووا تحت لواء التوحيد ، وهم الذين كانوا من نسل يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ، وكان موطنهم في الشام ، وبيت المقدس ، وكنعان . وطردوا من ديارهم لغلبة الخصم عليهم ، فعاشوا بمصر كالرقيق ؛ وكان الفراعنة يذبّحون أبنّاءهم ، ويستحيون بناتهم في بيوتهم كالجواري . ولمّا انتصرت معجزته على سحر السحرة الفرعونيّين ، ولقفت عصاه ــ التي انقلبت إلى حيّة ــ حبالهم المتحرّكة بتأثير سحرهم ، وآمن السحرة كلّهم برسالته ، وبربّ موسى وهارون أمره الله أن ينقل الأسباط من مصر ، ويأخذهم إلى الشام حيث موطن أجدادهم ومهد نشأتهم ، لينقذهم من الأقباط وأذاهم ، فيستعيدوا سيادتهم وحرّيّتهم الأُولى .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى (بني إسرائيل) فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى [٣] .

وهذه الجملة إشارة إلى الآية ٢٩ ، من السورة ٤٠ : المؤمن ، إذ جاء فيها على لسان فرعون وهو يقول لقومه : وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلّا سَبِيلَ الرّشَادِ . فظهر أنّه كذّاب وأنّه لم يهدهم إلّا إلى الضلال والغيّ . وغرق فرعون والفراعنة ؛ وعبر قوم موسى البحر بسلام بعد أن ضربه موسى بعصاه فظهر منه اثنا عشر طريقاً يبساً . واجتاز كلّ واحد من الأسباط طريقاً خاصّاً . والأسباط أبناء كلّ سبط من الأسباط الاثني عشر ، وهم أبناء يعقوب . وكانوا يخافون بعد اجتيازهم أن يهجم عليهم جنود فرعون . ولم يُخيّل إلى بعضهم غرق فرعون وهو بذلك الجلال والعظمة والأُبّهة ، ولم يستطيعوا أن يتصوّروا ذلك بقوّتهم الخياليّة . وقد أمر الله البحر أن يقذف جسده إلى الساحل ليراه جميع الناس فيعتبروا .

وما إن عبر بنو إسرائيل البحر ، واطمأنّوا من جانب العدوّ ، استهواهم هَوَسُ الماضي ، فطلبوا من موسى صنماً ليعبدوه .

وَجَوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَ ءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لّهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَل لّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [٤] .

روى في تفسير «البرهان» عن محمّد بن شهرآشوب في تفسير هذه الآية أنّ رَأْسَ الجَالُوتِ قال لعَلِيّ (بْنِ أَبِي طَالِبٍ) عليه السلام : لم تلبثوا بعد نبيّكم إلّا ثلاثين سنة حتّى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف ! فقال عليّ عليه السلام : وأنتم لم تجفّ أقدامكم من ماء البحر حتّى قلتم : اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ [٥] .

وقال في تفسير «الدرّ المنثور» : أخرج ابن أبي شَيْبَة ، وأحمد ، والنسائيّ ، وابن جرير ، وابن منذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي واقد الليثيّ

قال : خرجنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في سفر قبل غزوة حُنين فمررنا بسدرة . فقلتُ : يا رسول الله ! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما كان للكفّار ذات أنواط ، وكان الكفّار ينوطون سلاحهم بسدرةٍ ويعكفون حولها [٦] !

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : اللَهُ أَكْبَرُ هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَة [٧] . إنّكم تركبون سنن الذين قبلكم .

ولمّا جاوز موسى بالأسباط البحر ، ووجدوا الهدوء والسكينة في تلك البلاد الشاسعة ببالٍ رخيّ ، وعد الله موسى أن يذهب مع جمع من أخبارهم وأبرارهم للمناجاة ونزول كتاب التوراة المكتوب في الألواح على الجانب الأيمن من طور سيناء [٨] ، وكان جانباً ميموناً مباركاً ، ذلك أنّ بني إسرائيل لم يكن لهم كتاب قانون وأحكام ؛ وقد وعد الله أن ينزل على موسى كتاباً فيه موعظة وحكمة وتفصيل كلّ شيء [٩] .

يَبَنِى إِسْرَ ءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَكُم مِّنْ عَدُوّكُمْ وَوَاعَدْنَكُمْ جَانِبَ الطّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنّ وَالسّلْوَى * كُلُوا مِن طَيّبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى * وَإِنّى لَغَفّارٌ لّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحًا ثُمّ اهْتَدَى [١٠] .

ولمّا أراد موسى أن يتوجّه إلى الطور للمناجاة وأخذ ألواح التوراة من الله في تلك الليالي الثلاثين المقرّرة التي امتدّت إلى أربعين ليلة ، جعل أخاه هارون خليفةً لذلك الجمّ الغفير . وأوصاه أن لا يتّبع سبيل المفسدين ؛ وأن يصلح في أُمّته . وذهب وحده إلى الطور لفرط عشقه وحبّه لربّه ولذّة مناجاته وخلوته به ؛ وأمر الذين قدّر لهم الذهاب معه أن يأتوا على أثره ، ويلتحقوا به .

وخاطب الله موسى قائلاً:

وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَى * قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنّا قَدْ فَتَنّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلّهُمُ السّامِرِىّ * فَرَجَعَ مُوْسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا (أن ينزّل عليكم التوراة ، وتحصلوا على سعادة الدنيا والآخرة بتعلّمها ! أو : ألم يعدكم أن ينقذكم من عدوّكم ، ويمكّنكم في الأرض ؛ ويخصّكم بنعمه العظيمة ؟) أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ (فيأستم من رجوعي ولذلك مُنيتم باختلال نظم أُموركم وتضاربه؟) أَمْ أَرَدتّمْ أَنْ يَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رّبّكُمْ (وكفرتم بعد الإيمان ، وعبدتم العجل) فَأَخْلَفْتُم مّوْعِدِى (في حُسن السيرة والخلافة عند غيابي) !؟ قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا (أو لم نصرف شيئاً من أموالنا في صبّ العجل الذهبيّ وتذويبه ، فنكون قد عملنا ذلك تعمّداً) وَلَكِنّا حُمّلْنَآ أَوْزَارًا مّن زِينَةِ الْقَوْمِ (كالسوار والقرط والقلادة وغيرها) فَقَذَفْنَهَا فَكَذَ لِكَ أَلْقَى السّامِرِىّ (أو هو مثلنا ألقى زينته) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لّهُ خُوَارٌ (ليس فيه روح) فَقَالُوا هَذَآ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِىَ * (موسى أو نسي السامريّ ذكر الله بعد الإيمان به) . (كيف سوّغت لهم عقولهم عبادة العجل ؟) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا

وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَرُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنّ رَبّكُمُ الرّحْمَنُ فَاتّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى * قَالُوا لَن نّبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَهَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوا * أَلّا تَتّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى * (إذ قلت لك : اخلفني في قومي ولا تتّبع سبيل المفسدين) ؟! قَالَ (هارون) يَبْنَؤُمّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنّى خَشِيتُ (عند المواجهة والمواجهة الشديدة أن يطيعني بعض القوم ، ويخلفني أكثرهم ، فيتفرّقوا فرقتين ، وحينئذٍ) أَن تَقُولَ فَرّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَ ءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى [١١] (أن تتعامل معهم تعاملاً حسناً) .

ويظهر من قول هارون : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي أنّ موسى أراد أن يضربه لفرط غضبه ، كما جاء في سورة الأعراف : وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرّهُ إِلَيْهِ . ولمّا عرض هارون عذره على أنّه لم يقاوم مقاومة تامّة خشية التفرّق والتشتّت بين بني إسرائيل ؛ ولذلك لم يخالف أخاه ، بل عمل بوصيّته ، إذ قال له : أصلح بينهم ، ورعاها ! قَبِلَ موسى عذره ، ودعا لنفسه ولأخيه : «ربّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين » [١٢] .

وعندما تمّ حديث موسى مع أخيه هارون ، جاء دور الحديث مع السامريّ ومؤاخذته ذلك أنّ موسى عليه السلام تحدّث في المرحلة الأُولى مع قومه الذين رجعوا عن الطريق وعبدوا العجل . وفي المرحلة الثانية مع أخيه هارون . وها هي المرحلة الثالثة وتتمثّل في مخاطبة السامريّ ومعاتبته :

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَمِرِىّ * قَالَ بَصُرْتُ (في علم الصبّ ونحت التماثيل) بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَ لِكَ سَوّلَتْ لِى نَفْسِى [١٣] .

أن آخذ مقداراً من آلات الزينة التي كانت تحت يد الرسول ، وهي تعود له ، فألقيها في النار (كي أصنع منها تمثالاً على صورة العجل ، عندما يخرج الهواء من فيه ، له خوار [١٤]) .

وحكم موسى عليه السلام هنا بمعاقبته المتمثّلة بإخراجه من بني إسرائيل ، ولا يحقّ لأحد الاتّصال به حتّى يدركه الموت ؛ ثمّ يناله ما ينال المشركين والمضلّين من العذاب يوم القيامة .

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنّ لَكَ فِى الْحَيَوةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنّ لَكَ مَوْعِدًا لّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لّنُحَرّقَنّهُ ثُمّ لَنَنسِفَنّهُ فِى الْيَمِ نَسْفًا * إِنّمَآ إِلَهُكُمُ اللَهُ الّذِى لَآ إِلَهَ إِلّا هُوَ وَسِعَ كُلّ شَىْءٍ عِلْمًا [١٥] .

قال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه : قوله : «فاذهب فإنّ لك فى الحيوة أن تقول لا مساس» ، (أشدّ عقوبة له ، إذ إنّها) قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم ، ولا يمسّ أحداً ، ولا يمسّه أحد بأخذ أو عطاء ، أو إيواء ، أو صحبته ، أو تكليم [١٦] .

إنّ الهدف من عرض قصّة موسى عليه السلام ، والتطرّق إلى عبادة العجل من قبل بني إسرائيل الذين مُنِيَ معظمهم بهذا الانحراف ، وقضيّة السامريّ المُضِلّ والمنظّر لأُمّة موسى في نظام الشرك والوثنيّة ، ومؤاخذة موسى أخاه هارون على عدم مقاومته ، واعتذار هارون بقوله:

إِنّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى،

كلّ ذلك من أجل بيان استضعاف أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، إذ كان الرسول الأعظم قد أوصاه قائلاً : أنت خليفتي من بعدي في أُمّتي ؛ لا تشهر سيفك فيحلّ الفساد والفتنة والتفريق والتشتّت والخروج من حظيرة الإسلام ؛ وأصلح بينهم ؛ واصبر عند انحراف الطريق ! لأنّك منّي كهارون من موسى ، وهارون لم يشهر سيفه حفظاً لكيان رسالة أخيه موسى . وتنازل أمير المؤمنين أيضاً عن حقّه وولايته حفظاً للمصالح العامّة ؛ وعرّض نفسه وروجته وأولاده وذرّيّته للمصائب والنوازل . ولم يسلّ سيفه حفظاً للإسلام من الانهيار والاضمحلال ، والاجتثاب من الجذور ؛ وحرصاً منه على بقاء ظاهر الإسلام تمهيداً لظهور بقيّة الله الأعظم عجّل الله تعالى فرجه الشريف ، إذ يشرق على العالم فيقطع دابر السامريّ وعجله ، ويستأصل الشرك من جذوره ، ويهزّ لواء توحيد الكلمة ، وكلمة التوحيد على قبّة العالم المتلألئة . علماً أنّ من أراد أن يتمتّع ويستفيد من تعاليم الإسلام الرصينة الراسخة ، والارتباط بالولاية خلال غيبة الإمام ، فطريقه مفتوح ، وما من عقبة أمامه .

وواجه أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين انحراف واعوجاج حملة لواء الاعوجاج والانحراف بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وتحمّل من المصائب أضعاف ما تحمّله هارون . ونهض السامريّ وعجله أمام القرآن والسنّة ومنهاج رسول الله ووصيّته لجميع الأُمّة بخلافته المباشرة بلا فصل . وجرّا إليهما أكثريّة الأُمّة من الهَمَجِ الرّعَاعِ ، واقتادا عليّاً إلى المسجد كالجمل المخشوش [١٧] ، ووقفا أمامه بسيفين مسلولين ليسلّم ! ويبايع ! ويؤيّد حكومتهم ! وينضوي هو وأصحابه وأهل بيته تحت راية هذا الخليفة المنتخب ، بل المنصوب بالمكر والخديعة ! وما أُقيم وزن للعلم والشرف ، والفضيلة ، والسبق إلى الإسلام ، وسابقة الجهاد ، والهجرة ، والوصاية على الخلافة ، والأعلميّة بالكتاب والسنّة ، وأُخوّة رسول الله له ، وحديث المنزلة ، وحديث الولاية ، وحديث الثقلين ، وسائر الأحاديث المأثورة عن رسول الله في مواطن ومقامات عديدة . ولا قيمة لهذه المناقب كلّها في عرفهم . وما من أحد يثمّنها في هذه المعمعة والجلبة . ولا توجد إلّا مسألة واحدة فحسب ، وهي : إن لم تبايع ، وتسلّم لهذا الخليفة في فكرك وإرادتك واختيارك وكلّ ما تملكه في الوجود ، فإنّا نقتلك ! ونفصل رأسك عن بدنك بهذا السيف !

قال ابن أبي الحديد : ثُمّ دَخَلَ عُمَرُ فَقَالَ لِعَلِيّ : قُمْ فَبَايِعْ ، فَتَلَكّأَ وَاحْتَبَسَ ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ : قُمْ ! فَأَبَى أَنْ يَقُومَ فَحَمَلَهُ وَدَفَعَهُ كَمَا دَفَعَ الزّبَيْرَ حَتّى أَمْسَكَهُمَا خَالِدُ وَسَاقَهُمَا عُمَرُ وَمَنْ مَعَهُ سَوْقَاً عَنِيفَاً ، وَاجْتَمَعَ النّاسُ يَنْظُرُونَ ، وَامْتَلأَتْ شَوَارِعُ المَدِينَةِ بِالرّجَالِ ، وَرَأَتْ فَاطِمَةُ مَا صَنَعَ عُمَرُ فَصَرَخَتْ وَوَلْوَلَتْ وَاجْتَمَعَ مَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ الهَاشِمِيّاتِ وَغَيْرِهِنّ فَخَرَجَتْ إِلَى بَابِ حُجْرَتِهَا وَنَادَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ ! مَا أَسْرَعَ مَا أَغَرْتُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَهِ ! وَاللَهِ لَا أُكَلّمُ عُمَرَ حَتّى أَلْقَى اللَهَ [١٨] .

وكان ذلك بعد أن اعتصم عليّ عليه االسلام ومن معه في بيت فاطمة الزهراء مخالفين للحكومة القائمة . فهجم القوم على بيت الزهراء وأخذوهم إلى المسجد . وكسروا سيف الزبير ، ورجموه بالحجارة ، وأخذوه ، وسلّموه إلى خالد بن وليد وجماعة كانوا قد أتوا معهم . ثمّ جاؤوا إلى عليّ .

قال ابن قتيبة الدينوريّ : أخرجوا عليّاً ، فمضوا به إلى أبيبكر ، فقالوا له : بايع ! فقال (عليّ) : إن أنا لم أفعل فمه ؟!

قَالُوا : إِذَاً وَاللَهِ الّذِي لَاإِلَهَ إِلّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَكَ !

قَالَ عَلِيّ : إِذَاً تَقْتُلُونَ عَبْدَ اللَهِ وَأَخَا رَسُولِهِ ! قال عمر : أمّا عبد الله ، فنعم . وأمّا أخو رسوله فلا ! وأبو بكر ساكت لا يتكلّم ، فقال له عمر : ألا تأمر فيه بأمرك ؟!

فقال (أبو بكر) : لا أُكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه .

فَلَحِقَ عَلِيّ بِقَبْرِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَصِيحُ وَيَبْكِي وَيُنَادِي : يَا بْنَ أُمّ إِنّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي [١٩] !

وقال المجلسيّ بعد سرد البحث المفصّل الذي ذكره الصدوق ، والشريف المرتضى حول هذا الحديث المبارك (حديث المنزلة) واستدلالهما عليه : أقول : لا يخفى على منصف بعد الاطّلاع على الأخبار التي أوردناها ، وما اشتملت عليه من القرائن الدالّة على أنّ المراد من هذا الاستخلاف ما ذكرناه ، على ما مرّ في كلام (هذين) الفاضلين العظيمين أنّ مدلول الخبر صريح في النصّ على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته العامّة ، لا سيّما وقد انضمّت إليها قرائن أُخَر ، منها الحديث المشهور الدالّ على أنّه يقع في هذه الأُمّة كلّ ما وقع فيبنيإسرائيل حَذْو النّعْلِ بِالنّعْلِ . ولم يقع في هذه الأُمّة ما يشبه قصّة هارون وعبادة العجل إلّا بعد وفاة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، من غصب الخلافة ، وترك نصرة الوصيّ . وقد ورد في روايات الفريقين أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استقبل قبر رسول الله عند ذلك وقال ما قاله هارون:

يَبْنَؤُمّ إِنّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى [٢٠] .

ومن القرائن ما ذكره بعض المخالفين (من السنّة) . أنّ وصاية موسى وخلافته انتهت إلى أولاد هارون . فمن منازل هارون من موسى كَون أولاه خليفة موسى فيلزم بمقتضى

المنزلة أن يكون الحسنان عليهما السلام المسمّيان باسمي ابني هارون باتّفاق الخاصّ والعامّ ، خليفتي النبيّ . فليزم خلافة أبيهما أمير المؤمنين لعدم القول بالفصل ، ولأنّ جميع المسلمين بلا استثناء قالوا بإمامته وخلافته عند فرض إمامة هذين الإمامين ، فلا مجال للشّك في خلافة الإمام .

وممّن ذكر ذلك (من العامّة) : مُحَمّدُ الشّهْرِسْتَانِيّ حيث قال في أثناء بيان أحوال اليهود : إنّ أمر الولاية كان مشتركاً بين موسى وأخيه هارون ، إذ قال (موسى) : وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . ولذلك كان هارون هو الوصيّ (لموسى) . فلمّا مات هارون في حياته ، انتقلت الوصاية إلى يُوْشَع بْنِ نُون وديعة ليوصلها إلى شُبّيْر وشُبّر : ابنَي هارون قراراً .

وذلك أنّ الوصيّة والإمامة (كبعض الشؤون الأُخرى) بعضها مُسْتَقَرّ ، وبعضها مُسْتَوْدَع (قابل للتغيير وغير قابل له .) ــ انتهى كلام الشهرستانيّ .

ومن القرائن ما مرّ وسيأتي من الأخبار المتواترة الدالّة بأجمعها على أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان بصدد تعيين عليّ للخلافة وإظهار فضائله لذلك في كلّ موطن ومقام ، إلى غير ذلك ممّا سيأتي في الأبواب الآتية .

وأقول بعد بيان هذه المطالب : إنّا لو سلّمنا للخصم جميع ما يناقشنا فيه ، مع أنّا قد أقمنا الدلائل على خلافها ، (فلا يستطيع) أن يناقشنا في أنّ حديث المنزلة يدلّ على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أخصّ الناس برسول الله وأحبّهم إليه .

ولا يكون أحبّهم إليه إلّا لكونه أفضلهم ، كما مرّ بيانه في الأبواب السابقة . فبناءً على هذا يكون تقديم غيره عليه ممّا لا يقبله العقل ، ويعدّه قبيحاً .

وأيّ عقل يجوّز كون صاحب المنزلة الهارونيّة ، مع ما انضمّ إليها من سائر المناقب العظيمة والفضائل الجليلة رعيّة وتابعاً لمن ليس له إلّا القبائح الشنيعة والمثالب الفظيعة ؟ والحمد للّه الذي أوضح الحقّ لطالبيه ، ولم يدع لأحد شبهة فيه [٢١] .

وللّه درّ شاعر أهل البيت : الأُزْرِيّ ، إذ أنشد في هذا الباب ضمن قصيدة طويلة ، فقال :

مَلِكٌ شَدّ أَزْرَهُ بِأَخِيهِ
فَاسْتَقَامَتْ مِنَ الأُمُورِ قَنَاهَا [٢٢]

إلى أن بلغ قوله :

وَتَفَكّرْ بِأَنْتَ مِنّي تَجِدْها
حِكْمَةً تُورِثُ الرّقُودَ انْتِبَاهَا
أَوَ مَا كَانَ مُوسَى أَخُوهُ
خَيْرَ أَصْحَابِهِ وَأَكْرَمَ جَاها
لَيْسَ تَخْلُو إِلّا النّبُوّةُ مِنْهُ

وَلِهَذَا خَيْرُ الوَرَى اسْتَثْنَاهَا [٢٣]

يشير الشاعر في البيت الأوّل إلى الحديث النبويّ المشهور : أَنتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

ثمّ بلغ قوله :

كُلّ نَفْسٍ كَانَتْ تَرَانِي مَوْلَىً
فَلْتَرَ اليَوْمَ حَيْدَرَاً مَوْلَاهَا
رَبّ هَذِي أَمَانَةٌ لَكَ عِنْدِي
وَإِلَيْكَ الأَمِينُ قَدْ أَدّاهَا
وَالِ مَنْ لَا يَرَى الوَلَايَةَ إِلّا
لِعَلِيّ وَعَادِ مَنْ عَادَاهَا
فَأَجَابُوا : بَخّ بَخّ وَقُلُوبُ القَوْمِ
تَغْلِي عَلَى مَغَالِي قَلَاهَا
لَمْ تَسَعْهُمْ إِلّا الإِجَابَةُ بِالْقَولِ
وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ مَا عَدَاهَا [٢٤]

إلى أن بلغ قوله :

إِنْ تناسَيْتُمَا السّقِيفَةَ وَالقَوْمَ
فَإِنّي وَاللَهِ لَا أَنْسَاهَا [٢٥]

ثمّ قال :

يَا تَرَى هَلْ دَرَتْ لِمَنْ أَخّرَتْهُ
عَنْ مَقَامِ العُلَى وَمَا أَدْرَاهَا ؟
أَخّرَتْ أَشْبَهَ الوَرَى بِأَخِيهِ
هَلْ رَأَتْ فِي أَخِ النّبِيّ اشْتِبَاهَا [٢٦]

ثمّ قال :

أَنَبِيّ بِلَا وَصِيّ تَعَالَى اللَهُ
عَمّا يَقُولُهُ سُفَهَاهَا
زَعَمُوا أَنّ هَذِهِ الأَرْضَ مَرْعىً
تُرِكَ النّاسُ فِيهِ تَرْكَ سَدَاهَا [٢٧]

ثمّ قال :

نَقَضُوا عَهْدَ أَحْمَدٍ فِي أَخِيهِ
وَأَذَاقُوا البَتُولَ مَا أَشْجَاهَا
وَهِيَ العُرْوَةُ الّتِي لَيْسَ يَنْجُو

غَيْرُ مُسْتَعْصِمٍ بِحَبْلٍ وَلَاهَا [٢٨]

ثمّ عرض على لسان سيّدة العالمين موضوعات مطعّمة بالدليل والبرهان في خطاب أُولئك القوم ، وهي مشوبة بالمؤاخذة والعتاب ، فقال :

وَحَذَوْتُمْ حَذْوَ اليَهُودِ غَدَاةَ
اتّخَذُوا العِجْلَ بَعْدَ مُوسَى إِلَهَا [٢٩]

وواصل إنشاده قائلاً :

أَيّ شَيءٍ عَبَدْتُمُ إِذْ عَبَدْتُمْ
أَنْ يُوَلّى تَيْمٌ عَلَى آلِ طَه
هَذِهِ البُرْدَةُ الّتِي غَضِبَ اللَهُ
عَلَى كُلّ مَنْ سِوَانَا ارْتَدَاهَا
عَلِمَ اللَهُ أَنّنَا أَهْلُ بَيْتٍ
لَيْسَ تَأْوِي دَنِيّةٌ مَأْوَاهَا
وَلِأَيّ الأُمُورِ تُدْفَنْ سِرّاً
بَضْعَةُ المُصْطَفَى وَيُعْفَى ثَرَاهَا
فَمَضَتْ وَهْيَ أَعْظَمُ النّاسِ وَجْدَاً
فِي فَمِ الدّهْرِ غُصّةٌ مِنْ جَوَاهَا
وَثَوَتْ لَا يَرَى لَهَا النّاسُ مَثْوىً
أَيّ قُدْسٍ يَضُمّهُ مَثْوَاهَا [٣٠]

وكم هو مناسب أن ننقل فيما يأتي أبياتاً لشاعر أهل البيت ومادحهم المرحوم الشيخ صالح الحلّيّ أعلى الله مقامه الشريف ، وكان قريباً من عصر الشاعر السابق :

الوَاثِبِينَ لِظُلْمِ آلِ مُحَمّدٍ
وَمُحَمّدٌ مُلْقىً بِلَا تَكْفِينِ
والقَائِلِينَ لِفَاطِمٍ آذَيْتِنَا
فِي طُولِ نَوْحٍ دَائِمٍ وَحَنِينِ
وَالقَاطِعِينَ أَرَاكَةً كَيْمَا تَقِي
بِظِلّ أَوْرَاقٍ لَهَا وَغُصُونِ
وَمُجَمّعِي حَطَبٍ عَلَى البَيْتِ الّذِي
لَمْ يَجْتَمِعْ لَولَاهُ شَمْلُ الدّينِ
وَالهَاجِمِينَ عَلَى البَتُولِ بِبَيْتِهَا
وَالمُسْقِطِينَ لَهَا أَعَزّ جَنِينِ
وَالقَائِدِينَ إِمَامَهُم بِنِجَادِهِ

وَالطّهْرُ تَدْعُو خَلْفَهُ بِرَنِينِ
خَلّوا ابْنَ عَمّي أَوْ لَأَكْشِفُ فيالدّعَا
رَأْسِي وَأَشْكُو لِلْإِلَهِ شُجُونِي
مَا كَانَ نَاقَةُ صَالِحٍ وَفَصِيلُهَا
بِالفَضْلِ عِنْدَ اللَهِ إِلّا دُونِي
وَدَنَتْ إِلَى القَبْرِ الشَرِيفِ بِمُقْلَةٍ
عَبْرَى وَقَلْبٍ مُكْمَدٍ مَحْزُونِ
قَالَتْ وَأَظْفَارُ المُصَابِ بِقَلْبِهَا
غَوْثَاهُ قَلّ عَلَى العُدَاةِ مُعِينِي
أَبَتَاهُ هَذا السّامِرِيّ وَعِجْلُهُ
تُبِعَا وَمَالَ النّاسُ عَنْ هَارُونِ
أَيّ الرّزَايَا أَتّقِي بِتَجَلّدِي
هُوَ فِي النّوَائِبِ مُذْ حَيِيتُ قَرِينِي
فَقْدِي أَبِي ، أَمْ غَصْبَ بَعْلِي حَقّهُ
أَمْ كَسْرَ ضِلْعِي أَمْ سُقُوطَ جَنِينِي (٣١)
أَمْ أَخْذَهُمْ إِرْثِي وَفَاضِلَ نِحْلَتِي
أَمْ جَهْلَهُمْ حَقّي وَقَدْ عَرَفُونِي
قَهَرُوا يَتِيمَيْكَ الحُسَيْنَ وَصِنْوَهُ
وَسَأَلْتُهُمْ حَقّي وَقَدْ نَهَرُونِي

ها نحن نختم بحثنا في المقام والمواطن الأوّل من المواقف والمواطن الأربعة عشر التي عرض فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حديث المنزلة . ونواصل حديثنا عن المواطن الأُخرى . ولمّا كان حديثنا عن المواطن الأوّل وافياً مفصّلاً ، وقد أتى على المسألة من جميع أطرافها وجوانبها ، لذلك نوجز كلامنا عن سائر المواقف والمواطن مقتصرين على الحديث نفسه وروده في ذلك الموطن متحاشين الكلام عن جوانب المسألة وملحقاتها (٣٢) .

المقام والموطن الثاني عند فتح خَيْبَر ، لمّا دفع رسول الله راية الحرب إلى أبي بكر ، وفرّ ، ثمّ دفعها إلى عمر ، وفرّ ؛ ثمّ قال : لأُعطينّ هذه الراية رجلاً يحبّه اللهُ ورسوله ، ويحبّ اللهَ ورسولَه ؛ كرّار غير فرّار ، يفتح الله على يديه . فرجا كثير منهم أن يكونوا أصحاب الراية ، عند ذاك قال رسول الله : أين عليّ ؟!

قالوا : ورمت عيناه وهما تؤلمانه ، ولا يستطيع أن يصبر ؛ وهو الآن مشغول بالطحن في الموقف الذي نزلوا فيه .

فدعاه رسول الله ؛ وبصق في عينيه ، ودفع إليه الراية . وقتل عليّ مَرْحَبَ بطل اليهود الشجاع ورجلهم الفذّ . وفتح القلعة ، واقتلع بابها التأريخيّ وحده وألقى به جانباً . وأسر عدداً من اليهود ، وكان بينهم بنت حُيَيّ بن أخطب ، فأُتى بها إلى رسول الله . حينئذٍ نطق رسول الله بتلك الجمل التأريخيّة العجيبة لبيان عظمته وشأنه وممّا خاطبه به قوله : لَوْلَا أَنْ تَقُولَ فِيكَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي مَا قَالَتِ النّصَارى فِي المَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ ، لَقُلْتُ فِيكَ اليَوْمَ مَقَالَاً لَا تَمُرّ بِمَلَأٍ إِلّا أَخَذُوا التّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمِكَ وَمِنْ فَضْلِ طَهُورِكَ فَاسْتَشْفَوا بِهِ ! وَلَكِنْ حَسْبُكَ أَنْ تَكُونَ مِنّي وَأَنَا مِنْكَ ! تَرِثُنِي وَأَرِثُكَ ! وَأَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! وَإِنّكَ تُبْرِءُ ذِمّتِي ! وَتُقَاتِلُ عَلَى سُنّتِي !ــ الحديث [٣٣] .

المقام والموطن الثالث عندما أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بغلق أبواب بيوت الصحابة المتّصلة بالمسجد النبويّ إلّا باب عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ ذلك أنّ باباً واحداً من أبواب تلك البيوت الواقعة في أطراف المسجد كان يفتح إلى داخل المسجد حتّى تلك الفترة . فأمر رسول الله بغلق جميع الأبواب بما فيها باب عمّه العبّاس ، وباب حمزة سيّد الشهداء . ولم يحقّ لأحد أن يدخل المسجد وهو مجنب ، أو يباشر امرأته في المسجد . وكان هذا الأمر حراماً على الأُمّة جميعها إلّا على عليّ بن أبيطالب .

وثقل الأمر على البعض ، إذ أُغلق باب أبي بكر ، والعبّاس أيضاً . فقال النبيّ الأعظم : ما أخرجتهم من المسجد ، وأبقيتُ عليّاً فيه ؛ بل الله أخرجهم وأدخل عليّاً .

وروى في «غاية المرام» عن ابن بابويه بسنده المتّصل عن معروف ابن خرّبوذ ، عن أبي الطّفَيل ، عن حُذَيفة بن أُسَيْد الغفاريّ ، قال : إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قَامَ خَطِيباً فَقَالَ : إنّ رِجَالَاً لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ أُسْكِنَ عَلِيّاً فِي المَسْجِدِ وَأُخْرِجَهُمْ . وَاللّهِ مَا أَخْرَجْتُهُمْ وَأَسْكَنْتُهُ ، بَلِ اللّهُ أَخْرَجَهُمْ وَأَسْكَنَهُ ، إِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ أَوْحَى إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ : «أَن تَبَوّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصّلَوةَ» [٣٤] .

ثُمّ أَمَرَ مُوسَى أَنْ لَا يَسْكُنَ مَسْجِدَهُ وَلَا يَنْكِحَ فِيهِ وَلَا يَدْخُلَهُ جُنُبٌ إِلّا هَارُونُ وَذُرّيّتُهُ ، وَإِنّ عَلِيّاً مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى وَهُوَ أَخِي دُونَ أَهْلِي ؛ وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَنْكِحَ فِيهِ النّساءَ إِلّا عَلِيّ وَذُرّيّتُهُ . فَمَنْ سَاءَهُ فَهَيهُنَا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الشّام [٣٥] .

وروى عن المظفّر بن جعفر بن المظفّر العلويّ بسنده المتّصل عن أبي رافع قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خطب الناس فقال : أيّها الناس : إنّ الله عزّ وجلّ أمر موسى وأخاه أن يبوّءا لقومهما بمصر بيوتاً ؛ وأمرهما أن لا يثبت في مسجدهما جنب ، ولا يقرب فيه النساء إلّا هارون وذرّيّته وإنّ عَلِيّاً مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى . فلا يحلّ أن يقرب النساء في مسجدي ، ولا يبيت فيه جنب ، إلّا عليّ وذرّيّته . فمن ساءه ذلك فها هنا ! وضرب بيده نحو الشام [٣٦] .

وكذلك روى عن ابن بابويه بسنده المتّصل عن الريّان بن الصّلْت ، عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ضمن حديث عدّ فيه الإمام الفروق بين عترة الرسول ، والأُمّة . ثمّ ذكر آيات الاصطفاء من القرآن في اثنى عشر مورداً ، إلى أن بلغ الفرق الرابع وهو إخراج رسول الله الناس من مسجده ما خلا العترة . حتّى تكلّم الناس في ذلك مع رسول الله . وتكلّم العبّاس ، فقال : يا رسول الله ! تركت عليّاً وأخرجتنا ؟ فقال رسول الله : ما أنا تركته وأخرجتكم ، بل الله تركه وأخرجكم . وفي هذا تبيان لقول رسول الله لعليّ : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى .

وقال العلماء (الذين حضروا كلّهم في مجلس المأمون) : وأين هذا من القرآن ؟!

قال (الإمام) : أوجدكم فيذلك قرآناً قرأه (الله) عليكم ! قالوا : هات !

قال : قول الله تعالى : وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . ففي هذه الآية منزلة هارون من موسى ؛ وفيها أيضاً منزلة عليّ من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . ومن هذا دليل ظاهر في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين قال : إِنّ هَذَا المَسْجِدَ لَا يَحِلّ إِلّا لِمُحَمّدٍ وَآلِهِ .

قال العلماء : يا أبا الحسن ! هذا الشرح (وهذا البيان) لا يوجد إلّا عندكم معشر أهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . ومن ينكر لنا ذلك ورسول الله قال : أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وَعَلِيّ بَابُهَا . فَمَنْ أَرَادَ الحِكْمَةَ فَلْيَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا .

ثمّ قال الرضا عليه السلام : ففي ما أو ضحنا ، وشرحنا من الفضل والشرف والتقدمة والاصطفاء والطهارة لا ينكره إلّا معاند للّه تعالى ، الحَمْدُ لِلّهِ عَلَى ذَلِكَ ، فهذه الجهة الرابعة في الفرق بين العترة والأُمّة . وأمّا الجهة الخامسة ... إلى آخر الحديث [٣٧] .

المقام والموطن الرابع : عند نزول آية الإنذار وحديث العشيرة . فلمّا نزلت الآية الشريفة وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [٣٨] ، رتّب رسول الله مجلساً ، وأمر أمير المؤمنين أن يدعو أعمامه وكبار بني هاشم ، ويطبخ رِجل شاة ، ويهيّيء قعباً من لبن . وكان أمير المؤمنين يومئذٍ ابن ثلاث عشرة سنة ، وقد مرّ على أوّل البعثة النبويّة ثلاث سنين تقريباً . ودعا أعمام رسول الله وأرقابه وكبار بني هاشم . وقال رسول الله بعد أن تناولوا الطعام : إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أُنذرَ عشيرتي الأقربين ورهطي المخلصين !

وأنتم عشيرتي الأقربون ، وأنتم رهطي المخلصون ؛ وإنّ الله لم يبعث نبيّاً إلّا جعل له من أهله أخاً ووارثاً ووزيراً ووصيّاً . فَأَيّكُمْ يَقُومُ يُبَايعُنِي أَنّهُ أَخِي وَوَزِيرِي وَوَارِثِي دُونَ أَهْلِي ، وَوَصِيّي ، وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ، وَيَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى غَيْرَ أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ؟!

فقطع الحاضرون كلّهم كلامه ، وأعرضوا إلّا عليّاً ، فقد أجابه وبايعه .

وورد هذا الحديث بهذه الألفاظ في «تاريخ دمشق» و «غاية المرام » و «مجمع البيان» . وقد نقلنا منه هنا موضع حاجتنا بإيجاز [٣٩] .

وورد في كتاب «سُلَيم بن قيس» أيضاً : وحينئذٍ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأبي طالب : يَا أَبَا طَالِبٍ ! اسْمَعِ الآنَ لِابْنِكَ وَأَطِعْ فَقَدْ جَعَلَهُ اللَهُ مِنْ نَبِيّهِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى [٤٠] .

ولمّا كنا قد تحدّثنا عن آية الإنذار وحديث العشيرة في الجزء الأوّل من هذا الكتاب ، الدرس الخامس مختصراً ، وفي هذا الجزء ، ضمن الدرس ١٢٦ إلى ١٤١ مفصّلاً ، فلهذا اكتفينا هنا بما ذكرناه .

المقام والموطن الخامس ، عندما آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار في المدينة ، وآخى عليّاً فيها ؛ وبيّن حديث المنزلة مع أُخوّته .

وروى السيّد البحرانيّ في «غاية المرام» عن «مسند أحمد بن حَنْبَل» بأربعة أسناد ، وعن أخطب الخطباء موفّق بن أحمد الخوارزميّ بسند واحد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما آخى بين المهاجرين والأنصار ، وأخّر عليّاً ليؤاخيه هو نفسه ؛ ثمّ آخاه بعد ذلك ، قال : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٤١] . ولمّا كنا قد تحدّثنا مفصلاً عن أُخوة أمير المؤمنين عليه السلام لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، الدرس الثاني والعشرين إلى الرابع والعشرين ، لذلك اجتزأنا هنا بالإشارة إلى حديث المنزلة في هذا الموضع [٤٢] .

المقام والموطن السادس ورود حديث المنزلة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في سياق خطبة الغدير التي خطبها بالجُحْفَة عند الرجوع من حِجّة الوداع .

وعرض السيّد البحرانيّ قصّة الغدير مفصّلاً في «غاية المرام» عن «الاحتجاج» للشيخ أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ بسنده المتّصل ، وكذلك عن «روضة الواعظين» لابن الفارسيّ ، عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام ، إلى أن بلغ قوله :

يَأْمُرُنِي عَنِ السّلَامِ رَبّي وَهُوَ السّلَامُ أَنْ أَقُومَ فِي هَذَا المَشْهَدِ فَأُعْلِمَ كُلّ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ : أَنّ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخِي وَوَصِيّي وَخَلِيفَتِي وَالإِمَامُ مِنْ بَعْدِي وَالّذِي مَحَلّهُ مِنّي مَحَلّ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي وَهُوَ وَلِيّكُمْ بَعْدَ اللَهِ وَرَسُولِهِ ــ إلى آخر الخطبة [٤٣] .

المقام والموطن السابع بيان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حديث المنزلة لأُمّ سلمة مباشرةً . وورد عدد من الأحاديث في هذا المجال . ويستبين من مضامينها أنّ رواية أُمّ سلمة لهذا الحديث لم تكن في أحد المواطن والمواقف الأُخرى التي تكون أُمّ سلمة وحدها راويته فيه ، بل بيّن رسول الله هذه المنزلة بخاصّة لهذه الزوجة العظيمة وأشهدها على هذا المفاد .

ومن ذلك ما رواه الخوارزميّ في «المناقب» بسنده المتّصل عن أحمد بن عبد الله بن داهر بن يحيى ، عن ابن عبّاس ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَهِ صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسلّمَ : هَذَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَحْمُهُ لَحْمِي ، وَدَمُهُ دَمِي ؛ وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . وَقَالَ : يَا أُمّ سَلَمَةَ ! اسْمَعِي وَاشْهَدِي هَذَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ، وَسَيّدُ المُسْلِمِينَ ؛ وَعَيْبَةُ عِلْمِي ، وَبَابِيَ الّذِي أُوتَى مِنْهُ ؛ وَأَخِي فِي الدّنْيَا ؛ وَأَخِي فَي الآخِرَةِ ؛ وَمَعِي فِي السّنَامِ الأَعْلَى [٤٤] !

ومنه ما رواه صاحب كتاب «المَنَاقِبُ الفَاخِرةُ في العِتْرَةِ الطّاهِرة» بسنده عن الأعمش ، عن عَبايه الأسَديّ ، عن ابن عبّاس ، عن أُمّ سَلَمَة ، قالت : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد دخل عليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام : يا أُمّ سلمة ! هل تعرفينه ؟! فقالت هيناً : هذا عليّ بن أبي طالب !

قال رسول الله : نَعَمْ ! لَحْمُهُ لَحْمِي ؛ وَدَمُهُ دَمِي ؛ وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي . وبعد بيان الفقرات التي مرّت في الحديث الأخير ، أضاف إليها الجمل الآتية : وَقَرِينِي فِي الآخِرَةِ . اشْهَدِي يَا أُمّ سَلَمَةَ ! إِنّهُ يُقَاتِلُ النّاكِثِينَ (أصحاب الجمل) وَالقَاسِطِينَ (أصحاب صفّين) وَالمَارِقِينَ [٤٥] (أصحاب النهروان) .

وروى في «زوائد مسند عبد الله بن حنبل» بسنده عن ابن عبّاس أنّ رسول الله قال لأُمّ سلمة :

يَاأُمّ سَلَمَةَ ! عَلِيّ مِنّي ، وَأَنَا مِنْ عَلِيّ ؛ لَحْمُهُ مِنْ لَحْمِي ؛ وَدَمُهُ مِنْ دَمِي ؛ وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ! يَا أُمّ سَلَمَةَ ! اسْمَعِي وَاشْهَدِي ! هَذَا عَلِيّ سَيّدُ المُسْلِمِينَ [٤٦] .

المقام والموطن الثامن عند تسمية الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام إذ سمّاهما رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وسمّى أخاهما الآخر مُحْسِن السّقْط بأسماء أبناء هارون الثلاثة ، وهم بالترتيب : شُبّر وَشُبّيْر ومشَبّر [٤٧] .

وروي في «غاية المرام» عن ابن بابويه بسنده المتّصل عن أبي حمزة الثماليّ ، عن زيد بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه عليّ بن الحسين قال : لمّا ولدت فاطمة عليها السلام الحسن ، قالت لعليّ عليه السلام : سمّه !

فقال (عليّ) : ما كنت لأسبق باسمه رسول الله . فجاء رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، (وأخبره) . فقال (رسول الله) : ما كنت أسبق باسمه ربّي عزّ وجلّ .

فأوحى الله عزّ وجلّ إلى جبرائيل أنّه قد ولد لمحمّد ابنٌ ! فاهبط ؛ فاقرأه السلام ! وهنّه ، وقل : إنّ عَلِيّاً مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى فَسَمّهِ بِاسْمِ ابْنِ هَارُونَ !

فقال (رسول الله لجبرائيل) : وما كان اسمه ؟! قال : شُبّر .

قال (رسول الله) : لساني عربيّ ! قال : سمّه الحَسَن ! فسمّاه الحسن .

ولمّا ولد الحسين ، أوحى الله عزّ وجلّ إلى جبرائيل أنّه قد ولد لمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ابن ، فاهبط ؛ واقرأه السلام ، وهنّه ، وقل له : إِنّ عَلِيّاً مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى فَسَمّهِ بِاسْمِ ابْنِ هَارُونَ ! فهبط جبرائيل ، فهنّاه عن الله عزّ وجلّ . (وقال : إنّ الله) يأمرك أن تسمّيه باسم ابن هارون ! قال : وما كان اسمه ؟ قال (جبرائيل) : شُبّيْر !

قال (رسول الله) : لساني عربيّ . قال : اسمه الحُسَيْن ! فسّماه (رسول الله) الحُسَيْنَ [٤٨] .

وفي «غاية المرام» أيضاً عن الشيخ الطوسيّ في «الأمالي» ، عن الإمام السجّاد عليه السلام ، قال : حدّثتني أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسْ الخُثْعَمِيّة قالت : قبلتُ جدّتك فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالحسن والحسين عليهما السلام . فلمّا ولدت الحسن ، جاء النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يا أسماء ! هاتي ابني !

قالت (أسماء) : فدفعته إليه في خرقة صفراء . فرمى بها ، وقال : ألم أعهد إليكنّ ألّا تلفّوا المولود في خرقة صفراء ؟! ودعا بخرقة بيضاء فلفّه فيها ؛ ثمّ أذّن في أُذنه اليُمني؛ وأقام في أُذُنه اليُسرى . وقال لعليّ عليه السلام : سمّيت ابني هذا ؟! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما كنت لأسبقك باسمه ! يا رسول الله !

قال (رسول الله) : وأنا ما كنت لأسبق ربّي عزّ وجلّ! قال (رسول الله): فهبط جبرائيل عليه السلام ، وقال : إنّ الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك : يَا مُحَمّدُ ! عَلِيّ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدَكَ ! فسمّ ابنك باسم ابن هارون ! قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : وما اسم ابن هارون ؟ قال جبرائيل : شُبّر . قال رسول الله : وما شُبّر ؟ قال : الحسن .

قالت أسماء : فسمّاه الحسن . فلمّا ولدت فاطمةُ الحسين عليه السلام ، نفستُها به أيضاً . فجاءني النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : (يا أسماء!) هلمّي بابني ! فدفعته إليه في خرقة بيضاء . ففعل به كما فعل بالحسن (من الأذان في أُذُنه اليمنى ، والإقامة في أُذُنه اليُسرى) . قالت (أسماء) : وبكى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ثمّ قال : إنّه سيكون له حديث ؛ اللهمّ العن قاتله . لا تُعلمي فاطمة بذلك !

قالت أسماء : فلمّا كان في يوم سابعه ، جاءني النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقال : هلمّي ابني ! فأتيتُه به ؛ ففعل كما فعل بالحَسَن ، وعقّ عنه ، كما عقّ كبشاً أملح ؛ وأعطى القابلة الورك رجلاً ، وحلق رأسه وتصدّق بوزن الشعر فضّة ، وخلق رأسه بالخَلوق [٤٩] وقال إنّ الدم من فعل الجاهليّة ، أي (أنّ تلطيخ رأس الطفل بدم الشاة من سنن الجاهليّة) .

قالت (أسماء) : ثمّ وضعه في حجره ؛ ثمّ قال : يا أبا عبد الله ! عزيز عَلَيّ ! ثمّ بكى . قلتُ : بأبي أنت وأُمّي ! فعلتَ في هذا اليوم وفي اليوم الأوّل ، فما هو ؟

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أبكي على ابني هذا تقتله فئة باغية كافرة من بني أُميّة لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة ! يقتله رجل ثلم الدين ويكفر بالله العظيم . اللهمّ إنّي أسألك فيهما ما سألك إبراهيم الخليل في ذرّيّته . اللهمّ أحبّهما وأحبّ من يحبّهما ؛ والعن من يبغضهما ؛ مثل السماء والأرض [٥٠] .

وروى في «غاية المرام» أيضاً حديثاً بهذا المضمون عن ابن بابويه بسنده المتّصل الآخر عن ابن الزبير ، عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ . وينصّ فيه أيضاً على أنّ جبرائيل كان يأتي بكلام ربّه : إِنّ عَلِيّاً مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ هَارونَ مِنْ مُوسَى عند تسمية الحسن وعند تسمية الحسين [٥١] .

ونقلنا فى هذا الجزء حديثاً مهمّاً أيضاً يحوم حول هذا الموضوع عن ابن شهرآشوب في «المناقب» عن أبي بكر الشيرازيّ في كتابه : «فيما نزل من القرآن في أمير المؤمنين عليه السلام» .

المقام والموطن التاسع عندما حُمّ أمير المؤمنين بشدّة في سفرته مع النبيّ ، ودعا له رسول الله . وكان مقام المنزلة من جملة ما ورد في دعائه وبيّنه لأمير المؤمنين بقوله : وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَكَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ! وَأَنْ يَشُدّ بِكَ أَزْرِي ! وَيُشْرِكَكَ فِي أَمْرِي ! فَفَعَلَ ؛ إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! فَرَضِيتُ [٥٢] .

هذه الرواية في غاية الأهمّيّة وتحتوي على أشياء ثمينة ، وهي مرويّة عن سُلَيمْ بن قَيس الهلاليّ ؛ ورواها أيضاً الملّا عليّ المتّقي في «كنز العمّال » باختصار . ونحن ذكرناها كاملة في هذا الجزء .

المقام والموطن العاشر عندما جاء أبو سفيان ؛ وجلس عند رسول الله ؛ وسأله عن صاحب مقام الإمامة وأمر الولاية بعده : من يكون ؟ فذكر له رسولُ الله أمير المؤمنين .

ونلاحظ في «غاية المرام» حديثين عن العامّة : أحدهما عن حافظ بن محمّد بن مؤمن الشيرازيّ في كتابه عند تفسير قوله تعالى : عَمّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النّبَإِ الْعَظِيمِ * الّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ، وذلك بإسناده إلى السّدّيّ مرفوعاً حول أبي سفيان ؛ والآخر عن ابن شهرآشوب ، عن طريق العامّة ، عن عبد خير ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام حول أبي سفيان أيضاً . والحديثان ذوا مضمون واحد . ونحن نذكر هنا عين الحديث الذي رواه ابن شهرآشوب :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : أقبل صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ (أبو سفيان) حتّى جلس إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : يَا مُحَمّدُ ! هَذَا الأَمْرُ بَعْدَكَ لَنَا أَوْ لِمَنْ ؟

قال (رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم) : يَا صَخْرُ ! الأَمْرُ بَعْدِي لِمَنْ هُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى . فَأَنْزَلَ اللّهُ : «عَمّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النّبَإِ الْعَظِيمِ الّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» . [٥٣] منهم المصدّق بولايته وخلافته ؛ ومنهم المكذّب بولايته وخلافته . ثمّ قال

الله : «كَلّا» وهو ردّ عليهم «سَيَعْلَمُونَ» خِلَافَتَهُ بَعْدَكَ إنّهَا حَقّ «ثُمّ كَلّا سَيَعْلَمُونَ» يَقُولُ يَعْرِفُونَ خِلَافَتَهُ وَوَلَايَتَهُ إذْ يُسْأَلُونَ عَنْهَا فِي قُبُورِهِمْ فَلَا يَبْقَى مَيّتٌ فِي شَرْقٍ وَلَا غَرْبٍ وَلَا فِي بَرّ وَلَا فِي بَحْرٍ إلّا مُنْكِرُ وَنَكِيرُ يَسْأَلَانِهِ عَنْ وِلَايَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بَعْدَ المَوْتِ يَقُولَانِ لِلْمَيّتِ : مَنْ رَبّكَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ وَمَنْ نَبِيّكَ ؟ وَمَنْ إمَامُكَ [٥٤] .

المقام والموطن الحادي عشر عندما قال بعض الأعداء : ما مثل محمّد إلّا كَمَثَلِ نَخْلَةٍ فِي كُنَاسَةٍ .

روى محمّد بن إبراهيم المعروف بابن أبي زينب النّعْمَانِيّ في كتاب (الغيبة) بإسناده عن عبد الرزّاق ، عن معمّر بن راشد ، عن أبان بن أبي عيّاش ، عن سُلَيم بن قيس الهلاليّ قال : (قال أمير المؤمنين) عليّ بن أبي طالب عليه السلام : مررتُ يوماً برجل ــ سمّاه لي ــ فقال : مَا مَثَلُ مُحَمّدٍ إلّا كَمَثَلِ نَخْلَةٍ نَبَتَتْ فِي كِبَاةِ كَلْشَة . فأتيتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فذكرتُ ذلك له . فغضب صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ وخرج مغضباً ، وأتى المنبر ، ففزعت الأنصار إلى السلاح لما رأوا من غضب رسول الله . فقال رسول الله : مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُعَيّرُونِي بِقَرَابَتِي وَقَدْ سَمِعُوا مَا أَقُولُ مِنْ تَفْضِيلِ اللَهِ عَزّ وَجَلّ إيّاهُمْ ، وَمَا اخْتَصّهُمْ مِنْ إذْهَابِ الرّجْسِ عَنْهُمْ وَتَطْهِيرِ اللَهِ إيّاهُمْ ، وَقَدْ سَمِعُوا مَا قُلْتُ فِي فَضْلِ أَهْلِ بَيْتِي ، وَوَصِيّي ، وَمَا أَكْرَمَهُ اللَهُ بِهِ ، وَخَصّهُ ، وَفَضّلَهُ مِنْ سَبْقِهِ إلَى الإسْلَامِ وَبَلَائِهِ وَقَرَابَتِهِ مِنّي وَأَنّهُ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى صَلّى اللَهُ عَلَيْهِمَا [٥٥] .

وكذلك روى صاحب «غاية المرام» هذا المضمون مع تفصيل وشرح أكثر عن سُلَيْم بن قيس ، وفيه ذِكر الأئمّة عليهم السلام كلّهم ، وجعفر بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطّلب ، والسيّدة فاطمة الزهراء عليهم السلام [٥٦] .

المقام والموطن الثاني عشر عندما بعث رسولُ الله خالد بن وليد إلى بني المُصْطَلَق ؛ فقتلهم خالد بلا مراعاة لمشاعرهم . ثمّ أوفد أميرَ المؤمنين عليه السلام ، وقال في حقّه حديث المنزلة .

وفيما يأتي هذه القصّة برواية ابن بابويه بسنده المتّصل ، عن محمّد بن مُسْلم ، عن الإمام الباقر عليه السلام : بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خالدَ بن الوليد إلى حيّ يقال له : بنو المُصْطَلَق من بني جُذَيمَة . وكان بينه وبين بني مخزوم أُخته في الجاهليّة .

ولمّا ورد عليهم خالد ، أمر منادياً ينادي بالصلاة ؛ فصلّي ؛ وصلّوا ؛ ولمّا كان صلاة الفجر ، أمر مناديه ، فنادى ، وصلّوا . ثمّ أمر الخيل (فحاصروهم من كلّ جانب) ، وشنّوا فيهم الغارة قتل وأصاب . أي (فانشغل خالد بالقتل ، وأنزل فيهم الجراح) . (وطلب المسلمون من تلك الجماعة كتاب رسول الله في أمانهم ليروه ويعرفوا هل أُقرّ إيلامهم ، وهل هم مصونون في كنف الإسلام ؟ فأروهم الكتاب) . فأتوا به النبيّ صلّى الله عليه وآله

وسلّم ، وحدّثوه بما صنع خالد بن الوليد (فيهم من القتل والجرح والغارة بلا ذنب ارتكبوه) . فاستقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم القبلة وقال : اللَهُمّ إِنّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ . ثمّ قدم خالد بن الوليد على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وقال (رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم) لأمير المؤمنين عليه السلام : ائت بني جُذيمة من بني مصطلق ، فأرضهم ممّا صنع خالد ! ثمّ رفع رسول الله قدميه ، وقال : يا عليّ ! اجعل قضاء أهل الجاهليّة تحت قدميك ! فأتاهم (أمير المؤمنين) عليّ عليه السلام ؛ فلمّا انتهى إليهم ، حكم فيهم بحكم الله . فلمّا رجع إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، قال (رسول الله) : يا عليّ ! خبّرنا بما صنعتَ .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! عَمَدْتُ فَأَعْطَيْتُ لِكُلّ دَمٍ دِيَةً ، وَلِكُلّ جَنِينٍ غُرّةً (غلاماً أو أمةً) ، وَلِكُلّ مَالٍ مَالاً ، وَفَضَلَتْ مَعِي فَضْلَةٌ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ لِبُلْغَةِ كِلَابِهِمْ وَجَعْلَةِ رُعَاتِهِمْ . وَفَضَلَتْ مَعِي فَضْلَةٌ فَأَعْطَيْتُهُمْ لِرَوْعَةِ نِسَائِهِمْ وَفَزَعِ صِبْيَانِهِمْ ، وَفَضَلَتْ مَعِي فَضْلَةٌ فَأَعْطَيْتُهُمْ لِيَرْضَوا عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَهِ .

فَقَالَ صَلّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : أَعْطَيْتَهُمْ لِيَرْضَوْا عَنّي ؟ رَضِيَ اللَهُ عَنْكَ يَا عَلِيّ ! أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٥٧] .

المقام والموطن الثالث عشر في معراج رسول الله إذ منح الله هذه المنزلة لعليّ بن أبي طالب من النبيّ . وبيّنها رسول الله للأُمّة .

روى الشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ بسنده المتّصل عن وَهَب بن منبّه مرفوعاً عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : لمّا عرج بي ربّي ، أتاني النداء : يَا مُحَمّدُ ! قلتُ : لَبّيْكَ رَبّ العَظَمَةِ لَبّيْكَ ! فأوحى الله إليّ : يا محمّد ! فيما اختصصتَ بالملأ الأعلى ؟ فقلتُ : لا علم لي يا إلهيّ ! فقال : يا محمّد ! هل اتّخذت من الآدميّين وزيراً وأخاً ووصيّاً من بعدك ؟! قلتُ يا إلهي ! ومَن أتّخذ ؟ تخيّر لي يا إلهي ! فأوحى الله إليّ : يا محمّد ! قد اخترت لك من الآدميّين عليّ بن أبي طالب !

فقلتُ : (يا) إلهي ! ابن عمّي ! فأوحى الله إليّ : إِنّ عَلِيّاً وَارِثُكَ وَوَارِثُ العِلْمِ مِنْ بَعْدِكَ وَصَاحِبُ لِوَائِكَ لِوَاءِ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَصَاحِبُ حَوْضِكَ (حوض الكوثر) يَسْقِي مَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ مُؤْمِنِي أُمّتِكَ !

ثمّ أوحى الله إليّ : يا محمّد ! إنّي قد أقسمت على نفسي قسماً حقّاً : لا يشرب من ذلك الحوض مبغض لك ، ولأهل بيتك ، وذرّيّتك الطيّبين الطاهرين ؛ حقّاً حقّاً .

يا محمّد ! لأُدخلنّ جميع أُمّتك الجنّة إلّا من أبى من خلقي ! فقلتُ : (يا) إلهي ! هل واحد يأبى من دخول الجنّة ؟!

فأوحى الله إليّ : بلى ! فقلتُ : وكيف يأبى ؟

فَأَوْحَى اللَهُ إِلَيّ : يَا مُحَمّدُ ! اخْتَرْتُكَ مِنْ خَلْقِي ؛ وَاخْتَرْتُ لَكَ وَصِيّاً مِنْ بَعْدِكَ ؛ وَجَعَلْتُهُ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدَكَ ؛ وَأَلْقَيْتُ مَحَبّتَهُ فِي قَلْبِكَ ؛ وَجَعَلْتُهُ مِنْكَ أَبَاً لِوُلْدِكَ ؛ فَحَقّهُ بَعْدَكَ عَلَى أُمّتِكَ كَحَقّكَ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِكَ ؛ فَمَنْ جَحَدَهُ حَقّهُ جَحَدَ حَقّكَ ؛ وَمَنْ أَبَى أَنْ يُوَالِيَهُ فَقَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الجَنّةَ . فَخَرَرْتُ لِلّهِ سَاجِدَاً شُكْرَاً لِمَا أَنْعَمَ عَلَيّ .

فإذا منادٍ ينادي : ارفع يا محمّد رأسك ، واسألني ، أُعطك ! فقلت : إلهي ! اجمع أُمّتي من بعدي على ولاية عليّ بن أبي طالب ليردوا عَلَيّ جميعاً حوضي يوم القيامة .

فأوحى الله إليّ : يا محمّد ! إنّي قد قضيتُ في عبادي قبل أن أخلقهم ــ وقضائي ماضٍ فيهم ــ لأُهلِك به من أشاء ؛ وأهدي به من أشاء . وقد آتيته علمك من بعدك ؛ وجعلته خليفتك من بعدك على أهلك وأُمّتك ؛ عزيمة منّي ، لا أُدخل الجنّة من أبغضه وعاداه ، وأنكر ولايته بعدك . فمن أبغضه ، أبغضك ؛ ومن أبغضك ، أبغضني . ومن عاداه فقد عاداك ، ومن عاداك فقد عاداني . ومن أحبّه ، فقد أحبّك ؛ ومن أحبك فقد أحبّني . وقد جعلت له هذه الفضيلة وأعطيتك أن أُخرج من صلبه أحد عشر مهدّياً كلّهم من ذرّيّتك ، من البِكر البتول ! وأُخرج رجلاً منهم يصلّي خلفه عيسى ابن مريم . يملأ الأرض عدلاً كما ملئت من الناس ظلماً وجوراً . أُنجي به من الهلكة وأُهدي به من الضلالة ؛ وأُبرئ به من العمى ؛ وأُشفي به المريض .

فقلتُ : إلهي ! ومتى يكون ذلك ؟!

فأوحى الله عزّ وجلّ إليّ : يكون ذلك إذا دُفِع العلم وظهر الجميل (وانهمك الناس بالزينة والجمال) ؛ وكثر القرّاء ؛ وقلّ العمل (به) ؛ وكثر القتل ؛ وقلّ فقهاء الدين ؛ وكثر فقهاء الضلالة والخيانة ؛ وكثر الشعراء ؛ واتّخذوا قبورهم مساجد ؛ وحُلّيت المصاحف ، وزخرفت المساجد بالذهب ؛ وكثر الجَور والفساد ؛ وظهر المنكر ؛ وأُمر به أُمّتك ؛ ونهوا عن المعروف ؛ واكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ؛ وصارت أُمّتك الأُمراء كفرة ؛ وأولياؤهم فَجَرَة ؛ وأعوانهم ظَلَمَة ؛ وذوو الرأي منهم فسقة . وعند ذلك تقع ثلاثة خسوفات : خسف بالمشرق ، تنخسف الأرض وتغرق ؛ وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب . وخراب البصرة على يد رجل من ذرّيّتك يتبعه الزنوج [٥٨] وخروج رجل من ولد الحسين بن عليّ بن أبي طالب ! وخروج الدجّال بالمشرق من سجستان [٥٩] ؛ وظهر السفيانيّ !

وقلتُ : (يا) إلهي ! ومتى يكون بعدي من الفتن ؟!

فأوحى إليّ (ربّي) : وأخبرني ببلاء بني أُميّة ، وفتنة ولد عمّي العبّاس ؛ (وأخبرني الله) بما يكون ، وما هو كائن إلى يوم القيامة .

فأوصلت بذلك ابن عمّي حين هبطت إلى الأرض فأدّيت الرسالة . وَلِلّهِ الحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كَمَا حَمِدَهُ النّبِيّونَ وَكَمَا حَمِدَهُ كُلّ شَيءٍ قَبْلِي وَمَا هُوَ خَالِقُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ (٦٠) .

المقام والموطن الرابع عشر لمّا نصّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على حديث المنزلة بحضور الأنصار عند احتضاره .

ووردت في «غاية المرام» رواية رائعة جدّاً ، وقد احتوت على تعليمات تؤكّد وصيّة رسول الله للأنصار . وهي منقولة عن السيّد ابن طاووس في الطرفة العاشرة ــ وفيها تصريح الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم للأنصار ونصّه على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام عند احتضاره ــ من كتاب «الطرائف» عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام . ونحن ذكرنا هذه الرواية كلّها في هذا الجزء . ونكتفي هنا بنقل فقرة منها تتعلّق بحديث المنزلة :

اللّهَ ! اللّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ! مَصَابِيحِ الظّلَامِ ؛ وَمَعَادِنِ العِلْمِ وَيَنَابِيعِ الحِكَمِ وَمُسْتَقَرّ المَلَائِكَةِ ؛ وَمِنْهُمْ وَصِيّي وَأَمِينِي وَوَارِثِي ، مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ؛ أَلَا هَلْ بَلّغْتُ (٦١) ؟!

وينبغي أن نعلم أنّ هذه هي المقامات والمواطن الأربعة عشر المختلفة من كلام رسول الله بخصوص حديث المنزلة ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كهارون من موسى . وإلّا فإنّ المواطن والمقامات التي سمّاه فيها رسول الله وزيراً ، أو أنّه طلب له مقام الوزارة في أدعيته ، فهي كثيرة ؛ وكذلك فإنّ هذه هي المواطن والمقامات الأربعة عشر التي عثرنا عليها بعد البحث والتنقيب بحمد الله ومنّه ، ولعلّها تكون أكثر من ذلك ، وتنكشف للمتتبّع الخبير والمتضلّع البصير مقامات ومواطن أُخرى ؛ وللّه الحمد وله المنّة .

وكذلك فإنّ كلام رسول الله لأمير المؤمنين عليه السلام عند احتضاره فَإِنّكَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ! وَلَكَ بِهَارُونَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ إِذِ اسْتَضْعَفَهُ قَوْمُهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ ، فَاصْبِرْ لِظُلْمِ قُرَيْشٍ إِيّاكَ وَتَظَاهُرِهِمْ عَلَيْكَ فَإِنّكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ وَمَنْ تَبِعَهُ ، إلى آخره ، وهو وارد في حديث «كمال الدين وتمام النعمة» . وكان بعد دخول فاطمة على رسول الله وانهمار دموعها بمحضره ، وبيان رسول الله فضائلَ عليّ ومناقبه لها . ولو فصلناه عن وصيّته للأنصار عند الاحتضار ، لبلغت مقامات هذا الحديث ومواطنه خمسة عشر .

ويستبين أيضاً أنّ تلك الرواية الواردة في المودّة السابعة من «ينابيع المودّة» عن الإمام الصادق ، عن آبائه عليهم السلام ، والملحوظ فيها عشرة مواضع بيّن فيها رسول الله حديث المنزلة لأمير المؤمنين ، قد اشتملت على المواضع المهمّة ، دون سائر المواضع .

المنزلة لأمير المؤمنين ، قد اشتملت على المواضع المهمّة ، دون سائر المواضع .

وينبغي أن نعلم أنّ ما ذكرناه إلى الآن من حديث المنزلة كان في سنده وموارده المتعدّدة التي بيّنها رسول الله . وكان في مواضع الاحتجاج والاستشهاد به ممّا ذكرته كتب العلماء ، وأورده العلماء .

وأمّا البحث الكلاميّ ، أي : البحث في مفاده ومحتواه ومضمونه وكيفيّة دلالته على خلافة أمير المؤمنين عليه صلوات الله وصلوات المصلّين ووصايته ووزارته وإمامته ، فلم يكن مستقلّاً ، إلّا ما ورد منه على سبيل الإشارة أو كان كلاماً موجزاً للعلّامة الأمينيّ . وقد نقلناه في هذا الجزء . وقد بلغنا بتتمّة البحث . وتحدّث الشريف المرتضى علم الهدى عن هذا الموضوع حديثاً مفصّلاً ووافياً في كتاب «الشافي» [٦٢] و«تلخيص الشافي» [٦٣] ، وحديثه شرح لكلام الصدوق وبحثه وتتمّته في «معاني الأخبار» [٦٤] . ونقل المجلسيّ كلام ذينك العلمين في «بحار الأنوار» [٦٥] . وذكره أيضاً كلّ من الشيخ المفيد في «الإرشاد» [٦٦] ، والشيخ الطبرسيّ في «إعلام الورى» [٦٧] ، وابن شهرآشوب في «المناقب» [٦٨] ، والشيخ محمّد حسن المظفّر في «دلائل الصدق» [٦٩] ، وغيرهم من الأعلام والأساطين .

ويحسن بنا قبل الخوض في هذا البحث أن نذكر روايتين تبيّنان هذا الحديث المبارك وتشرحانه : الأُولى : روى الشيخ الصدوق عن الحسن بن محمّد بن سعيد الهاشميّ بالكوفة بسنده المتّصل ، عن أبي هارون العبديّ ، قال : سألت جابر بن عبد الله الأنصاريّ عن معنى قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السلام : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ! قَالَ : اسْتَخْلَفَهُ بِذَلِكَ وَاللهِ عَلَى أُمّتِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ طَاعَتَهُ ، فَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ بَعْدَ هَذَا القَوْلِ بِالخِلَافَةِ فَهُوَ مِنَ الظّالِمِينَ [٧٠] .

الثانية : روى الشيخ الصدوق عن أحمد بن الحسن القطّان بسنده المتّصل عن أبي خالد الكابليّ ، قال : قيل لسَيّدِ العَابِدِينَ عَلِيّ بْنِ الحُسَيْنِ عليهما السلام : إنّ الناس يقولون : إنّ خير الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أبو بكر ، ثمّ عمر ، ثمّ عثمان ، ثمّ عليّ عليه السلام !

قال (الإمام) : فما يصنعون بخبر رواه سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبي وقّاص ، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال لعليّ عليه السلام : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي [٧١] ؟!

وقال الشيخ المفيد بعد أن ذكر مجيء أمير المؤمنين عليه السلام إلى رسول الله بالجرف ، وشكواه من المنافقين ، وكذلك بعد أن ذكر جواب رسول الله له إذ قال : ارْجِعْ يَا أَخِي إِلَى مَكَانِكَ ! فَإِنّ المَدِيْنَةَ لَاتَصْلَحُ إِلّا بِي أَوْ بِكَ ! فَأَنْتَ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَدَارِ هِجْرَتِي وَقَوْمِي ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

تضمّن هذا القول من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نصّه على أمير المؤمنين بالإمامة ؛ وإبانته من كافّة الناس بالخلافة ؛ ودلّ به على فضل لم يشركه فيه أحد سواه ، وأوجب له به جميع منازل هارون من موسى ، إلّا ما خصّه العُرف (من تلك الخصائص والآثار) كالأُخوّة ؛ واستثناه هو من النبوّة . ألا ترى أنّه جعل له كافّة منازل هارون من موسى إلّا المستثنى منها لفظاً وعقلاً ؟!

وقد علم من تأمّل معاني القرآن وتصفّح الروايات والأخبار أنّ هارون كان أخا موسى لأبيه وأُمّه ، وشريكه في أمره (أي الولاية والإمامة) ؛ ووزيره على نبوّته ، وتبليغه رسالات ربّه . وأنّ الله شدّ به أزره ، وأنّه كان خليفته على قومه ، وكان له من الإمامة عليهم وفرض الطاعة كإمامته وفرض طاعته ، وأنّه كان أحبّ قومه إليه وأفضلهم لديه . قال الله عزّ وجلّ حاكياً عن موسى :

قَالَ رَبِ اشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى * واحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا قَوْلِى * واجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَرُونَ أَخِى * اشْدُد بِهِ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى * كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٧٢) .

فأجاب الله مسألته وأعطاه سؤله في ذلك وأُمنيته حيث يقول : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى (٧٣) .

وقال الله أيضاً حاكياً عن موسى:

وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِين (٧٤) .

وفي ضوء هذه الآيات ، لمّا جعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمير المؤمنين عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى ، أوجب له بذلك جميع المقامات والدرجات التي كانت لهارون إلّا ما خصّه العرف من الأُخوّة ، واستثناه من النبوّة لفظاً . وهذه فضيلة لم يشرك فيها أحد من الخلق أمير المؤمنين عليه السلام ، ولا ساواه في مفاد هذه الحقيقة ومعناها ، ولا قاربه فيها على أيّ حال من الأحوال (٧٥) .

وقال الشيخ المظفّر بعد بيان هذه الآيات ، وحديث المنزلة ، ودعاء رسول الله بعد نزول هذه الآيات بقوله : واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أخي ، واستجابة دعائه : يَا أَحْمَدُ ! قَدْ أُوْتِيتَ مَا سَأَلْتَ (٧٦) : إنّ هذه الآية المباركة وإن لم يكن لنزولها دخل بأمير المؤمنين عليه السلام ، لكن لمّا أمكن أخذ الدليل لإمامته منها بضميمة الأحاديث الحاكية لدعاء النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم له عليه السلام بمضمونها ، صحّ لنا ذكرها في طيّ الأدلّة القرآنيّة على إمامته (٧٧) .

وبعد أن ذكرنا هاتين الروايتين وكلام المفيد والمظفّر ، وعرفنا أنّ هذه الآيات المباركة بضميمة الأحاديث النبويّة في المنزلة ، ودعاء النبيّ بجعل عليّ في المنزلة الهارونيّة ، واستجابة دعائه كاستجابة دعاء موسى ، كلّ ذلك يزيل أيّ شبهة تطرأ على القارئ أو

المستمع في جميع منازل أمير المؤمنين عليه السلام ومراتبه من الإمامة والولاية والخلافة والوزارة .

نأتي الآن على شرح الكلام وتفصيله مع ذكر النكات الواردة في حديث المنزلة ، ونقول :

نلاحظ في هذا الحديث بنحو عامّ وشامل أنّ جميع منازل هارون ومقاماته قد تمّ تثبيتها وتقريرها لأمير المؤمنين عليه السلام ما عدا الأُخوّة كما هو معلوم ، وكذلك ما خلا النبوّة التي استثناها رسول الله نفسه . ومن جملة مقامات هارون : الإمامة والرئاسة على الأُمّة عند غيبة موسى في ذهابه إلى الطور . ومنها : الخلافة والوزارة التي تمثّل المنصب الثاني بين كافّة الأُمّة سواء في الحياة أو في الممات ، مع التسليم ببقاء هارون بعد موسى . وجميع هذه المقامات ثابتة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بالنصّ الصريح المتمثّل بعموميّة حديث المنزلة من وزارة ، ومعاونة مختصّة في أمر النبوّة ، وإمامة وولاية ، وخلافة ونيابة سواء في حياة رسول الله أو بعد وفاته .

ويتحصّل هذا الاستيعاب والاستغراق في مفاد الحديث بالنسبة إلى جميع المنازل من جهتين :

الأُولى : من جهة إجراء مقدّمات الحكمة في لفظ المنزلة كما يتناوله علم الأُصول بالبحث والدراسة . أي : إذا كان المراد من لفظ المنزلة منزلة خاصّة كخصوص الوزارة ، أو الإمامة وغيرهما ، فينبغي أن يُوضّح ، وإلّا لزم الإطلاق وعدم بيان قيده مع فرض لزوم القيد وإرادة المقيّد بما هو مقيّد . وصدور هذا الضرب من التلفّظ عن شخص حكيم خطأ . وإذا لم يكن المراد من المنزلة منزلة خاصّة ، بل على نحو المهملة ، أي : منزلة غير معيّنة ، كيفما كانت ، فإنّ هذا الضرب من التلفّظ هذر وعبث أيضاً . والحكيم لا يهذر ، ولا ينطلق هذراً وعبثاً . إذاً لابدّ أنّه أراد من لفظ المنزلة جميع المنازل ، وهو المطلوب .

الثانية : الاستثناء عبارة عن إخراج معنى أو شيء ، إذا لم يُخرج ، فإنّه يدخل في جملة المستثنى منه على نحو العموم . أي : الخروج من معنى عامّ وشامل مراد في جملة المستثنى منه . ولمّا وردت في هذا الحديث عبارة إِلّا أَنَّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي ، فإنّ المستفاد منها هو أنّ النبوّة التي هي أحد المنازل وقد استُثنيت ، قد استثنيت من معنى عامّ وشامل ، وجاءت النبوّة في العبارة بوصفها مستثنى منه ؛ وذلك المعنى العامّ هو لفظ المنزلة . فلفظ المنزلة يعني هنا جميع المنازل والمقامات .

ومن الجدير ذكره هنا أيضاً أنّ كلمة (بعدي) في قوله : إِلّا أَنَّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي لا تعني بعد موتي ، بل تعني بعد نبوّتي . ويريد رسول الله أن يقول : لا نبوّة بعد نبوّتي سواء كان ذلك النبيّ في حياتي ، أو بعد مماتي .

ومن هنا يستبين أنّ قوله : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى يشمل جميع منازله من وزارة ، وإمامة ، وخلافة ، سواءً كان رسول الله حيّاً ، أو ميّتاً ، كما أنّ تلك المنازل كلّها كانت ثابتة لهارون على هذا النحو ؛ وكذلك فإنّ استخلاف رسول الله أميرَ المؤمنين على المدينة في غزوة تبوك ــ وهو بلا شكّ أحد مواطن هذا الحديث ومواقفه ــ يدلّ على هذا المعنى .

وبعامّة ، كلّ من نظر في هذا الحديث ، يجد أنّ رسول الله قد بيّن المقام الرفيع لأمير المؤمنين بوصفه الشخص الثاني بعده. و جعله في الدرجة الثانية على كافّة الأصعدة من معالجة الشؤون المختلفة ، والقضاء ، والحكومة ، وقيادة الجيش ، والسيادة والولاية . وكان رسول الله هو الشخص الأوّل . ولم تكن إمامة أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فحسب ، بل كانت في حياته أيضاً ، إذ كان إماماً ووالياً لمقام الولاية . غاية الأمر أنّها كانت في الدرجة الثانية ؛ وفي طول إمامة رسول الله وولايته ، لا في عرضهما . وهذا هو مقام الشخص الثاني المستفاد من الحديث ، وهو موضع بحث ونقاش بوصفه استخلافاً . أي : كان في الدرجة الثانية وعند غيبة رسول الله أو وفاته ؛ أو في حضوره ولكن في الرتبة الثانية كما يدلّ معنى الوزير على هذه الحقيقة [٧٨] .

وإذا قال قائل : إنّ حديث المنزلة يثبت مقامات هارون لعليّ بن أبي طالب ؛ ولمّا كنّا نعلم أنّ هارون خَلَفَ موسى في حياته عند غيبته ، ولم يخلفه بعد موته ، لأنّه توفيّ قبل أخيه موسى ، فلا يسعنا أن نثبت بهذا الحديث خلافة أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم !

نقول في جوابه : نثبت بحديث المنزلة هذا جميع منازل هارون من موسى لأمير المؤمنين من رسول الله ؛ ونلاحظ هنا ثبوت وصفين لهارون : أحدهما تعليقي ، والآخر تحقيقيّ .

والتعليقيّ هو أن نقول : إنّ أحد مقامات هارون هو أنّه لو كان حيّاً ، لخلف موسى بعد وفاته . ويثبت هذا الوصف التعليقيّ لعليّ بن أبي طالب أيضاً . أي : إذا كان حيّاً ، فإنّه يخلف رسول الله بعد وفاته . غاية الأمر أنّ موضوع هذه القضيّة الشرطيّة لم يتحقّق في هارون ، أي : لم يكن حيّاً . وتحقّق في عليّ بن أبي طالب ، إذ كان حيّاً . وقال المناطقة جميعهم : لا يناط صدق القضيّة الشرطيّة بصدق المقدّم وشرطه . فمتى وجد المقدّم والشرط ، وجد الجزاء والتالي ، والعكس هو الصحيح . ومجيء الجملة الشرطيّة أو عدم مجيئها لا يرتبط بصدق أصل القضيّة أبداً ، إذ القضيّة صادقة في كلّ حال ، فلو وُجد الشرط ، تحقّق الجزاء ؛ وإذا لم يوجد ، لم يتحقّق .

ونريد بالوصف التعليقيّ هو أنّ خلافة هارون على التسليم ببقائه حيّاً هي لأمير المؤمنين . ولم يتحقّق شرط هذه القضيّة في هارون ، فلم يكن خليفة ، بَيْدَ أنّه تحقّق في عليّ بن أبي طالب ، فصار خليفة .

وضرب الشيخ الصدوق مثالاً حلواً لطيفاً صحيحاً يفيدنا في الوقوف على حقيقة هذا المطلب . قال : لو أنّ الخليفة قال لوزيره : لزيد عليك في كلّ يوم يلقاك فيه دينار ! ولعمرو عليك مثل ما شرطتُه لزيد ! فقد وجب لعمرو مثل ما لزيد .

فإذا جاء زيد إلى الوزير ثلاثة أيّام فأخذ ثلاثة دنانير ؛ ثمّ انقطع ولم يأته ؛ أتى عمرو الوزير ثلاثة أيّام فقبض ثلاثة دنانير ؛ فلعمرو (الحقّ) أن يأتي يوماً رابعاً وخامساً وأبداً وسرمداً ما بقي عمرو (حيّاً) . وعلى هذا الوزير ما بقي عمرو أن يعطيه في كلّ يوم أتاه ديناراً ، وإن كان زيد لم يقبض من الوزير شيئاً إلّا ثلاثة أيّام .

وليس للوزير أن يقول لعمرو : لا أُعطيك إلّا مثل ما قبض زيد ، لأنّه كان في شرط زيد أنّه كلّما أتاك فأعطه ديناراً ! ولو أتى زيد (أكثر من تلك الأيّام الثلاثة) لقبض (دنانير أُخرى) ، وفعل هذا الشرط لعمرو وقد أتى (إلى الوزير) ، فواجب (على الوزير) أن يعطيه دنانير أُخرى .

فكذلك إذا كان في شرط هارون الوصيّ أن يخلف موسى عليه السلام على قومه . ومثل ذلك لعليّ ، فبقي عليّ على قومه ومثل ذلك لعليّ عليه السلام ، فواجب أن يخلف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في أُمّته نظير ما مثّلناه في زيد وعمرو ؛ وهذا ما لابدّ منه ما أعطى القياس حقّه [٧٩] .

أمّا الوصف التحقيقيّ فهو أنّ خلافة هارون كانت في حياته على سبيل التحقيق ، وهي محقّقة لأمير المؤمنين عليه السلام .

أي : أنّ هارون كان خليفة في حياة موسى تحقيقاً وفعلاً ؛ وقد انقطعت هذه الخلافة بموته قبل موت موسى ، فخُتم أمرها . وكان أمير المؤمنين عليه السلام خليفة أيضاً في حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تحقيقاً وفعلاً ؛ واستمرّت هذه الخلافة باستمرار حياته بعد ممات رسول الله . فلهذا كان خليفته ، وكان إماماً ووالياً على الأُمّة بعد وفاته .

ولا يخفى أنّ هذين الوصفين التعليقيّ والتحقيقيّ وصفان ثابتان من أوصاف هارون وأمير المؤمنين . وكلّ واحد منهما على حدة يمكن أن يكون في قياس ولاية أمير المؤمنين وبرهانها . والفرق بينهما في التعليق والتحقيق فحسب ، وإن كان منبعهما واحد . ويعني التعليق تعليق خلافة هارون على حياته بعد موسى . أمّا التحقيق فيعني تحقيق وصف خلافته في حياة موسى .

ويستفاد كلّ واحد من هذين الوصفين من حديث المنزلة لأمير المؤمنين عليه السلام .

وإذا قال قائل كيف يُعْلَمُ أنّ هارون ــ على التسليم ببقائه حيّاً بعد وفاة موسى ــ يخلف موسى ؟

ونقول في الجواب : هذه الاستفادة هي من مقامات هارون ودرجاته . فقد كان نبيّاً ، وكان أفضل أهل زمانه بعد موسى ، وأوثق الناس عنده ، وكان نائبه في جميع العلوم .

هذه المنازل والمقامات مشهورة لهارون . وإذا أنكر شخص واحداً منها ، فقد أنكرها كلّها . وعلى هذا ، فإنّ خلع هارون من مقام الخلافة بعد ثبوتها لابدّ أن يكون لمنقصةٍ أو جهالةٍ أو ضلالةٍ بدرت منه ؛ ولا يجوز عروض هذه العوارض على النبيّ .

ولذلك فإنّ ممّا لا شكّ فيه هو أنّه لو كان بقي حيّاً بعد وفاة موسى ، لَخَلَفَهُ [٨٠] .

إنّ هذا البحث الذي ذكرناه هنا يمثّل حقيقة الموضوع ، كما يمثّل جواباً عن الشبهات الواهية التي يثيرها المخالفون .

وأمّا ما ذكره الشيخ الصدوق في جواب هذه الشبهة القائلة بأنّ النبيّ جعل هذه المنزلة لعليّ في حياته ، فلا يتمّ إذ تثار عليه بعض الإشكالات .

قال : فثبت أنّ المراد من المنزلة التي جعلها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السلام في حديث المنزلة ، هي المنزلة التي جعلها له بعد وفاته ، لا في حياته .

وانبرى بعد شرح وتفصيل طويلين إلى إثبات ذلك بدليلين :

الأوّل : لمّا حصل نفي النبوّة في قوله : إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي بسبب الفضيلة والمنزلة التي كانت توجب النبوّة ، فإنّ نفي النبوّة عن عليّ ينبغي أن يكون في الوقت الذي جعلت فيه تلك الفضيلة له كما لهارون ؛ ولمّا كان نفي النبوّة عنه بعد وفاة رسول الله ، فلا يمكن أن تكون هذه المنزلة لعليّ في حياته ، لأنّ ذلك من لغو الكلام ، إذ نجعل قوله : أَنْتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى في حياة رسول الله . فقوله : إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي كان بعد وفاته ، ولابدّ أن يجتمع المستثنى والمستثنى منه في زمان واحد .

الثاني : كان استثناء النبوّة بعد الحياة ، ولو كانت منزلة توجب النبوّة في الحياة ، للزم أن يكون عليّ نبيّاً في حياة رسول الله ، وهذا أمر فاسد .

وإن قال قائل : إنّ المراد من قول رسول الله : بعدي ، أي : بعد النبوّة ، لا بعد الوفاة . وهذا سهو ؛ لأنّه يلزم من الخبر الذي رواه المسلمون أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدَ مُحَمّدٍ صَلّى الله عليه وآله وسلّم من أنّه لا نبيّ في حياة رسول الله ، ولكن لا إشكال في أن يكون بعد وفاته أنبياء [٨١] .

ومني الشيخ الطبرسيّ أيضاً بسهو آخر في الاستدلال ، فقد قال في الوجه الثاني من استدلاله بهذا الحديث : لمّا دلّ قوله : بعدي على ما بعد وفاة رسول الله ، فإنّ هذا الخبر يدلّ على ثبوت جميع منازل هارون لأمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله . لأنّ الاستثناء (في الخبر دلّ) على أنّ ما لم يستثنه حاصل لأمير المؤمنين عليه السلام بعد

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . [إذ] إنّ الاستثناء إذا كان مطلقاً [فإنّه] يوجب ثبوت ما لم يستثن مطلقاً ، فكذلك إذا قيّد بحال أو وقت أن يوجب ثبوت ما لم يستثن في ذلك الوقت وفي تلك الحال ، ألا ترى أنّ قول القائل : ضربت أصحابي إلّا أنّ زيداً في الدار يدلّ على أنّ ضربه أصحابه كان في الدار [٨٢] .

وسها ابن شهرآشوب أيضاً كهذا السهو ، إذ قال : ... ولأنّ الحال التي ينفى المستثنى فيها يجب أن يثبت المستثنى منه لوجوب المطابقة بينهما .

وإذا نفى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالاستثناء النبوّة بعد وفاته ، وجب أن يكون ما عداها ثابتاً في تلك الحال [٨٣] .

يكمن سهو هؤلاء العظماء في أنّهم فسّروا كلمة بعدي بما بعد وفاة رسول الله ؛ فلهذا اضطُرّوا إلى أن يفسّروا صدر الحديث أيضاً في ذلك الوقت . وتُسجّل على هذا الفهم إشكالات كثيرة ، منها : أنّ كلمة (بعد) مطلقة سواء كانت في الحياة أو في الممات . لأنّنا إذا فسّرناها بما بعد النبوّة ، فلا يجب الإشعار بجواز مجيء نبيّ بعد الممات ، بل إنّ إطلاقها ينفي مجيء أيّ رسول . وإذا كانت جملة المستثنى مطلقة ، فلا ضير أن تكون جملة المستثنى منه مقيّدة . كأن نقول : أكرمت أصحابي كافّة إلّا زيداً في الدار . وهذا لا يُشعر أنّ إكرام الأصحاب كلّهم كان في الدار .

ويضاف إلى ذلك كلّه أنّ ممّا لا شكّ فيه هو صدور هذا الحديث عند التحرّك إلى تبوك ؛ وهذا ما أجمع عليه الفريقان . وحينئذٍ كيف يمكننا أن نثبت انتصاب أمير المؤمنين على المدينة بهذا الحديث في الوقت الذي نرى أنّ مفاده ومعناه المتمثّلين بالمنزلة كانا بعد رسول الله ؟! ويشعرنا هذا الحديث مبدئيّاً أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان كهارون مطلقاً له مناصب ومقامات في عصر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ وكان الشخص الثاني في عالم النبوّة والرسالة . وهذا المعنى المستفاد من الحديث يتنافى مع منازله بخصوص الزمان الذي تلا وفاة رسول الله .

ولو قال قائل بعد جميع هذه النصوص والتصريحات النبويّة في نصب وتعيين أمير المؤمنين في مقام الخلافة ، ومنحه المنزلة الهارونيّة : كيف يمكن أن نخالف هذه النصوص ؟ وكيف يسوغ لنا أن نعزل عليّاً في بيته ؟ وكيف يجوز أن نغصب حقّه الثابت المسلّم ؟ وكيف نتصوّر أنّ معظم الناس تمرّدوا على بيعته بعد وفاة رسول الله ؟

والجواب هو ما تفضّل به أُستاذنا الأكرم العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه في تعريف الشيعة على سبيل الإجمال :

«توصّلت الشيعة إلى هذه النتيجة المتمثّلة بوجود النصّ الكافي الصادر عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم بشأن تعيين الإمام والخليفة بعده عبر البحث والتنقيب في الإدراك البشريّ الفطريّ ، وسيرة ذوي الألباب من بني آدم ، والتعمّق في النظرة الجوهريّة للدين

الإسلاميّ المتجسّدة في إحياء الفطرة ، والنهج الاجتماعيّ للنبيّ الأكرم ، ودراسة الحوادث المؤسفة الواقعة بعد وفاته ، والملمّات والخطوب التي نزلت بالإسلام والمسلمين ، والتي تعود إلى تقصير وإهمال الحكومات الإسلاميّة في القرون الأُولى من الهجرة . ودلّت الآيات والأخبار المتواترة على هذا المعنى كآية الولاية ، وحديث الغدير ، وحديث السفينة ، وحديث الثقلين ، وحديث الحقّ ، وحديث المنزلة ، وحديث دعوة العشيرة الأقربين ، وغيرها . بَيدَ أنّها أُوّلت وعُمّيَ عليها لمآرب معيّنة [٨٤] » .

والجواب أيضاً هو ما ذكره ابن مكّي النيليّ في أشعاره ، إذ لو كان الإجماع صحيحاً ، فإنّهم أجمعوا دائماً على مكابرة الحقّ وإبطاله . وقال في الردّ على بيتَي يوسف الواسطيّ الذي قدح في أمير المؤمنين عليه السلام لتخلّفه عن بيعة السقيفة بعد رسول الله :

أَلَا قُلْ لِمَنْ قَالَ فِي كُفْرِهِ
وَرَبّي عَلَى قَوْلِهِ شَاهِدُ
(إِذَا اجْتَمَعَ النّاسُ في وَاحِدٍ
وَخَالَفَهُمْ فِي الرّضَا واحِدُ
فَقَدْ دَلّ إِجْمَاعُهُمْ كُلّهِمْ
عَلَى أَنّهُ عَقْلُهُ فَاسِدُ)
كَذَبْتَ وَقَوْلُكَ غَيْرُ الصّحِيحْ
وَزَعْمُكَ يَنْقُدُهُ النّاقِدُ
فَقَدْ أَجْمَعَتْ قَوْمُ مُوسَى جَمِيعاً
عَلَى العِجْلِ يَا رِجْسُ يَا مَارِدُ
وَدَامُوا عُكُوفَاً عَلَى عِجْلِهِمْ
وَهَارُونُ مُنْفَرِدٌ فَارِدُ
فَكَانَ الكَثِيرُ هُمُ المُخْطِئُونَ
وَكَانَ المُصِيبُ هُوَ الوَاحِدُ [٨٥]

ونروم هنا أن نختم هذا الجزء من «معرفة الإمام» بحول الله تعالى وقوّته . وكم يناسب المقام أن نترنّم بأبيات القاضي الجليس :

حُبّي لِآلِ رَسُولِ اللَهِ يَعْصِمُنِي
مِنْ كُلّ إِثْمٍ ، وَهُمْ ذُخْرِي وَهُمْ جَاهِي
يَا شِيعَةَ الحَقّ قَوْلِي بِالوَفَاءِ لَهُمْ
وَفَخِرِي بِهِمْ مَنْ شِئْتُ أو بَاهِي
إِذَا عَلِقْتُ بِحَبْلٍ مِنْ أَبِي حَسَنٍ
فَقَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلٍ في يَدِ اللَهِ

حَمَى الإلَهُ بِهِ الإسْلَامَ فَهْوَ بِهِ
يُزْهِي عَلَى كُلّ دِينٍ قَبْلَهُ زَاهِ
بَعْلُ البَتُولِ وَمَا كُنّا لِتَهْدِيَنَا
أَئِمّةٌ مِنْ نَبِيّ اللَهِ لَوْلَا هِي
نَصّ النّبِيّ عَلَيْهِ فِي الغَدِيرِ فَمَا
زَوَاهُ إِلّا ظَنِينٌ دِينُهُ وَاهِ (٨٦)

والحمد للّه وله المنّة ، إذ تمّ هذا الجزء من كتاب «معرفة الإمام» وهو الجزء العاشر منه . وكلّه يدور حول حديث المنزلة . وفرغت منه لخمس وعشرين ليلة خلون من شهر جمادى الأُولى سنة ألف وأربعمائة وسبع من الهجرة ، على هاجرها ووصيّ هاجرها آلاف التحيّة والسلام .

اللَهُمّ صَلّ عَلَى مُحَمّدٍ نَبِيّنَا وَآلِهِ كَمَا صَلّيْتَ عَلَى مَلَائِكَتِكَ المُقَرّبِينَ ! وَصَلّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلّيْتَ عَلَى أَنْبِيَائِكَ المُرْسَلِينَ ! وَصَلّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصّالِحِينَ ! وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبّ العَالَمِينَ ؛ صَلَاةً تَبْلُغُنَا بَرَكَتُهَا ، وَيَنَالُنَا نَفْعُهَا ، وَيُسْتَجَابُ لَهَا دُعَاؤُنَا ، إِنّكَ أَكْرَمُ مَنْ رُغِبَ إِلَيْهِ ؛ وَأَكْفَى مَنْ تُوُكّلَ عَلَيْهِ وَأَعْطَى مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨٧) !

تعليقات:

١) الآيتان ١٥٠ و ١٥١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢) روى العلّامة الطباطبائيّ في تفسير «الميزان» ج ٢ ، ص ١٤٩ في ذيل الآية الكريمة : كان الناس أُمّةً و احدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه نقلاً عن «معاني الأخبار» و «الخصال» ، عن عتبة الليثيّ ، عن أبي ذرّ رحمه الله قال : قلتُ : يا رسول الله ! كم النبيّون ؟ قال : مائة وأربعة وعشرون ألف نبيّ ! قلتُ : كم المرسلون منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً ! قلتُ ! من كان أوّل الأنبياء ؟ قال : آدم ! قلتُ : وكان من الأنبياء مُرسلاً ؟ قال : نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه . ثمّ قال : أربعة من الأنبياء سريانيّون : آدم ، وشيث ، وأُخنوخ وهو إدريس وهو أوّل من خطّ بالقلم ، ونوح . وأربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيّك محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم . وأوّل نبيّ من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وستمائة نبي ! قلت : كم أنزل الله تعالى من كتاب ؟! قال : مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة ، وأنزل التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان .

وقال في ص ١٤٦ : اعلم أنّ سادات الأنبياء هم أُولو العزم . وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم . قال تعالى : فاصبر كما صبر أُولو

العزم من الرّسل (الأحقاف ، آية ٣٥) . وسيجيء أنّ معنى العزم فيهم الثبات على العهد الأوّل المأخوذ منهم وعدم نسيانه . قال تعالى : وإذ أخذنا من النبيّين ميثقهم ومنك ومن نوح وإبر هيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا (سورة الأحزاب ، الآية ٧) . وقال تعالى : ولقد عهدنا إلى ءَادم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا (سورة طه ، الآية ١١٥) .

٣) الآيات ٧٧ إلى ٧٩ ، من السورة ٢٠ : طه .

٤) الآية ١٣٨ من السورة ٧ : الأعراف .

٥) تفسير «الميزان» ج ٨ ، ص . ٢٦٦

٦) ويتحصّل من هنا أنّ ما يقوم به بعض الناس من العوامّ ، إذ يسمّرون خرقة على بعض الأشجار القديمة كالسدر ويقفلونها ، من الآداب الجاهليّة ونموذج من بقايا آثار الصنميّة .

٧) تفسير «الميزان» ج ٨ ، ص . ٢٦٦

٨) ينبغي أن يعلم أنّ «الأيمن» في قوله تعالى : وَوَاعَدْنَكُمْ جَانِبَ الطّورِ الْأَيْمَنَ صفة لجانب لا للطور ؛ أي : الجانب الأيمن من جبل الطور ، وهو جانب مبارك ميمون لا جانب جبل الطور الذي هو جبل مبارك .

٩) الأية ١٥٤ ، من السورة ٦ : الأنعام : ثُمّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ تَمَامًا عَلَى الّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لّكُلِ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لّعَلّهُم بِلِقَآءِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُونَ . والآية ١٤٥ ، من السورة ٧ : الأعراف : وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِ شَىْءٍ مّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لّكُلِ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَسِقِينَ .

١٠) الآيات ٨٠ إلى ٨٢ من السورة ٢٠ : طه .

١١) الآيات ٨٣ إلى ٩٤ من السورة ٢٠ : طه .

١٢) الآية ١٥١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

١٣) الآيتان ٩٥ و ٩٦ من السورة ٢٠ : طه .

١٤) إنّ ما أوردناه هنا من التفسير هو أحد الاحتمالات التي ذكرها العلّامة الأُستاذ الطباطبائيّ رضوان الله عليه في تفسير «الميزان» ج ١٤ ، ص ٢١٢ و . ٢١٣ وذكرناه لقلّة الإشكالات المثارة عليه قياساً بالمثارة على سائر الاحتمالات كالاحتمال القائل إنّ المراد من الأثر أثر فرس جبرائيل عند الخروج من البحر ، أو القائل إنّ المراد هنا آثار رسالة موسى .

١٥) الآيتان ٩٧ و ٩٨ ، من السورة ٢٠ : طه .

١٦) الميزان» ج ١٤ ، ص . ٢١٣

١٧) كالجمل الذي يجعل العود في عظم أنفه عرضاً . وأيّد ابن أبي الحديد ذلك في «شرح نهج البلاغة» ج ٣ ، ص ٤٥٥ إلى ٤٥٧ في سياق بيان مطلب عن أبي جعفر النقيب يحيى بن زيد ، وذلك ضمن رسالة بعثها معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام . وقال العلّامة الأمينيّ في هامش ص ٧٨ من الجزء السابع من «الغدير» : ذكر هذه الجملة (كالجمل المخشوش) صاحب «العقد الفريد» ص . ٢٨٥ و«صبح الأعشى» ج ١ ، ص ٢٢٨ ؛ و «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ج ٣ ، ص . ٤٠٧

١٨) شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ١٣٤ ، وكذلك ج ٢ ، ص . ١٩ وقال الشريف المرتضى في «تلخيص الشافي» ج ٣ ، ص ٧٦ حول بيعة أمير المؤمنين عليه السلام أنّه لم يبايع طائعاً راغباً ، بل مكرهاً مضطرّاً : روى البلاذريّ ، عن المدائنيّ ، عن مَسْلَمة بن محارب ، عن سليمان التميميّ ، عن أبي عون ، قال : إنّ أبا بكر أرسل إلى عليّ عليه السلام يريده على البيعة ، فلم يبايع ــ وكان مع عمر قبس ــ فتلقّته فاطمة عليها السلام على الباب ، فقالت : يا ابن الخطّاب ! أتراك محرّقاً عَلَيّ بابي ؟! قال : نعم . وذلك أقوى فيما جاء به أبوك . وجاء عَلِيّ عليه السلام فبايع . وهذا الخبر قد روته الشيعة من طرق كثيرة . وإنّما الطريق أن يرويه شيوخ محدّثي العامّة . لكنّهم كانوا يروون ما سمعوا بالسلامة ؛ وربما تنبّهوا على ما في بعض ما يروونه عليهم ، فكفوا منه . وأيّ اختيار لمن يحرق عليه بابه حتّى يبايع ؟ وروي إبراهيم بن سعيد الثقفيّ : قال : حدّثني أحمد بن عمرو البجليّ ، قال : حدّثنا أحمد بن حبيب العامريّ ، عن حمران بن أعين ، عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد قال : والله ما بايع عليّ حتّى رأى الدخان قد دخل بيته .

١٩) الإمامة والسياسة» ج ١ ،ص ١٤ ، طبعة مصر سنة ١٣٢٨ ه وقال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج ١١ ، ص ١١١ : روى كثير من المحدّثين أنّه عقيب يوم السقيفة تأ لّم وتظلّم واستنجد واستصرخ حيث ساموه الحضور والبيعة ، وأنّه قال وهو يشير إلى القبر : يا بن أُمّ ! إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني .

وقال الشريف المرتضى علم الهدى في «تلخيص الشافي» ج ٣ ، ص ٧٩ و ٨٠ من طبعة النجف ، في سياق بحثه حول بيعة أمير المؤمنين عليه السلام أبا بكر أنّها لم تكن اختياريّة : وروى إبراهيم عن عثمان بن أبي شيبة ، عن خالد بن مخلد البجليّ قال : داود بن يزيد الأوديّ ، عن أبيه ، عن عديّ بن حاتم ، قال : إنّي جالس عند أبي بكر ، إذ جيء بعليّ عليهالسلام ، فقال له أبو بكر : بايع ! فقال له عليّ : فإن أنا لم أُبايع ؟ قال أبو بكر : أضرب الذي فيه عيناك ! فرفع عليّ رأسه إلى السماء ، فقال : اللهمّ اشهد ، ثمّ مدّ يده ، فبايعه .

وقد روي هذا المضمون من طرق مختلفة ، وبألفاظ متقاربة المعنى ، وإن اختلف لفظها ، أنّ علياً عليه السلام كان يقول في ذلك اليوم لمّا أُكره على البيعة ، وحذّر من التقاعد

عنها : يا بن أُمّ ! إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . ويردّد ذلك ويكرّره .

٢٠) ذكر البحرانيّ في «غاية المرام» ص ١٣٢ إلى ١٣٤ ، الحديث ٣١ عن الخاصّة ، عن الشيخ الطوسيّ في أماليه الخطبة المفصّلة ذات المحتوى العميق والمضامين العالية ، التي خطبها الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أمام معاوية ، وبيّن فيها جميع فضائل ومناقب أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت إلى أن بلغ قوله الكائن في أواخر الخطبة تقريباً وفي ص ١٣٤ : وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ما ولّت أُمّة أمرها رجلاً قطّ وفيهم من هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتّى يرجعوا إلى ما تركوا . وقد تركت بنو إسرائيل أصحاب موسى هارون أخاه وخليفته ووزيره ، وعكفوا على العجل وأطاعوا فيه سامريّهم وهم يعلمون أنّه خليفة موسى ، وقد سمعت هذه الأُمّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول لأبي عليه السلام : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي .

إلى أن بلغ قوله : وقد كفّ أبي يده وناشدهم واستغاث أصحابه فلم يُغَثْ ولم ينصر . ولو وجد عليهم أعواناً ما أجابهم . وقد جعل في سعة كما جعل النبيّ في سعة . وقد خذلتني الأُمّة وبايعتك يا ابن حرب . ولو وجدت عليك أعواناً يخلّصوك ما بايعتك ! وقد جعل الله عزّ وجلّ هارون في سعة حين استضعفه قومه وعادوه . وكذلك أنا وأبي في سعة من الله حين تركتنا الأُمّة وبايعت غيرنا . ولم نجد عليهم أعواناً . وإنّما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً ــ الخطبة .

ورواها بسند آخر أيضاً في «غاية المرام» ص ١٣٢ ، الحديث ٣٠ بما يماثل هذه العبارات عن الإمام المجتبى عليه السلام .

٢١) بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٦ ، طبعة الكمبانيّ .

٢٢) ديوان الأُزْرِيّ» ص ١٣٧ ، طبعة مطبعة النعمان ، النجف ، سنة ١٣٨٦ ه .

٢٣) ديوان الأُزريّ» ص . ١٤٨

٢٤) ديوان الأُزريّ» ص . ١٥٠

٢٥ــ٢٦) «ديوان الأُزريّ» ص . ١٥٣

٢٧) ديوان الأُزريّ» ص . ١٥٤

٢٨) ديوان الأُزريّ» ص . ١٥٨

٢٩) ديوان الأُزريّ» ص . ١٥٩

٣٠) ديوان الأُزريّ» ص . ١٦٠

٣١) قال الشريف المرتضى علم الهدى في «تلخيص الشافي» ج ٣ ، ص ١٥٦ : وممّا أُنْكِر عليه (على أبي بكر) ضربهم لفاطمة عليها السلام ، وقد روي أنّهم ضربوها بالسياط

. والمشهور الذي لا خلاف فيه بين الشيعة : أنّ عمر ضرب على بطنها حتّى أسقطت ، فسمّي السقط مُحْسِناً ؛ والرواية بذلك مشهورة عندهم ، وما أرادوا من إحراق البيت عليها ، حين التجأه إليها قوم ، وامتنعوا من بيعته . ثمّ قال : وليس لأحد أن ينكر الروايات الواردة بذلك لأنّا قد بيّنا الرواية الواردة من جهة العامّة من طريق البلاذريّ وغيره . ورواية الشيعة مستفيضة به لا يختلفون في ذلك .

٣٢) أنشد الصاحب بن عبّاد قصيدة غرّاء في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وفضائله . وقد اتّخذت كلّها طابع الحوار وأوّلها :

قَالَتْ : فَمَنْ صَاحِبُ الدّينِ الحَنيفِ أَجِبْ ؟
فَقُلْتُ : أحمد خير السّادة الرّسل
قالت : فمن بعده تُصفى الولاء له ؟
قلتُ : الوصيّ الذي أربى على زحلِ
ثمّ قال :
قالت : فيوم حُنين من فرا وبَرا ؟
فقلتُ : حاصد أهل الشرك في عَجَلِ
قالت : فمن شبه هارون لنعرفه ؟
فقلتُ : من لم يَحُل يوماً ولَم يزُلِ
ثمّ قال :
قالَت : أكلّ الذي قد قلتَ في رجلٍ ؟
فقلتُ : كلّ الذي قد قلتُ في رجلِ
قالت : فمن هو هذا الفرد ؟ سمه لنا
فقلتُ : ذاك أمير المؤمنين علي

(«الغدير» ج ٤ ، ص ٤٠ و ٤١) .

٣٣) نحن روينا هذا الحديث مع بقيّة فقراته في هذا الجزء ، عن «غاية المرام» ص ١١٥ و ١١٦ ، رقم ٦٠ ، عن الخوارزميّ في فضائله ؛ وكذلك عن كتاب «المناقب الفاخرة» . وعن طريق الخاصّة ، عن الشيخ الصدوق ؛ وكذلك عن «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤١ و ٢٤٢ ، طبعة الكمبانيّ .

٣٤) الآية ٨٧ ، من السورة ١٠ : يونس : وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصّلَوةَ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ : قال العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه في تفسير هذه الآية الكريمة المباركة ، في «الميزان» ج ١٠ ، ص ١١٧ : التبوّي أخذ المسكن والمنزل ومصر بلد فرعون ، والقبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجِلْسة ، أي : الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره ، فهو مصدر

بمعنى الفاعل . أي : اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي جهة واحدة . وكان الغرض أن يتمكّنا منهم بالتبليغ ، ويتمكّنوا من إقامة الصلاة جماعة كما يدّل عليه أو يشعر به قوله بعده : وَأَقِيمُوا الصّلَوةَ لوقوعه بعده . ثمّ قال : والمعني : وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتّخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر . وكأنّهم لم يكونوا إلى ذلك الحين إلّا كهيئة البدويّين يعيشون في الفساطيط أو عيشة تشبهها . واجعلا أنتما وقومكما بيوتكم متقابلة وفي جهة واحدة يتّصل بذلك بعضكم ببعض ويتمشى أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات ، وأقيموا الصلاة ، وبشّر يا موسى أنت المؤمنين بأنّ الله سينجّيهم من فرعون وقومه .

٣٥) غاية المرام» ص ١٤٣ ، الحديث الثانى والخمسون من الخاصّة .

٣٦) غاية المرام» ص ١٤٢ و ١٤٣ ، الحديث الحادي والخمسون عن الخاصّة : وذكر أحمد بن حنبل غلق أبواب المسجد في مسنده بإسناده المتّصلة عن حذيفة فقال ما نصّه : لمّا قدم أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم (من مكّة إلى المدينة) لم يكن لهم بيوت يبيتون فيها ، فكانوا يبيتون في المسجد فيحتلمون . ثمّ إنّ القوم بنوا بيوتاً حول المسجد وجعلوا أبوابها إلى المسجد ؛ وإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث إليهم معاذ بن جبل ، ونادى أبا بكر فقال : إنّ الله يأمرك أن تخرج من المسجد ! فقال : سمعاً وطاعة . فسدّ بابه وخرج من المسجد . ثمّ أرسل إلى عمر فقال : إنّ رسول الله يأمرك أن تسدّ بابك في المسجد وتخرج منه ! فقال عمر : سمعاً وطاعة ، فسدّ بابه وخرج من المسجد . ثمّ أرسل إلى حمزة فسدّ بابه ، فقال : سمعاً وطاعة للّه ورسوله . وعليّ على ذلك يتردّد لا يدري أهو يقيم أو فيمن يخرج . وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد بنى له بيتاً في المسجد بين أبياته . فقال له النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : اسكن طاهراً مطهّراً . فبلغ حمزة قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ! فقال (لرسول الله) : يا محمّد ! تخرجنا وتمسّك غلمان عليّ بن أبي طالب ؟! فقال النبيّ : لو كان الأمر إليّ ، ما جعلت دونكم من أحد ! والله ما أعطاه إيّاه إلّا الله وإنّك لعلى خير من الله ورسوله ! أبشر ! فبشّره النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقتل يوم أُحُد شهيداً. ونفس ذلك رجال على عليّ فوجدوا في أنفسهم وتبيّن فضله عليهم وعلى غيرهم من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فبلغ ذلك النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم . فقام خطيباً فقال : إنّ رجالاً يجدون في أنفسهم في أن أُسكن عليّاً في المسجد . والله ما أخرجتهم ولا أسكنته . إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى وأخيه : أَن تَبَوّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصّلَوةَ . وأمر موسى أن لا يسكن مسجده ولا ينكح فيه إلّا هارون وذرّيّته وإنّ عليّاً بمنزلة هارون من موسى . وهو أخي دون أهلي . ولا يحلّ مسجدي لأحد ينكح فيه النساء إلّا عليّ وذرّيّته . ومن ساءه فها هنا وأومأ بيده نحو الشام . («غاية المرام» ص ١١٣ ، الحديث ٤٥ عن العامّة) .

ونحن نقلناه في هذا الجزء عن «ينابيع المودّة» عن موفّق بن أحمد الخوارزميّ ، وعن «بحار الأنوار» عن «كشف الغمّة» عن الخوارزميّ أنّ رسول الله قال لأمير المؤمنين : يا عليّ ! إنّه يحلّ لك في المسجد ما يحلّ لي ، وإنّك منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي ــ الحديث .

٣٧) غاية المرام» ص ١٣٥ ، الحديث الرابع والثلاثون عن الخاصّة .

ووروى الخوارزميّ في مناقبه ص ٦٠ ، طبعة النجف ، بسنده المتّصل عن جابر بن عبد الله ، قال : جاءنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ونحن مضطجعون في المسجد وفي يده عسيب رطب . قال : ترقدون في المسجد ؟ قلنا : قد أجفلنا وأجفل عليّ معنا ، فقال رسول الله صلّىالله عليه وآله وسلّم : تعال يا عليّ ، إنّه يحلّ لك في المسجد ما يحلّ لي ! أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبوّة بعدي ؟! والذي نفسي بيده إنّك لذائد عن حوضي يوم القيامة تذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الضالّ عن الماء (البعير المريض المبتلى بالجرب المعدي الذي أُبعد وأُخرج من بين الإبل بسببه) بعصىً لك من عَوْسَج كأنّي أنظر إلى مقامك من حوضي .

٣٨) الآية ٢١٤ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

٣٩) تاريخ دمشق» لابن عساكر ، ج ١ ، ص ٨٩ ، رقم ١٤١ من تأريخ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ و «غاية المرام» للسيّد هاشم البحرانيّ ص ١٣٥ و ١٣٦ ؛ و «مجمع البيان» للطبرسيّ ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ ، طبعة صيدا .

٤٠) كتاب «سليم بن قيس» ص ١٩٩ و . ٢٠٠

٤١) غاية المرام» ص ١١٢ إلى ١١٤ ، الحديث ٤٣ عن العامّة ، عن ابن المغازليّ . وكذلك الحديث ٤٤ ، و ٤٦ و ٤٧ عن العامّة ، عن أحمد بن حنبل ، والحديث ٥٤ عن العامّةعن الخوارزميّ .

٤٢) روى في «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص ١٩٢ ، طبعة حيدر آباد ، عن زيد بن أبي أوفى حديث المؤاخاة مقروناً مع حديث المنزلة . وكذلك نقله صاحب «الغدير» ج ٦ ، ص ٣٣٤ و ٣٣٥ ، عن «مجمع الزوائد» ج ٩ ، ص ١١ ؛ و «المناقب» للخوارزميّ ، ص ٢٢ ؛ و «الفصول المهمّة» لابن صبّاغ ، ص . ٢٢

٤٣) غاية المرام» ص ١٥١ و ١٥٢ ، الحديث ٦٩ ، عن الخاصّة .

٤٤) غاية المرام» ص ١١٦ ، الحديث ٦٤ عن العامّة .

٤٥) غاية المرام» ص ١١٨ ، الحديث ٧٠ عن العامّة .

٤٦) ينابيع المودّة» ج ١ ، ص ٥٥ ، باب ٧ ، الطبعة الأُولى ، إسلامبول .

ووروى البيهقيّ في «المحاسن والمساوى» ج ١ ، من ص ٦٥ إلى ٦٨ حديثاً رفيع المضمون عن ابن عبّاس بسند أبي عثمان قاضي الرّيّ ، عن الأعمش ، عن أبي سعيد

الخُدريّ ، وجاء فيه كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأُمّ سلمة : نَعم ، هذا عليّ ، سِيطَ لَحْمُهُ بلحمي ، ودمه بدمي ، وهو منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي .

٤٧) ذكرنا في التعليقة المثبّتة من هذا الجزء نقلاً عن «القاموس» (ج ٢ ، ص ٥٥) أنشُبّر على وزن بُقّم وشُبّير على وزن قُمّيْر ومُشبّر على وزن مُحَدّث أبناء هارون عليه السلام . وقيل : بهم سمّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الإمام الحسن والإمام الحسين والمحسن .

٤٨) غاية المرام» ص ١٢٧ ، الحديث الخمسون عن الخاصّة .

٤٩) الخِلَاق والخَلُوق ضَرْبٌ من الطّيب أعظم أجزائه الزعفران .

٥٠) غاية المرام» ص ١٣١ ، الحديث ٢٤ ، عن الخاصّة .

٥١) غاية المرام» ص ١٤٢ ، الحديث ٥٠ ، عن الخاصّة ، وروى في الحديث ٤٩ أيضاً رواية أُخرى عن الخاصّة بسند آخر قريب من هذا المضمون عن جابر .

٥٢) كتاب سُلَيمْ بن قَيس» ص ٢٢١ و ٢٢٢ ؛ و «كنز العمّال» ج ١٥ ، ص ١٥٠ ، رقم . ٤٢٨

٥٣) الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٧٨ : النبأ .

٥٤) غاية المرام» ص ١١٩ ، الحديث ٧٩ عن العامّة . ونقل الحديث الوارد عن ابن محمّد بن مؤمن الشيرازيّ تحت الرقم ٧٣ من هذه الصفحة .

٥٥) غاية المرام» ص ١٣٥ ، الحديث ٣٧عن الخاصّة .

٥٦) غاية المرام» ص ١٣٩ ، الحديث ٤٤ ، عن الخاصّة .

٥٧) غاية المرام» ص ١٢٧ ، الحديث السادس ، عن الخاصّة .

٥٨) الزّنج والزّنج طائفة من السود ، يقال للواحد منهم : زنجي .

٥٩) قال الحمويّ في «معجم البلدان» : سِجستان بكسر السين والجيم وسين أُخرى مهملة ، وتاء مثناة من فوق ، وآخره نون . وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة . ذهب بعضهم إلى أنّ سجستان اسم للناحية ، وأنّ اسم مدينتها زَرَنج . وبينها وبين هراة عشرة أيّام ، ثمانون فرسخاً ، وهي جنوبي هراة .

٦٠) غاية المرام» ص ١٢٦ ، الحديث الأوّل عن الخاصّة ؛ وروى الطبرسيّ في «إعلام الورى» ص ٤٢٩ عن سيف بن عميرة ، عن بكر بن محمّد عن الإمام الصادق عليه السلام قال : خروج الثلاثة : السفيانيّ والخراسانيّ واليمانيّ في سنة واحدة ، في شهر واحد ، في يوم واحد ، وليس فيها راية بأهدى من راية اليمانيّ ، لأنّه يدعو إلى الحقّ . وروى عن الحسن بن يزيد ، عن المنذر ، عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قال : يزجر الناس قبل قيام القائم عن معاصيهم بنار تظهر في السماء ، وحمرة تجلّل السماء ،

وخسف ببغداد ، وخسف ببلد البصرة ، ودماء تسفك بها ، وخراب دورها ، وفناء تقع في أهلها ، وشمول أهل العراق خوف لا يكون معه قرار .

٦١) غاية المرام» ص ١٤٤ و ١٤٥ ، الحديث ٥٨ عن الخاصّة .

٦٢) الشافي» للشريف المرتضى ج ١ ، ص ١٤٨ إلى ١٦٧ ، الطبعة الحجريّة ، سنة ١٣٠١ ه .

٦٣) تلخيص الشافي» ج ٢ ، ص ٢٠٦ إلى ٢٣٤ ، طبعة النجف ، سنة ١٣٨٣ ه .

٦٤) معاني الأخبار» ص ٧٤ إلى ٧٩ ، طبعة مطبعة الحيدريّ سنة . ١٣٧٩

٦٥) بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٢ إلى ٢٤٦ ، طبعة الكمبانيّ .

٦٦) الإرشاد» ص ٨٣ إلى ٨٥ ، الطبعة الحجريّة .

٦٧) إعلام الوَرَى بأعلام الهدى» ص ١٧٠ إلى ١٧٢ طبعة مطبعة الحيدريّ .

٦٨) مناقب آل أبي طالب» لابن شهرآشوب ، ج ١ ، ص ٥٢٢ و ٥٢٣ ، الطبعة الحجريّة .

٦٩) دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٢٣ إلى ٢٢٥ ، طبعة النجف .

٧٠) معاني الأخبار» ص . ٧٤

٧١) معاني الأخبار» ص . ٧٤

٧٢) الآيات ٢٥ إلى ٣٤ ، من السورة ٢٠ : طه .

٧٣) الآية ٣٦ ، من السورة ٢٠ طه .

٧٤) الآية ١٤٢ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٧٥) الإرشاد» ص ٨٤ و ٨٥ ، الطبعة الحجريّة . ويستبين ممّا ذكرناه ضعف ووهن ما أورده صاحب «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ١٥١ من تضعيف دلالة هذا الحديث على إمامته . فقال بعد أن نقل حديث المنزلة : إنّ ما ادّعته الرافضة والشيعة من أنّ هذا الحديث نصّ تفضيليّ على خلافة عليّ كرّم الله وجهه من حيث عموم المنزلة واستثناء النبوّة مرفوض بأنّه غير صحيح كما قال الآمديّ ؛ وعلى تسليم صحّته ــ بل صحّته هي الثابتة ، لأنّه في الصحيحين ــ نقول : هو من قبيل الآحاد ؛ وكلّ من الرافضة والشيعة لا يراه حجّة في الإمامة . وعلى تسليم أنّه حجّة ، فلا عموم له ، بل المراد ما دلّ عليه ظاهر الحديث أنّ عليّاً كرّم الله وجهه خليفة عن رسول الله في أهله خاصّة مدّة غيبته بتبوك . كما أنّ هارون كان خليفة عن موسى في قومه مدّة غيبته عنهم لمناجاة ربّه ؛ وعلى تسليم أنّه عامّ لكنّه مخصوص . والعامّ المخصوص غير حجّة في الباقي ؛ أو حجّة ضعيفة ، وقد استخلف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مرار أُخرى غير عليّ . فعلى هذا يلزم أن يكون مستحقّاً للخلافة .

٧٦) دلائل الصدق» ج ٢ ، ص ٢٢٣ و . ٢٢٤

٧٧) دلائل الصدق» ج ٢ ، ص . ٢٢٤

٧٨) استدلّ العلّامة الطوسيّ في «تجريد الاعتقاد» بهذه الرواية على إمامة الإمام ، وقال : ولحديث المنزلة المتواترة . وقال الشارح القوشجيّ في شرحه : نقول في بيان هذا الدليل : إنّ المنزلة اسم جنس أُضيف فيعمّ كما إذا عُرّف باللام ، بدليل صحّة الاستثناء ؛ وإذا استثني منها مرتبة النبوّة ، بقيت عامّة في باقي مناصب هارون عليه السلام التي من جملتها كونه خليفة له ومتولّياً في تدبير الأمر ومتصرّفاً في مصالح العامّة ورئيساً مفترض الطاعة لو عاش بعد موسى عليه السلام ، إذ لا يليق بمرتبة النبوّة زوال هذه المرتبة الرفيعة الثابتة في حياة موسى بوفاته ، إذ قد صرّح بنفي النبوّة ، لم يكن ذلك إلّا بطريق الإمامة . ثمّ انبرى إلى الجواب ، وأراد التغطية على هذه الحقيقة بوجوه موهومة غير صحيحة . منها أنّه قال : هذه الرواية من خبر الواحد (ولا تَصمد) في مقابلة الإجماع (على خلافة الشيوخ الثلاثة) . وقال في آخرها : وبعد اللتيّا والتي لا دلالة لهذا الحديث على نفي إمامة (الخلفاء) الثلاثة قبل عليّ عليه السلام . وظهر بعد البحث الوافي الذي طرقناه أنّ هذا الحديث ليس متواتراً قطعيّ الصدور فحسب ، بل يفوق التواتر . كما إذا أردنا أنّ نمثّل بحديث متواتر ، فينبغي أن نمثّل بهذا الحديث . وما يُضحك أكثر من هذا كلّه هو كلامه الأخير أنّ هذا الحديث يثبت ولاية عليّ وإمامته ، ولا ينافي خلافة الخلفاء الثلاثة المتقدّمين ، لأنّنا نقول أيضاً : عليّ خليفة وإمام ، بَيدَ أنّه في الدرجة الرابعة . ورأينا مثل هذا الكلام المضحك أيضاً في حديث الغدير المتواتر . فَسُبْحَانَكَ مَا أَضْيَقَ الطّرُقَ عَلَى مَنْلَمْ تَكُنْ دَلِيلَهُ .

٧٩) معاني الأخبار» ص ٧٦ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٢٤٢ طبعة الكمبانيّ ، عن الشيخ الصدوق .

٨٠) من عبارات محيي الدين بن عربي التي يرى البعض أنّها دليل على تشيّعه : فصّ الهارونيّة في كتابه «فصوص الحكم» . ولمّا كان بدأ هذا الفصّ بقوله : فصّ حكمةٍ إماميّة في كلمةٍ هارونيّةٍ ، فقد عدّ القاضي نور الله الشوشتريّ ذلك أحد الأدلّة على تشيّعه . وقال السيّد صالح الخلخاليّ أحد طلّاب السيّد أبو الحسن جلوه البارزين في مقدّمة «شرح المناقب الاثني عشر » المنسوب إلى محيي الدين بن عربي : إنّ تفهيم إشعار هذه العبارة بحديث المنزلة يحتاج إلى شرح مفصّل . ثمّ نقل حديث المنزلة المستفيض ، بل المتواتر عن أحمد بن حنبل ، والشيخ المفيد في «الإرشاد» ، وقال : استخرج رؤساء علماء الإماميّة رضوان الله عليهم أجمعين بالجملة برهاناً قاطعاً من هذا الحديث الشريف على خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام . قالوا : إنّ جميع منازل هارون ثابتة للإمام بقرينة عموم المنزلة ووجود استثناء النبوّة بمقتضى هذا الحديث المتواتر . ومن هذه المنازل خلافته لموسى ، فكذلك كانت للإمام خلافته بعد رسول الله بلا فصل من وحي الميزان العامّ لهذا الحديث كما

في هارون لموسى . وقال علماء السنّة والجماعة الذين أجازوا لأنفسهم إطفاء نور هذا البرهان بكلّ ما اتّسموا به من تعصّب ، قالوا في جواب هذا الاحتجاج الواضح : يصحّ إثبات خلافة الإمام بالميزان العامّ لهذا الحديث فيما إذا ثبت وجود الخلافة في هارون نفسه ، فتثبت للإمام مثل هذه الخلافة بالميزان العامّ للمنزلة ، في حين كان هارون شريكاً في نبوّة موسى أصالة وليس خليفة له ، كما قال الشارح القوشجيّ : ولو سلّم فليس من منازل هارون الخلافة والتصرّف بطريق النيابة على ما هو مقتضى الإمامة ، لأنّه شريك له في النبوّة . وقوله : اخلفني ليس استخلافاً ، بل مبالغة وتأكيداً في القيام بأمر القوم . ولمّا استبانت هذه المعلومات نقول : لمّا كان للشيخ العارف هوى في التشيّع ، فإنّه قدّم لنا بكلامه هذا بشارتين مستوحاتين من حديث المنزلة : الأُولى : جعل في ظاهر العبارة إيهاماً بحيث يمكن أن يُفهم منها على سبيل الظنّ أنّ حكمة الطائفة الإماميّة هي في الكلمة الهارونيّة المتمثّلة بحديث المنزلة ولفظ : اخلفني . الثانية : استكشف المقام الهارونيّ الذي صرّح به من خلال لفظ الإمامة ، ودحض إنكارَ علماء الجماعة الخلافةَ الهارونيّة ، وهو ما يمثّل عقيدتهم ، لم يبال بمخالفة تلك الجماعة . («شرح المناقب» ، ص ٤١ إلى ٤٦ الطبعة الحجريّة ، طبعة ١٣٢٢) .

٨١) خلاصة كلام الصدوق في كتاب «معاني الأخبار» ص ٧٦ إلى . ٧٨

٨٢) إعلام الورى» ص ١٧١ و . ١٧٢

٨٣) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٢٣ ، الطبعة الحجريّة .

٨٤) شيعه در اسلام» (الشيعة في الإسلام) للأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ ، ص ١١٣ و ١١٤ ، الطبعة الأُولى ١٣٨٩ ه .

٨٥) الغدير» ج ٤ ، ص . ٣٩٦ وكان ابن مكّي النيليّ من شعراء أهل البيت المعروفين المتفانين في محبّة العترة الطاهرة ومودّتهم . وكان أحد شعراء القرن السادس . توفّي سنة ٥٦٥ ه .

٨٦) الغدير» ج ٤ ، ص . ٣٨٦ أنشد القاضي الجليس هذه الأبيات ضمن قصيدة ذات عشرين بيتاً . والقاضي الجليس هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبيّ . تُوفّي سنة ٥٦١ ه . ويُخال أ نّه لُقب بالقاضي الجليس ، لأنّه كان من ندماء الملك طلايع بن زريّك .

٨٧) وردت هذه الصلوات ضمن الدعاء الخامس والأربعين من أدعية الصحيفة السجّاديّة .

٨٧) وردت هذه الصلوات ضمن الدعاء الخامس والأربعين من أدعية الصحيفة السجّاديّة .